الأعمال الدينية



محمد فريد وجدى

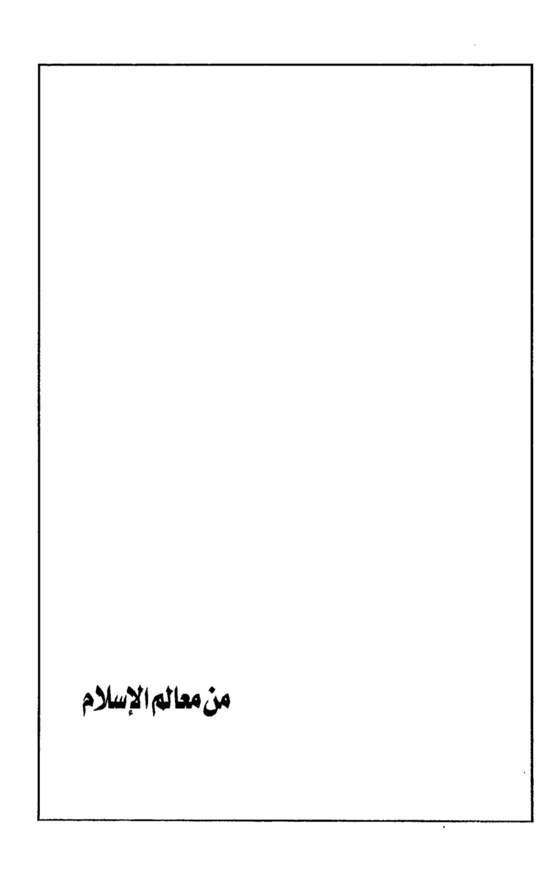
من معالم الإسلام

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

إهـــــــداء2006

ورثة الكيميائي/ محمد فاروق الفران

الإسكندرية


من معالم الإسلام

اسم العمل الفنى : الصلاة   التقنيه : زيت على خشب

مقاس العمل : ٧٨ × ٥٧ سم

رقم السجل : ٥٤٩

محمود سعيد (١٨٩٧ - ١٩٦٤)

رائد التصوير الأول فى الحركة الفنية المصرية الحديثة التى بدأت أول القرن العشرين . مصور حاذق لايهتم كثيرا بالنسيج المساحى ، بقدر ما تعنيه الستاره الناعمه الضوئية للّون فى العنصر المرسوم ، ذا فردانية وعذوبة وعافية ، جعلته متقبلا على أوسع نطاق بين النخبة المثقفة ، وعامة المتذوقين والمشاهدين على السواء .

وقد طرق محمود سعيد كافة الموضوعات دون أن يخالجة التردد ، فقدم عارياته من بين أنماط المصريات البلديات ذوات الشفاه الغليظة ، والخدود المستديرة ، والصدر الملئ ، والأفخاذ المكتنزه ، بنفس القدر الذى دعاه إلى رسم المراكب ذات الأشرعة على نهر النيل ، وكذلك جماعات المصلين الذين أسدل فوق ظهورهم ستائر الخشوع الصوفى حين اختار للوحته الشهيرة تلك ضوءها الدافى المعتم . وسوف يظل من الصعب على المدقق الواعى أن يرى محمود سعيد باعتباره فنانا وصفيا تقليدياً ، إذ أن تصاويره أمكن لها أن تجتاز الزمن حين فجرت القراءات الجديدة المتوالية ينابيعاً فى الحداثة جعلتها تحتل مكانا بارزا لايمحى فى حركة الفن المصرى الحديث جميعه.

أحمد فؤاد سليم

من معالم الإسلام

الكاتب الإسلامى الكبير

محمد فريد وجدى

طبعـــة خاصـــة

تصدرها الدار المصرية اللبنانية

ضمن مشروع مكتبة الأسرة



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الدينية)

من معالم الإسلام
الكاتب الإسلامى الكبير العلامة

محمد فريد وجدى

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى
المشرف العام :
د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

« معالم الإسلام »
دراسة تحليلية لفصول الكتاب
(بقلم الدكتور محمد رجب البيومى)

– ١ –

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد عن الأستاذ محمد فريد وجدى [١] :

« هو فريد عصره غير مدافع ، وتلك كلمة مألوفة طالت أُلْفتها حتى رثّت وبليت ، وأصبحت حروفاً بغير معنى ، ولطالما قيلتْ عن عشرات من حملة الأقلام فى عصر واحد ، كلهم فريد عصره ، وكلهم واحدٌ من جماعة تعدّ بالعشرات ، فلا معنى لها في باب العدد ، ولا فى باب الصّفات ، ولاسيما صفات الرّجحان والامتياز ، إلا أنّنا نقولها اليوم عن فريد وجدى لنعيد إليها معناها الذى يصدق على الصفة حرفا حرفا ، ولا ينحرف عنها كثيرا ولا قليلا ، حتى فى لغة المجاز .

فقد عرفنا فى عصره طائفةً غير قليلة من حملة الأقلام ، ورجال الحياة العامّة ، فلم نعرفْ أحداً منهم يماثله في طابعه الذى تفرّد به فى حياته الخاصّة والعامة ، وفى خُلُقه أو تفكيره ، وفى معيشته اليوميّة أو معيشته الروحية . وأوجزُ ما يقال عنه فى هذه الحالات جميعها أنّه لم يُخلق فى عصره مَن يتقارب المثل الأعلى والواقع المشهود فى سيرته ، كما يتقاربان فى سيرة هذا الرجل الفريد ! نعم الفريدُ حتّى فى لغة الجناس ، لأن اسمه فريد ، والفريد حتى فى عزلته ، لأنّه كان فى عُزلة النسّاك والرهبان ، عليماً غاية العلم بالتحليل والتحريم » .

ثم قال الأستاذ العقاد فى ختام حديثه :

« رحم الله ذلك القلب الطهور ، وذلك الروح الكريم ، وذلك الخُلق الفريد ، إن يكن اليوم لا يُذكر حقّ ذكراه فما هو بالقُصور ولا بالخمول ، ولكنّه يعيش فى عزلةٍ من دُنيا التاريخ ، كما عاش أيّامَهُ فى عزلةٍ من دُنيا الحياة » .

---

(١) رجال عرفتهم – للأستاذ العقاد ص ١٤٧ – المكتبة العصرية بيروت .

ومن يعرف طابع العقاد فى الكتابة عن المعاصرين ، يدركُ كم كانَ الكاتب الكبير يمتلىء شعورا بعظمةِ الأستاذ محمد فريد وجدى ، إذ أنّ العقاد حين يتحدثُ عن عالم من علماء الفكر ممن شهدهم فى زَمنه . يضيفُ إلى مآثره ما يراهُ من نقداتٍ علمية أو خلقية تتعلقُ به ، وهو فى ذلك يرعى حق التاريخ من ناحية ، ويعرفُ أنّ كلامه يوزن وزنا بالقسطاس المستقيم فلا يحيلُ به إلى الزيادة أو النقصان ، وحين كتبَ عن الأستاذ وجدى بهرهُ أنّه لم يجدْ فى عصرِه من يتقارب المثل الأعلى والواقع المشهود فى سيرته كما يتقاربان فى سيرة الرجل الفريد ، كما صعب على العقاد أن يذكُر الناس من أهل الفكر مَنْ لم يبلغوا معشار ما بلغه الأستاذ وجدى فى عالم المعرفة الأصيلة ، ثم يعيشُ في عزلةٍ من دنيا التاريخ كما عاشَ أيامه فى عزلة الحياة ! وهى عجيبةٌ حقّا ، ولكنّ تعليلها قريبٌ ملحوظ ، فصاحب القمم الرفيعة فى سلوكه العملى ونتاجه العلمى مهيبٌ مخوف ممّن يحاول دراسته على وجهها الصحيح ، فالناس مع تقديرهم إيّاه ، يروْن ما فى نفوسهم نحوَه أقلّ مما يستطيعون الحديث عنه من ميادينه المتّسعة . فيرجئون الحديث عنه حتى يستطيعوا استيعابَ ما يريدون ، وتمرّ الأيام وراء الأيام ، وهم لا يجدون في طوقهم ما يأملون ، فيتركون القمة العالية إلى ما دونَها ، وذلك خطأٌ واضح ، إذ على كلّ مخلصٍ للحقيقة أن يُسعف التاريخ العلمى بما يقدِر عليه من الثمار ، ولا يشينه فى شىء أن يقتصر على نَاحية دون ناحية ، لأن حديثه المحدود سيجد من يجعله نقطةَ بدءٍ ينطلق منها إلى حلقة جديدة ، وبذلك تتمّ السلسلة الممتدة على أيدى أفراد لا على يد فرد واحد .

ولكىْ نُلم ببعض حلقات هذا الرجل الكبير نذكر أنّه كان المدافع الأول عن حوزة الإسلام فى ميدان الفكر المعاصر بأقْوى ما يملكه الباحث من سلاح ، لأنّ القدرَ قد وجهه منذ نشأته وقبل أن يبلغ العشرين من عمره إلى ريادة هذا الميدان متّخذاً عدّته من ثقافة الماضى والحاضر معا ، ثقافةِ الماضى فى كتب التراث الإسلامى على مدّ القرون المتطاولة منذ ظهر التأليف العلمى بين الناس ، وثقافة الحاضر فيما حملته الأفكار الأوربّية من نظرياتٍ علمية وأصول فكرية ، تتلاقَى وتختلف ، وتتعارض وتتماثل ، وهى فى كلّ ذلك تؤثر الهجومَ على تراث الإسلام ، جاهلةً حقيقته تارةً ،

ومتجنيةً عليه عن معرفة بحقيقته تارة أخرى ، ونحن نعلم أن الأستاذ الإمام محمد عبده رضى الله عنه كان الفارس الأول فى هذا المجال ، إذ تصدَّى لشكوكِ المفترين بأفكارهم من دهاقين الغرْب ، تصدِّىَ من يقرع الحجة بالحجة ويصد الدليل بالدليل ، ثم لقىَ الإمام ربّه ليخلفه أناسٌ يسيرون على دربه مُقاربين أو مُباعدين ، وفى طليعتهم الأستاذ محمد فريد وجدى ، ومن المدهش أن يكتب كثيرٌ من الباحثين عَنْ مدرسة الإمام فيذكرون كثيراً من الأسماء صادقين . ولكنّهم يتركون الاسم الأول الذى يجب أن يذكر عن حقٍّ واثق لا يتطّرق إليه الريب . وهو اسم الكاتب الكبير الأستاذ محمد فريد وجدى . ولكى أمحو من ذهن القارئ كل بادرة للشّك فيما أقول ، أذكُر أنّ تلميذَ الإمام الأول صاحب المنار ، ومؤرّخ حياته ، ومُسجّل دروسه وطابع كتبه وناشر أفكاره السيد محمد رشيد رضا ، قد تحدّث عن الأستاذ محمد فريد وجدى وهو شابٌ لم يبلغ الثلاثينَ مُقارناً بالأستاذ الإمام وهو فى أوج قمّته وتألق مجده ، فَوازَنَ بيْن كتاب (رسالة التوحيد) للأستاذ الإمام ، وكتاب « المدنية والإسلام » للأستاذ محمد فريد وجدى قائلا [1] :

« كَفى هذا الكتاب شرفاً أنّنا جعلناه ثانى كتاب رسالة التوحيد ، التى لم يُؤَلَّفْ قبلها فى الإسلام قط ، ولعَمرى أن مؤلّفه الفاضل – يريدُ الأستاذ وجدى – جَرى على آثار الأستاذ فى الرسالة أسلوباً وبحثاً ، ولا يعيبه أنّه لم يبلغ شأوه بلاغةً وتحقيقا وتحريرا ، فالأستاذُ حكيم الأمة فى هذا العصر ، وأبلغ كتّاب العرب أجمعين ، على أنّ فى الكتابِ من الفوائد الكثيرة ، ما لَيْسَ فى الرسالة ، كما أنّ فيها ما ليسَ فيه ، فلا يستغنىَ بأحدهما عن الآخر ، ومما يمتاز به الكتابُ سهولة التناول ، فيتسنّى لجميع طبقات الناس فهمه » .

ولقد انتقل الأستاذ الإمام إلى رحمة الله بعد صدور هذا المقال بستّ سنوات ، إذ لقى ربه فى سنة ١٩٠٥ ، وحاول تلاميذه المخلصون أن يقتفوا أثره فى إيضاح محاسن الإسلام ، وردّ شبهات المناوئين ، وكان فريد وجدى فارسَ الحلبة الأول . لأنّ كثيرا من تلاميذ الإمام قد اقتصروا على كتب التراث وحدها ، ولم يُتح لهم

---

(١) مجلة المنار – السنة الثالثة ١٩ / ٤ / ١٨٩٩ .

أن يقرءوا شبهاتِ المهاجمين فى لغتها الأوربية ، كما لم يُتحْ لهم أن يرصدوا التيار الفكرى المتدافع فى أوربا بما تجدُّ من نظريات ، أو تناقش من فروض ، فكانَ الأستاذ وجدى بثقافته الواسعة محيطاً بما يصطرع فى أوربا من مذاهب عقلية ، قد لا تمسُّ الدينَ مساً مباشراً ، ولكنها ذات أصول تمتد إلى فنون البحث العلمى ، ويتّخذ منها الذين لا يقفون على أصول الإسلام فى كتبهِ المعتمدة معاولَ للهدم . بدلَ أن يتّئدوا ليعرفوا ما لَديهم قبل أنْ يناوئوه ، أجْل ، كان الأستاذ وجدى رحمه الله بطلَ الموقف فى أحْلَكِ سَاعاته ، وأقول فى أحْلَكِ ساعاته ، لأنّ انتصارَ انجلترا وفرنسا فى الحرب العالمّية الأولى قد بهَر النّاس بحضارة الغرب ، وفيهمْ من جَعل هذه الحضارةَ أساسَ الرقى الإنسانى ، وليته وقَفَ عند ذلك ، بل امتّد إلى الشاطىء الآخر ليجعَل ثقافَة الإسلام إحْدَى عواملِ الهبوط المشاهَد فى العالم الإسلامى ، ثم اتسعتِ التراجمات لتنقل آراءَ الملاحدة من أشياعِ المذهب المادّى ، فتكونَ عامل هدم حين تنسب إلى علماءِ مشتهرين تجلجل أسماؤهم فى بلادهم ، لتكونَ لدى أشياعهم فى الشرق أعلَى صَخَباً ، وأقوى فَرْقعة ، وقد احتلّ هؤلاء الأتباعُ منابرَ الإعلام فى أقْوى الصحف وأوسعها انتشاراً ثم فى الكليات الجامعية ، والمدارس العليا ، وكانت الموجةُ من القوّة بحيثُ ظنّ بها أن تكتسح الشطوط الواقية لولا أنّ الله قد حَفظ دينه بأمثال محمد فريد وجدى ، ممنْ تصدوا للدّفاع فصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وأبلواْ خَير البلاء . ثم تجلّى الواقع المشرق ، بعد أنْ أفلستْ حضارة الغرْب بقيام الحرب العالمية الثانية المدمّرة ، فإذا رُعاة المدنية الأوربية وُحوشٌ فى غابة ، وإذا السرابُ الخادع لا يروى ظمأً ، بل يؤجّج غليلاً ، ولا بُدّ من اتجاهٍ آخر يتدفق ماؤه من نبع أصيل ...

كانت رسالة الدفاع شاقةً وعسيرة ، لا ينهض بها غير ذوى الكفاءة الثاقبة ، والأستاذ وجدى أول مَن تصّدى للدفاع بأقطع سلاح ، لأنّه جعلَ نفسَه جنديا فى كتيبةٍ مُستشهدةٍ لا تعرفُ الهوادة ، ومعها عُدتُه من الاطلاع الشامل ، والخبرة بآفاتِ الفكر المعاصر ، وعِلل ما يستورد من النظريات الخادعة . مع إلمام جيّد ببواعث التّهجم ، وَحيلِ التّربّص ، فإذا أُضيفَتْ إلى ذلك كله عفة القلم ، ونزاهة الضمير ، والارتفاع عن مهاوى الإسفاف ، كانَ المدافع منتصراً فى ميدانه ، لأن هدوءَ النبرة ، وتلمّسَ العذر ، والمقابلة بالتى هى أحسن تدعُو المتسرع إلى الاتئاد ، والغاضبَ إلى

الهدوء ، لا سيّما إذا كانَ هذا السلوك المثالى من كاتبٍ يملك الإقناع ، ويعتصم بالبرهان ، وقد صدقَ الأستاذ العقاد حين ذكر أن الأستاذ وجدى قد اقتربَ بواقعهِ من المثل الأعلى ، إذ لا يستطيعُ أعْتَى معارضيه أن يأخذَ عليه لفظاً يخل قليلا بآدابِ البحث ، وقوانين المناظرة ، كما كان هذا المثل الفريد واضحاً فى اتجاهه الفكرى فى شتّى ميادين البحث العلمى ، إذ لم يجعلْ من قلمه متجراً يعرضُ شتّى البضائع ، وما أقدرَهُ على ذلك ، فهو صاحب الموسوعة الكبيرة التّى تُسمّى بدائرة معارف القرن العشرين ، وقد جَمعت كلَّ ضروب الثقافة المعاصرة والقديمة ، أقول ، إنه لم يشأْ أن يجعَل قلمه متجراً لشتّى البضائع ، بل حدّدَ وجهتَه فى الدفاع عن الفكر الإسلامى ، واستنْهاضِ الهمم الوانية كَىْ تخفَّ إلى دورها المرتقب ، وقد تهافتت كبرياتُ المجلات والصحف على آثاره ، ومنها بعض الصحف التى لا تؤيّد منحاه ، ولكنها تفخر بأن تكونَ معرضًا لشتّى الآراء ، فكأن بحثُ الأستاذ بيْن شتى البحوث المختلفة ، بسمةً فى ثغر ، وبرقاً فى غَيْم ، أمّا المجلّاتُ الملتزمة فإنها تجدُ فى ثمرات الأستاذ أُكُلاً شهيًّا يستطِيبه القرّاء ، فهى تُبَاهِى به فى اعتزاز ...

وحين أرادتْ مشيخة الأزهر أن تنتقل بمجلتها من طوْر إلى طورٍ ، رأتْ أن الأستاذ محمد فريد وجدى أصلَحُ من يتولّى الإشراف على تحرير المجلّة ، لأن مجلة الأزهر فى طورها الأول حين كان يرأسُ تحريرها الأستاذ الكبير محمد الخضر حسين – وهو من أعلام الفكر الإسلامى المعاصر – كانتْ تُرضى حاجَة القارئ فى التفسير والحديث والفتاوى الفقهية ، والموضوعات الخلقية ، كما تضمّ جانباً من بحوث التاريخ الإسلامى وشجوناً من مسائل اللّغة والأدب فى لفظٍ عفّ ، ومنطق صائب ، وهذا كلّه موضعُ الارتياح من ذوى الاطّلاع ، ولكّنه ليسَ وحدَه كافِياً لمناهضةِ الشُّبَهِ الغرْبيّة التى تَفِدُ إلى الشّرق بعامة ومصر بخاصة ، فى مظهرٍ برّاق يقع موقِعَ المُفاجأةِ ممّن لا يسبرون الأغوار ، بل يكتفون بالسطح الخادع ، ومِنْ هنا قامَ الأستاذ بتجديدٍ هادفٍ ، حدده بقوله – ببعض التصرف – [1] .

---

(١) افتتاحية مجلة الأزهر ، المجلد الخامس عشر ، المحرم سنة ١٣٦٣ هـ .

إن لمجلةِ الأزهر مقصديْن عظيمين ، أوّلُهما خدمة الإسلام على النّحو الذى يتفقُ وثقافة العصر الحاضر ، وتقبلهُ عقليّة أهْله ، وهذا مقصدٌ خاص ، فائدته قاصرةٌ على أهل هذا الدين فى مشارق الأرض ومغاربها ، ممن ينظرون إلى الأزهر نظَرهم إلى كعبةِ العلم ، وينبوع الهداية ، وقد وُفقت مجلّة الأزهر لتوفية هذه الخدمة حقّها ، أما ثانى المقصديْن فهو خدمُة القضية الدينيّة بوجهٍ عام ضدّ الفلسفة المادية التى استبدتْ بالعقليةِ الأوربية ثلاثةَ قرون متوالية ، فأفسدتْ المذاهب الفلسفية ، واستندت إلى الناحية المادّية من العلم ، فجعلتْ لنفسها سُلطانًا على الأذهان لم يكن لتعاليمها الإلحادية فى عهْدٍ من عهود البشرية ، وأسقطتْ من سُلطان العقل ، فى الإشادة بالحسّ ، فأضاعتْ على الناسِ مزيّة الاستهداء بالوجدانِ ، ومع أنّ الدليل المحسوس هو الدليلُ الذى لا يمكن التّمادى فيه ، ولكنّ فى الوجود حقائق أولية لا سلطان للحس عليها ، ولا يدركها إلا الوجدان والنظر العقلى المحض ، وهى تهم الإنسان ، وتؤلف عناصر كماله المعنوى ، وإنما اضطّرت مجلة الأزهر لأن تقف هذا الموقف للدفاع عن الأصولِ الدينيّة التى تقرّرها ، إذ لا معْنى أن تقيم ما هى بسبيله من صرحِ الإيمان بينما تندس فى العقول مزاعمُ إلحادّية تهدمُ ما تُقيمه منه ، إن لم يكن علناً ، ففى ثنايا النفوس وأحناء القلوب ، فلم تنِ فى نشرِ البحوث الضافية فى محاسبة المذهب المادى مستندةً فى ذلك على الاكتشافات الحديثة للعلم ، فكان لجهادِها فى هذا السبيل أثرٌ ظاهرٌ فى إنارة القلوب ، وتعديل الأنظار » .

وهذا كلامٌ قاله الأستاذ بعد عشرة أعوام من رئاستهِ لتحرير المجلّة ، وهو مفهوم واضح لكلّ من تابع قراءة المجلّة من قبل ، ولكنّ اعتراضات وُجّهت لها بشأنِ اهتمامها البالغ بدَحْض الشبه الغربية ، وعَرْض ما يجدّ من الفلسفات الأوربية مقدّراً بميزان الإسلام ، وفى ضوءِ تعاليمه ! ومن هُنا اتجهت بحوث الأستاذ منذ ولِىَ رياسةَ التحرير وجهتينْ ، وجهةً أولى هى تجلية الأسس الإسلامية مقارنةً بغيرها من أسسِ مناوئيه ، ووجْهةً ثانيةً تتّجه إلى نصرة الدين باعتباره وحياً سماوياً ، وهى وجهةٌ عامة تشملُ الأديانَ الإلٰهية جميعها ، لأنّها فى صَميمها الخالص تحملُ جوهَر الإسلام الصادق ، وما جاءَ الاختلاف إلا بتحريفٍ تتابعتْ دلائله ، ووضحت مراميه ، وإذا كانت أكثر شبهات الملاحدة تتجهُ إلى زعزعةِ المفهوم الربّانى للدين ، فإن فى محاربة هذا الاتجاه

المخرّب ، توطيداً لمكانة الإسلام ، إذ هو الدين الخاتم ؛ دين محمد بن عبد الله !

توالتْ مقالات الأستاذ فى هذيْن الاتجاهين ، وقد تكونُ لهُ فى العدد الواحد أربعُ مقالات ، ومحاولةُ الاختيار من هذا الطوفان الهادر ، مُرهقة مُضنية ، ولكننّا نُرجح بعضاً عن بعض ، حين نَرى فى إحدى المقالات تكرارا لما سبق أنْ بيّنه الأستاذ من قبل ، ولا حيلةَ له فى هذا التكرار ، إذ كثيراً ما يضطّر إلى معالجةِ موضوع يحملُ جزئيّةً من موضوع آخر سبقَ أنْ وفّاهُ حقه ، فيضطّر إلى إعادةِ ما قال ، وكاتِبُ المقالات فى الصحف السيّارة ، غيرُ كاتِب الأبوابِ فى كتابٍ مستقل ، لأنّ مؤلّف الكتاب يرسمُ خطّته مَبدئيًّا فلا تتداخَلُ فصوله على نَحْوٍ يلفت النظر ، أمّا كاتبُ المقال فى صُحُفٍ دورية تتابعُ على مرّ الأعوام ، فيُواجهُ موضوعاً استدعتْه مناسبة طارئة فيقولُ عنه كل ما يجب أن يقال ، وإن كان منهُ ما سبق قوله فى مقال سالف ، وعندنا مجموعاتٌ أدبيّة لنفرٍ من صفوة الكتاب كالعقادِ والمازنى وطه حسين وأحمد حسن الزيات وأحمد أمين نلْحظُ فيها ما نلحظ من التكرار فى بعض مقالات الأستاذ وجدى ، هذا إلى أنّ طبيعة المقالات الهادمة للمذهب المادىّ تقْتضى الاستعانة بنصوصٍ قوية كتبها بعضُ الأعلام فى مؤلّفاتهم الغربيّة ، وهى من القوة فى التّدليل ، والبراعة فى الاستنباط بحيثُ تؤدى دورها فى تأييد الدين ، ومن هنا أكْثر الأستاذ وجدى من الاستشهاد بأقوال هؤلاء الأعلام ، والقارىءُ الحصيف يرحّب بها فى مكانِها الطبيعى لأنها تسد فراغا يتسع بابتعادها ، فلا ملام .

— ٢ —

وإذنْ فقد اتجهت كتابةُ الأستاذ وجهتين ؛ وجهةُ الإسلام باعتباره الدين الخاتم ، ووجهةُ تأييد الدين على إطْلاقِه ، ونبدأ بتلخيص زُبَدٍ منْ آرائه فى الوجهة الأولى ، ومن أُولها ما كتبُه تحت عنوان (المستقبل للإسلام) إذ طُلب إليه أن يُدلِي بأقوى ما يملك من حجج ، لكى يبين أنّ الإسلامَ دين المستقبل ، وكأنّى بالكاتب الكبير وقد اغتبطَ اغتباطا شديدا بما طُلبِ إليه ، لأنهّ حين يكتب فى هذا الموضوع إنما يخوضُ فى بحْرٍ سبر غوره ، وعرف اتجاهَ موجه ، وظفِر مِن أعماقه بأنفس ما يحرصُ عليه من الدّر الثمين ، إذ كان هذا الفيلسوفُ المؤمن يحلم بمدينة فاضلة تُحقّق السعادَة العامّة للبشر جميعا ، ولن تكونَ هذه المدينة إلّا فى ظلّ الإسلام كما نزلتْ قوانينه على رسول الله فى محكم القرآن ، وظلَّ هذا الحلم الجميل يُراوح الكاتب

ويغاديه فى حياته الحافلة جميعها ، فهو يكتُبُ عنه مشوقا ، وفى ذهنه أنّ الصباحَ سينبلج عن نوره الوضىء ، وإذا لم يُتح له أن يَرى سيطرةَ الإسلام على الحياة فى عمره المحدود ، فإنه لَعلَى وثُوقٍ أنّ الأجيال القادمة ستَسْعدُ بتحقيق هذا الحلم ، لأنه مطمحُ الإنسانيّة الواعد ، ولا بُدَّ أن تصل إليه عن قريب أو بعيد ! وما كَانَ الرجلُ مسرفاً فى خياله ، بل كان يرقُب أمواجَ الحياة منذُ تدفقتْ فى بحرها الأزلى فيرى نشأة البشرية فى الأغوار والكهوف ، وبيْن الضوارى والوحوش ، ثم محاولتَها التغلب على الصعاب حتى اهتدتْ بنور العقل إلى ما وصلتْ إليه الآن ، هذا العقلُ الذى صارعَ اللجج أجيالاً خلف أجيال حتى اهتدى إلى أمورٍ يُسلّم بها اليوم دون نقاش ، اهتدىَ إلى وجوبِ أن يمحوَ التّعَصبَ المذموم للعقائد الباطلة ، وإلى أن يقُومَ النّظر العقلى مقامَ التقليد الأعمى ، وإلى أن ترتكزَ العقيدةُ على أسسٍ واضحة لا يتطّرق إليها اللّبس . ثم إلَى إيجادِ زمالةٍ عالمية بين الناس كافّةً ، ومحاربة ما يُحدث الشقاق بين الأمم والشعوب ، علَى أن يكون العلُم اليقينىُّ هو الفيصلَ بين الحق والباطل ! هذه الأصولُ لا مَحيص عنها فى بناءِ مستقبلٍ زاهر للإنسانية ، ومتى أصبحتْ عُنصراً رئيسيًّا من عناصر الحياة ، واهتدتْ إليها البشرية العاقلة فى مستقبل الأيام فستجدُ نفسهَا فى صميم الإسلام ، لأنّه يدعو إلى تحقيق ما تريد .

لقد كلْف الإسلام من يُريد اعتناقه أن يتجردّ من معتقداته السالفة ، وأن يخْلَع عنه ربْقة التقليد ، مخضعاً كلَّ ما يحصّله من المعارف لأساليب البحث والتحليل ، مُستجيباً إلى فطرته التى فطره الله عليها ، إذ كلُّ مولود يُولد على الفطرة ، نائياً عن الظنون والهوى لأنّ الظنّ لا يغنى من الحق شيئا ، مقدّراً نعمة الله عليه حين رزقه العقلَ الكاشف لأن شرّ الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، وهوَ غير مسئولٍ إلا عن نفسه إذْ ليسَ للإنسان إلا ما سعى ، ولا تزرُ وازرةٌ وزر أخرى ، وكلُّ هذه صُوىً تهدى إلى الصواب ومشاعلُ تبدّد الغياهب ، ولابدَّ للتقدّم الإنسانى أن يبلَغ هذا الحدّ ، بعد أنْ خطا العقل خطواته الفسيحة ، وببلوغه سيجدُ العالمَ نفسه فى صميم الإسلام !

هذا ما يؤكده الكاتب الكبير ، ولكنه لا يغفل أن يُواجه مَن ينكرون هَيْمنة الدين من الماديّين ، فيقول لهم إن التديّن غريزةٌ بشريّة ، وجُدت منذ وُجد الناس ،

وإذا كانَ البدائيون قد انحرفُوا حين توجهوا بالعبادة إلى غيرِ الله ، فهم متديّنون مُخطئون ، وغريزةُ التدين لديهم تدعوهم إلى التعلّق بأسبابٍ تؤيدهم فى طريق الحياة ، وقد آنَ الأوان لِتسير الغريزة وجهتها السديدة نحو الدين القويم !

ويسأل سائلٌ ولماذا الاتجاهُ إلى الإسلام بالذات ؟ وهو سؤالٌ أجمل الأستاذ الإجابة عليه فيما سبق ، ولكنه يسعف سائله ببعض التفصيل المقنع فيقول[1] :

إن الإسلام قد دلّ على مناعةٍ لا تُرام عند سواه ، فقد احتَكَّ بالأديان التى سبقته ، حين كان جبابرةُ العقول يتولوْن الذود عنها ، فظهرَ عليهم بما سنّه من مبادئ رفيعة ، واجتذب منهم من عرفوُا الحق ، فصارُوا من كبار دعاته ، بل إنّ الإسلام وَجدَ دُعاته أحيانا من ذوى الفطرة الخالصة الذين لم يتبحّروا فى مسائل الفلسفة ، بل اهتدوْا بطبائعهم السليمة إلى نوره ، وقد تبارى دعاة المسيحية المثقّفون مع التجار المسلمين فى أفريقيا ، كلٌّ يحاول أن يضمَّ إليه هؤلاء الذين يعيشون دون دين صحيح ، فكانتْ فطرة الإنسان هاديتَهُ إلى الإسلام ، ولم يفلحْ دَهاقينُ المسيحية إلاّ بإغراءاتٍ من المال وأحلام من المطامع فى اجتذابِ من قدروا على إغرائه ، أما التجّارُ البسطاء من ذوى الفطرة السليمة فقد جذبُوا عشرات الملايين من النفوس دونَ وعدٍ كاذب أو إغراء خادع ، إذ كانوا يسبحون مع التيار الفطرى دون أن يصطدموا بالجنادل والصخور .

ثم إنّ الفلسفة اليوم عِلْمّية بحتة ، أى مؤسسةٌ على الأصول التى تدفع المعلوم إلى المجهول ، وِفقاً للأسلوب العلمى ، لا أنّها خياليةٌ تصويرية يطير بها الإنسان على جناحٍ من الأوهام كما كانت من قبل ، وهذه الفلسفةُ العلمية الحقيقية لا بُدّ أن تبلغ مبلغها من الصواب ، فتهْتَدِىَ إلى الدين الصحيح .. ونحن لا نستطيع أن نُنكر العالم العلوى بحجةِ أنّنا لا نراه بأبصارِنا ، ولا نحسّ به مشاعرنا ، لأنّ فى الوجود الذى نعيش فيه ، ظواهر مادية كشفها العلم المحسوس وقررّها ، وكنا لا نتصور وجودها ، فهل كانت هذه الكائنات الخافية غير موجودة لأننا لا نراها بالحواس ؟

---

(١) مجلة الأزهر : صفر سنة ١٣٦١ هـ ، ص ٥٩ .

ثم إن العلم قد قرّر أنّ حولنا من الحركات والذبذبات الأثيرية ما لا نراه ولا نحسّ به ، بل حَوْلنا كثير من الكائنات الحية التى لا تُرى ولا تُلمس ، وتعجز الحواس عن إدراكها !

فبأىّ حق يجوز لنا أن ننكر العالم العلوى لأننا لا ندركه بالحواس ، وإذا تقدمت الإنسانية فى كشوفها العلمية فستصلُ إلى ما يؤكّد حقائق الإسلام ، ولنْ يطول الأمد ، لأن الاكتشافات تتوالى على نحو سريع !

لقد نبغ فى الأرض مصلحون كثيرون ، ولكنّهم جاءوا بالأوليات ، ثم كمّل عملهم فى قرون كثيرة بواسطة مَن تتابعوا من تلاميذهم ، فجاءُوا بالمقدمات ، ووكلُوا لخلفائهم أن يُحاولوا التمام ، ولكن محمدا ﷺ جاءَ بالنهايات ، ولم يقفْ عند الأوليات ، فوضع أساسَ الاجتماع ، وأصلَح المعتقدات ، وأنار العقول ، ولم يترك الأمّة إلا وهى مَثَلٌ عالٍ لما يمكن أن تكونَ عليه جماعةٌ منْ صحّة الاعتقاد ، وترابط الآحاد ، وتوحّد الوجهات ، وتكافلِ الطبقات ، هذا من ناحية بناء المجتمع ، أما مِن ناحية النّظم التى يجب أن يقومَ عليها ، فقد جاءَ الإسلام بكتابٍ مكتمل شملَ من أصول التشريع ومبادىء الاجتماع الراقى مِن العدالة والمساواة والحرية وحدود الحقوق والواجبات ما لم تصل الأمم المتقدّمة إلى بعضه إلا فى العصور المتأخرة بعدَ قرونٍ قضتْها فى الانقلابات والفتن والثورات . وإن نبّياً يأتى بدين مكتمل فى بيئةٍ لا عهدَ لها بالتشريع ، وينجح فى جذبِ الملايين إلى وجهته لصادقٌ صدوق ..

ولكثرةِ ما عالج الأستاذُ قضايا الفكر الإسلامى نراه يُحسنُ اختيارَ النصوص الدالة من القرآن والحديث بحيث يأتِى الاستشهادُ فى موضعه الصحيح دونَ تعسف ، ولهُ فى صوغِ المقال الدينى أسلوبٌ مؤثر يرضى العقلَ بمنطقِهِ كما يريحُ القارىء بوضُوحه ، ولا يهجم بهذا الاستشهاد دُون أن يمهّد لهُ بذكر القضية الّتى يعالجها محاطةً بالبراهين الفكرية قبلَ النص الدينى ، حتى إذا أشبَعها تحليلاً وتفسيراً ، وأفاض فى عرضِها المستوعب جاءتِ النصوصُ فى الخاتمة مصدقةً لما بيْن يديها من الآراء ، وذلك مذهبٌ سبق إليه الأستاذ الإمام إذْ يَفْتَرضُ فى قارئه أنّه غيرُ مُسْلمٍ ، وأنهُ مستعدٌ للمعارضة إذا رَأى وجهاً من وجوه الضعف ، ولا سبيلَ إلى إقناعه حينئذٍ إلّا بالمنطق

الصريح مشفوعاً بما يؤيده من قضايا علم الاجتماع ، ودلائلِ الأحداث التاريخية فى الماضى والحاضر ، وقد تحدّث الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله عن انتفاعه بمجالس الأستاذ فريد وجدى الذّى كان يَؤُمّها زائرُوهُ فى منزله بعدَ صلاة المغرب من كل يوم ، حيثُ يتّسع المجال لتعليقاتٍ مفيدة تدورُ حول قضايا الحاضر والمستقبل ، وهذا الاتصالُ المباشر بجمهرة الشّبيبة الإسلامية أَفَادَ الكاتب الكبير فى تعرّفِ الاتجاهات المختلفة كما فَتح له أبوابَ الموضوعات التى تشغلُ أنصارَ الفكرة الإسلامية لِيُلْقِىَ عليهَا مزيداً من الضوء فى مناقشاته . ثم لتكونَ مادّةً للبحث العلمى حين ينتقلُ بها من ندوات السّمر العلمى إلى صفحاتِ المجلاّت ، وأبواب الكتب ، وإذا كانتِ الصحف العربية على مدَى خمسين عاما لم تخلُ من آثارِ الكاتب المتابعة فإنّ محاولة تتبّعها مما يُرهق ، ومن المؤكد أنّ إلْحَاحَهُ على تأكيد صلاحية الإسلام لقيادةِ العالم ، قد نزَلَ من نفسه منزلةَ الرّسَالة الواجبة الأداء ، كما دفَعه إلى تحديد مكانةِ المسلمين بين الناس ، إذ كانوا خيرَ أمّة أخرجت للعالم ، لم يتميّزُوا بلونٍ أو لغة أو جنس ، بل لكونهم يأمرونَ بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويؤمنونَ بالله ، فهمُ الأمةُ الوسط التى عناها الله بقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [٢] وقد علّق الأستاذ على هذا النّص الكريم بقوله : « إنما جعلناكم كذلك ، لنسند إليكم مهمةً عالمية جليلة الشأن ، هى أن تكونوا شهداءَ على الناس فى تقْصيرهم وغلوّهم ويكون الرسول عليكم شهيدا ، وهذا مثلٌ أعلى من مُثل الاجتماع لم ينزلْ به الوحْىُ على أمّةٍ غير الأمة الإسلامية ، وإنّه لأمرٌ جللٌ يحقّ معه للأمة التى تنالُ هذا التقديرَ أن تبذلَ كّل ما فى وسعِها من علم وعمل للمحافظة عليه ، .. ولا جرمَ أنَّ أمّةً تَنْصبٌ من نفسها حسيباً من هذا الطرازِ الصارم ، وتُقيم من ضميرها المشْبع بروح العدل رقيباً على سيرتها ، تَصل إلى أسمى درجات الكمال الاجتماعى ، وتتهدّى إلى أبلغ غايات الرقّ المادىّ والأدبى ، فإذا قُلنا إن هذا المثلَ القرآنىّ الأعلى كان أثرُه على الأمة الإسلامية الأولى

---

(١) هذه حياتى للدكتور عبد الحليم محمود ، ص ١١١ .

(٢) سورة البقرة : ١٤٣ .

أنْ حفظها أوّلاً من التدنس بالمطامع الذاتيّة ، والتنمّر للجماعات التى وقعت تحت سلطانها ، وأنهُّ مكنها ثانياً من الاتصال بروح الوجود وقيّومِه ، فأيّدها بما سمَح لها أن تطوى الزمان طيًّا ، فتبلغ فى سنينَ مَعدودة ما لم تبلغ بعضه الأمم فى قرون كثيرة . لو قلنا ذلك لما كنا مبالغين بشهادة الانتقالات الاجتماعية والمدنية الخطيرة التى تمت للمسلمين فى سنوات قليلة »[1] .

أمّا كونُ هذه الأمة الوسط خيرَ أمّةٍ أخرجت للناس ، فمما لم يَفتِ الكاتبَ الكبير أن يدلّ على مغزاه فهو يرَى أنّ هذه الخيريّة قد ساقت المسلمين إلى النجاح المثالى فى نشر الدعوة حين ظهورها ، فدفعت ما رانَ على القلوب من جاهليّة ، وكَسرتْ ما طوّق الرقاب من أغلال ، فبعدَ أن كانتْ بلاد العرب مباءةً للوثنية ، ومَوْئلاً للجمود والتحجر أصبحتْ مثاراً لأعظمِ اندفاعٍ إنسانىّ بعيد الأثر فى تحطيم الحجب وإزالة القواطع الناهضة أمامَ المدنية الفاضلة ، هذا فى عصرِ النبوة ، ثم هُوَ بعد انقضائه لا يزال عاملَ إثارةٍ حميدة فى استفزازِ الهمم ، لأنّ الله لم يَحصر خيرَ الإسلام فى القوّة أو الثروةِ بل أطلقَه ليبعثَ الكمال الإنسانى فى الكون ، لأنّ الأصولَ الإسلامية مقيسةٌ على طاقات النفوس ومؤلفةٌ بحيث تثيرُ قُواها الكامنة فيها ، محصّنةً بما لديها من المناعات الواقية .

وفى ظلال الاعتزاز برسالة الأمة الإسلامية ، ظهرتِ القوميات فى أوربا ، تُنادى بتفضيل الوطن ، وارتفاعه عن غيره بما تخلُق له من مزايا يُجيد ابتكارهَا المحترفون ، وانتقلتِ العدوى إلى بلاد الإسلام ، إذ ظهرَ من يدعُون إلى القوميّة . وكأنّها فى مظهرِها مباينةٌ للإسلام ، ولهؤلاء ذيولٌ من الببغاوات التى تردّدُ أنّ الوحدةَ وحدةُ جنسٍ لا وحدةُ لغةٍ أو دين ، وقد تسامحُوا فى عدّ اللّغة عُنصراً من عناصر الوحدة ، إذ رأوْا الأمّة العربية لا تَحيدُ عن لسانها رغمَ الدعوات الملحّة إلى العاميّات فى الأقاليم المختلفة ، تسامحُوا فى عدّ اللّغة عُنصراً من عناصر الوحدة ، وقَامَ الدينُ شجىً فى حلوقهم . وكأنه عقبة العقباتِ فى مجال التقدّم ، وقادَ الجمهورَ فريقٌ منِ رجال السياسة لا يفهمون شيئاً عن الإسلام ، ولكنهمْ وجدوا فى الدعوةِ إلى القومية

---

(١) مجلة الأزهر : ربيع الأول ١٣٦٦ هـ .

تثبيتاً لزعامتهم ، فعملُوا على ترْسيخها ، ومحاربة كلّ من يتجه وجهةً أخرى تتسع للمفهومِ الإنسانى الشامل ! فكتبَ الأستاذ وجدى مقالاتٍ هادفة توضّحُ أنّ الوعىَ القومى لا ينافى الوعىَ العالمى ، لأن شعورَ الأمة بوجودِها كوحدة اجتماعية لها حقوقها الطبيعية ، وعليهَا واجباتُها الإنسانية لا ينافى أنْ تكونَ هذه الأمة خلِيّة من خلايا الجسم العالمى الذى يجب أن يتماسَك ، وإذا كانتِ الدعوات المناديةُ بضرورةِ اعتبار البشرية جميعها وحدةً واحدةً تبْطُل معها الحروب ، ويحلّ التفاهم محلّ التنابذ ، إذا كانت هذه الدعواتُ الإنسانية رَدَّدَهَا أفرادٌ من مُفكرى أوربا ، فإنّ الإسلامَ قد احتضَن هذه الدعوة المباركة ، على حين لم يغفلِ الدعوة إلى الاهتمام بالوطنِ الخاص إذ أنّ المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وقد جاءَ قول الله عز وجل : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [1] جاءَ هذا النص الكريم إيذاناً للعالم أجمعه بضرورة التّعارف . وإذنْ فللمسلمينَ فوقَ شعورهم القوميّ شعورٌ عالمى يشمل الإنسانية جمعاء ،! هذَا الشعور الإنسانىّ النبيل يقفُ موقف النقيض من رأى فليسوف الفلاسفة أرسطو حِين اعتبَر الأرقّاءَ من البهائم المجردّة من الإنسانية ، ومن رَأْى أفلاطون الذى يحمد الله أن خَلقَه يُونانيا ولم يُقَدِر له أن يكونَ منِ جنسٍ آخر ، وإذا كان الوعى القومى لَبِنةً فى بناء الوعى العالمى ، فهما مُتساندان لا متنابذان .

وفى حومةِ الجدل فى هذِهِ الآراء الثاقبة ذاتِ النظر الفسيح يُفاجَأُ الأستاذ وجدى بمن يعترضُ عليه بأنّ الدعوةَ للإسلامِ دعوةٌ للبدع التى تأخّر بسببها المسلمون ! ولو كنتُ مكانَ الكاتب الكبير لأغفلتُ هذا الهراء الذى فات أوانه ، فقد كَلّتِ الألسنةُ من إيضاح هذه البدع ، ومجافاتها لروح الإسلام ، بحيث لم تعد قضيّة تُثَارُ ، ولكنّ الرجل السَّمَح يتلقّى كل اعتراض بالابتسام . ويردّ عليه ، حتى لو وُجّهَ له فى كتابٍ خاصٌ بالبريد ، فإنه يكتُب الرّد بالبريد أيضاً وقد يَشتمِلُ على عشرِ صفحاتٍ إرضاءً لنزعته الإنسانية فى الهداية والإرشاد ، لقد كَرّرَ الأستاذُ القولَ

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

فى هذه البدع استجابةً للاعتراض الموجّه إليه ؛ فذكرَ أنّ من أوليات التشريع الإسلامى تخليصَ الإنسان من الآصار الوهْمية التى أنقضتْ ظهره والوساوس الجاهلية التى ضلّلتْ عقله والجهالاتِ الوراثية التى أفْسَدتْ قلبه ، حتى يكونَ من التنزّه منها على مثل ما كانَ يوم ولدته أمّه ، أى على الفِطْرة التى فطَرهُ الله عليها ، ولكنّ الشعوبَ لا تخلوُ من جهلةٍ أُميّين تأنسُ نفوسهم للبدع ، وتسلمُ مقادتهم للمضلين ، فانتشرت فيهم تقالِيدُ وعَاداتٌ ليست من الدين فى شىء ، بل هىَ تُجافيه كل الجفاة ، واضطر حُماةُ الإسلام أن يَدْحضوا البدع بما أذاعُوهُ من مؤلفاتٍ ، وألقوه من محاضرات . ولكِنَّ الغرضَ السّيىء لدىَ من ينتفعُون بهذِه البدع قد صمَّ العامةَ عن النُّصح الزاجر ، فاكتسبْت هذه البدع باستمرارِها الدائم قوةً أصيلة ، حتى اختلطت بالدين فى نظر الدهماء وصارتْ جزءًا منه ، وأصبح لها من المرتزقة دُعاةٌ مروّجون ، وجاءتِ الحكومات فاسترضَت العامّة بتأييد هذه البدعِ حتى أصبحت عبئا ثقيلا على المصلحين ..

والرأى الصريح لدى الكاتب الكبير أن يتعاونَ العلمُ مع الدين فى تزييفِ الضَلالات ، إذْ لا عداءَ بين العلم الصريح ، والدين الصحيح ، وقد بدأ المخلصون من العلماء فى هذا الاتجاه ، إذ عَملوا على تخليص الدين مما علق به من الأوهام ، حَدَثَ هذا فى الغرب ، ويحدثُ مثله فى الشرق ، وهو مفيدٌ للدين بنوع عامٍّ ، لأن الإسلام لم يَنْزِلْ باعتبارِه ديانةً جديدةً . ولكن باعتبارِهِ الدينَ المطلق الذى أنزله الله على جميع أنبيائِه ورسله ، فحرَّفتْهُ الأمم وأفسدتْ أصوله القيّمة بشروحٍ وتأويلاتٍ حسبتها تخدم أغراضه وجهلتْ أنها خرجتْ به عن دائرته ، وأحالَتْه إلى علمٍ بشرىٍّ لا يتّصِل بالسماء ، وعلى المسلمين أن يَعْرِفوا أنهم يمثّلونَ الدينَ النّقى الخالص فلا يسمحوا للعامّة ولا للخاصةِ أن ينْحرفُوا عن أصولِه بإحياءِ البدع المنكرة ، والتقاليدِ السقيمة ! فذلِكَ خطرٌ كبير .

— ٣ —

لا أظنّ كاتباً ألحّ على مهاجمةِ الماديين طيلةَ نصفِ قَرْن ، بحيثُ لا يكاد يمرّ أسبوعٌ دوُن مقالٍ كاشف لبعض الحقائق العلمية التّى تهدم المذهب المادى وتقتلعُه من جذوره ، كما ألحَّ الأستاذ وجدى على مكافحة هذا المذهب ، ومع أنّه أصدرَ

ثلاثةَ أجزاء حافلةٍ تحت عنوان (على أطلال المذهب المادى) فجمعتْ ما يمكن أن يُقال فى دحض هذا المذهب ! وكانَ فيها اقتناعٌ باللجوء إلى جبهةٍ أخرى غير جبهة الماديّين !! مع هذه الأجزاء الثلاثة التى استوعبت ما يكفى للإطاحة بهذا المذهب ، فقد جَعل شُغْلَه الشاغل بعَدْ صُدور هذه الأجزاء تتبُّع ما يقولُه الماديون فى صُحف الغرب ليكرَّ عليه بالتفنيد ، ولا يُقدّرُ ذلك الجهَد المتّصل حق قدره إلّا منَ يعلم ما يجلبهُ المذهبُ المادىّ على الإنسانية من شُرور ، لأنّه فى صميمه ينكِرُ خالَق الكون . ويرى الإنسانَ حيواناً يأتى ويذهبُ دُون أنَ يرعى حقوق الناس أو يخافَ المسئولية يومَ الحساب ، وتصوّرْ مُجتمعاً بأكمله يعتنقُ هذا المذهب ، فلاَ يستشعر وجودَ ربٌّ قادرٍ رحيم يلجأ إليه فى الشدائدِ راجياً أن يُسعف العاجز المقهور ، أو يَشفى المريض المتأوّه ، أو يّرزقَ الجائع الملتاع بحيث تصيُر الحياة مفقودةَ الأمل فى النّصير مظلمةً فى عين من يسرى بليلٍ بهيم دوُن أن يأمَل الشرق المضىء فى الصباح ! ثم تصوَّرْ ثانيةً كيفَ يعيش أفرادُ هذا المجتمع ، وكلُّ واحدٍ منهم لا يخشَى رقيباً يؤاخذه إذَا اقترفَ الجُرم الشّنيع ! لهُ أن يسرقَ ، وله أن يقتل ، وله أن يفجر ، وَعليه أن يحتاط فلا يقعُ فى دائرةِ القانون الرسمىّ — فإذا تستّر فى جرائمه فقد نجاَ إذْ لاَ حشرَ ولا حساب ! تصوّرْ مجُتمعا لا ربَّ يحميه ، ولا يومَ حسابٍ ينتظره ، وافرقْ بينه وبين مجتمع الضّوارى الكاسرة ، حين يأكلُ الكبير الصغير .. إن إنقاذ البشريّة من وباء المذهب المادّى جديرٌ أن يتَفرغَ له حشْدٌ من الكتّاب فى العالم العربى ، كما قامتِ الحشودُ المناوئة له فى الغرب ، وأحسبُ أنّ الأستاذ وجدى قد أدرك ذلك كلّه ، فجعلَ من شغله الشاغل أنْ يُواصل الهدم الملحّ لآراء الماديّين . وأحسبُه قد فازَ بالنصر المبين .

على أنّ إلحاحه فى التفكير المتّصل بهذا المنحى قد هداهُ إلى التفكير فى وضعِ منطقٍ دينىّ يهدم به زيُوف المذهب الإلحادىّ . فهو صَاحبُ مذهبٍ فى التفكير الدينىّ يعصم من الخطأ ، وقد شرحَ ما دفعه إلى وضع هذا المنطق الجاد فقالَ إنّ للمعقولات أداةً تعصم من الخطأ ، وللمعلومات أداة تُرشد إلى الصواب ، وتحمِى الباحث من الخلط بين ما هو علم يقينىّ ، وما هوَ رأىٌ مُرَجَّح ، وما هو افتراضٌ مؤقّت ليأمن العقل بالمنطقِ النظرىّ من الخبط على غير هدى ، وليتقى الباحث فى قضايا العلم

أن تكون هذه المظنونات فى مرتبة اليقينيات ، وقد وضع المنطق الأول أرسطو ، ووضع المنطق الثانى (بيكون) فلا بدّ أن يكون للدين منطقٌ يحُول دون الخلط بين الحقائق والأوهام ، وفيما وصل إليه العلم العصرىّ والفلسفة الحديثة من النظريات والمعارف ينبوعٌ لا ينضب لبناء أصول هذا المنطق ، وهذا العصرُ أنسبُ الأوقات لوضعِ الأصول الكافية لمنطقِ الدين ، لأنّ العلم قد وصلَ إلى حَدٍّ بلغ فيه سِنّ الرشد لا من ناحية أنه انتهى إلى حدودٍ ما يُمكن معرفته ، ولكنْ من ناحية أنّه أدرك أنّه يقدر على أن يُعيّن ما يمكن معرفته من المجهولات ، وما لا يمكن أن يصلَ إليه . ثم ساقَ الأستاذ نصوصًا كثيرة لأعلامٍ من علماء الغرب تؤكّد الحدود التى تنحصرُ فيها قُدرة العلم ، كما أنّ التواضع العلمى الآنَ أصبح ذا سيادةٍ ، إذْ قضَى على خُيلاء من يظنّون أنهم قد سبروا الكون ، وأدركوا العلل والأسباب لكل ما يجرى به ، حيثُ اتضّحتْ من الحقائق العلمّية الجديدة مسائل عصفتْ بالمقرّرات المتوارثة ، والأصول التى كان يُظن بها الرسوخ ، كما أنّ المكتشفات الماثلة فى عالم الروح قد فتحتَ آفاقاً بعيدة للنظر العلمى السديد ، وكلّ ذلك قد أيقظ العاطفة الدينيّة ، ومهّد الطريق لخَلاص الروح ممّا يلحقها من وَساوس الأساطير القديمة .

يقول الأستاذ محمد فريد وجدى « هذه الحالة العلمية الراهنية تسمحُ لمثلى أن يَستفيد منها فى وضع منطق دينى مُستمد ممّا تقّررهُ المعارف الممحّصة ، بحيث لا يخرج فى أصلٍ من أصولِه عما ثبتَ بالبرهان القاطع من بحوث العلماء ، وما عُرف من اتجاهات النفسيّات الصافية . وإنى أعتقد أن الروح العصرية قد نضجتْ لظهور مثل هذا العمل العلمى ، لأنّ المقررات التى يجب أن يستمِدّ منها مادته ليستْ مما يتغير بتغير الأزمان ، ولست أبالغُ إذا قُلْتُ إنّها أصبحت بدهياتٍ علمية تكاد تكونُ فى مستوَى المعلومات الضرورية للإنسان [1] » .

وقد بنى الأستاذ منطقه الدينى على أصول نذكر منها هذين :

١ - تساوى الناس جميعا فى الحقوق بحيث لا يتفاضلون بجنسٍ أو لغة أو لون ، ولكن بالمزايا الأدبيّة والقوى العقلية .

---

(١) مجلة الأزهر : المجلد العاشر ، العدد الثانى سنة ١٣٥٨ هـ .

٢ – الدينُ غريزةٌ عَقليةٌ موهوبةٌ لا مكتسبة ، فهو شئٌ فطرى لا خلاص منه .

وقد فسح المجالَ لتحليل هذيْن الأصلين ، وتطبيقهما على مقرّرات الإسلام ، ليتخذ المنطق الدينى من الإسلام دعامتَه العلميّة فيما جاءَ به من نصوص ، والعمليّة فيما طبّقه من قواعد عبْر التاريخ الممتدّ منذ العصر النبوى ، وبديهىّ أنّ محاولَة إيجادِ منطقٍ دينّى مدعمٍ إنمّا هى بذرةٌ تُلْقَى فى أرْض ، وعلى الباحثينَ فى هذا الاتجاه ، أن يُوالوا الثمرة بالرّى والرعاية حتى تنشقّ عن دوحةٍ باسقة الظلال ، وكلّ المذاهب التى تنسب إلى رءوسٍ مفكرة كانتْ متواضعةَ النشأة ، حيثُ غرسَ الأستاذ بذرتَها الأولى ، وتوالَى التلاميذُ من بعدِه ليرعوا غراسه بالتعهّد اليقظ ، ولدينا كلّياتٌ متخصصة فى شئون العقيدة ، وبها أساتذةٌ مخلصون ، ولهمْ تطلُّعٌ وارتقاب ، ومن وَاجِبِهمْ أن يحتضِنوا كلّ فكرةٍ مخلصةٍ تهدى إلى النهج القويم .

وقد تنوعتِ الأساليب الّتى يتخذها الأستاذ فى تأْييد مذهبه ، فهو مرّةً يَصْطَنِع طريقة الحوار أخذاً وردًا لتتجلى الحقائق باحتكاك الآراء ، وتصارُع الأفكار ، وثانيةً يتخذ المقال العلمى سبيلاً للإقناع فيبدأ بمقدّمةٍ دالّةٍ ، يليها عرضٌ كاشف مبسوط الأدلة ، متعدد البراهين ، ثم يختم بتلخيصٍ وجيزٍ يشير إلى زُبْدةِ ما يرمى إليه ، وثالثةً يكتب عن علم من أعلام الفكر الدينّى ليتحدث عن آرائِه فى الحياة والبعث والخلود ، وارتباط الأسباب بالمسببات ، منتهزاً فرصة الاحتفال بذكرى ، أو بمنح جائزة ، أو صدور كتاب جديد . ويُخيَّل إلّى أنّ طريقة الحوار هى أسهل الطرق إلى إيضاح المراد ، وقد أبدع الأستاذ وجدى كل الإبداع فيما انتحَى به هذا المنحى فى كتاب (الوجديات) ثم فى بعضٍ مارَفدَ به مجلة الأزهر من بحوث ، ومنها ما كتبه تحت عنوان (حاجة الناس إلى الدين) [1] فهو ذُو حجاجٍ فكرى يَروى النفوس المتعطشة إلى الاقتناع ، فالمادّيُّون يقولون مثلا :

(أ) إن الإنسانَ قد اندفعَ إلى التديّن خوفاً من جوائح الطبيعة ، وما تفجأُ به من رعودٍ وزلازل ، فيكون الرد :

---

(١) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، الجزء الخامس سنة ١٣٦١ هـ .

(ب) ما بالُه وقد أمِن فى مجتمعٍ راق يزداد شعورا بحاجته إلى التدين ؟

(أ) إنه يتديّن طمعاً فيما وعد به بعد الموت من وجود كريم ونعيم مقيم .

(ب) ومن أين أتاه هذا اليقين الذى يدفعه إلى هذه النهايات البعيدة ، وهو وَقْفٌ على الموجودات المحسوسة كما تعتقدون ؟

(أ) إنه يفكّر فى المستقبل ، تفكيرَ الذى حصّل شذوراً من العلم فهداه تفكيره إلى مثل هذا المصير .

(ب) إذنْ قد تعانق العلم الصحيح مع الدين الصحيح ، فإذا أمكنَ أن يُهْدَمَ العلم أمكن أن يُهدم الدين .

(أ) التشبيهُ مع الفارق لأنّ العلم قوامُ الإنسانية ، ولا صلاحية للوجود بغيره ، ولكن الدين شهوةٌ عقلية تستقيم بدونه أحوال الأفراد والجماعات .

(ب) هذه تفرقَةٌ غير صحيحة بين الحاجات الإنسانية فقد تكونُ الحاجةُ العقليةُ أشدَّ علوقا بالنفس وأفعل فى تقويم الحياة من الحاجة المادية لأنّ المدارَ على قيمتها فى النفس الإنسانية ، والإنسان كثيرا ما يضحّى بالماديات فى سبيل فرحه بالمعنويات .

(أ) كانَ ذلك فى عَهْد القصُور العلمى ، أما الآنَ وقد ارتقت العلوم والمعارف فقد أحسّ الإنسان أن الحاجة الروحية ترتكزُ على هوى يمكن التغلب عليه .

(ب) العلمُ لم يقدرْ بعدُ على كبح الأهواء البشريّة ، وكَسْر عرامها ، ولكنّه ساعد على الحُروب الفاتكة ، والاختراعات المبيدة ، فهو لا يُغنى غناء الحاجات المعنوية .

(أ) لماذا لم تَخْلُ العصور التى كانت السيطرةُ المطلقة فيها للدين من ويْلات الحروب وآفات الدمار ؟

(ب) ليسَ ذلك بسبب الدين ، ولكن بسببِ الانصرافِ عن الدين ، ولو كان للدين السلطانُ الحقيقى مافزعت الإنسانية مما تكابده من الأهوال .

هذا حوارٌ لم يُسقْ هذا المساقَ فى مقال الأستاذ وجدى ، ولكنّى استخلصتهُ

ورتّبته ليكون واضح الدلالة فى مغزاه العلمى من ناحيةٍ ، وليخفّف بعضَ الجفاف لدىَ نفوسٍ لا تجد الصّبر على الأخذ والرد فى نقاطٍ مركّزة تستدعى شدّةَ اليقظة ووفرة الانتباه .

وإذا كان الأستاذ قد وضَع بذرةَ ما سماه (منطق الدين) فإنّه نظَر فى الأسلحة الجدليّة التى كان يتخذُها علماءُ الكلام فى صوغِ براهينهم العقلية ، فرآهَا اليوم ليستْ كافية فى أداء رسالتها المنشودة ، لأن المسائلَ الكبرى التى يهمّ الإنسان معرفتها وهى أصلُ الوجود ، وحدوثُ الكائنات ، وتولد الحياة ، ونشوء الروح الإنسانية ومظاهرِها المختلفة ، كلّ هذه المسائل قد شغلتْ الفلاسفة فى القدِيم والحديث ، ولكنها تعجزُ اليومَ أن تبلغ منزلة الإقناع من المثقف المعاصر ، لأنّ علماء الطبيعة قد نظروا للكون نظراتٍ جديدةً يصعبُ على علماء الكلام أن يُبطلوا ما اهتدوْا إليه من هذه النظريات ، وعليهمْ أن يدرسوا هذه الفتوحات العلمية ليروْا دلائلَ جديدة لقدرة الله فى دقّة النظام الكونى ، واطراده على سَنَنٍ لا يتبدل ، معَ عدمِ التسليم بنظريةٍ طبيعيّةٍ إلا إذا استقرّ التدليل عليها فى موضعٍ مطمئن لا يتزعزع ، وحينئذ يكون العلم المعاصر سُلّماً للاطمئنان الفكرىّ فى مسائل الدين » لا أن يكونَ شوكةً فى جنبه ، وما ينفر من قضايا العلم الصحيح إلاّ من عجزَ عن إدراكها ، فاكتفى بالتنديد والتهويل .

وقد انتقل الأستاذ محمد فريد وجدى قبل أن تلفظ الشيوعية أنفاسَها فى أوربا بستّةٍ وثلاثين عاما ، ولو امتد به الأجل لرأى تحقق قوله [1] :

« فهذا التورط الشنيع الذى تتكلّفه الشيوعية ، وتحتفظ به فى سيلٍ عارم من دماء البشر فى سبيل اجتثاثِ الدين مِن قلوبهم لا يُعقل أن يدوم » إذ أنَّ الأيّام قد صَدّقت ظنه فى إبادةِ هذا الاتجاه الفوضَوىّ الإلحادى على أيدِى أنصاره ، لا عَلى أيدِى خصومه ، وتلك هى العجيبةُ حقّا ، لقد نازل الأستاذ وجدى الشيوعية كما نازلَ غيرها منَ المذاهب الهدامة الوافدة ، ولم يكنْ فى نزالِه ذا عاطفةٍ متحمّسةٍ فحسب ، ولكنه كان ذا منطقٍ عقلىّ واضح المهيع ، وهو بِوَحْى هذا المنطق الواضح ،

---

(١) مجلة الأزهر : المجلد الحادى عشر ، سنة ١٣٥٩ هـ . ص ١٠١ .

يُحدّد مجرى الحديث فلا يندفع فيه إلى استطرادات فسيحةٍ تنتقل بعقل القارئ في شتّى الأودية ، بدلَ أن تحصره في حيّز محدود المعالم ، بارز الاتجاه ، فقد قالَ في بدء حديثه إن حياةَ الشعوب الاجتماعية تقوُم على سنّةٍ طبيعيّة ثابتةٍ من التطور التدريجي فلا يُستطاع نقلُها من حالٍ إلى حالٍ بنظام يُبتكر ، أو ببرنامجٍ يُتخيّل ، ومن هذا القبيل جاءتْ جمهورية أفلاطون وسياسة أرسطو وكلّ المدن الفاضلة فلم تُغن شيئا ، والنظرةُ المركزّة إلى أصول المذهب الشيوعي تحُدّها في ثلاثةِ أشياء رئيسيّة ، أولها مَحْوُ المِلْكية الفردية ، والحقوق الوراثية ، وجعل الأرض وما عليها ملكا لجميع الأفراد . وثانيها حذفُ رءوس الأموال الفردية ، وجعلُ الحكومة قيّمةً عليها ، وثالثها استئصال شأفة الدين من المجتمع باعتباره ألدّ أعداء الشيوعية .

أما الأصلُ الأول وهو محو الملكية الفردية فمناقضٌ للوضع الطبيعي ، لأنّ الناس كانوا في أوّل نشأتهم لا يعرفونَ الملكية ، بل ينحصرُ جهدهم في الحصول على الغذاء ، ثم هُدُوا إلى الزراعة التي تُشبع الجوعة فحسب ، حتّى إذا تقدّم الاجتماع ، وزادتِ المعرفة بأدواتِ التحصيل ، وتميّزت الأسر ، وُجِدت الملكيةُ الفردية . فالملكية إذنْ ارتقاءٌ من الشيوعية إلى ما فوقها ، فإنْ عادت أمّةٌ إلى الشيوعية الأولى زايَلَها ما ابتنى على الملكيّة من وشائج الاجتماع ومناعاته وأصبحتْ رهَن ثورةٍ عاتية تفكّك الأوصال ، وإذا كان الشيوعيون يريدون أن يمنعوا كسب إنسان فوقَ حاجته ، فإنهم بذلك يقتلونَ روح التنافس المشروع في نفوسِ الآحاد ، فتصبحُ الكافّة سواسِيَةً في الفاقة والعدم ، ولن يَمنع ذلك وجود حكومةٍ مسيطرة على الثروة العامة ، لأنّ قيام الحكومة مقام الأفراد يحُيلهم إلى آلاتٍ لا تجد الحافز إلى الإنتاج ، كما يُشيع الخوف والهلع حين يرى الفرد أصحابَ الأمر يبثّون حوله الأرصاد والعيون حذراً من تذمّره الداعي إلى الثورة ، ويصبح بعضُ الأمّة جواسيسَ على بعضها الآخر فيقع التنازع ، ويليه الخراب .

هذا عن الأصل الأول ، أما الأصل الثاني وهو الهادف إلى محوِ طبقة الأغنياء لتتحسّنَ حالة الفقراء فباطل ، لأنّ الدهماء ليسوُا فقراءً لأنّ بضعةَ رجالٍ من أصحاب الملايين قد احتكَرُوا الثروة ، بل لأنّ مقدار ما تُنتجهُ الأرضُ في بيئتهم من المواد الغذائية لا يكفي دوُن سعي جاهد لاستِنْبات الزرع ، والبحثِ عن المعادن ،

وقد كتَب الأحرار من مفكّرِى الرُّوس أنفسِهم ما يؤيد ذلك فقال الأستاذ (نوفيكو) « إن المالَ الذى يراد تقسيمه غير كافٍ لحاجةِ الناس ، إذ لوْ صُودرت الأرباحُ الفردية وقُسّمت على الناس فِي الدولة الواحدة ، لما نالَ أحدٌ أكثر من ١٢٪ من دخلهِ الحالىّ ، فالمليونير الأمريكى (بير مور مورجان) يحصل على ثلاثةٍ وثمانين مليونا من الفرنكات – مثلا – فى السنةِ الواحدة . فإنْ صُودر هذا الدخل وقُسّم على إخوانِه الأمريكيين ، نال الواحد منهم أقلّ من فرنك ! فهل يُغنى ذلك شيئاً فى رفع المستوى المادّى ! » .

ثم إنّ السيطرة الحكومية بَعد القضاءِ على ذوى الثراء تقْضِى أيضاً على عواطف التنافس فى الصدور ، وتشل ملكاتِ الطموح ، فتحرمُ مجموعَ الأمة من الجهود العظيمة فى إقامةِ المشروعات النافعه ، وبذلك ينهار الوضع الاقتصادى وتجوع الأمة .

أقول ، وهذا ما حدَث فعلاً فى كل بلد شيوعى ، بزيادةِ خطرٍ آخر ، هو أنّ الرؤساء فى دُوَل الشيوعية جميعا ، لم يَصْدقُوا الناس فيما يدّعون ، إذ جمعوا لأنفسِهم من الأموال الطائلة ما سَرقوه سِرًّا دون جهد ، ثم عاشوا عيشةَ الترف البالغ فى قُصورٍ تُحاكى ترَف الأباطرة الكبار ، وقد افتنّ من يَقْدِرُ على النهب فى ابتلاع ما يصل إليه . وبذلكَ جاعتِ الأمم ، وثارتِ الجموع ، وسقطت الشيّوعيةُ دون رثاء .

فإذا انتقلَ الأستاذ وجدى إلى الأصل الثالث ، وهو استئصَالُ الدين من المجتمع باعتباره ألدّ الأعداء ، فإنّ الكاتب الكبير هنا يجولُ فى ميدانه الذّى خُلق لإحراز القصب السابق فى مبارياته ، إذ تهكّمَ ممن يقولون أنّ كل مجتمع طبقّى يتولّد فيه الدين تحتَ تأثيرِ النير الاقتصادى ، لأنّ الدين غريزّة توجد فى النفوس قبلَ أن يعرف أصحابُها نظامَ الطبقات ، فكيف يتولّدُ مِن هذا النظام ، والدّينُ لا يستمد سلطانَه من جُوع الجماعات ولا مِن وقوعهم تحتَ براثن القادة الظالمين ، بل يستمدّه من أشرفِ عواطف النفس ، وأكرمِ غرائز العقل وقد ثبت بالمشاهدة أنّ الإنسان إذا كانتْ قواه مستوعَبةً فى طلب القوت ، ضَعُفَ سلطانُ الدين عليه ، ولم يجِدْ وقتاً للنظر فى نفسه ومصيرها ، ولا للفكِر وآدابه ، وكثيراً ما أدّاه شظفُ العيْش إلى الكفر الصريح ، وما ارتُكبت الجرائم ، إلّا حين يَخْفُت صوتُ الدين فى النفوس ،

والدينُ بعد ذلك مُفترىً عليه حين يُقال إنه يستبقى العادات البالية ، ويُحْيِى النزعات الرجعية ، ويخلق شريعةَ العبودية ، ففى فرنسا وانجلترا وأمريكا لا يزال للدين صولتُه ورجالُه الذين يُاركون الرؤساء إذا تمسّكوا بالدين ، وما رأينا الدّين مانعاً هناك من تطور العلاقات بين الحكومات والشعوب ، ولا مِن تهذيب الصلات بين أصحاب الأموال والعمال حتى اعتبر العمل ورأس المال متساويين فى الحقوق !! واعترفت الحكومة بالنقابات العمالية ، وسمحت لكل مظلوم أن يلجأ إلى دور القضاء لينال حقه الممنوع ، وذلك كلّه دون التنكر للدين ، أما الدين الإسلامى فقد أنقذ العرب بدءاً من ظلمات الجهالة ، ثم أنقذ العالم حين رفرفت رايته على الأمم التى اهتدت به ! وإذنْ فالدين باعث ارتقاء لا هبوط ! تلك نقاطٌ مركزةٌ مما بسطه الأستاذ ، وقد أثبتت الأيام صحة منحاه بما هو مشاهد للعيان .

— ٤ —

أخصّ ما كتبه الأستاذ وجدى عن المرأة المسلمة ببعض التفصيل ، لأن الكاتب الكبير قد تعهّد قضية المرأة المسلمة بالشرح والتوضيح منذُ أخرج الأستاذ الكبير قاسم أمين رحمه الله كتابيْه تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة ، إذ كانَ أول من نقد المخالفَ من آرائه نقداً موضوعيا حازَ ارتياح المنصفين ، وأقولُ نقدا موضوعيا لأن بعض الغُلاة ممن واجهوا صاحبَ تحرير المرأة تركوا اللّباب المعترضَ عليه إلى السّباب والتهكم ، فضاعتْ نقداتهم جوار ما يتلبّسها من شططٍ لا تعرفه آدابُ المناظرة والبحث ، والعجيبُ أن الأستاذ وجدى رحمه الله قد قابل مثل هذا الهجوم المتعسّف حين بسطَ وجهة نظرة فى الأربعينيات بصدد حقّ المرأة فى الانتخاب ، إذ تهجم عليه مَن لم يعرف قدرَ نفسه ، قبلَ أن يعرف قدر الكاتب الكريم ، ولا أدْرى لماذا يُحاول من يدعّون الغيرة على الحقائق الإسلامية أن يُهاجموا كلَّ من خالفهم فى منحىً من مناحى التفكير ، وكأنّه عدّو حاقد ، لا أنّه مسلم صادق يحاربُ معهم فى جبهة واحدة هى جبهةُ الدفاع عن الإسلام ، وقد أمرنا الله أن نجادل أهل الكتاب بالتى هى أحسن ، فكيفَ نجادل من يتسنّمون الذروة فى قيادة الفكر الإسلامى مهاجمةَ العدو اللجوج ، وهل من حقائق الإسلام التى نتظاهر بالدفاع عنها أن نتطاول على ذوى القدمة السالفة فى مضمار البحث الجاد بلا هدى أو برهان ؟!

لقد كان كتاب « المرأة المسلمة » المنار الأوّل لمن يُريد رأى الإسلام فى قضية المرأة ، وكانَ الأستاذ وجدى من النّزاهة والإنصاف بحيثُ أنزلهُ معارضوه حينئذٍ منازل التقدير والإعجاب ، فقد أوضحَ أن تلاحم الشرق بالغرب جعلَ بعض المتسرعين يروْن نقل عادات الغرب كما هى دون نظرٍ إلى واقع المجتمع الإسلامى وقال إنّنا نقلّد الغرب دون أن يوجد التناسب المطابق بين المقلّد والمقلَّد ، لأنّ الباحث المدقق فى أحوالِنا الاجتماعية يجد أنّ حافظة الأمة الإسلامية لا تتشابه فى كلّ وجه بحافظة الأمم الغربية التى تُدعى الآن إلى احتذائِها فتكونُ النّصيحةُ بالتقليد نصيحةً بالاستخذاء والتلاشى ، ثم أفاضَ الأستاذ في إيضاح الخلاف العضوى فى تكوين جسمى الرجل والمرأة ، كى يؤدّى كل منهما وظيفته فى الحياة وفق ما يناسب تركيبه العضوى ، وهو كلامٌ أصبح الآن من البدهيات ولكنّه فى العقدِ الأخير من القرن التاسع عشر كان داعياً للانتباه ، ثم أوضَح آراء مَن ينادون بالتزام المرأة الأوربية وظيفتها الخاصّة بإدارة المنزل وتربية الأولاد ، وهمْ من أعلامِ الفكر فى بلادهم ، فلماذا نصُرّ على تجاهل آرائهم ، ونميلُ إلى آراء المتحللين من القيود ، فهل كتب علينا نحن الشرقيين أن نعتمد على المتطرفين وحدهم لنأتى بالباهر الغريب .

أما ضرورةُ الحياة التى يتعلل بها من يسمون أنفسهم أنصار المرأة ، فقد ألزمت الشريعة الإسلامية مَحارمها بكلّ ما تطلبّه من النفقات ، كما ألزمتْ بيت المال أن يقوم بنفقاتها إذا فَقدتِ العائلَ المعين ، وما يبدو من العِلَل المزمنة لَدَيْنا فى مسائل الطلاق وتعدد الزوجات والحجاب ، هو علّةٌ لدى من لا يَعرفون حقائق هذه الأشياء ، أما مَن يدرس الشريعَة دراسةً واضحة ، فسيرى أن كلّ حكمٍ فقهي أجمعَ عليه الأئمة هو طريقُ صلاحِها الوحيد ، أما سجنُ المرأة المزعوم فهو مجردُ ادعاءٍ باطل ، فإذا كانتْ إقامَة المرأة فى منزلها لتشغل وقتها بحاجات البيت وتربية الأطفال ، سِجْناً لها يَحبسُ حريتها الواجبة ، فإنّ لزوم التاجر لمتجره والزارع لحقْله والصانع لمصنعه يعتبر سجناً لهؤلاء ، إذ يشتغلونَ سحابة يومهم فيما يَرتزقون منه ، دون أن يشعروا بقيد ! فكيفَ يكون اشتغال المرأة بواجب بيتها سجنا ! وهو أكثر حرية لها من مصنع الصانع ، ومتجر التاجر ، لأنهّا وحدها ربة البيت ، ولا كذلك العاملُ فى المصنع ، والمدرس فى المدرسة ، وكلُّ من يزاول عمله المعاشِيّ فى مجتمع عام .

وممّا يدعُو إلى الارتياحِ أنّ كثيرا ممّن كانوا يعارضون الأستاذ فريد وجدى فى اتجاهِه ، قد أطالُوا النظر فى كتابه إطالة الفحص الدارس ، حتّى اقتنعُوا بأفكاره ، وفيهِمْ من ذوى الصدارة الفكرية من يشار إليهم بالبنان ، فقد ألقى الأديب الكبير الدكتور منصور فهمى كلمةً ضافية فى الأربعينات تحت عنوان (نساؤنا بين التقليد والتجديد) [1] ، تحدّث فيها عن قاسم أمين وما طرأ من فهمٍ سّيىء لآرائه ، ثم اتجهَ وجهة الأستاذ فريد وجدى فسار مع أفكارِه سَيْرَ المُحَبِّذ الموافق ، واستشهدَ بنصوصٍ من كتاب (المرأة المسلمة) وأنكر ما أنكرهُ الأستاذ وجدى من التبذّل وفساد الذوق ومحاولة التغرير بالمرأة حين تُخدع بما يقال عن الاختلاط فى المصنع والمتجر مزاحمةً بالمنكب فى نضال غير متكافىء قائلا بصدد ذلك :

« وقد صدق الأستاذ وجدى فيما كتب ، فمُحاكَاتُنا للغرب ، تدفعُ نساءَنا الحديثاتِ فى كلّ ميادين العمل الاجتماعى ويُغَرِّر بهنّ لِيسِرْنَ فى هذا السبيل ، من غير قيد ولا حذر ، وقد توقّع الكثيرُ من علماء الاجتماع سوء عاقبة هذا التمادِى فى التغرير بالمرأة ، وتوريط المجتمع فى كوارثَ خلقية واقتصادية حتّى إن « أوجست كومت » وهو رأس من رءوسِ فلاسفة الغربيّين كان يَرى من واجب الهيئة الاجتماعية أن تَضْمنَ للنساء حياةً ناعمة مريحة إذا أعوزهُنّ من يكفلهنّ من الأقارب والأزواج ، ليتجهْن وجهتهنّ فيما خُلقن لَهُ من إسعاد الأسرة ودعم أساسها ، وهو ما يساير تعاليمِ الإسلام .

وعلى صفحاتِ مجلة الأزهر ترددتْ آراء الأستاذ فى قضية المرأة ، لمناسباتٍ شتى ، لأنّ المُطالبات بما يُسمّى حقوق المرأة يجدْن من تشجيع الصّحافة ما يُرضينَ به فضولهنّ من نشر الآراء المترددة فى المحيط الاجتماعى منذ نادى قاسم أمين بدعوته ، وأكثرهُن لم يَقْرأْنَ ما قال قاسم أمين ، بلْ لا يُطِقْنَ أن يَصْبِرْن على دراسة بحثٍ منهجى ، وقد تركنَ منازلهنّ للمربيات والخادمات . وحَرَصْنَ على الاجتماعات المتلألئة ، ليتردّد لَهُنّ صدىً بين الناس ، وفيهنّ من تزوجتْ ثم طُلّقت ، فهى بِسيرتها لا تصلحُ أن تكونَ قُدوةً لبنات جنسها ، ولكنَّ الصحافة تُرحب ، والصور المتلألئة تظهر ،

---

(١) مجلة الرسالة : العدد ٤٠٦ فى ١٤ ابريل ١٩٤١ م .

والذكر يذيع ، وهذا كلُّ شيء ، بل خاتِمةُ كلّ شيء يبتغين ! دَأَبَ الأستاذ فريد وجدى على تعقّب ما يعنّ من آراء الشاذّات والشاذّين ، وفيهمْ من ذهب إلى أنّ الإسلام يُحرّم على المرأة أن تتعلّم ، ويُؤثر أن تظّل جاهلة ، ففسحَ المجالَ للكاتب الكبير أن يردّد ما قررَّهُ من قبل بتعبير آخر ، فأفرد بحثاً تحت عنوان (هل للمرأة أن تتعلم العلوم العالية) قال فيه إن الإسلامَ لم يضع حداً لنشاط المرأة العقلى فأباحَ لها أن تتوسّع فى دراسة العلوم ما أمكنَها التوسع ، ولم يمنعها أن تنشرَ علمها فى الناس ويأخذ الرجالُ عنها ، وضربَ المثل بنماذج مشتهرة من فُضليات الصحابة ومن تَلَتْهُنّ من نساء الصدر الأول ، وفرّق بَين مُشاركة المرأة الرجل فى دراسة العلم وبَيْن مشاركتها إياه فى أعباء العمل الشّاق بالمصنع والمنجم ، إذ أنّ هذا العمل المرهق يَحول دونَ أداءِ رسالتها الطبيعية فى الحمل والإنجاب والتربية ، وإنّ أكثر ما نشكو منه فى بناء الجيل الصاعد انصرافَ الأمّهات عن تعهد أبنائهن إلى وظائف مظهرية يَذهب أجُرها أو أكثرُه فى الذى تنفقهُ المرأة على الملبس والمظهر وأجر الحاضنة ونفقات الرّواح والمجىء ، بمعنَى أن النفعَ المادى الذى ينشدُه هؤلاء لا يُرضى الحاجة المطمئنة ، ويظلّ الزوج صاحبَ العطاء ، هذّا إلى ابتذال المرأة واكتسابها بعضَ أخلاقِ الرجل من الخشونة والمجادلة ، بحيث لا تصبح حاجةً من حاجات النفس الظامئة إلى الحديث المؤنس والرّقة الحانية ، بل تكونُ شريكاً يتباهى بعمله وأجره ، ويُعْلن استقلالَه التام فى تكبّر لا تعرفهُ الأُسَر الرّاضية ، ولا البيوتُ السعيدة من قبل ، وقد فَطنت أوربا إلى افتقادِ السعادة المنزلية ، وحرمان الأطفال من بَسمات العطف ، وحَنان الصدر ، فنادَى أكثر المُصلحين برجوعِ المرأة إلى وكرها ، وأخذوا يضعون حدًّا لعملها الخارجى ، فاستجَاب لهم من لمسوا الضياع من الأزواج ، ولَمَسْنَ الإرهاق من الزوجات ، وما شكتْ منه أوربا لن نلتفتَ إليه حتى نَمْرضَ به ونَعْتلّ ثم نبحث عن الدواء .

وثانيةٌ أطالتْ فيها الصحف ، ورأتْ سيّداتُ الصالون أن يسهمْن فى تأريثها ، تلك هى مسألةُ تعدّد الزوجة دون الاقتصارِ على واحدة ، وقد أشبَع الأستاذ وجهةَ النظر الإسلامية تحليلاً وتعليلا بما لا مزيد عليه ، ثم جابهه بعضُ المشاهير من رجال القانون لدينا باعتراضاتٍ ظنّها مقنعة ملزمة ، ولكنّ الكاتب الكبر عَصَف بها عصْفَ الريّح بالرمال ، فأوضحَ أن الإسلامَ حين أقرّ مبدأ التعدّد لمْ يُساير الشهوات الخسيسة

كما يتوهّم المعترض ، بل ليحصَر مُيول ذوى القوة الجنسية فى نطاق لا يتعدّونه ، إذْ فى الرجال من جُبلوا على الطمعِ فى غير واحدة ، ولا بدّ أن يُحققوا رغَبَاتِهم عن طريق الانحراف ، فليكن التحقيق إذنْ من بابٍ مشروع ، وقد حَظَرتْ أوربا تعدّد الزوجة ، ولكنّها أباحت العلاقة الآثمة بين الجنسيْن ، بل بيْن آحاد الجنس الواحد إذ اعترفت بعضُ الدول باتصال الرجل بالرجل ، وصدَر بذلك قانونٌ لا أدرى كيف يُسَّن فى مجتمعٍ يدّعِى قيادة المدنية بين الشعوب ! فانحطّ الذوق فى هذه المجتمعات انحطاطاً لا مثيل له ، ثم إنّ الذين يحرّمون الزوجة الثانية يُبيحون للزوج أن تكونَ له خليلةٌ وخليلاتٌ ، ولو سألْنا أيّة زوجةٍ عاقلة عن تَعدّد الزوجة والمخادنة ، لآثرتْ أن يتزوجَ الرجلُ عليها زوجةً ثانية بدل أن يُخادن اثْنَتيْن وثلاثاً دون عائق ، فيبدّدَ عليهنّ ماله وصحّته ووقته ، ويصبحَ خالِعاً العذار ، جارياً فى أعقابِ شهواته ، ينفق على الخليلات ، ويضنّ على الحليلة وأولادها ، ولنْ يرجع إليها إلّا إذا أقْعَده المرض ، أو نضبت الثروة ، وهو رجوعٌ لاصلاح معه ، لأن الجرحَ قد اندمل على صديد ! فى مثلِ هذه المعانى جالَ قلم الأستاذ فسطر أكثر من عشر صفحات لا تجد بها غير المقنع السديد ..

هذه إشاراتٌ سريعة تدعُو قارئها أن يرَجع للأصول التى كتبها الأستاذ باسطا متدفقاً ، وأنا أتقدّمُ بها لتكونَ عاملَ شوقٍ للدارس ، وباعثَ همةٍ تَنْفُضُ عنه غُبار القناعة الراضية بالتلخيص والاكتناز ، وقد أصبحت هذه الأصولُ مُيَسَّرة حين قُمت بجمعها فى كتاب خاص ، يجدُه القارئ تحت يده متى شاء فيقف على ثمرات حقل خصيب .

د . محمد رجب البيومى

ذكريات أدبيّة عن :

العلّامة محمد فريد وجدى
مؤلف دائرة معارف القرن العشرين

(بقلم الدكتور محمد رجب البيومى)

قضى ستين عاماً من عمره المديد لم يترك قلمه يوما واحدا إلّا لمرض ، وأبقى من الآثار العلميّة ما لا تقدر على تأليفه لجنةٌ مختارة من الأفذاذ ، وكان آية الآيات فى أدب الحوار ، إذ أبدى من سعة الصدر ، ورحابة النفس ، وجمال التواضع ما يعدّ غريبا فى بابه ، لأن بعْض مناوئيه كان يجادله بالتى هى أقبح ، فلا يجد غير الصفح العاقل ، والتغاضى البصير ، بل يجد الثناء على بعض ما اهتدى إليه خصمه مِنْ حقائق كانت غائبةً عن المنقود ، ولا أُرسل هذا الكلام إرسالا دون دليل ، فلدىّ الشواهد .

لقد جَادلَ المغفور له السيد محمد رشيد رضا فى بعضِ المسائل الدينية ، وكانت فى صاحب المنار رحمه الله حدّةٌ تدفعه إلى التعالى والاستفزاز دون موجب ، وقد تورّطَ فرمى مؤلف دائرة المعارف ومفسّر كتاب الله بالجهل ، وقرأ فريد وجدى شطط مُناظره ، فأغْضى عنه ، وأخذ يناقشه مناقشةَ الصديق للصديق ، وأذكرُ أنّى حادثته فيما كان من أمره مع السيد رشيد رضا ، فقال مبتسما : إنّ كلينْا يحارب فى جبهةٍ واحدة ، هى الجبهة الإسلامية ، وإذا كنّا نُحاوِل الرفق مع خصوم الإسلام لنستدرجهم إلى سماع ما نقول – فإنّ الرفق بأصحاب الاتجاه الواحد أدعى وألزم . وهى وجهة عاقلة لا تجد من يلتزمها غير الآحاد .

كما أذكر أنّ الدكتور محمد حسين هيكل رحمه الله ، قد هَاجم الأستاذ محمد فريد وجدى فى كتاب (أوقات الفراغ) هجوماً قاسيا ، وعاوَد الكرة على صفحاتِ مجلة السياسة الأسبوعية ، فردَّ الأستاذ فى أدب ملتزم ، ثم أخرجَ الدكتور هيكل كتاب (حياة محمد) فقابلهُ الأستاذ محمد فريد وجدى بإطراء ضافٍ ممتد ، وقال إنه من الصفحات الرائعة التى سيكتب لها الخلود ، وللرجل فى هذه المثاليات نماذج

رائعة لا يرتقى إلى مستواها سواه .

(أول تعارف)

كنتُ طالبا بمعهد الزقازيق الثانوى ، فكتبتُ مقالاً متواضعاً عن كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل يدعوه للإسلام ، سارِداً ما روتْه كتب التاريخ عن أثر الكتاب فى نفسيّة الامبراطور الرومانى ، وعن اجتماعه بأبى سفيان وسهيل بن عمرو وسؤاله عن نبىّ العرب ، ثم اجتماعه بالبطارقة ليناقشهم فى أمر النبى الجديد ، ثم أرسلتُ المقال إلى مجلة الأزهر التى يرأس تحريرها الأستاذ محمد فريد وجدى ، وكانَ ذلك تسرّعاً مِن طالب ناشئ يبعثُ بمقاله المبتدئ إلى أكبر مجلّة إسلامية فى ذلك العهد ، ففوجئتُ بعد أسبوعيْن بمظروف كبير ، يأتى إلىّ بالبريد ، ففضضتُه لأجدَ مقالى مع ردٍّ توجيهىّ من الأستاذ وجدى ، خلاصتُه أنّه سُرَّ أكبر السرور باتّجاه طالب ناشئ إلى الكتابة فى التاريخ النبوى ، وإنه يُباركُ هذا الاتجاه ويُحَبّذه ، ولكنه يلفتنى إلى شئ هام ، هو أنّ المقال الإسلامىّ الجيّد ليسَ إعادةً للأحداث المدونّة بأسلوب مختلف الألفاظ ، ولكنَّ الواجب أن يكون لِلكاتب رأيه الخاص ، وتَعْليقه الشخصى على الوقائع ، وتحليلهُ الدقيق للمواقف الغامضة ، وحينئذٍ يُضيف الجديد إلى القديم المتعارف ، ثم رجانى فى تواضعٍ أنْ أحاول الاستفادة مما قال ، وذلك لا يتأتّى إلا بدوام المطالعةِ ، والصبر على القراءة المفيدة ، حتى تتكوّنَ لدىّ ملكةُ الكتابة على نحو كريم .

قرأتُ الخطاب عدّة مرات ، وكان أولَ خطاب يصلنى من كاتبٍ مرموق يحتلُّ الصدارة بيْن ذوى الأقلام ، فأعجبتُ به أشد الإعجاب ، ولكن حافزاً دافعاً حثّنِى على أنْ أردّ عليه فى إجلال وإكبار ، فكتبتُ أقول له إنى شاكرٌ توجيهه السديد ، وأنه سيظلُّ مصباحا أَستضىء به ، ولكنّى مع ذلك أصارحُه بهاجسٍ يهجس فى نفسى ، هو أنّى أقرأُ لكثيرٍ من العلماء مقالاتٍ تُعيد التاريخ دون إضافة ، ويُنشَر بعضها بمجلة الأزهر التى يُشرفُ عليها الأستاذ الكبير ، فما تفسيُر ذلك ؟! وانتظرتُ قليلاً حتى سعدتُ بردٍّ للأستاذ قال فيه : إنه ارتاحَ كثيراً لاستجابتى لتوجيهه ، وسأجْنى ثمرةً يانعةً بحرصى على القراءة النافعة ، أمّا المقالاتُ التى أشرتُ إليها ، فهى فى مُستوىً ضعيف لا محالة ، ولكنّ كُتّابَها من كبار الشيوخ ، ولن يخْضَعُوا لتوجيهِ

من مثله ، والصحيفةُ صحيفةُ الأزهر ، وشيوخُه فى مقدمة كتّابها ، لذلك فهوَ يتّجهُ بالتوجيه إلى أمثالى من الطلاب ، معتقداً أنهم يُبشّرون بأملٍ مرتقب إن شاء الله !

قرأت الردَّ فاقتنعتُ به ، وأحَسْست أن الكاتب الكبير أصبحَ قريباً من نفسى ، بل أحسستُ أنّه أستاذى الذى أتلقّى عليه العلم ، وقد سارعتُ إلى جمع مؤلفاته وأخذتُ أقرؤها بنشوة لا أجدها عند قراءتى لغيره .

(زميل كريم)

كان لى زميل من طلاب المعهد الثانوى هو الأديب (محمد المتولى النظامى) رحمه الله ، وقد اتكأ على جَيْبه ومالِ أبيه ، فأصدَر كتاباً صغيرا ، تحت عنوان (خواطر ولمحات) وبعث به إلى كُبريات الصحف والمجلّات من أمثال الأهرام والبلاغ والمصرى والهلال والرسالة والثقافة وغيرها راجياً أن تَنْشر إحدى هذه الصحف سطورا مشجعّةً عن الكتاب ، فلم يجدْ أدنَى أثرٍ يدلّ على كتابهِ ، مع أنّه أرسلَ الكتابَ بالبريد المسّجل ، وقد طلب من رئيس التحرير أن يتكرّم بالتّنويه عن كتابه ، أو نَقْده ، فعزّ عليه أن يُهمل هذا الإهْمال ، وجاءنى شاكيا متألّمًا ، فسألْته : هل أرسلت نسخةً إلى مجلة الأزهر فأجاب بالنّفى ، قلتُ : سارعْ بإرسال نسخة باسم الأستاذ محمد فريد وجدى فقد يُعقّب عليها .

ثم كانت المفاجأة حين صدرَ العدد الجديد من مجلّة الأزهر (ربيع الثانى ١٣٦٢) وبه صفحة كاملةٌ من القطع الكبير تتحدثُ عن كتاب الطالب الزميل ، وقد بدأها الأستاذ وجدى بقوله :

« تنبتُ فى حُقول الجامعة الأزهرية يراعاتٌ من الطراز الممتاز ستلعبُ دوراً بعيد الشأن ، فى إعادة مجده ، وأنّ هذه اليراعات ليترشّح منها ، ولما تبلغ غايةَ نموها ، ما ينمُّ عما ستقوم به من رسالات علمية وأدّبية نرى المجتمع الإسلامى فى أشدّ حاجة إليها اليوم ، وبين يدَىّ الساعة رسالةٌ تحت عنوان (خواطر ولمحات) بقلم (محمد المتولى النظامى) لا أبالغ إذا قلتُ إنها بدايةٌ تبشر بمستقبل بعيد الأثر فى تبليغ رسالة الأزهر » إلى آخر ما جاء فى الصفحة الكاملة .

وقد سُرّ الزميل سرور المندهش الفخور ، وسافر إلى القاهرة كى يقابل الأستاذ شاكرا مقدّرا ، وكانَ ممّا سمعه منه ، إنّه يرحبّ بإنتاجِ الشباب ، ويقدّمه فى التعريف على إنتاجِ الشيوخ ، لأنّ الشاب محتاجٌ إلى من يشدّ أزره كى يواصل النضال ، وإنّه يقاسى مقاساةً أليمةً من أساتذةٍ كبار لا يكتبون الجيد ، ثم يطلبون أن تخصّهم مجلّة الأزهر بما تخصّ به النّابغين من الشباب ، وقد يضطّر إلى ترضيتِهمْ بسُطور ضئيلة ، ولكنه يفسح المجال بإخلاص واهتمام للشباب الناهض !

هذا ما قاله الأستاذ ، وفيه عبرة وتوجيه وانتقاد .

(إلى القاهرة)

انتقلتُ إلى القاهرة طالباً بكلية اللّغة العربية بالأزهر الشريف ، فكان لقاءُ الأستاذ وجدى أوّلَ أمنية أحقّقها ، فتقدمت إليه مذكّرا بما كان أرسلَه إلىّ من رسائل ، فهشّ للقائى ، وشجّعنى أن أزورَه كثيرا كثيرا ، فحدثته عن مقالاتٍ قرأتها بقلمه وحاولتُ احتذاءها ، وأهدانى طائفةً من كتبه القيمّة ، وقد حدثتْ نادرة خاصةٌ به تعجبت لها ، إذ كنتُ أزور قريةً ريفيّة ، وكان عامل البريد بها مسيحيّا ذا ثقافة ، فجمعَنا مجلسٌ علمىّ عرفت من خِلاله أن الأستاذ محمد فريد وجدى راسله مراسلاتٍ علمية بلغتْ عشر رسالات ، وكلُّ رسالةٍ تزيد على ست صفحات كبار ، فيؤلّف مجموعها كتاباً قيمّا ، فتعجبتُ كثيرا ، وقلتُ فى نفسى لماذا لم ينشر الأستاذُ رسائله العشر فى صحِيفةٍ سيّارة أو يجمعها فى كتاب مطبوع لينتفعَ الناس جميعا بثماره الفكرية ، بدلَ أن يخصّ بها إنسانًا واحدا فى قرية صغيرة ، وصَمّمتُ على أنْ أسألَهُ عما صنع ، فلمّا جئتُ لزيارته قصصتُ عليه ما سمعت ، وماَ دار بخلدى ، فنظر إلىّ باسماً ، ثم قال فى هدوء : لقد كتبتُ مقالاً عن الإسلام والمسيحيّة فى مجلة الأزهر ، فأرسل إلىّ هذا الرجل ردًّا مليئا بالأفكار الخاطئة ، وخِفْتُ أن أنشره معقّبا بدحضهِ ، فيُحْدثُ النشرُ بلبلةً لدى إخواننا المسيحيين لا أرتضيها ، ثم خشيت أن أهمله فيظنّ حديثه صحيحا وأنى أهملته عن غرض ، فرأيتُ أن أفنّد آراءه فى كتابٍ خاص بعثتُ به إليه ، ولكنهُ ردّ فى إسهاب ، وانتقل من موضوع إلى موضوع ، فدفعنى ضميرى إلى الردّ عليه ، وكررّ التعقيب فكرّرت الرد آملا أن ينتهى النقاش عند حدّ ، حتى إذا نَفد صبرى اعتذرتُ بعدَ عشر رسائل ! ثم قال فى تواضع :

إنّ الفكر أمانة ، وصاحبُ القلم ليس مخيّراً دائما فيما يكتب ، ولكنه يُفاجأ أحيانا بما لا سبيل إلى السكوت عنه ، فيحمل يراعه كما يحمل المجاهد فى حومة القتال سلاحه ، والله عليم بذات الصدور .

نزلتْ كلمات الأستاذ على نفسي نزول المطر على الأرض الجدباء ، فأحدثتْ فى خواطرى اهتزازاً ناميا نضيرا بما يحملُ من ثمر وعطر . وجعلتُ أفكّر فى قوله : إن الفكر أمانة ، وأن صاحبَ القلم يفاجأ أحيانا بما لا سبيَل إلى السكوت عنه فأسأل نفسى : أكُلُّ صاحب قلَمٍ يصنع ما يصنع الأستاذ ؟ ثم أُمعن فى الموضوع فأسأل : أهناَك من أصحاب الأقلام خمسة أو أربعة يصنعون ما يصَنع الأستاذ ؟ ولَمْ آيس ، لأنّى أعلم أن الإسلام الصحيح إذا خامر نفساً مطمئنّة ارتفع بها إلى أرفع المستويات فأتتْ بما يعدّ شذوذا لدى العامة وهو عند صاحبه قياسىّ لا شذوذ فيه .

وعجيبة أخرى ، فإنّ الأستاذ محمد فَريد وجدى عُرِف برأيه المعتدل فيما يُسمَّى بتحرير المرأة ، وقد عاصَر قضيةَ التحرير هذه منذ كتب الأستاذ قاسم أمين كتابه الذائع ، فردَّ عليه حينئذ بكتاب شهير تحت عنوان (المرأة المسلمة) كان المورد الأوّل لمنْ يريد رأىَ الإسلام فى هذه القضَية ذات الضجيج الصاخب ، ثم وَاصَل الكاتبُ الكبير بحوثه عن المرأة فى الإسلام ، وأبانَ وجهة الشريعة فى مسائل الزواج والأسرة وتعدد الزوجات وتعليم المرأة والطلاق بما لا مزيد عليه ، وقد كتب مقالاً فى بعض المناسبات لم يُرضِ أحدَ الوعّاظ ممّن لا يبلغُون مرتبة التلاميذ بالنسبة للأستاذ ، فكتبَ مقالا تعدّىَ فيه القول إلى القائل فَوصفَه بما هو مبرأٌ منه ، وتهوّرَ فى كلماتٍ ما كان ينبغى أن تَصدر من واعظ دينى يجبُ أن يقف عند قول الله : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إنّ ربك هو أعلم بمن ضَلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » ، ونشر الواعظُ مقاله فى صحيفة متواضعة تنتشر فى حيّز محدود ، ولكنّ الأستاذ وجدى قد اطّلعَ عليها ، فأفردَ للرد عليها بحثاً ضافيا فى عدة صفحات ، ولم يتحدث عما وُجّه إليه من انتقاصٍ لا مبرّر له ، بل وَاجَه الأفكار المتنازع عليها بما يؤيّد وجهة نظره بجلاء ، وكان على الواعظ أن يسكت أو أن يُجيب بما علّمه الأستاذ من أدب ، ولكنه ردّ فى تطاول ، وعرفتُ ما كانَ ، فاتصلتُ بالأستاذ وجدى لأقول له : « إن الردّ عَلى

أمثال هذا المتشنّج مما يزيدُ من غروره » ، ولكنّه ابتسم قائلا : ليست القضية قضيته ولا قضيتى ، ولكنها قضيةُ القارئ البصير ، وهذا القارئ سيتلُو الرأى ونقيضَه ثم يجنح إلى ما يستصوب ، فالردّ واجب ، ومحاولةُ تجاهله تأييدٌ للخطأ ، وهزيمة للصواب !

(مقالات شتى)

ظل الأستاذ وجدى قرابة عشرين عاما رئيساً لتحرير مجلة الأزهر ، وكان له فى كل عدد عدّة مقالات بحيث لو جُمعت آثاره فى مجلة الأزهر وحدها لكوّنت أكثر من عشرة مجلدات ، تتحدثُ عن أدق المشكلات الاجتماعية وتردُّ أعتَى التيارات الإلحاديّة ، وتحلّل المبادئ الإنسانية الرفيعة للدين الإسلامى الحنيف ، وقد وجدت نفراً من أدعياء البحث يسطون على كثير من أفكارها فى غير حياء ، ولم يُشيروا إلى المصدر المنهوب أدْنَى إشارة ، فقُمتُ بجمع ما كتبه تحت عنوان (مهمة الإسلام فى العالم) وهو أربعة وعشرون بحثاً تُوضّح رسالة الإسلام فى إنقاذ البشرية ، وإخراجها من ظلماتها الدامسة إلى مشارق النور ، ثم تفضلت اللجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف بطبع هذه البحوث الجليلة فى كتاب خاص أنيق المظهر ، جيّد الطبع ، وقد صُدِّر بكلمة ممتازة لأخى الأستاذ الدكتور عبد الودود شلبى أمين اللجنة العليا الذى اهتمّ بنشر الكتاب على أوسع نطاق ، وقد غصّ به الذين سرقوا أفكاره ، ناسين أن الحق حق ، وأنه لا يعدم أنصاره ، مهما غمره النسيان ، ولا تزالُ بين بحوث الأستاذ فى مجلدات مجلة الأزهر عدة كتبٍ قيّمة منها الفصول الرائعة التى كتبها تحت عنوان (السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة) [1] فى أكثر من أربعين فصلا ، ومنها ما كتبه تحت عنوان (الروح الإسلامية ومدى تأثيرها فى النفوس) ومنها ما كتبه تحت عنوان (ليس من هنا نبدأ) ومنها ما كتبه تحت عنوان (فى معترك الفلسفيّين) ومجلدات المجلّة محفوظة بمكتبات القاهرة والمعاهد الدينيّة ، فهل تجد هذه اللآلئ المتناثرة نظاما يجمعها فى نسق متّصل ، ليسهل تداولها بين القارئين .

---

(١) تفضلت الدار المصرية اللبنانية للنشر ، بطبع هذه الفصول الرائعة فى كتاب خاص ، صادف ارتياح أهل العلم ، وأنا بسبيل إعداد كتب أخرى للأستاذ وجدى آملا أن ترى النور قريبا إن شاء الله .

إيثار وإنصاف

تلقّى الأستاذ الإمام محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر سؤالاً عن الشرك وعقوبته الأخروية ، وقد اشتط السائل حين قرّر أن الإسلام بالَغَ مبالغةً كبرى فى عقوبة الشرك ، إذ جعله دونَ الذنوب جُرما غير مغفور ، إذ يقول الله عز وجل فى كتابه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴾ (١) . وتطرّق السائل إلى تعسُّفات ظَنِّية لا تتصّل إلى اليقين بسبب ، فأحال الأستاذ الإمام هذا السؤالَ إلى الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى وإلى الأستاذ العلامة محمد فريد وجدى ، ليكتب كل منهما ردّا شافياً من وجهة نظره ، وكأنّى بالشيخ الأكبر ، وقد رأى الأستاذيْن مع اشتراكهما فى جبهةٍ واحدة وهى جبهة الدفاع المخلصِ عن الإسلام يفترقانِ فى الثقافة العلمية افتراقاً يفسح مجالا لوجهتى نظرٍ تتباعد وتتقارب ، وهذا ما كان إذ نَحا الأستاذ الدجوى مَنْحى يعتمد فى أكثره على الأدلة النقليّة مستطرداً إلى أمور تمتّ إلى الموضوع من بعيد ، وقد جاءتْ لأدْنى مناسبة كما يقول الأزهريون . أما الأستاذ وجدى فقد استعان بمقرّرات العلم الحديثِ ليثبتَ أنّ الدين فطرىّ ، وأنّ الشّرك نكسةٌ طارئة كان زوالها محتّما لدى مَن يُقَدِّرون الكرامة الإنسانية ، وقد نَقلَ عن أئمة العلم الاجتماعى فى أوُربّا ، ما يدلُّ على أنّ البشرية كانتْ موحدة فى نشأتها الأولى ، إذ عَبدَت الله وحده مهتديةً بفطرتها الخالصة ، حتّى طَرأً مِن الزلل ما أدّى إلى الشّرك ، كما تابَع آثارَ الانحطاطِ الإنسانى لدى الهمجيّين من الوثنييّن فى بلادٍ مختلفة شرقا وغربا ، وظهرَ مقالاَ الأستاذيْن الدجوى ووجدى متجاوريْن فى عدد واحد ، وقد شاءَ بعض المتحمّسين لمقال الأستاذ وجدى أن يبالغَ فى الثناء عليه مُعقّبا على مقال الأستاذ الدجوى بما يُنبىء عن الاستخفافِ لا التقدير ، وكأنّه كان يريد استمالة الأستاذ بما يقول ، ولكنَّ العلامَة الأصيل ، قاطَع المتحدّث فى أدبٍ . وقالَ إنّه استفادَ من مقال الشيخ الكبير ما أضافَ الجديد إلى رأيه ، وأنه نَشَرهُ قبلَ مقاله ، اهتماماًبه ،

---

(١) سورة النساء : ١١٦ .

واحتفالاً بمَا أفاَض به الرجل الحجّةُ من خواطر تمسُّ الوجدان المسلم ، وترفع من مستواه ، ورجَا الناقدَ أن يعود إلى مقالِ الدجوىّ مرّة ثانيةً ، وألّا يكتفى بالنظرة الأولى ، فتململَ المتكلّم دون أن ينطق ، ثم آثر الانسحاب ، فخرجَ بعد مَدًى قصير .

وشاءَ بعض الحاضرين أن ينتقصَ الناقد بعد خروجه ، ولكنَّ الأستاذ وجدى قاَل فى هُدوء : من يَدْرى لعلّه كان يعتقد صحّة ما يقول . وقد هَديتُه إلى ما غابَ عنْه ، ومن فضله أنْ قَرأ ووازن ، فهو خيرٌ ممّن لم يقرأ ولم يفكّر ، وأحبّ أن تكونَ مجالس العلم موضوّعيةً لا ذاتية ، فهذا أولَى بكرامتنا .. سمعتُ ذلك كلّه فتلقّيتُ درساً من دُروس الأخلاق .

(نظرة إمام كبير)

مَاتَ صاحب جريدة الأهرام جبرائيل تقلا باشا فأفردَ الأستاذ وجدى صحيفةً من مجلة الأزهر للثناء عليه بعد رحيله ، ولكنَّ بعض الّذين لا يفهمون بماحة الإسلام عَدُّوا ذلك موضعَ نقدٍ لا يجوز ، وسارعُوا إلى الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر حينئذٍ يقولُون فى صخب : إنّ بعض الكبار من علماء الأزهر ينتقلون إلى رضوان الله فلا يخصّهم الأستاذ وجدى بنعْىٍ ضافٍ كما فعل مع صاحب الأهرام ، فابتسمَ الشيخ الأكبر وقاَل لمحاوره : أَمَعَكَ مقالُ الأستاذ وجدى ؟ قال : نعم . قال : سلمّ فاقرأ ، فأخذ الشيخ يتْلُو المقال منفعلاً ، وكان الشيخ الأكبر قد قرأه من قبل ، حتّى إذا بلغ القارىء منتصف القول وهو فى قمّة انفعاله ، قاَل له الشيخ سأقرأ أنا ، ثم أخذَ المجلّة ليتلُو فى جمالِ نبرة ، وحُسن إلقاء ، قولَ الأستاذ وجدى :

« إنّ الأزهر ومجلّته لتشاركُ الأمّة فى أساها ، وتذكُر من فضائل الفقيد الكبير ما كانَ يُقابلُ به بحوثَ حضرات العلماء من الاحترام ، ويُحلّها فى أرفع مكانةٍ من الأهرام ، ولطالَما نشرَ مقالات فى موضوعاتٍ علمية بحتةً كان أولى بها المجلّات ، ولكنّه كان يُؤثر أن يكونَ عوناً للأزهر فى أداء رسالته ، وفى عهدِه الجديد ، ومما يدلّ على عنايته بهذه الناحية ، أنّه عندما ثارَ جدالٌ بين القائلين بجواز ترجمة القرآن والذّاهبين إلى تحريمها ، وانتصرَ حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى للقائلين بالجواز ، نَشرَ الأهرام بحثَه فى عدد واحد على طوله ،

و لم يكُنْ فضيلُته شيخاً للأزهر إذ ذاك ، فهذه النزعةُ الشريفة مضافةً إلى الكثير من غيرها لا يصحّ أن تُترك دون تقدير وإعجاب فلا غروَ أنْ عُدّتْ خسارةُ الآراء الحكيمة بموته فادحةً ، أحسنَ الله عزاء أسرته ، وجعل من نجله خلفا جديراً بسلفه العظيم » .

ثم قال الأستاذ متسائلا : أفهمتُم مرمى الجملة الأخيرة !؟ إن الأستاذَ وجدى يعْرفُ أن الأهرام أقوىَ صحف العالم العربىّ ، وأوسعُها انتشاراً ، ويخاف أن تتَخلّى عن طريقة صاحبها الراحل فى تشجيع المباحث الإسلامية ، فأشارَ إلى الخلفِ باحتذاء السلف ! فلو لم يكنْ له فى مِقاله غيرُ هذا التوجيه لكانَ جديراً بالثناء لا بالانتقاد !.

تراجَع المعترض قليلاً ثم سأل : ولماذَا لا يكتبُ الأستاذ وجدى عن الراحلين من العلماء الأزهريّين كما كتب عن صاحبِ الأهرام ؟

فردّ الشيخ يقول : مَن الدارسُ الخبير لهؤلاء ؟ أنتُمْ أم الأستاذ وجدى ! لقد سَكَتُّمْ فلم تكتبوا شيئا وأنتم زملاء وأصدقاء ، وأولُو خبرةٍ بالقوم ؟ أيُلامُ الأستاذ وجدى إنْ سكَتَ عن قومٍ لا يَكادُ يعرف عنهم شيئا ؟ ولَا تُلاَمون وأنتم تَعرفون كلّ شىء ثم تقصّرون ! كنتُ أفهمُ أن يقولَ أحدكم ، كتبتُ مقالاً فى تاريخ فلانٍ رحمه الله ثم حالت المجلة دُون نشره ! هُنا يجبُ أن نسألَ ، وأعرفَ لِمَ حُجِبَ المقال ؟ أمّا أن نلومَ رجلاً محدود الاتّصال بالعلماء لأنه لم يكتبْ عنهم ، ولا نلومَ أنفسنا فكثير ...

وأراد الإمام المراغى أن يغيِّر وجهة النقد الصائب ، فقالَ : لقد نشَر فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون مقالاً ممتازاً بالجريدة اليومية عن صاحبِ الأهرام ، وذكرَ فيه أكثرَ ممّا ذكر الأستاذ وجدى ، فلماذَا لا تَعترضون عليه إذن ؟ لقدْ صادفَ مقال الأستاذ أبى العيون ارتياحِى لأنّه ينْحُو منحى مقال الأستاذ وجدى ، فهل لديكم ما تقولون !؟ وانتهى المجلس بالاعتذار .

هذا قليلٌ من كثير أعلمُه عن الرجل الكبير ، وقد تحدثْتُ عنه بَعْد رحيله فى مناسبات كثيرة ، ولا أزال أهش فرحا بالكتابة عنه ، لأنه فى دنيا الخلق الرفيع مثالٌ يحتذى ، ونحن نرى كثيرين يفهمون الأصول الصحيحة للأخلاق الرفيعة ويتحدثُون عنها فى خطبِ رنانّة ، ومقالات دوْريّة ، ولكنهم لا يَلْتزمون بكثير مما

يتحدثون ، فإذا رأينا بين مَن نعرف مَن يلتزم بما يقولُ تطبيقاً مهما عادَ عليه قولُ الحق بالمضايقةِ المرهقة لَدى من يحترفون الدسائس والمضايقات ، فإننّا نفرح كل الفرح حين نجد المثل المنشود إنسانًا كريما يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، رحمه الله ...

د . محمد رجب البيومى

المستقبل للإسلام (١)

العلم والفلسفة يهيئان العقول والقلوب لقبول الإسلام دينا عالمياً

ربما خيّل لمن لا يعرف الإسلام أن هذا إعلان جرىء، ولكنا نعتقد أنه متى عرفه فسيقرنا عليه ، فكل ما علينا الآن أن نقيم عليه الدليل .

نعم ، إن العالم بفضل تحرره من الوراثات والتقاليد ، وإمعانه فى النقد والتمحيص ، يتمشى على غير قصد منه نحو الإسلام بخطوات متزنة ثابتة ، لا توجد قوة فى الأرض ترده عنه ، إلا إذا انحل عصام المدنية ، وارتكست الجماعات الإنسانية عن وجهتها العلمية . هذا إجمال يعوزه البيان ، فإليك :

قُذف بالإنسان إلى هذا العالم جاهلا به غاية الجهل ، عَميًّا عن أسراره كل العماية ، ولولا أن خالقه جل شأنه أوجده حيث الماء والنبات ، لمات ظمأً وسَغَباً ؛ ولولا أنه منحه معارف ضرورية يستطيع بها أن يهرب من الضّوارى التى كانت تتعقبه ، ويحتمى من العوارض الطبيعية التى كانت تنصبّ عليه ، لما أمكنه أن يبقى أكثر من أيام معدودة . ولكنه وهبه عقلا ليس لسلطانه حد يقف عنده ، فأخذ يستهدى بنوره يسيراً يسيراً ؛ حتى استطاع أن يأمن شر العوادى ، وأن يجتمع على أمثاله ، وأن يكتشف أوليات العلم ، ومبادىء الحكمة . ثم ما برح يرقى حتى أسس الأمصار ، وأوغل فى المعارف ، وسخر قوى الكون ، وسبر مساتير الوجود ، واخترع الآلات المعجبة ، وهو اليوم يحدث نفسه بالصعود إلى الكواكب ، وكشف عالم الروح ، والتحكم فى نواميس الحياة .

هذا كله مشاهد محسوس لا يحتاج لتدليل ، ولكن الذى يحتاج لتنبيه هو أن الإنسان فوق كل ما يحصله من علم ، وما يكتشفه من مستور ، يزداد معرفة

---

(١) طلب إلينا أن ندلى بأقوى ما نملك من حجج فى موضوع أن المستقبل للإسلام ، ففعلنا ، ولم نشأ أن نقصر انتشار هذا البحث الجامع على عدد محصور من القراء ، فرأينا أن نعمم إذاعته بنشره فى مجلة الأزهر ليكون إلى جانب نظائره مما نقوى به حجة الإسلام فى هذه المجلة .

بما يجب أن يكون عليه الدين الحق ، وما يلزم أن تؤخذ به النفس من الآداب القويمة ، وما ينبغى أن يقيمه لتوثباته من المثل الأعلى للإنسانية الصحيحة .

فى أثناء تمشى الإنسان فى هذه السبيل الأدبية ، تحت ضوء العلم والفلسفة ، تسقط فى نظره الواحدة بعد الأخرى ، جميعُ الأوهام الموروثة ، والتعصبات التقليدية ، فيرى الخضوع لها عاراً عليه ، وسقوطاً لكرامته ، ويعمل على تطهير قلبه منها ، واجتثاث جذورها المنبثة فى أقصى ثناياه ، عادًّا ذلك من متممات وجوده الأدبى .

فتكون النتيجة الحتمية من وراء هذه المحاولات الثقافية فى هذه الناحية ، تأسس الأصول الآتية :

(أولا) زوال آثار الوراثات الدينية .

(ثانيا) انمحاء التعصب المذموم للعقائد الباطلة .

(ثالثا) قيام النظر العقلى مقام التقليد الأعمى .

(رابعا) قبول كل عقيدة تسلم من النقد وتنهض بها حجة .

(خامسا) الميل إلى إيجاد زمالة عامة بين الناس كافة ، ومحاربة كل العقائد المفرقة للأمم ، والجاعلة إياها شيعا .

(سادسا) الاتجاه إلى نصب العلم فاروقا بين الحق والباطل ، بغير اعتداد برأى أيه طائفة من الطوائف ، أو فرد من الأفراد .

هذه الأصول الستة لا محيص من تولدها كثمرة طبيعية للثقافة العصرية . وقد تولدت فعلا وصارت جُزْءاً من الدستور العلمى لدى ألوف من المشتغلين بجميع الفروع العلمية ، وليس بينها وبين أن تصبح عنصرا رئيسيا من عناصر العقلية الأوربية إلا أن تنتشر فيها المبادئ الفلسفية ، وهى لا تزال بعيدة عن الدهماء لأسباب اقتصادية ، ولكن لابد من بلوغها هذه المنزلة بعد قرنين أو ثلاثة قرون .

فإذا بلغ العالم هذه المرتبة من التعقل ، والخلاص من آثار الوراثة ، ثم لاح له أن ينظر فى الأديان التى يعتبرها إذ ذاك بقايا أثرية ، للعقلية البشرية ، تبين له أنه فى صميم الإسلام ، وأنه فى جهاده العلمى الطويل كان يعمل لإقامة دولته ،

وإعلاء كلمته ، وهو يتوهم أنه يهدمه فيما يهدم من العقائد الباطلة ، والوساوس المعطلة .

فكما جاءت الحوادث مصدقة لقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [1] الآية . وقد كانوا يعبدون الله سرا ويخشون أن يتخطفهم أعداؤهم ويمزقوهم شذر مذر ، فأتاهم الله خلافة الأرض ، وجعل دينهم ظاهرا على الأديان كلها ، كذلك ستصدِّق الحوادث ما وعد الله به من أنه سيُرى الناس آياته فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أن هذا الدين هو الحق : ﴿ سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [2] .

وقد ظهرت بوادر هذا الانقلاب فى أقوال الكثيرين من أقوال علماء الغرب ، وقد رأى بعضهم ومنهم (برنارد شو) أن أوربا قد لا يمضى عليها قرنان حتى تكون قد اتخذت الإسلام دينا .

أى شئ يعتبر فى حكمه هذا بعيدا عن العقل ؟ أليست الأصول الستة التى أثبتناها هنا ، وهى أخص أصول الدستور العلمى ، هى نفسها أخص أصول الإسلام ، بل هى معناه وروحه ، والموجب لجعله دينا للعالمين كافة فى كل زمان ومكان ؟

لقد كلف الإسلام كل داخل فيه أن يكون متجردا من كل ما يربطه بالماضى من دين ووراثة وتقليد ووهم وخيال ؛ وأن يُقبل عليه خالى القلب من كل صورة ذهنية ، ورأىٍ سابق ، على مثال ما يكون عليه الطفل ساعة تضعه أمه .

فإذا تمت له هذه التصفية ولُقّن أمور الدين ، أُمر أن يتعقلها وأن ينظر فى أدلتها ، ونُهى أن يأخذ بها تقليدا مهما كانت مكانة الرجل الذى يقلده ؛ وكُلِّف

---

(١) سورة النور : ٥٥ .

(٢) سورة فصّلت : ٥٣ .

أيضا أن يتأمل فيما نصبه الله فى الكون من معالم الحق ، وأن يدرسها دراسة المتتبع لأسرار الخلق ، مخضعا كل ما يحصله لأدق أساليب التمحيص والتحليل ، حتى لا يتورط فى الأخطاء فيضل ويضل ، وهو مسئول عن كل ما يستخدمه فى هذا السبيل من حواسه ومشاعره ، ومحاسب حتى على جيشات خواطره . وإنا لمقتبسون لك آيات من الكتاب تريك مكان هذه الأصول منه ، فاليك :

قال الله تعالى فى ماهية الدين الحق : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) . وقد شرح النبى ﷺ هذه الفطرة فقرر أنها مثل الحالة التى يكون عليها الطفل ساعة ميلاده : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . أى أن كل مولود يولد على الدين الحق المطلق « الإسلام » ولكن أبويه ينقشان فى عقله من الصور ما يغيّران به هذه الفطرة السليمة لتعلق به فلا يستطيع عنها حولا .

وقال تعالى فى ذم الظنون والأوهام : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٢) . وقال ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ (٣) .

وقال تعالى فى النهى عن اتباع الهوى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ ﴾ (٤) . وقال فى وجوب إقامة سلطان العقل : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ . وكرر ذلك فى آيات كثيرة بألوان مختلفة عشرات من المرات .

وقال فى ذم الذين لا يعرفون للعقل حقه : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللهِ ٱلصُّمُّ

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .

(٢) سورة يونس : ٦٦ .

(٣) سورة يونس : ٣٦ .

(٤) سورة ص : ٢٦ .

ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١) . وقال : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٢) . وقال : ﴿ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) . وقال : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (٤) .

وقال تعالى فى المسئولية الشخصية ، وفى عدم جواز الاعتماد على الغير : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (٥) . وقال : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ (٦) . وقال : ﴿ وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ (٧) (أى فداء) .

وقال تعالى فى ذم التقليد الأعمى : ﴿ وَقَالُوا (أى يوم القيامة) رَبَّنَآ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴾ (٨) . وقال : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا (أى يوم القيامة) مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (٩) .

وقال تعالى فى وجوب طلب الدليل القاطع على كل عقيدة ، وفى النعى على الذين يعتقدون تقليدا بغير حجة : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُ بِهِ

---

(١) سورة الأنفال : ٢٢ .
(٢) سورة البقرة : ١٨ .
(٣) سورة يونس : ١٠٠ .
(٤) سورة الملك : ١٠،١١ .
(٥) سورة المدثر : ٣٨ .
(٦) سورة النجم : ٣٩-٤١ .
(٧) سورة البقرة : ٤٨ .
(٨) سورة الأحزاب : ٦٧ .
(٩) سورة البقرة : ١٦٦،١٦٧ .

فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ [١] . وقال فى وجوب تقاضى الدليل من كل صاحب قول : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [٢] .

وقال فى تسفيه أحلام الذين يجمدون على ما ورثوه من آبائهم من الأباطيل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [٣] ، ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [٤] .

هذا دستور دينى جاء به محمد ﷺ فى زمن لم يكن فيه لدستور أيا كان نوعه دولة فى الأرض ، لا من الناحية السياسية ، ولا من الناحية العلمية ؛ أما من الناحية السياسية فقد كان لا يعرف أحد أن للحكومة دستورا قط . فكان الناس من هذه الناحية غرق إلى يافيخهم فى حكومة الفرد لا يعرفون لهم حقوقا ، ولا وجودا معها .

أما أمر الدين فقد كان دستوره عندهم : « اعتقد وأنت أعمى » كما قاله العلامة لاروس فى دائرة معارف القرن التاسع عشر . أما هذا معقول وهذا غير معقول ، وهذا يحتاج الدليل ، فعبارات كانت تجر إلى النار المحرقة فى تنانير كانت أعدت لذلك .

جاء محمد ﷺ بذلك الدستور الدينى ، وهو القرآن ، والناس قاطبة على ما وصفنا من العمايات المتراكبة بعضها فوق بعض ، وقد جمدوا على ما كانوا عليه حتى صار حالا ملازما لهم لا يتصورون الحياة على حال غيره ، بل لا يحبون أن يسمعوا داعيا يدعوهم إلى نقيضه ، وإذا أقدم على ذلك وصموه بالجنون . وقد حكى الله ما قالوه للنبى ﷺ حين دعاهم إلى النور فقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [٥] . وقالوا : ﴿ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [٦] .

---

(١) سورة المؤمنون : ١١٧ .
(٢) سورة النمل : ٦٤ .
(٣) سورة البقرة : ١٧٠ .
(٤) سورة الزخرف : ٢٢ .
(٥) سورة الحجر : ٦ .
(٦) سورة الصافات : ٣٦ .

فرد الله عليهم بقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ (١) .

فإذا كانت ثمرة هذا الدستور الإلهى فى البقعة الفسيحة من الأرض التى استولى عليها المسلمون فى أول الإسلام ، هى دخول أمم برمتها فيه ، بغير إجبار ، بل بغير دعاية منظمة ، والعقول لم تكملها العلوم ، والنفوس لم تصقلها الشكوك ، فماذا ينتظر أن يكون عليه حال العالم المتمدن إذا عرف الإسلام حق معرفته ، وتبين الناس أنه لا ينطبق على الدستور العلمى فحسب ، ولكن أصوله الأولية هى ذلك الدستور نفسه ، بالغا أكمل ما يمكن أن يصل إليه من السمو والإحاطة بكبريات الأمور وصغرياتها ، بحيث لا تفلت منه حتى همسات السرائر ، وحركات الضمائر : ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾(٢) .

العالم المتمدن يحاول حل مسألة الدين :

قد يقول معترض : إنكم تنفقون أوقاتكم فى الكلام عن العالم المتمدن من ناحية الدين ، على حين أنه قد فرغ منها ، ولم يعد يخطرها بباله ، وقد محض نفسه للبحوث المادية ، وتسخير قوى الكون لحياته الدنيوية .

الحقيقة أن المعترض غير مصيب فيما يقول . فإن العالم المتمدن اليوم أشغل ما يكون بالمسألة الدينية من جميع نواحيها . فإن كان لابد من الاستشهاد بأقوال أقطابه ، فإليك ما كتبه الأستاذ (هنرى بيرانجيه) فى المجلد الرابع والعشرين من مجلة المجلات الفرنسية ، قال :

« إن المسألة الدينية أهم ما يشغل العالم المتمدن اليوم ، لأن مستقبل الأمم المتحضرة يتوقف على حلها » .

ثم قال :

« إذا كان النقد التاريخى قد حطم اليوم كل الأشكال المتحجرة فى الأديان ،

---

(١) سورة المؤمنون : ٧٠ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٤ .

فإنه لم يستطع أن يعدو على العاطفة الدينية ، بل اعترف باستمرارها وشيوعها فى كل دور من أدوار التاريخ ، ورأى أن كل تلك الآلهة المختلفة المتعاقبة ، تشهد بأن الإنسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم أنفه . ففى كل جهة وكل زمان قد شوهدت حاجة الإنسان إلى الدعاء والعبادة والتضحية ، فى أخس الأديان الوثنية ، كما فى أرقى المذاهب الروحانية . هذه هى الشرارة البسيكولوجية (أى النفسية) التى استخلصها من رماد العصور الماضية تاريخ المقارنة بين الأديان . فمن المحال أن يطفئها ، ولكنه سينقلها إلى المستقبل » .

ثم قال :

إننا نأمل الوصول إلى حل المسألة الدينية ، وبخاصة لأن الديانة الفطرية (أى الطبيعية) قد ولدت منذ مائة عام ، ودرست بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنسيين . فجان جاك روسو ولمرتين ولامنيه وميشيليه وكينيه ، كانوا من كبار المبشرين بهذه الديانة الجديدة . وقريب منا إرنست رينان وجيو وشوريه وساباتييه قد أمدوها بقوة عظيمة جديدة » انتهى .

نقول : ما هى هذه الديانة الطبيعية التى يعتقد كبار المفكرين فى الغرب بأنها الديانة العالمية العلمية المستقبلة ؟

إنا نأتيك بها على لسان أحد كبار أشياعها ، وهو الفيلسوف الفرنسى (كارو) ، فقد قال فى كتابه : (البحوث الأدبية على الزمان الحاضر) ما يأتى :

« أصول الديانة الطبيعية هى الاعتقاد بوجود إله مختار خلق الكائنات وعنى بها . وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الإنسانى ، ووجود روح للإنسان متصفة بالإدراك والحرية ، ومحبوسة فى هذا الجثمان المادى أمدا لتبتلى فيه ، وهذه الروح تستطيع بإرادتها أن تطهر هذا الجثمان وتنقيه ، إذا عرجت به نحو السماء ، ويمكنها أن تسفله بإخلادها إلى المادة الصماء ، والاعتقاد المطلق بسمو العقل على الحس ، ووضع الحرية الخلقية التى هى ينبوع وأصل جميع الحريات ، تحت سيطرة الاعتدال ، وإعطاء الصفات الفاضلة اسمها الحقيقى وهو الامتحان والابتلاء ، وتحديد غرضها الصحيح ، وهو التخليص التدريجى للنفس من علائق الجسم ، والتهيؤ لساعة

الموت بالزهادة . وأخيرا الاعتراف بناموس الترقى . ولكن بدون فصل ترقى الإنسان فى مدارج السعادة المادية عن العواطف الفاضلة التى هى وحدها تبرر تلك السعادة » اهـ .

نقول : هل يعنى كل هذا الجهد الجاهد من الفلاسفة والمفكرين ، غير محاولة الرجوع لدين الفطرة ، تحت تأثير حوافز من أنفسهم ، ومن تجلى آيات الله لهم ، فى الآفاق المحيطة بهم ، مصداقا لتلك الآية الكريمة ؟

فالدين الفطرى (أى الطبيعى) آت لا محالة باعتبار أنه دين عالمى للبشر كافة بحكم العلم نفسه . والدين الفطرى هو الإسلام بنص كتابه ، وبموجب أصوله . فإذا آنس الناس تلكؤا فى التمشى إليه فذلك أمر طبيعى ، لأن أكثر الناس عوام يجمدون على ما ورثوه ، ويستميتون فى تأييده وإن كانوا لا يعقلونه ، ولكن بوتقة الوجود دائبة على صهر العقول جيلا فجيلا تطهيرا لها من الكدر العالق بها طبقة بعد طبقة ، والحقائق فى الوقت نفسه تزداد ذيوعا بينهم ، فلا يزال الأمر جاريا على هذه الوتيرة حتى لا يبقى فى الناس من يعتقد فيما لا يعقل ، وإذ ذاك تحل الروح الاسلامية فى العالم بكل ما قامت عليه من أصول عقلية ، ومبادىء علمية ، فيتحقق أعظم إصلاح عالمى يتمناه المصلحون فى العصر الحاضر .

فى ذلك اليوم لا يستطيع مفكر كالأستاذ (هنرى بيرانجيه) المتقدم ذكره أن يقول : « لما كانت الأديان ليست بشىءغير مظاهر رمزية للعاطفة الدينية فستتلاشى عاجلا أو آجلا ككل الآثار الانسانية ، ولكن تلك العاطفة لن تتلاشى أبدا إلا مع الانسان نفسه » .

نعم لا يستطيع أن يقول ذلك ، لأنه يجد الدين الأخير منها هو تلك العاطفة نفسها ، كما ينص عليه كتابه فى قوله تعالى : ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ، ويجد أن كل ما تستدعيه تلك العاطفة الدينية من معتقدات وعبادات ومعاملات مشروط فيه الرجوع به إلى حكم العقل والعلم ، لا إلى تحكم الهوى والجهل . فكل حق وهدى وعلم وخير وترقٍّ ، فهو فى شرعة هذا الدين الفطرى دين . وكل باطل وضلال وجهل وشر وتدلٍّ ، فهو فى شرعته كفر .

هذا هو الدين الذى جاء به محمد ﷺ دينا عاما للبشر كافة . فهل تجد محيصا للبشر عنه ؟

كيف يعقل ذلك والفطرة أساسه ، والعقل نبراسه ، والعلم مادته ؟ وهل للبشر محيص عن هذه الثلاثة الأصول الطبيعية مهما حاولوا ذلك وتكلفوه ؟ فإن كان فى العالم أصول كلما أمعنتَ فى البعد عنها ، ازددت قربا منها ، فهى الفطرة والعقل والعلم .

وهذا كله معنى قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (٢) .

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (٤) (*) .

* * *

---

(١) سورة آل عمران : ٨٣-٨٤ .

(٢) سورة النساء : ١٧٤-١٧٥ .

(٣) سورة الصف : ٨ .

(٤) سورة سبأ : ٦ .

(*) مجلة الأزهر : المجلد الحادى عشر ، صفحة ٢٨٩ ، سنة ١٣٥٩ هـ .

العوامل الأدبية التى اعتمد عليها الإسلام
فى تقويم الشخصية الإنسانية بسرعة لم يعهدها البشر

المعلوم من التاريخ بالضرورة ، أن الإسلام نشأ فى شبه الجزيرة العربية ، فآخى فى سنين معدودة بين قبائلها المتضاغنة ، وألّف منهم أمة ؛ وحلّى تلك الأمة بالرُّبُط الأدبية والمادية التى لابد منها لكل بنية اجتماعية ، وأحاطها من الحوافظ الذاتية بما صان وجودها ، فى جميع ما طرأ عليها من أدوار الانتقالات والانقلابات ، سليما قويا ؛ وأودع كيانها من بواعث التطور ما دفعها للترقى فى جميع مجالات النشاط العلمى والعملى ، خالصة من جميع القيود التقليدية التى تعطل من انتقال الجماعات ، وتبطىء من سيرها ، فوصلت فى نحو قرنين إلى مستوى رفيع حصلت معه على الزعامة العالمية . وهى ميزة لم تُمنحها إلا أمم معدودة فى الأرض .

وصلت إلى هذا الأوج فى خُطًى متزنة ، وتدرج محكم ، ونظام مدبَّر ومُثُل عليا ، شأن كل جماعة تصدر عن ذخر أدبى متأصل فى طبيعتها ، أو تمرّست به أجيالا متعاقبة من حياتها .

فإذا كان هذا الحادث الفذ فى تاريخ البشر يعتبر صعب التعليل بالأسباب المعروفة ، فلا يقل عنه فى صعوبة التعليل تأثيره طفرة فى جماعات مفككة الأوصال لم تعتد النظام ، ولم يعمل فيها ناموس التطور منذ أجيال ، ولم تعرف قبائلها الوحدة منذ وجودها ، ولم يُؤْثر فى تاريخها أن داعيا دعاها إليها فى عهد من عهودها .

ومما يكسب هذا الحادث الجلل مظهرا ممتازا ، أنه كان مصاحبا لسمو لم تشهده البشرية من قبل ، فى أخلاق القائمين به وآدابهم ، وتطور لم يكونوا قد وصلوا إليه ولا الإنسانية أجمع ، فى أصولهم ومبادئهم . فإذا كان الناس قد عهدوا أن الانقلابات العالمية الكبرى أول ما توجد طائشة هوجاء ، تثور ثوران الزوبعة لا تفرق فى هبوبها المفرط بين ما يجب تحطيمه وما يجب الإبقاء عليه ، فى طغيان

من القائمين بها ، لا تردها حكَمة ، ولا تردعها شكيمة ، فإن الانتقال الذريع الذى أحدثه الإسلام ، رافقته رحمة بالمقهورين ، وعطف على المستضعفين ، وأمان للخائفين ، وإنصاف للمظلومين ، واحترام لعقائد المخالفين ، كأنه حركة مدبرة فى مهلة طويلة من التروى والتفكير ، أو خطة مقررة دُرست مقدماتها ونتائجها فى مَلاوة من الزمان صُرفت فى الحسبان والتقدير ؛ وليست الحركات العادية للجماعات فى شىء من هذا ، كما تدل عليه الانقلابات الكبرى التى مرت بالإنسانية فى عهدها الطويل بالوجود ؛ والانقلابات التى يكون مصدرها بلاد العرب ، أبعد البيئات عن النظام ومراعاة الأصول ، أولى أن تكون على مثال جميع الانقلابات العالمية التى سبقتها من هذه الناحية .

فصدور أكبر انتقال فى العالم الإنسانى ، فى بيئة لا عهد لها بمثله ، بل ولم تشارك العالم فى غيره ، على ما رأيت ، منظما مقدرا ، ومصاحبا لأعظم انقلاب أدبى لم يصل إليه النوع الانسانى بعد ، يجب أن يكون موضوع دراسات عميقة على ضوء العلوم الاجتماعية والنفسية ، وقد قطعت هذه العلوم شوطا بعيد المدى فى تفلية الحوادث ، وتعقب تطوراتها ، للوصول إلى أبعد مناشئها ، وتحليل الحالات العقلية ، وتتبع أدوارها ، لوجدان بواعث صدورها ؛ فإذا أنجحنا فى ذلك أطرفنا العالم بجديد من البحوث لا تقف دعايته للإسلام ، ودلالته على معجزاته عند حد .

مواطن التأثر فى النفس البشرية :

لا يتأتى أن تقوم دعوة فى الأرض إلا إذا حلت مواطن التسليم من بعض النفوس ، وهذا التسليم حكم عقلى لا معدى عن الخضوع له .

فموطن التأثر بالدعوات هو العقل ، لذلك تَعقّبه أصحاب النحل ، وحاولوا النقص من سلطانه على ضروب شتى ، أهمها زعمهم أن ما هم بصدده من العقائد يعلو متناول العقل ، فيجب أن يسلم به بدون عرضه عليه ؛ ويفوتهم أنهم لو كانوا مصيبين فيما يقولون لوجب الأخذ بجميع العقائد المناقضة لأحكام العقل ، لعدم وجود المرجِّح لأقربها إلى الحق .

ومن شبهاتهم على سلطان العقل ، أنه لم يصل إلى كماله بعد ، فما يقرر حقيته

اليوم ، وهو فى درجة من التطور ، ينقضه متى اجتاز تلك الدرجة ، وربما عاد إلى ما كان نقضه من قبل .

قالوا هذا ، وفاتهم أن المراد بسلطان العقل ما حُمِّله بفطرته من العلم الضرورى بجواز الممكنات ، وطلب الدليل على وقوعها ، واستحالة المستحيلات البدهية ، كاجتماع النقيضين ، ووجود الشىء فى مكانين الخ ، وهذه الأصول الأولية عامة فى جميع أفراد النوع البشرى لا تتخلف فى بعض آحاده إلا لعلة عقلية ، فيرتفع التكليف عن أصحابها بتخلفها .

فهذا السلطان الفطرى للعقل كاف فى حمايته من الضلال فى أصول المعتقدات ، وهو مناط التكليف ، وموطن المؤاخذة .

هذا هو المراد بسلطان العقل ، لا أن يكون قادرا على خوض غمرات البحوث المختلفة ، وإدراك مراميها البعيدة ، وبناء النظريات المجردة ، وإقامة أدلتها ، والترجيح بينها الخ الخ ، مما لا ينال إلا بتحصيل علوم كثيرة ، لا تتسنى إلا لأفراد ينقطعون لها سنين طويلة .

فإذا أقام الناس سلطان العقل الفطرى ، لم يستطع أصحاب الأهواء أن يسمموا نفوسهم بالعقائد الضالة .

العوامل التى تمكن بها المضللون من هدم سلطان العقل :

مع قيام سلطان العقل الفطرى بين الناس ، وترتيبهم أعمالهم الدنيوية عليه ، استطاع المضللون هدم هذا السلطان فيما يتعلق بالعقائد الدينية ، فكان ذلك سببا فى فساد نفسياتهم ، وطول أمد جاهلياتهم ، حتى صار مألوفا أن الأمم التى تقع فى التحجر الاجتماعى لا تنجو منه إلا بثورة على عقائدها تقلبها رأسا على عقب .

وإنما نجح المضللون فى هدم سلطان العقل الفطرى ، باعتمادهم على جهل الجماعات التى تبلى بهم ، وبالهائها بالخيالات والأوهام ، وبالتذرع فى إخضاعها لها بوسائل الإرهاب ، وهذه العوامل الثلاثة إذا اجتمعت فلا تقوى الجماعات الساذجة على مقاومتها ، فتستخذى لها ، وتقبل من رؤساء دينها كل ما يلقنونها إياه من التعاليم

وإن جافت حكم العقل ، لأنها جردته فى هذه الناحية من سلطانه فلا يكون له سبيل إليها ، وإذا طاف برأسها خيال منه طردته من مجاله ، واعتبرت ذلك من نفسها تورعا ، واستمرت على هذه الحال حتى تحفزها المثلات إلى الحركة ، فتهب من سباتها ، وأول ما تخلعه من عنقها باعتبار أنه سبب جمودها ، نير الدين ، الدين الذى ألفته الأوهام ، لا الدين الفطرى الذى جُبلت عليه كل نفس بشرية كما ستراه .

ما اعتمد عليه الإسلام فى بناء صرح الدين الخالد :

اعتمد الإسلام فى بنائه صرح الدين العام الخالد على العقل والفطرة ، وهما الركنان الطبيعيان اللذان تقوم جميع الشئون الانسانية عليهما ، فلم يبق الدين بذلك بمعزل عن حياة الإنسان ، يعتريه من الجمود والتحجر ما يعترى الأصول الموقوفة ، ولكنه جعله فى دائرة محاولاته يترقى فى إدراك أسراره ، واستشراف أنواره ، كما يترقى فى فهم الوجود الذى يعيش فيه ، وفى تحصيل العلم الذى يتعرفه به ، فأصبح الإسلام بذلك عند الآخذين به عنصرا سائدا على نفسياتهم ، بقدر ما للعقل والفطرة من سيادة عليها .

ولما كان الإنسان أشد وأسرع ما يكون انقيادا للشىء إذا وافق عقله وفطرته ، وكان الإسلام من هذه الناحية حاصلا على هذه الميزة بقيامه على العقل والفطرة معاً ، وهو ما دل عليه كتابه ، فقد انتشر ما بين حدود أسبانيا الغربية بأوروبا ، إلى حدود الصين الشرقية بآسيا ، وشمال أفريقيا كله ، فى نحو قرن من الزمن ، ودخل فيه نحو مائة مليون من النفوس ، منها أمم برمتها قبلته دينا لها بلا دعوة منظمة ولا إجبار . وهذا حادث عالمى فذ يجب درسه ، وتعُّرف ما يهدى إليه العلم من عجائبه .

هذا هو السبب الرئيسى فى تسارع الناس إلى قبول الإسلام ، وفى شدة تمسكهم به ، وتحمسهم له ، وبذلهم المهج رخيصة فى سبيله . ونحن فى دراستنا للإسلام من ناحية سرعة تطويره للشخصية الإنسانية ، وشدة تأثيره فيها ، سنسير تحت ضوء الركنين اللذين امتاز بهما ؛ والله نسأل أن يجعل السداد رائدنا فى هذا الموضوع الخطير ، الذى نرجو أن يكون تأثيره عميقا فى نفوس الشباب المتعلمين (*) .

(*) مجلة الأزهر : المجلد الحادى عشر ص ١٥٢ . سنة ١٣٥٩ هـ .

ما أفاده الإسلام للمدنيّة

شهادات لا يمكن التمارى فى صحتها

لقد أفاد الإسلام العالم كله من الناحيتين الدينية والمدنية إفادة يتعذر تقديرها ؛ وليس المسلمون بحاجة لأن تبين لهم وجوه الإفادة الدينية ، فإن ما يعلمونه من سلامة عقائدهم ، وأصالة أصولهم ، وما أبيح لهم من حرية الفكر والنظر ، والاعتماد على العقل وأعلام الوجود ، لا تدعهم يشكّون فى أن دينهم سن للناس كافة سنة لا محيص لهم عن القيام عليها . فإن ظهر أن كثيرا منهم لا يزالون يتحامون الجرى عليها ، فسيضطرهم الترقى العلمى والفلسفى إلى الاعتراف بحقيتها ، وإذ ذاك يلتقى الناس كافة فى حظيرة واحدة هى حظيرة الإنسانية الموحدة تحت علم الدين الفطرى والمعارف المُمحَّصة .

أما من الناحية المدنية فقد شهد العالم كله بأن المسلمين حفظوا التراث العلمى العالمى ، وتولوه بالزيادة والتمحيص ، وطبقوه على حاجات الحياة الإنسانية ، فأوجدوا بذلك مدنية ليس فى العالم اليوم من يدعى أنه ليس مدينا للإسلام من هذه الناحية .

قد استشهدنا على صحة هذه الدعاوى بجماهير من كبار المؤرخين والعلماء الأوربيين ، وآخر ما وصل إلينا عنهم فى هذا الباب كتاب حضارة العرب للعلامة الاجتماعى جوستاف لوبون وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ النابه محمد عادل زعيتر . ونرى أن نقتبس منه بعض ما قاله العلامة الاجتماعى المذكور فى هذا الشأن ليتدبره المسلمون ، ويعرفوا أن ما قصروا فيه من بيان هذا الحق ، قد قام به من منصفى الغربيين من لا يمتون إليهم بأقل صلة .

قال العلامة جوستاف لوبون تحت عنوان (تمدين العرب لأوربا – تأثير العرب فى الشرق والغرب) :

« خضع الشرق لكثير من الشعوب كالفرس والإغريق والرومان الخ ، ولكن تأثير هذه الشعوب السياسى ، إذا كان عظيما فيه ، فإن تأثيره المدنى فيه كان ضعيفا للغاية .

« وما عجز الأغريق والفرس والرومان عنه ، قدر عليه العرب بسرعة ومن غير إكراه .

« وما وفق العرب له فى مصر اتفق لهم مثله فى كل بلد خفقت فوقه رايتهم كأفريقيه (يريد تونس) وسورية وفارس . وقد بلغ نفوذهم بلاد الهند التى لم يدخلوها إلا عابرى سبيل . وقد كان لهم تأثير واضح فى بلاد الصين التى لم يزوروها إلا تجاراً .

« ولا نرى فى التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب ، فجميع الأمم التى كانت ذات صلة بالعرب اعتنقت حضارتهم ، ولو حينا من الزمن .

« ولم يتجل تأثير العرب فى الشرق فى الديانة واللغة والفنون وحدها ، بل كان لهم الأثر البالغ فى ثقافته العلمية أيضا . وقد نقل العرب إلى الهند والصين أثناء صلاتهم بهما قسما كبيرا من معارفهم العلمية التى عدها الأوربيون على غير حق من أصل هندى أو صينى .

« ويظهر أن ما اقتبسه الصينيون من العرب أهم مما أخذه الهنود عنهم ، وقد رأينا فى فصل سابق أن علوم العرب دخلت الصين على أثر الغارة المغولية ، وأن الفلكى الصينى الشهير كوشو كينغ تناول فى سنة (١٢٨٠) م ، رسالة ابن يونس فى الفلك وأذاعها فى بلاد الصين ؛ وأن الطب العربى انتشر فى الصين فى سنة (١٢١٥) م ، وقتما غزاها كوبلاى .

« نثبت الآن أن تأثير العرب فى الغرب عظيم كتأثيرهم فى الشرق ، وأن أوربا مدينة للعرب بحضارتها .

« ولا يمكن إدراك أهمية شأن العرب فى الغرب إلا بتصور حال أوربا حينما أدخل العرب الحضارة إليها . فإذا رجعنا إلى القرن التاسع من الميلاد حين كانت حضارة العرب الأندلسية فى أوج نضارتها ، رأينا أن مراكز الثقافة فى الغرب كانت أبراجا يسكنها أمراء إقطاعيون متوحشون يفخرون بعجزهم عن القراءة ، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة هم الرهبان المساكين الجاهلون الذين كانوا يصرفون أوقاتهم

فى أديارهم ليكشطوا بخشوع كتب الأقدمين النفيسة ليكون عندهم بذلك من الرقوق ما هو ضرورى لنسخ كتب العبادة .

« مضت مدة طويلة قبل شعور أوربا بهمجيتها ، ولم يبد ميلها إلى العلم إلا فى القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر من الميلاد ، فلما ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل عنهم ، ولوا وجوههم شطر العرب .

« لم تكن الحروب الصليبية سببا فى إدخال العلوم إلى أوربا كما يظن على العموم وإنما دخلت العلوم أوربا من أسبانيا وصقلية وإيطاليا ، ففى سنة (١١٣٠) م ، أنشىء فى طليطلة مكتب للترجمة تحت رعاية رئيس الأساقفة ريمون ، فصار هذا المكتب ينقل إلى اللغة اللاتينية أهم كتب العرب . وقد كللت أعمال ذلك المكتب بالنجاح فبدأ للغرب عالم جديد ، ولم يتوان العرب فى أمر تلك الترجمة فى القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر من الميلاد . ولم يقتصر فى تلك القرون على ترجمة مؤلفات علماء العرب كالرازى وأبى القاسم وابن سينا وابن رشد الخ وحدها إلى اللغة اللاتينية ، بل نقلت إليها كتب علماء اليونان من ترجماتها العربية ، ككتب جالينوس وبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وأرخميدس وبطليموس ؛ وقد روى الدكتور (لوكلير) فى كتابه الذى سماه (تاريخ الطب العربى) أن عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية يزيد عن ثلاثمائة كتاب ، ولم تعرف القرون الوسطى كتب قدماء اليونان فى الحقيقة إلا من ترجماتها العربية ، وبفضل هذه الترجمات اطلعنا على محتويات كتب اليونان التى ضاع أملها ، ككتاب أبولونيوس فى المخروطات ، وكتاب جالينوس فى الأمراض السارية ، وكتاب أرسطو فى الحجارة الخ . وإذا كانت هنالك أمة تقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا ما انطوت عليه القرون القديمة فالعرب هم تلك الأمة ، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون اسم اليونان . فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم فى إنقاذ تلك الكنوز الثمينة . قال المسيو (ليبرى) : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا الحديثة عدة قرون .

« إن عرب الأندلس إذن هم الذين صانوا فى القرن العاشر من الميلاد العلوم والآداب التى أهملت فى كل مكان ، حتى فى القسطنطينية ، ولم يكن فى العالم

فى ذلك الزمن غير الأندلس العربية بلاد يمكن طلب العلم فيها ، فإلى بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصارى القليلون لطلب العلوم ، ونذكر منهم على حسب بعض الروايات التى لا تزال موضوع جدال جربرت الذى صار بابا فى سنة ٩٩٩ ملقبا بسلفستر الثانى ، ولما أراد هذا البابا أن ينشر فى أوروبا ما تعلمه عد الناس ذلك من الخوارق واتهموه بأنه باع روحه إلى الشيطان .

« وقد كانت ترجمات كتب العرب العلمية المصدر الوحيد للتدريس فى جامعات أوربا نحو ستة قرون . ويمكننا أن نقول إن تأثير العرب فى بعض العلوم كعلم الطب مثلا دام إلى الزمن الحاضر . فقد شرحت كتب ابن سينا فى مونبيلييه فى أواخر القرن الماضى » .

ثم قال الدكتور جوستاف لوبون :

« وإذا كان تأثير العرب عظيما فى أنحاء أوربا التى لم يسيطروا عليها إلا بمؤلفاتهم ، فقد كان تأثيرهم أعظم من ذلك فى البلاد التى خضعت لسلطانهم كبلاد أسبانيا ... ولن يرى الباحث مثالا أوضح من العرب على تأثير إحدى الأمم فى أمة أخرى ، ولم يشتمل التاريخ على ما هو أبرز من هذا المثال » .

هذا ما يقوله العلماء الاجتماعيون الأوربيون الذين لا يصح اتهامهم بالمبالغة والإغراق فى أمر لا تعود منه عليهم ولا على أقوامهم أية مفخرة . ونحن إن نشرناه هنا كما نشرنا عشرات من مثله فى تقدير تأثير أوائلنا فى أحوال العالم الأدبية والمدنية ، فما ذلك إلا لندلل على أن فى الإسلام روحا تبعث الآحاد والجماعات إلى الارتقاء لا يوجد ما يشبهها فى التعاليم البشرية ، ولنا من وراء ذلك مطلب أكبر قيمة من هذا ، وهو أن نستفيد منه لنستعيد مجدنا القديم ومكانتنا العالمية الماضية ، وهو أمر لا سبيل إليه إلا بعملنا المتواصل لتجلية الإسلام فى صورته الحقيقية باجتثاث جذور البدع المتفشية فى جميع الشعوب الإسلامية ، وقطع دابر الآراء الضالة فى الدين والدنيا والآداب العامة والخاصة ، والعمل فى دؤوب ومضاء على توهين أصول الفلسفة المادية التى تعتبر أقوى عدو للأديان فى العصر الحاضر ، ومن الله التوفيق (*) .

(*) مجلة الأزهر : المجلد السابع عشر ، ص ٣٩١ ، سنة ١٣٦٥ هـ .

مناعة الإسلام

لقد دل الإسلام على مناعة لا ترام فى جميع أدوار تاريخه ، فاحتك بالأديان التى سبقته ، وقد كان يتولاها رجال بلغوا من الثقافة العلمية ما لم يكن له ظل فى البيئة التى ظهر فيها الإسلام ، ومرنوا على الجدل مَرانا طويل الأمد فى مجادلة الخصوم ، ومجالدة المبتدعة ؛ فلو لم يكن فى الإسلام من عناصر الغَلَب إلا ما تسمح به الأمية التى كانت عليها الأمة العربية ، والجاهلية التى كانت ضاربة بجرانها فيهم ، لظهر ضعفه من أول مصادمة ، ولما اجتذب من صميم الديانات التى كانت عليها الأمم المتمدنة إذ ذاك ، رجالا كانوا فى الذؤابة من ذويهم .

وقد أبان الإسلام أيضا عن مرونة بحيث كان يؤثر حتى فى عقول الجماعات الطفلة ، فيجد طريقه إلى نفوسها من خلال حجب كثيفة من العادات والتقاليد والوراثات ، فيخلعها عنها بلباقة لا يُعرف لها سر ، ويحولها إلى درجة العقيدة الراسخة به ، على حين أنها كانت أعصى قيادا على دعاة الملل من الشعوب المتعلمة . ألم يتبار دعاة الإسلام ، وكلهم من التجار والمرتزقة ، ودعاة الأديان الأخرى ، فى مجاهل أفريقا ، فكانت النتيجة أن دخل فى الإسلام عشرات الملايين من النفوس ، وخاب مزاحموه خيبة أصبحت مضرب الأمثال إلى اليوم ؟

واليوم يُدعى الإسلام ليجرب نفسه مع العلم ، العلم الذى نعته دعاة الملل بأنه جبار عات ، ما صاول دينا إلا تغلب عليه ، وأجلاه عن أرضه ؛ فيقول الذين افتتنوا بالقشور العلمية : إن هذا الدور هو الذى سينتقم العلم فيه من الإسلام ، ويذيقه من الانحلال ما أذاقه للأديان التى نافسها وتغلب عليها ، واتخذ من أهلها شيعة له ، على الرغم من أنه أجنبى عنها ، وكتابه عربى ولغتها أعجمية .

سيخيب فأل هؤلاء الدعاة كما خاب فأل أسلافهم ، حين احتك الإسلام بالإسرائيلية والمسيحية ، والنحل الفارسية والسوريانية والكلدانية ... الخ .

نعم سيخيب لأن العلم الذى يزعجوننا به اليوم ، ليس هو علم الأمس العاق

المتغطرس الذى كان يخيل إليه أنه كشف مساتير الخليقة ، وسرى فى سرائر الوجود ، فحكم عليه حكما لا يقبل النقض ؛ ولكنه علم القرن العشرين الوادع المتواضع ، الذى تملأ يقينا بأنه لم يلم بعد طول مراسه للكائنات ، إلا بقشورها وعلاقات بعضها ببعض ؛ أما حقائقها فلم تزل تتأبى عليه ، وتخفى فى صميمها سرا لو انكشف له لتغير فهمه فى الوجود كل التغير ، ولرأى أنه فى اشتغاله بظواهره ، ووقوفه عند حدودها ، وبنائه المذاهب عليها ، كان يخوض فى أوهام متراكبة بعضها فوق بعض .
وهل بعد ما نقلناه من أقوال أقطاب العلم المعاصرين من التصريحات ، بأنهم قد أفاقوا من الغرور العلمى الذى كانوا فيه ؛ مزيد يجب علينا أن نأتى عليه لتدعيم ما نذهب إليه ؟ ماذا تريد بعد أن نقلنا إليك ما قاله الأستاذ الكبير الدكتور (شارل ريشيه) عضو المجمع العلمى الفرنسى فى مقدمة كتاب الظواهر النفسية للدكتور (ماكسويل) النائب العام فى حكومة الجمهورية الفرنسية إذ قال :

لماذا لا نصرح بصوت جهورى بأن هذا العلم الذى نفخر به إلى هذا الحد ليس فى حقيقته إلا إدراكا لظواهر الأشياء ، وأما حقائقها فتفلت منا ، ولا تقع تحت مداركنا ؟

« فالويل للعلماء الذين يظنون بأن كتاب الطبيعة قد أقفل ، وأنه لا يوجد شىء جديد يحسن تفهيمه للإنسان الضعيف » .

ماذا يريد المدل بسلطان العلم بعد هذا التصريح البليغ ، أن يخيف الإسلام به من بطشه العظيم ؟

أنا لا أريد من هذا أن أدعى أن العلم قد ضعف حكمه حتى صار يقبل كل ما يقال بدون نقد ، ولكنى أريد أن أقول إن هذا الموقف المتواضع من العلم ، أداه إلى القول بما كان يعد التخلص منه من أكبر الفتوحات ، وهو عالم ما فوق الطبيعة ، وقد جعل للبحث فيه مقاعد فى أرقى الجامعات كجامعتى اكسفورد وكامبردج .

فهذا العلم المتواضع المتبصر ، هو الذى يؤمل اليوم خصومنا أن يجد منه الإسلام الخصم الألد ، الذى يقضى فيه قضاءه الأخير .

هيهات ! فان هذا العلم سيكون من أقوى أعوان الإسلام ، لأن الأصول الإسلامية ، والمبادئ القرآنية ، تتفق وأمثالها من التى أوجدها العلم كل الاتفاق ، فلن يكون بينهما موطن نزاع على شئ من الأشياء . ولئن وُجد فإن الإسلام بما قرره من مبدأ التأويل متى أثبت العقل والعلم صحة شئ ، يخرجه من هذه المآزق مرفوع الرأس موفور الاحترام .

وقد احتك آباؤنا الأولون بالعلم ، تحت حماية هذا المبدأ الأصولى الجليل ، فلم يصادفوا منه خطراً على عقائدهم ، ومضوا حيث مضى قُدُما ، فبلغوا منه غاية لم يبلغها واضعوه أنفسهم ، واستفادوا من وسائله على أوسع ما تسمح به ، فكانوا السابقين إلى أسرار الصناعات ، وأساليب الإبداعات ، مما جعل مدنيتهم المادية من الرفعة ، فى مستوى عقائدهم الدينية من المنعة ، وخلفوا وراءهم من الآثار ما لا يزال المؤرخون يكتشفون من غرائبه ما يطرفون به معاصريهم .

نعم إن آباءنا هؤلاء قد عادوا الفلسفة ، ولهم فى ذلك تاريخ لا يستطاع إنكاره ، ولكن هذه المعاداة فضلا عن أنها لا تشين سمعتهم ، فهى تستنزل العجب من حكمتهم ؛ ذلك لأن الفلسفة ضرب من الخيالات التصورية ، وأنت خبير بقيمة الخيالات من الفلسفة العصرية ، وبما تصف به الآخذ بها من انحطاط القوى العقلية ؛ فيكون استعصاء أئمة المسلمين على سلطان تلك الخيالات ، فى عهد كان فيه سلطانها على العقول لا يستطاع دفعه ، من أقوى الدلالات على سعة عقولهم ، وسمو مداركهم ، وعلى حكمة التعاليم التى كانت تمنعهم من الترامى عليها كما ترامت عليها أكثر الأمم .

الفلسفة اليوم علمية بحتة ، أى مؤسسة على الأصول الموصلة إلى المجاهيل وفقا للأسلوب العلمى ، لا أنها خيالية تصورية ، يطير الإنسان معها على أجنحة الأوهام فيتأدى إلى نتائج يسجلها قصورها عليها تسجيلا أبديا ؛ والمسلمون كما رأيت كانت مراميهم من أول عهدهم علمية أيضا ؛ فهل يعاب عليهم ذلك بعد ما علمت أن الفلسفة الخيالية أصبحت وأحاديث العجائز فى مستوى واحد ؟

إن مناعة الإسلام التى ضربت بها الأمثال ، بعد أن خرج فائزا من جميع

ما صادفه من الخصومات فى تاريخه الطويل ، ستتكلل بانتصار جديد على المذهب المادى الذى يحاول فلوله اليوم فى بلاد المسلمين أن ينشئوا له دار هجرة يأوى إليها ، بعد أن لفظته الأقطار الغربية حين ثبت لها أنه قائم على إيمان تقليدى راسخ ، بخلو الوجود من غير المادة وقواها ؛ لا على بحث قيم ، ولا تجربة حسية . والعلم بعد أن شابت ناصيته فى التطور ، ورأى خطر التحكم الوهمى على كماله ، يأبى أن ينقاد بعد اليوم لمن يصف بالوجود أو بالعدم ما ليس له به علم ثابت . وهذا هو الأصل الأول للفلسفة الحسية . قال العلامة (ليتريه) فى كتابه : (كلمات فى الفلسفة الحسية) :

« بما أننا نجهل أصول الكائنات ومصائرها ، فلا يجوز لنا أن ننكر وجود شيء سابق عليها أو لاحق لها ، كما لا يجوز لنا أن نثبت ذلك » .

وقال الفيلسوف روبينيه فى كتابه (الفلسفة الحسية) :

« يريد الفلاسفة الحسيون أن يبعدوا عنهم كل خيال أو توهم ، وأن لا يعتمدوا إلا على المشاهدة المحسوسة ، وأن يحذفوا من أقوالهم كل الافتراضات التى لا يمكن تحقيقها » .

هذه هى أصول فلسفة العصر الحاضر ، فهل الماديون منها فى شيء ؟ هل منها حكمهم البات بقدم المادة وأبديتها ، وبعدم وجود عالم أرفع من عالمها ؟ ...

يقول خصومنا : إذا كانت هذه الإنكارات الباتة ليست من فلسفة العصر الحاضر ، فهل منها القول بحدوث المادة ، وبوجود عالم أرفع من عالمها ؟

نقول : لا ، ليس منها هذا ولا ذلك ، ولكن إذا وُفق رجال من أهل العلم إلى البحث فى منحى جديد من مناحى الوجود ، فأكدوا لنا عثورهم على آثار عالم فوق هذا العالم ، وبقيام عقول كعقولنا فيه مجردة عن المادة ، ودعوا إخوانهم من كل جنس لشهوده ؛ فلبوا الدعوة وأيدوهم فيها ، وما زالوا يكثرون حتى بلغوا الألوف فى تسعين سنة متوالية ، فبأى حق ننكر عليهم ما يقولون وهو خاضع للتجربة ؟

إذا كنا ننكر ذلك العالم العلوى بحجة أنه مما لا ندركه بأبصارنا ولا نحس به بمشاعرنا . فإن فى الوجود الذى نعيش فيه ظواهر مادية كشفها العلم المحسوس وقررها ، ونحن لا نحلم بوجودها ، فهل فى الأرض من يقول بوجوب نكرانها ؟

قال الأستاذ الفلكى الكبير (كاميل فلامريون) فى كتابه (الموت وغامضته) : la mort et son mystère

« الإنسانية تعيش فى جهالة بعيدة الغور ، وهى لا تدرى أن تركيبنا الجثمانى الطبيعى لا يعرفنا بكل ما يقع فيه ، فإن حواسنا تخدعنا فى كل شىء ، والتحليل العلمى وحده هو الذى يؤتينا ببصيص من النور عنه .

من أمثال ذلك أننا لا نشعر بالحركات الهائلة للكوكب الذى نحن عليه ، فهو يسبح فى الفضاء بسرعة ١٠٧٠٠٠ كيلو متر فى الساعة ، ليتم دورته السنوية حول الشمس .

ولا نشعر بثقل الهواء علينا مع أن سطح كل جسم إنسانى يحمل منه مازنته ١٦٠٠٠ كيلو جرام معادَلة بمثلها من الضغط الداخلى .

وهذا الهواء مخترق بتيارات مختلفة نجهلها كل الجهل .

والشمس ترسل لنا على الدوام باشعاعات مغناطيسية تؤثر عن بعد ١٥٠ كيلو متر على الإبرة المغناطيسية .

وحواسنا العادية تشعر بروائح وأصوات وأنوار ، والحقيقة أن ليس فى الكون خارج حواسنا غير حركات صامتة ، فالنور والحرارة والصوت حركات ساكنة . وفى الكون على الدوام ذبذبات اتيرية ، تخترق هذه اللانهاية السماوية فى أثناء الليل ، كما هى وقت الظهيرة ، ولكنا لا نحس بالضوء إلا فى أثناء النهار .

ويوجد حولنا من الحركات والذبذبات الاتيرية أو الهوائية ، ومن القوى والأشياء غير المرئية ، ما لا نراه ولا نحس به . هذه حقائق علمية مطلقة ، وبدائه لا يمكن النزاع فيها .

وعليه فيمكن أن يوجد حولنا أشياء بل كائنات حية ، لا تُرى ولا تُلمس ، تعجز حواسنا أن تصلنا بها .

فإذا تقرر أن حواسنا لا تكشف لنا كل ما هو موجود ، وأنها قد تعطينا شعورات كاذبة أو ضالة عن الكون المحيط بنا ، فلسنا نكون على شيء من التثبت إن ظننا أن ما نراه هو كل ما فيه » .

نقول بعد هذا كله : إن أعلن رجال من أهل العلم الجديرين بالثقة أن بحثهم قد أداهم من طريق الحس إلى آثار عالم أعلى من عالم الطبيعة ، فبأى حق نرفع عقيرتنا فى وجوههم مكذبين ؟

هذا النزق لا يصدر إلا من رجل جاهل ، يتوهم أن ما يراه هو كل الواقع ، وأن كل ما ليس بموجود لحواسه فليس بموجود .

إن الله قضى أن يحتك الإسلام بالعلم فى عهد أدرك العلم فيه أنه كان مخدوعا بالقشور ، وأن جماهير من أقطابه هدوا إلى عالم ما فوق الطبيعة من طريق التجربة ، فهل تتصور بعد هذا أن الإسلام يصادف من العلم خصما لا يلين ؟

فإذا كنا نلح فى وجوب الاستفادة من هذا الاكتشاف الروحى الجديد فى هدم سلطان المذهب المادى فلسنا ببدع فى ذلك ، فإن أرقى أمة مسيحية فى الأرض قد سبقتنا إلى ذلك ، هى الأمة الانجليزية ، فقد اجتمع فيها مؤتمر دينى كما ذكرت ذلك المجلة العالمية الفرنسية فى عددها الصادر فى ١٥ يناير سنة ١٩٢١ ، فقالت : « إن مؤتمر الأساقفة الأنجليكانيين اجتمع فى قصر لامبيث من ٥ يوليو إلى ٧ أغسطس من سنة ١٩٢٠ ، وحضره ٢٥٢ من رؤساء الكنيسة منهم مطارنة كنتربورى ويورك وسدنى وكبتاون والهند الغربية وملبورن وإمارة بلاد الغال الخ ، هذا عدا أكثر من مئة أسقف آخرين ، ونظر فى أمر المباحث الروحية ، فاعترف بقيمتها فى مكافحة المادية بنجاح عظيم » .

فإذا كانت الكنيسة المسيحية بعد أن أبلت بلاء عظيما فى مكافحة المباحث النفسية من أول نشوئها قد اضطرت ، بعد جهاد نحو ثمانين سنة ضدها ، أن تعترف بضرورتها ، وتستعين بها لمكافحة المادية ، فهل يهمل أمرها المسلمون ؟

إن هذه المباحث النفسية قد ادُّخرت لمثل هذه الشبهات ، وقد سخر قيم الوجود العلم الرسمى فى الاشتغال بها على أسلوبه ، لأن ذلك هو الطريق الوحيد للاعتقاد بصحتها .

فإذا بقيت تحديات المذهب المادى قائمة ، و لم تقابل بما يدحضها من الطريق العملى ، ظلت ثابتة قوية ، وظل الدين حيالها ضعيف الحجة ليس له من عاصم غير التسليم . ولِمَ نرضى هذا الضيم ، والفرصة أمامنا سانحة للحصول على الدليل المحسوس ، وقد سبقتنا أعظم أمة مسيحية إليه ؟

وإذا كانت الكنيسة النصرانية قد اعتدّت بالمباحث النفسية ، تفاديا من خطر التحديات الإلحادية ، فقد اعتدت بها أيضا أعظم الجامعات الأوربية ، كجامعتى كمبردج وأكسفورد ، وفاء بحق العلم ، ومدا لسلطانه على ما نرى وما لا نرى من هذا الوجود العظيم (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، الجزء الثانى ، ص ٥٦ ، صفر سنة ١٣٦١ هـ .



رسالة محمد

توسع الكتاب المعاصرون فى استعمال كلمة (رسالة) ، فأطلقوها على كل عمل أدبى أو اجتماعى يضطلع به فرد من الأفراد لفائدة المجتمع الذى يعيش فيه ، فيقولون : قد أدى فلان رسالته العلمية على أكمل حال ، ونال إعجاب مواطنيه وشكرهم .

وهم ما استحسنوا هذا التوسع إلا لدلالته على أن كل إنسان مدفوع بتأثير ميوله الطبيعية لأن يضطلع بعمل من الأعمال لمصلحة الجماعة التى يعيش بين ظهرانيها . وهو تعبير مجازى منقول عن بعض اللغات الأجنبية ، ومؤسس على المقررات البسيكولوجية .

فإذا حاول مفكر لا يعتقد بإمكان الوحى ، ولا يقول بالنبوة ، أن يقدر قدر الرسالة التى أداها محمد ﷺ للمجتمع الذى نشأ فيه وللعالم أجمع ، فى حدود الاستطاعة البشرية (العادية) ، وجد نفسه حيال حوادث ضخمة لا يعقل أن تتم إلا فى خلال آماد طويلة ، وعقب تطورات متوالية ، ومقدمات متتابعة .

ماذا يجد ؟ يجد أنه ﷺ ، فى خلال سنوات معدودة ، أخرج أمته طفرة من حالة قبيلية كانت عليها ، إلى وحدة اجتماعية قوية التماسك ، سقطت فيها كل مميزات الحالة الأولى ، من التمايز بالأنساب ، والتباهى بالألقاب ، والتناحر لأتفه الأسباب ، فضلا عن تجردها من كل غاية اجتماعية ، ونزعة عمرانية ...

ويجد جماعات كانت من حياتها الأدبية فى جاهلية جهلاء ، تتقلب فى حمأتها ، وتعمل على ما تقتضيه من اهتضام حقوق المستضعفين ، ووأد البنات والبنين ، وتأليه الأقوياء الأعلين ، والرتوع فى أقذار الشهوات الجسدية ، وأقذاء المطالب الحيوانية ، عارية من كل المطامح العقلية ، والمرامى العلوية ؛ نقلها محمد ﷺ إلى أمة تدين بالكرامة الإنسانية ، وتشرئب إلى المكانات العقلية ، وتقوم على أرقى المبادىء

الحكمية ، وأشرف الأصول الأدبية ، وترمى إلى تحقيق العدالة الاجتماعية ، غير مفرقة بين الضعفاء والأقوياء ، ولا مكترثة بالحوائل التى كانت أقامتها الكبرياء ، وفرضتها الجهالة العمياء .

أمة لها مقاصد عالمية ، ومرام قصية ، من توحيد البشرية ، وإحالة أديانها إلى وحدتها الأصلية ، وحسم ما بينها من أسباب الخلافات العرضية .

ويجد فئاما كانت تفخر بالأمية ، وتعتز بالحياة البدوية ، وتباهى بالتحلل من جميع الربط الاجتماعية ، قد استحالت فيها الحماسة الحربية إلى ضراوة وحشية ، والنزعةُ الاستقلالية إلى فوضى حيوانية ؛ لا يعتدون بأصل عقلى ، ولا يأبهون بمقرر علمى ، ولا يبالون بنظام عالمى ، انقطعوا فى صحاريهم ووديانهم إلى تقاليد موروثة لا يبغون عنها حولا ، كانوا يقولون كلما نبههم إلى الانتقال عما هم عليه منذرُهم : ﴿ إِنَّا وَجَدنَا ءَابَآءَنَا عَلَى أُمَّةٍ (أى على طريقة) وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [1] ؛ وقد وصفهم الحق بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ * فَهُمْ عَلَى ءَاثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [2] ؛ وهذا نهاية ما يعرف من الجمود على القديم .

فما لبث محمد ﷺ إلا سنين حتى انقلبت حالتهم إلى ضد ما كانت عليه ، فرأيناهم منهومين بالعلم ، مشغوفين بالنظام ، معنيين بالترابط والتضام ، قد استحالت ضراوتهم الحربية إلى شجاعة مشبعة بروح الرحمة ، ووقّافين مع الأصول المقررة ، كأنهم خريجو جامعات ؛ معتدّين بالمعارف المحررة ، كأنهم أعضاء أقاذيميات ؛ محترمين للنظام العالمى العام ، وعاملين على الاندماج فيه .

وأعجب من كل هذا وأدعى للدهش والحيرة ، أن محمداً ﷺ أحاط إصلاحه هذا بضروب من المناعات والحوافظ وأسباب البقاء وعوامل التطور ، جعلت عمله ثابتا مستقرا لا يتزعزع بوفاته ، ولا ينحل بما يطرأ عليه من انتقالات الحكم وآفاته ؛ فأحدث هذا المجتمع الفتى القليل العدد فى المجموعة العالمية من التحولات ما لم يكن

---

(١) سورة الزخرف : ٢٣ .

(٢) سورة الصافات : ٦٩،٧٠ .

يحلم به أحد ، فزالت بواسطته دول ، وخلفتها دول ، وولدت مبادىء فى الدين والأدب والسياسة لم تكن موجودة ، نازعت الحياة مبادىء عتيقة كان لها السلطان المطلق على العقول والقلوب آمادا طويلة ، واضطرتها إلى الانحسار والانكماش ، وما كانت غير برهة من الزمان حتى تبدلت الأرض غير الأرض ، والعقول غير العقول ، فاتجه العالم مدفوعا بحركة قاهرة إلى الخروج من جمود طال عليه الأمد فيه ، وحلت به حياة جديدة كان من آثارها نهوض الشرق من كبوته ، وتنبُّه الغرب من غفلته ؛ ولا يزال العالم يتطور تحت تأثير ذلك الانقلاب ولما يتم تطوره ، وإن يوما من أيام الانتقالات الاجتماعية كألف سنة .

فإذا أراد المتأمل بعد هذا البيان المجمل أن يقدر قدر رسالة محمد بين الرسالات الإنسانية التى قام بها الأفذاذ ، و لم يكن مؤمناً بالنبوة ، حار أن يجد لها معياراً يزنها به ؛ وإذا عمد إلى المقارنة بينها وبين غيرها لا نقول يجد البون بعيدا بينهما ، ولكنا نقول لا يجد تلك المقارنة ممكنة .

نعم ، قد نبغ فى الأرض مصلحون كثيرون ، ولكنهم دون استثناء جاءوا بالأوليات ، ثم كمل عملهم فى قرون كثيرة بواسطة من تتابعوا بعدهم من تلاميذهم . فإن كانوا بسبيل تأليف أمة انحصر جهدهم فى وضع الأساس ، لأن أعمارهم لا تتسع لأكثر من ذلك ، وتركوا لمن يجىء بعدهم رفع البناء ؛ وإن كانوا بصدد إصلاح المعتقدات ، وتهذيب العادات ، أتوا ببعض المقدمات ، ووكلوا لأخلافهم القيام بما يستدعيه هذا الإصلاح من المحاولات ؛ ولكن محمداً جاء بالنهايات ، فوضع أساس الاجتماع وأقام عليه البناء ، وأصلح المعتقدات بعد أن اجتث الوثنية اجتثاثا لا تقوم لها بعده قائمة هناك ، وهذب النفوس ، وطهر القلوب ، وأنار العقول ، و لم يترك الأمة إلا وهى مثل أعلى لما يمكن أن تكون عليه جماعة من صحة الاعتقاد ، وترابط الآحاد ، وتوحد الوجهات ، وتكافل الطبقات ، وتضافر الهمات على بلوغ أقصى الغايات .

هذا من ناحية بناء المجتمع ، وأما من ناحية النظم التى يجب أن يقوم عليها ، فقد جرت السنن العادية على أن تكون فى مبدأ أمرها أولية ، ثم تتطور على طريقة تدريجية ، حتى تصل إلى ما تصل إليه النظم الوضعية ، فى مدى آماد تعد بالقرون ؛

ولكن محمداً خرق هذه السنة ، ولم يترك الأمة إلا بعد أن ترك فيها كتابا شمل من أصول التشريع ، ومبادىء الاجتماع الراق من العدالة والمساواة والحرية والديموقراطية وحدود الحقوق والواجبات ، مالم تصل الأمم المتمدنة إلى بعضه إلا فى العصور المتأخرة ، بعد قرون قضتها فى الانقلابات والفتن والثورات .

فإذا كان قصارى رسالة العبقرى ، ركناً يقيمه فى بناء المجتمع ، أو تجديداً يوفّق إليه فى ناحية من نواحى النشاط العلمى أو العملى ، ولهذا السبب يُحشر فى زمرة بناة الإنسانية ، ويتنافس البسيكولوجيون فى دراسة شخصيته ، وتحليل نفسيته ، وقد يبالغون فيعنون بقياس جمجمته ، وتعيين نسبة مخه إلى سائر جسده ، ففى أية مكانة تضع رسالة محمد ، وبأية نهمة يجب أن يُعكف على دراسة شخصيته ، وتحليل نفسيته ، وفى أية زمرة يجب أن يُحشر بعد ذلك من مؤسسى الإنسانية ؟

من الظلم البين أن نضعه فى مستوى أصحاب الرسالات المجازية ، لأن البون سحيق بينهم وبينه ، أفلا يكون من العدل أن نضعه حيث وضع هو نفسه : بشر يوحى إليه ، ورسول خلت من قبله الرسل ؟

هنا تقوم عقبة كأداء فى طريق الذين لا يعتقدون بالوحى ولا بالنبوة ، فتراهم قد يعترفون بأن ما قام به محمد ﷺ عمل فذ ليس له شبيه فى أعمال العباقرة ، ولكنهم لا يستطيعون أن يعتبروه من آثار عالم ما فوق الطبيعة ، لأن هذا العالم عندهم غير موجود إلا فى خيال الذين يقولون به ، فكل ما فى الكون فى مذهبهم كونى ، وكل عمل يتم فيه طبيعى ، حتى الروح والعقل والنواميس ، والنظم الوجودية ، والإبداعات الصورية والمعنوية .

فهم يقولون : العلم الذى يجب أن يعوَّل عليه دون غيره ، يشترط أن يكون لكل حقيقة دليل محسوس ، ولا دليل لكم على إمكان الوحى ، ولا على النبوة ، إلا ما تنتزعونه من خيالكم انتزاعا ، فلا حق لكم فى تكليفنا بعقيدة ليس لها أصل تقوم عليه على شرط العلم .

نقول : لو كنتم عنيتم باستيعاب المقررات العلمية ، لما تعذر أن تجدوا للوحى وللنبوة ما يسوغهما منها . أما علمتم أن التنويم المغناطيسى أصبح من المقررات

العلمية ، وأنه كشف أن للانسان عقلا باطنيا أرقى من عقله العادى ، هذا لا يمكنه أن يستمد معرفته إلا بواسطة آلات وأعصاب ، وذلك يستمدها بذاته بغير وساطة آلات ولا أعصاب ؛ وهذا إدراكه للموجودات محصور فى حدود الحواس ، وذلك إدراكه غير محصور فيها ، فهو يرى ويسمع ويحس ويشم ويذوق ما هو بعيد عنه بألوف الأميال ؛ وهذا تقوم الحوائل المادية عقبة دون إدراكه ، وذلك لا يصده حائل عن الإدراك ، فهو متصل بالعالم اتصالا مباشرا على حالة تشعر بأنه من عالم أرفع منه بما لا يقدر ، ولا يحجبه عن الظهور إلا الحالة العادية التى عليها الإنسان ، ولكن متى بطلت هذه الحالة العادية بواسطة النوم المغناطيسى ، خلفتها الحياة الحقيقية للروح ، ورئى رأى العين أنها ليست فى حاجة إلى الحواس الخمس فى الاتصال بمصادر المعرفة ، وأنها لا تتقيد بحوائل الزمان والمكان ، فإذا كُلفت أن تأتى بخبر من أقصى الأرض ، انتقلت إليه بمجرد الإرادة ، وأتتك بما تسأل عنه كأنه بجوارها ؛ وإن سألتها فى أى عالم تعيش ؟ أجابتك أنها متصلة بعالم ما فوق الطبيعة ، وأنها تقابل الأرواح المجردة فيه .

أفلا تدل كل هذه الظواهر المحسوسة على أن للروح الإنسانية اتصالا باطنيا بعالم أرفع من هذا العالم المادى ، تتصل فيه بالأرواح المجردة ، وتستمد منه ما هى فى حاجة إليه من القوة والمعرفة ، وأن (العلم الرسمى نفسه) هو الذى كشف هذا الأمر بعد أن دأب على دراسته من سنة (١٧٧٥) حيث أعلنه الدكتور (مسمر) ، ودأب على تمحيصه الباحثون إلى اليوم ؟ .

هذه حالة العقل الباطن فى الإنسان العادى ، فماذا تكون حالة هذا العقل الذى بلّغ الإنسان درجة الصفاء ، كما هو عند بعض الأفذاذ من الذين اتفق على اعتبارهم رسلا وأنبياء ، ألا يكون أشد اتصالا بالعالم الروحانى ، وأكثر قبولا للفيض الإلهى ، من طريق غير طريق الحواس ، وهو ما اتُّفق على تسميته بالوحى ؟

إن (العلم) أثبت بما شاهده من آثار ما أسماه بالعبقرية ، أن من الناس من يلهمون بالإبداع فى بعض النواحى إلهاما من غير طريق التفكير ولا الجهد العقلى ، فيأتون بما لم يسبقهم إليه أحد ولم يكونوا هم يتخيلونه تخيلا ، وكان (العلم) يسجل هذه الحوادث الفذة ، ويمتنع عن تعليلها لاستعصائها على كل علة ، حتى

اكتشف العقل الباطن ، وعرف أن له اتصالات باطنية لا علم لصاحبه بها فى (حالته العادية) ، فسهل تعليلها من هذا الطريق ؛ أفلا يمكن تعليل النبوة بهذه الاتصالات نفسها وإن كانت هذه أرقى من تلك ، وأبعد منها أثرا ، وأرفع شأنا ؟

كلمة ختامية :

إن الذين يعتصمون بالعلم ، ويرون الحكمة فى أن يقفوا عند حدوده ، لهم الحق أن يفخروا بموقفهم هذا ، ولكن الواجب عليهم أن لا يتجاهلوا بعض ما وصل إليه ، ليحافظوا على مذهب أهله فى عصر غير العصر الذى يعيشون فيه .

نحن اليوم فى منتصف القرن العشرين الذى ثبت فيه عمليا أن المادة أصلها القوة ، وأنه يمكن إفناء أية مادة عمليا ، وأن المذاهب الفيزيولوجية التى حاول أصحابها فى عصر مضى أن يثبتوا بها أن العقل إفراز مخى ، وأن الحياة نتيجة الاحتراقات المادية فى الخلايا ، وأن الشخصية الإنسانية نتيجة التركيب الجسماني ، هذه المذاهب قد أخذت حظها من انخداع العقول بها ، ثم سقطت دولتها أمام ظواهر التنويم المغناطيسى ، والمباحث البسيكولوجية الأخرى . وقد اعترف علماء لا يشق لهم غبار بهذه الحقيقة على رءوس الأشهاد .

قال البحاثة المشهور (جابرييل دولان) فى كتابه (المذهب الروحى أمام العلم) بعد أن ذكر ما قوبل به اكتشاف التنويم المغناطيسى من المعارضات قال : « أما اليوم فقد حدث فى مصلحته رد فعل عظيم ، فانك ترى الجرائد على اختلاف صبغاتها وأماكنها ، والمجلات الطبية أيضا ، مشتغلة بذكر ظواهره العجيبة ، وحوادثه المدهشة » .

وقال العلامة الدكتور شاركو وهو من أقطاب النهضة الطبية العالمية فى هذا العصر : « النوم المغناطيسى عالم تجد فيه بجانب الظواهر التى يمكن تعليلها بعلم الفيزيولوجيا ، ظواهر أخرى فوق الطبيعة لم يستطع أحد تعليلها للآن ، ولا تتفق وأى مقرر فيزيولوجى »

وقال الأستاذ العلامة (بيو) فى كتابه (المخاطبات على المغناطيس الحيوى) :

« النوم المغناطيسى يثبت وجود الروح وخلودها ، ويبرهن على إمكان اختلاط أرواح متجردة عن المادة بأخرى لم تزل مكتسية بالمادة » .

هذا أثر التنويم المغناطيسى الذى يتجاهل منكرو عالم ما فوق الطبيعة أمره ، وليس هذا من القيام بحق الأمانة العلمية فى شىء .

هذه كلمة أقولها على عجل ، ذكرى لمن كان له قلب ، مستدلا بها أن العلم الذى يتحككون به فى إنكار عالم ما فوق الطبيعة ، ليس هو اليوم بالعلم الذى كان ينكر كل ما يجهله ، ولكنه علم اكتشف من آثار العالم العلوى ما جعله يمضى قدما فى سبيل الاستكثار من ظواهره ، وفيها من الدلائل المحسوسة على وجوده ما لا يدع للشك فيه مجالا (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، الجزء الرابع ، ص ١٥٠ ، ربيع الآخر سنة ١٣٦١ هـ .

المثل العليا فى الإسلام

للإنسان قوى منوعة عقلية وجسدية يمده بها تكوينه البديع ، وُضعت فيه لتوصله إلى الغايات التى كُتب له أن يبلغها فى حياته المادية والأدبية ، فهو فى حاجة ماسة إلى عوامل أرقى من الواقع ليندفع تحت تأثيرها إلى الأمام ، ويوجه خصائصه التوجيه المناسب لمكانته ، باعتبار أنه أكرم الكائنات الأرضية . فهل هذا العامل موجود فى الواقع ؟ أجاب بعض الفلاسفة بالإثبات ، ونفاه آخرون ، رائين أن الأمر فى الأفراد والجماعات يجرى كما يتفق ، لا كما يُرجى أن يكون ؛ قالوا ما دام هناك عقل فهو الذى يملى على الإنسان ما يجب أن يسلكه تحت تأثير الحاجات الوقتية ، والدوافع النفسية ، ومقتضى الحالات الراهنة .

وعندنا أن هذا القول يمكن أن يكون صحيحا فى الحالة البدائية للإنسان ، وهو تحت تأثير الحوافز القاهرة من الحاجات الأولية ، وإزاء المخاطر المروعة من الحوادث الطبيعية ، فيرجح وهو فى هذه الحالة أن لا يكون له مُثل عليا يرمى إلى تحقيقها فى وجوده المادى والمعنوى . ولكنه بعد أن تستتب له الحياة ، ويقوى على مغالبة الجوائح ، لا يعقل أن لا يكون له مُثل عليا لحياته الشخصية والاجتماعية ، يتوجه تحت تأثير جواذبها لتحقيقها .

وإذا ثبت أنه كان لكل أمة دين يمثل لها السعادتين فى كتابه ، وسلطان دنيوى تبذل روحها رخيصة فى سبيل توطيد أركانه ، فيتعذر على الباحث أن يتوهم أن لا يكون لكل منها مثل عليا تتطالّ بكل ما تملكه من وسع لأن تصل إليها .

دع الأمم المتغلغلة فى القدم جانبا ، واستعرض الأمم التى حفظ لنا التاريخ أخبارها كاملة ، كالصينيين والهنديين والمصريين والآشوريين واليونانيين والرومانيين ، فلا يتداخلك شك فى أنه كان لكل منها مُثل عليا فى الحياة ، مدونة فى أساطيرها ، ومحفورة فى جدران هياكلها ، وثبت أنها كلما كانت تتقدم فى سن الاجتماع ، كانت ترفع

مثلها العليا إلى حيث وصلت مطامعها . وها نحن فى عالم حافل بالأمم الراشدة ، ذات القدم الراسخة فى العلم والمدنية ، نرى لكل منها مثلا عليا فى اجتماعها وسياستها وحضارتها ، تحاول الوصول إليها .

وقد اجتمع لدينا من جملة هذه المثل قديمها وحديثها ، ما يسمح لنا بالمفاضلة بينها ، وقد استعرضنا آثارها على أهلها ، والتطورات المتوالية التى كابدتها فى حياتها ، فلم نر من بينها ما يسمو إلى مرتبة المثل العليا للاجتماع فى الإسلام ، ولا ما يشبهها فى حسن توجيه أهلها إلى المراشد ، وفى سرعة إيصالها إياهم إلى الغايات ، وفيما نتج منها من الخيرات والبركات على العالم أجمع ، فكانت جديرة بالنظر والتقدير ، وبالبحث فى إمكان رفعها إلى مستواها من وعى المسلمين وقلوبهم .

من هذه المثل العليا الإسلامية قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (١) . هذا المثل القرآنى الأعلى ، كان من العوامل التى سيطرت على نفسية الأمة الإسلامية فقادتهم إلى ما تأدت بهم إليه من دفع ما كان رائنا على القلوب من جاهلية ، وكسر ما كان مفروضا على العقول من أغلال ، وتذليل ما كان بين الناس وبين التكمل من عقبات . وأصبحت بلاد العرب بعد أن كانت مباءة للوثنية ، ومثابة للجاهلية ، وموئلا للتقليد والجمود والتحجر ، مثاراً لأعظم اندفاع إنسانى بعيد الأثر وراء تحرير العلم والحكمة ، وتحطيم الحجب دون النظر والتفكير ، وإزالة القواطع التى كانت قائمة أمام المدنية الفاضلة .

هذا المثل الأعلى وإن كان قد تحقق والنبى موجود بين ظهرانى أمته ، فإنه بعد ذلك العهد الممتاز أصبح مثلا أعلى لأتباعه فى كل جيل ، وهو يرشح الأمة السارية تحت ضوئه لأن تكون خير أمة ، ولم يحصر الخير فى القوة ولا فى الثروة ولا فى شىء مما يوقظ المطامع ، ويثير المطامع ، ولكنه أطلقه ليتمحض للكمال الإنسانى

---

(١) سورة آل عمران : ١١٠ .

بغير تحديد ولا تخصيص . وخير الأمم لا يصح أن تكون أقلها ثروة ولا علما ولا قوة ، وتزيد عنها فى أن يكون من آثارها الخير أنى وُجدت ، وفى حيزها الفلاح أنى كانت ، الفلاح الناتج من تطهير القلوب ، وتقويم الأخلاق ، ومن الايمان بالله ، على أشرف الوجوه وأعلقها بالنفس ، وأشدها إهابة بالأرواح إلى السمو .

المثل العليا فى الإسلام ليست من نوع المثل الاجتماعية المعروفة ، ولكنها نسيج وحدها فى مبناها ومعناها ، وكذلك كانت فى نتائجها وثمراتها . نعم كانت فذة فى الناحيتين ؛ فإن الأمة الإسلامية أُلّفت فى مثل عدد الأصابع من السنين ، وهو انتقال فجائى حير العقول ، واستعصى على التعليل ، وهو يعتبر معجزة اجتماعية ليس لها ما يشبهها فى تاريخ العالم .

و لم يقف أمرها عند هذا الحد ؛ فقد تناولت كل ما كانت عليه الأمم التى اتصلت بها من علم وفلسفة وفنون وصنائع ، فأحيت مواتها ، وزادت موادها ، وجمعت شواردها ، وبنت المدارس والجامعات لها ، وتنافس الخلفاء والأمراء فى اقتناء كتبها ، وحشروا إلى قصورهم من أكناف الأرض جلة أقطابها ، ونشروا خلاصة معارفهم فى أقطار العالم لا فرق بين شرقّيها وغاربّيها ، وقبلوا فى معاهدهم طلبة العلم من جميع الأمم غير مميزين بين مسلمها ونصرانيّها ، و لم يمض عليهم أكثر من قرنين حتى كان للمسلمين زعامة الأرض فى العلم والسياسة والمدنية .

إن فى الإسلام طائفة من الأصول والتعاليم مقيسة على قابلية النفس الإنسانية ، ومؤلّفة بحيث تستثير قواها الكامنة فيها ، وتوجهها إلى المرامى البعيدة عنها ، مزودة بمناعات مناسبة لها ، تنتج آثارا يحار فى تعليلها العقل .

هذا ما يدل عليه تاريخ الإسلام من أول وجوده إلى أن بلغ غاية نموه ، وإلا فكيف يعقل أن أمة منقسمة إلى قبائل متعادية تتألف فى مدى ثلاث وعشرين سنة حتى تستحيل إلى أمة شديدة الترابط ، قوية التماسك ، إلى حد أن تعجز الحوادث التى احتوشتها عن تفكيك عناصرها ، ثم تتابع حياتها الاجتماعية والأدبية حتى تبز بها الأمم العريقة فيها ، وتفرض سلطانها على ربع الكرة الأرضية ، لا في الناحية المادية وحدها ولكن فى النواحى العلمية والمدنية أيضا ؟

إذا لم تكن مجموعة التعاليم الإسلامية تضاعف من قوى العامل بها جسديا وروحيا مرات كثيرة ، بحيث تهيئه للتغلب على جميع العقبات التى تقف فى سبيله ، فكيف كان يسوغ تكليف الإسلام الآخذ به أن يقاوم عشرة من أعدائه ويؤاخذه إذا انهزم أمامهم ؟ ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا ﴾ [1] ، ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [2] .

وكيف يفهم أن تصل جماعة تكونت بالأمس ، لا قُدْمة لها فى العلوم ولا الفنون والحضارة ، فى مدى قرنين إلى درجة عالية منها أصبحت معها صاحبة الزعامة العامة فيها ، وبقيت مؤلفاتها وآثارها فيها تنير طريق العالم كله ستة قرون متوالية ، كما أثبتنا ذلك من أقوال أقطاب المؤرخين والاجتماعين فى أعدادنا الماضية ؟ .

كل هذا لا يمكن قوله إلا تحت ضوء النظرية التى قررناها هنا ، وسنتابع بيان تلك الأصول والتعاليم الإسلامية وندرسها من هذه الناحية الخاصة إن شاء الله [*] .

* * *

---

(١) سورة الأنفال : ٦٥ .

(٢) سورة الأنفال : ١٦ .

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثامن عشر ، ص ١١٤ ، سنة ١٣٦٦ هـ .

المسلمون أمة وسط
ليكونوا شهداء على الأمم

تكلمنا فى الجزء الماضى عن المثل العليا ، ومهمتها فى تقويم الأمم وتطويرها ، من ناحية عامة ، ثم آثرنا المثل الإسلامية العليا بالذكر ، وذكرنا مثلا منها ؛ واليوم نلم بمثل ثان ، لأن فى التذكير المتكرر بهذه المُثل ، وفى بيان مكانها من نفسية الجماعات البشرية ، تقوية لتأثيرها ، بشرط أن تكون محترمة فى قلوب الآحاد ، ومتعهدة من الوعاظ بما يحببها إليهم ، وبما يدل على أن العمل بها واجب عليهم ، فى غير تنطع ولا استكراه .

نأتى اليوم من هذه المثل الإسلامية العليا بقوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١) .

ونحن نفسر هذه الآية : فقوله تعالى : (وكذلك) إشارة إلى معنى الآية المتقدمة ، وهى قوله جل وعز : ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) . سماهم سفهاء أى خفاف الأحلام ، لأنهم حقروها بالتقليد ، وبالإعراض عن النظر والتحقيق . فاعترضوا على المسلمين الأولين فى تغيير قبلتهم إلى البيت الحرام بعد أن كانت إلى بيت المقدس . وهم فى اعتراضهم هذا قد اتصفوا بالسفاهة لأنهم لم يعقلوا أن توجيه الوجه إنما يكون إلى الله لا إلى المكان ، ولله المشرق والمغرب ، فأينما يولوا فثم وجه الله ، لأنه تعالى لا ينحصر فى مكان ، فاعتبر الغفلة عن هذه الحقيقة سفاهة .

---

(١) سورة البقرة : ١٤٣ .

(٢) سورة البقرة : ١٤٢ .

فيكون معنى الآية التى نحن بسبيلها : إننا كما هدينا كم فى أمور دينكم ودنياكم إلى الصراط المستقيم ، جعلناكم أمة وسطا أى خيارا معتدلين . (وأصل الوسط اسم للمكان الذى تتساوى جوانبه ، استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفى إفراط وتفريط) وإنما جعلناكم كذلك لنسند إليكم مهمة عالمية جليلة الشأن ، هى أن تكونوا شهداء على الناس فى تقصيرهم وغلوهم ، ويكون الرسول عليكم شهيدا .

هذا مثل أعلى من مُثل الاجتماع لم ينزل به الوحى على أمة من الأمم غير الأمة الإسلامية . وإنه لأمر جلل يحق معه للأمة التى تنال هذا التقدير السماوى أن تبذل كل ما فى وسعها من علم وعمل للمحافظة عليه . ولا يمكنها ذلك إلا بدوام مراقبة ذاتها ، فى جميع حركاتها وسكناتها ، والجرى على الطريق السوى فى رغباتها ونزعاتها ، والقيام على القسطاس المستقيم فى معاملاتها ومنازعاتها .

فلا جرم أن أمة تنصب من نفسها على نفسها حسيبا من هذا الطراز الصارم ، وتقيم من ضميرها المشبع بروح العدل ، والمتأثر بأرفع التعاليم وأكرمها ، رقيبا على سيرتها ، تصل إلى أسمى درجات الكمال الاجتماعى ، وتتهدى إلى أبعد غايات الرقى المادى والأدبى . فإذا قلنا إن هذا المثل القرآنى الأعلى ، كان أثره على الأمة الإسلامية الأولى ، أن حفظها أولا من التدنس بالمطامع الذاتية ، والتنمر للجماعات التى وقعت تحت سلطانها ، وإنه مكنها ثانيا من دوام الاتصال بروح الوجود وقيومه ، فأيدها من القوى الأدبية بما سمح لها أن تطوى الزمان طيا ، فتبلغ فى سنين معدودة ما لم تبلغ بعضه الأمم إلا فى قرون كثيرة ، لو قلنا ذلك لما كنا مبالغين ، بشهادة الانتقالات الاجتماعية والمدنية الخطيرة التى تمت على أيدى المسلمين فى سنين قليلة .

ثم إن هذه المهمة العالية ، المخولة لهذه الأمة ، تجعلها نزّاعة إلى التفوق فى كل فضيلة ، سباقة إلى التحلى بكل خصلة نبيلة ، وهذا يفسر ما اشتهر عن هذه الأمة من سعة الصدر فى معاملة المخالفين ، ورحب الذرع فى حماية المستضعفين ، مما كان أثره فى نشر دينها ، وإحياء لغتها ، ما لا تستطيعه الجيوش الجرارة ، ولا الدعايات القائمة ، على أشد الوسائل الإرهابية . ولئن كان ممّا أدهش المؤرخين أن تظفر أمة ، لم ينقض على تألفها من قبائل شتى أكثر من ربع قرن ، فتنقلب إلى أمة فاتحة ، وتنقض على أمتين كان لهما السلطان المطلق على الأرض ، فتمحو وجود

إحداهما ، وتفت فى عضد الأخرى ، فأوجب منه للدهش والحيرة أن تحفظ ما حصلته من الفتوحات قرونا طويلة ، وأن ترفعها عما كانت عليه من الثقافة والمعرفة درجات كثيرة .

كل هذه الانقلابات المحيرة للعقل ، والتطورات الاجتماعية البالغة حدود الإعجاز ، لا يعقل أن تكون حدثت عفواً ؛ فبديهة العقل تقتضى أن يكون لكل معلول علة ؛ وعلل هذه الشئون ، يجب أن تلتمس فى مظانها من تركيب جماعة المسلمين ، وفيما أودعه هذا التركيب ، من الروح الحافظ لوجوده ، والمانح لكل حال فيه ما لابد له منه من النظام الكافل لبقائه وترقيه .

ومن آثار هذا المثل الأعلى ، فى الأمة التى تؤمن به ، أنه ينشىء فى نفسيتها شعوراً بنوع من القوامة على سائر الأمم ؛ ولا يخفى تأثير هذا الميل فى توليد عوامل تدفعها لبلوغ المكانة الأدبية والمادية التى يجب أن يصل إليها صاحب هذه المرتبة فى نظر الناس ولكل من هذه العوامل النفسية ، نتائج تدفع إلى العلم والعمل ، وإلى التحلى بالفضائل ، والبعد عن الرذائل ؛ وليس يخفى ما يتتنى من الآثار على كل هذه المحاولات الأدبية ، فى الأمة الواحدة .

فليس بعجيب ، وقد رأيت ما ذكرناه ، أن تنهض الأمة الإسلامية نهضة لم تحدث لغيرها ممن سبقها أو تلاها من الأمم ؛ وأن جماعة تتحلى بمثل هذه الدوافع النفسية ، وتتمتع بهذه الحوافظ الأدبية ، مما أمكننا كشفه ، ولعل ما خفى كان أعظم ، جدير بها أن تبلغ إلى أبعد مدى من الارتقاء البشرى ، وأن تحتفظ بسلامتها بين العوامل المحللة ، وأن تحدث فى العالم آثاراً تبقى مظاهرها حية ما بقيت الأرض ومن عليها (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثامن عشر ، ص ٢٢٢ ، سنة ١٣٦٦ هـ .



العدالة فى الإسلام

إن حقيقة العدالة لم تتجل فى صورة كاملة عند كثير من الشعوب قديما وحديثا ، فهى تتسع أو تضيق ، وتعلو أو تنحط على نحو ما عليه الضمير الاجتماعى الذى يولدها . فأرفع ما وصل إليه معناها لدى الشعوب المتمدنة ، وخاصة لدى ذوى الأرواح العالية منها ، هو أنها التوفيق بين المصالح الخاصة للأمة وبين المصالح العامة للإنسانية ، وهى بهذا التحديد لم تخرج عندهم عن كونها مثلا أعلى للكمال المطلق ، تتوجه الجهود إليها ، ولا يمكن أن تبلغها .

فالأمم الراقية فى حالتها التى وصلت إليها من المدنية ، يمكنها بأحسن مما كانت تستطيعه الجماعات السابقة ، أن تعين الطريق الموصلة إلى هذه الغاية ، وأن تحليها بالأعلام التى تدل عليها . وإنا لموجزون هنا ما ذكره العلم الاجتماعى عن تطور العدالة وعما وصلت إليه ، فإليك :

الإنسان فى حالته الساذجة لا يعرف من القوانين إلا ما تشعره به حاجاته المادية ، ولا يرى حرجا أن يقتل أخاه فى الإنسانية ، وأن يوفى بأكل لحمه حاجته الغذائية . فلما حملته غريزة الاجتماع على الانضمام إلى بعض أمثاله ، تيقظت فى نفسه أول باكورة للعدالة ، فتلطفت سطوة حاجاته بعض التلطف ، ولكنه كان لم يزل بعيدا عن التفكير فى معنى العدل والظلم ، وفى عماية عما يجب أن يحترمه من حقوق سواه . على هذا الوجه من الجاهلية عاشت الجماعات الإنسانية يأكل بعضها بعضا ، ولا تعرف للعدوان حدا تقف عنده ، حتى بعد أن ولدت المدنية فى أمم كثيرة ، وازدهرت فيها الفلسفة والفنون الجميلة .

فهل كان حكماء الهند والصين ومصر وبابل ، وأعلام الفلسفة فى بلاد اليونان ، وقد بلغ كثير منهم درجة الخلود فيها ، ليس فيهم من أدركوا العدالة على وجهها الأكمل ، وإن لم يستطيعوا أن يحملوا الدهماء على العمل بها ؟ نعم خلت ، وليس ذلك بصعب التعليل ، فإنهم مع سبرهم لأعمق ما يصل إليه العقل من أحناء

النفس البشرية ، حتى بلغوا من العلم بها إلى ما لا مزيد عليه بهذا الأسلوب ، لم يدرسوا الحقوق الواجبة لمجموع الإنسانية . وعلم الاجتماع لم يكن وُلد إلى عهدهم ، فلم يصل إلى علمهم من تلك الحقوق شيء يذكر ، فلهذه العلة لم يكتمل معنى العدالة لديهم ، ولا اكتمل عند الرومان الذين خلفوهم ، فكان اكتماله من حظ القرن التاسع عشر ، وهو لم يتأخر إلى هذا الحد إلا لابتنائه على معارف اجتماعية لم يتم نضجها إلا فى العصور القريبة .

وبعد أن دخل عنصر الإنسانية فى بناء معنى العدالة ، تحولت العقوبة فى القوانين الحديثة من وجهة الانتقام إلى وجهة الإصلاح ، واستقر فى روع المشترعين أن المجتمع يرمى إلى التكمل لا إلى الأخذ بالثأر . فإذا نطق قاض بحكم مدون فى القانون ، فإنما يصدره وهو برىء من كل شهوة انتقامية ، وفى غير وجهة المقابلة بالمثل ، ولكنه يصدره بنية إعادة النظام الاجتماعى إلى استقراره ، وفى سبيل إصلاح الجانى نفسه ، وتكريه الإجرام إليه . وقد صرنا الآن نصف العقوبات بأنها وسائل إصلاحية ، وهو وصف فلسفى أخلاقى يسِمها بسِمتها الحقيقية ، ومع هذا فإذا انتقدنا الأقدمين فلنفعل ذلك بتواضع ، فإن تعذيب المجرمين فى السجون لم يبطل إلا منذ نحو قرن .

ولكن من الذى يستطيع أن يوفق بين العدالة وقرارات السناتو الرومانى ؟ فإن القسوة والخديعة كانتا دعامتى القانون العام فى روما . وكان أفضل رجالات الرومانيين أمثال فابيوس وسيبيون وكاتون وبروتوس ، يسلبون ويقتلون نصف العالم فى سبيل مجد وطنهم ، دون أن يشعروا بندم على ما يرتكبون ! وكانت العدالة فى قانونهم المدنى خيالا لا حقيقة لها .

والخلاصة أن العدالة عند الرومانيين بالنسبة لرجل الحروب ، ورب الأسرة ، والذى يملك حقوقا وأملاكا ، كانت على أكمل حال ، ولكنها بالنسبة لمن لا مال عندهم ، وهم السواد الأعظم من الأمة ، كانت فى حالة توجب السخرية ، وقد وصفها (برودون) أكمل وصف بعبارات فصيحة ، فقال : إنها فى ناحيتها المدنية وناحيتها من الحقوق العامة ، كانت مبنية على قاعدة « الحق للقوة » .

هذه خلاصة ما يفهمه أئمة الفقهاء الأوربيين من حقيقة العدالة ، وهى وليدة القرن التاسع عشر ، بعد أن مرت على أدوار شتى ؛ ويرى الناس أنها وإن بلغت هذا الأوج فلسفيا فلم تبلغه عمليا ، فلا يزال لاختلاف البلاد والأمم والأديان والألوان واللغات تأثير فى تطبيقها حتى لدى أرقى الأمم مدنية .

فشرط علم الاجتماع فى اكتمال العدالة أن تراعى الأمم فيما تسنه لنفسها من قوانين ، حقوق الإنسانية برمتها ، وهو باعتراف علم الاجتماع ما لم تصل إليه أمة بعد .

فلننظر الآن هل وصلت إليه الأمة الإسلامية ؟ فإن كانت قد وصلت إليه كان لحماة الإسلام منه حجة علمية على أن مصدر الإسلام الوحى الإلهى وليس علم البشر . وإلا فكيف يعقل أن يصل العرب فى أول عهدهم بالاجتماع والتآلف إلى ما لم تصل إليه أوربا فى أخص ما عنيت به منذ نحو خمسة وعشرين قرنا ؟ فنقول :

العدالة فى الإسلام :

من المثل العليا فى الإسلام تكليف متبعيه بأن يكونوا قوّامين بالعدل بين الناس مع صرف النظر عن جميع الاعتبارات التى تحد من سلطانه ، وتوهى من بنيانه ، فقال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا (أى تلووا ألسنتكم عن الشهادة) أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [1] .

هذا تحضيض شديد لجماعة المسلمين على أن يكونوا قوامين بالعدل ، ومراده بالعدل العدل بأوسع معانيه وأخصها ، أى العدل المطلق ، بدليل قوله تعالى :

---

(١) سورة النساء : ١٣٥ .

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [١] ، أى ولا تحملنكم كراهتكم لقوم على أن لا تعدلوا فيهم ؛ وقوله تعالى : ﴿ وَلَايَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُم عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [٢] ، أى ولا يحملنكم بغضكم لقوم بسبب أنهم صدوكم عن دخول المسجد الحرام ، على أن تعتدوا ، أى تتجاوزوا حدود العدالة ؛ فإن كان تعاون بينكم فليكن فى تعميم البر بين الناس وفى تقوى الله ، ولاتتعاونوا على ارتكاب المحارم والعدوان على الخلق ، وخافوا الله إنه شديد العقاب .

وقد أمر المسلمون بمراعاة قواعد العدل والإنصاف حتى مع ألد أعدائهم ، فلم يبح له تجاوزها فى معاملتهم ، فقال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُم وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [٣] ، وقد عد من الاعتداء قتل المستسلمين ولو قصدوا بذلك نجاة أنفسهم ، ونساء المحاربين وولدانهم ، والهرمى والزمنى ورجال الدين منهم ، ونهى حتى عن قتل خدم المقاتلين ؛ والنهى عن الاعتداء فى مثل هذا الموطن الذى اتفقت الأمم حتى المعاصرة لنا منها على أن نتغاضى فيه عن كل اعتداء ، يدل دلالة قاطعة على أن الإسلام يريد بالعدل مَثله الأعلى ، لا العدل البشرى المبنى عَلى المزاعم القومية ، والأهواء النفسية . قال ﷺ : « لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بتقوى الله أو بعمل صالح ، كلكم من آدم وآدم من تراب » .

ومما هو أدل من كل ما مر على أن الإسلام يريد من العدل مؤداه المطلق ، تكليفه الآخذين به أن يقوموا بحقه حتى حيال من يمتد سلطانهم عليه من غير المسلمين ، وممن ملكت أيمانهم حتى من الحيوانات العجم أيضا ؛ وهنا يتجلى من سمو التعاليم الإسلامية مظهر لا تملك الأمم قاطبة له نظيرا حتى أيامنا هذه ...

---

(١) سورة المائدة : ٨ .

(٢) سورة المائدة : ٢ .

(٣) سورة البقرة : ١٩٠ .

فعند أية أمة من الأمم يتساوى أمام القانون الشريف والوضيع ، والغنى والفقير ، والمالك والمملوك ، والمسلم والكافر ، غير الشريعة الإسلامية ؟ بل لدى أية أمة من الأمم تراعى حقوق الحيوانات على الناس إلى حد مطالبة الحكومة المعتدين عليها بمراعاتها ؟ وإنى لآت بمثال من ذلك يقف أمامه المشتغلون بتقرير العدالة مشدوهين من التعجب ، فإليك :

يجب على صاحب الدابة شرعا أن يعطيها علفا إن لم تكن من التى ترعى فإن كانت منها وجب عليه أن يرسلها لترعى حتى تشبع وتروى .

فإن كانت مما تكتفى بأحدهما ، الرعى والعلف ، فلصاحبها الخيار بينهما ، فإن كانت مما لا تكتفى إلا بهما معاً لزماه .

فإن احتاجت البهيمة إلى الشرب ومعه ماء يحتاج إليه لوضوئه ، فعليه أن يبذله لها حتى تروى ، وأن يكتفى هو بالتيمم .

فإن امتنع صاحبها من أن يقدم لدابته علفا ، وكانت مما يؤكل لحمه ، أجبره القاضى على أن يبيعها أو أن يذبحها . وإن كانت مما لا يؤكل لحمه ، أجبر على بيعها صيانة لها من الهلاك . فإن لم يفعل ، فعل الحاكم ما تقتضيه المصلحة : فإن كان له شئ بيع وأنفق منه على تغذية بهيمته ، وإن تعذر ذلك قام بالإنفاق عليها بيت المال .

فإذا كان المثل الأعلى للعدالة فى نظر علم الاجتماع هو الاعتداد بمصلحة الإنسانية قاطبة فى فرضها ، وقد اعترف بأن الأمم الأوربية المتمدنة لم تصل إليه بعد ، بَلهَ أرقى الأمم القديمة ، فإن الإسلام قد حقق هذا المثل الأعلى منذ نحو أربعة عشر قرنا ، وساوى بين العربى والأعجمى ، وبين الأبيض والأسود ، وبين الأولياء والأعداء ، وتجاوز هذه الدرجة وجعلها تشمل كل ذى روح فى الأرض . ومن الذى يستطيع أن ينسى قول النبى ﷺ : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها ، فلا هى أطعمتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض ؟ » (*) .

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثامن عشر ، ص ٣٠١ ، سنة ١٣٦٦ هـ .

الأخذ بالأحسن

فى بلاد العلم اليوم رجال من كبار العقول ، لا يتقيدون بفلسفة مقررة محدودة ، ولكنهم يأخذون بأحسن ما يجدونه فى جميع الفلسفات ، ذهابا منهم إلى أن الحقائق المطلقة لا يمكن أن تكون وقفاً على واحدة منها ، وأن أسلوبا واحداً من البحث لا يصح أن يحتكر كل طرق الوصول إليها . نزعة جديدة فى الإخلاص للحقائق ، لم تنجل على أكمل حالاتها إلا لدى مفكرى القرن التاسع عشر ، بعد أن أدرك العقول اللغوب من جراء التقيد بالتقاليد المذهبية ، والتعصب لأصولها ووجهات نظرها . فكان أوجه أسلوب لدى هؤلاء المجددين أن لا يتقيدوا بوجهة نظر واحدة ، وأن لا يجمدوا على أصول مقررة قد تصدهم عن النظر إلى ما هم بسبيله من ناحية قد تناقض تلك الأصول ، وتتفق ووجهة نظر أخرى لفلسفة أخرى .

هذا ما يتعلق برجال العلم من كبار العقول ، وأثر هذه النزعة فى الإيصال إلى الحقائق من أقرب الطرق إليها ؛ وأما ما يتعلق بسائر الناس ، فإن هذا الأسلوب ألزم ما يلزمهم للوصول إلى الحقائق ، لأن أكثرهم يتخذ مما سمعه فى أول عهده بالنظر ، وما قرأه فى بعض ما كتب من يحسن الظن بهم ، سدوداً أمام كل ما يناقضها من الآراء والمذاهب ، فيظل ينافح عما اختزنه فى عقله من المعلومات الضالة ، ويدفع كل ما يكشف عنه السوء من ناحيتها ، حتى ينتهى وجوده وهو على ضلاله القديم .

إن مبدأ الأخذ بالأحسن الذى أصبحت الحكمة العالمية مدينة له بثروتها ومكانتها الحالية ، هو المبدأ الذى دعت إليه الحكمة القرآنية منذ نحو أربعة عشر قرنا فى قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَاهُمُ ٱللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ ﴾ [1] .

فقد أمر المسلمون أن يسمعوا كل قول ، ويستعرضوا كل مذهب ، وأن

---

(١) سورة الزمر : ١٧–١٨ .

لا يحملهم التعصب للرأى على أن يرفضوا كل رأى دون تفهم وتمحيص ، وأن يأخذوا من بينها ما يجدونه أحسن . وقد وصف الله الذين يفعلون ذلك بأنهم المهديون هداية إلهية ، وبأنهم أهل العقول الراجحة والبصائر النيرة .

هذا التوجيه الإلهى أقام المسلمين منذ أول نشوئهم على أمثل الطرق المؤدية للحقائق ، فلا غرو أن يهتدى المسلمون إلى حقائق علمية ، ومناهج حكمية ، وأصول اجتماعية لم يهتد إليها من سبقهم فى الاجتماع والثقافة بعشرات القرون ، وكانت نتيجة ذلك أن أوتوا خلافة الله فى الأرض أجيالا متعاقبة لم ينافسهم فيها منافس ، ولم يطمع فى وقف سيرهم طامع .

وكما أوصاهم الحق بأن يستمعوا لكل قول ، وأن يأخذوا بأحسن ما يتخيرون ، كشف لهم من أدواء العقول ، وأمراض النفوس ما يجعلهم يحترزون من الخطأ فى التقدير ، ومن التقصير فى التمحيص ، ومن متابعة الأهواء فى التقرير . فأول ما لفت النظر إليه مكان الهوى من نفس الإنسان ، وما يوحيه إليها من الضلالات التى تهوى بالإنسان إلى مكان سحيق ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ (١) .

ونبه سبحانه على محل الظن من مزاعم الناس فقال تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (أى يكذبون) (٢) .

ووجه جل وعز نظر المسلمين إلى أن أكثر الناس لا يعتمدون فى مذاهبهم على أساس يصح أن يعتمد عليه ، وإنما يبنونها على غير قرار ثابت ، فتنهار لأول صدمة من شبهة أو تحقيق ، فقال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الأنعام : ١١٩ .
(٢) سورة الأنعام : ١١٦ .
(٣) سورة الحج : ٨ .

وأمرهم أن يطالبوا من يستمعون إليه بالدليل ، فإن عجز عن إقامته سقط كل ما يقول ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرهَانَكُمْ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

وبين لهم أن الدليل يجب أن يكون مرتكزاً على العلم لا على الأهواء والظنون ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إن تَتَّبِعُونَ إلَّا ٱلظَّنَّ وَإنْ أَنتُمْ إلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (٢) .

فكل هذه التوصيات الإلهية تعتبر من المناعات القوية التى تحمى عقول الآخذين بالإسلام من الوقوع تحت تأثير الأهواء والظنون ، وتدل دلالات قوية على وجوب التعويل على العلم فى تخير ما يأخذون به وما يرفضونه من جملة ما يسمعون .

إن هذه الوصايا الكريمة كما وسَّعت من صدور المسلمين للاستماع لكل قول ، والأخذ بالأحسن مما يلقى إليهم ، حذّرتهم من أن يؤخذوا على غرة فيقعوا فيما وقعت الأمم السابقة فيه من الأهواء والظنون .

وكما وقفتهم على هذا الصمت العادل من مجموعة الآراء البشرية ، والمذاهب الكلامية ، خدمتهم فى الأخذ بالعلوم التى تبنى العمران ، وتنفع الناس فى حياتهم الدنيوية . فأكبوا على قراءة المؤلفات الطبية والطبيعية ، وترجموا ما لم يكن له أصل عربى . وزادوا على ذلك بأن عمدوا إلى المكتبات فاستخرجوا منها المؤلفات القديمة التى وضعها أئمة العلوم فى العصور الماضية ، وأمروا بترجمتها إلى اللغة العربية ، وأخذوا منها ما وجدوه صالحا للعمل به ، وأهملوا منها ما لا يصح التعويل عليه ، ونشطوا لذلك نشاطا سجل لهم الحمد فى التاريخ ، واعتُبروا من أجله مؤسسين لعهد للإنسانية جديد ، وأخذت عنهم الأمم ما كانت فى حاجة إليه ، فعاد للبشرية بسببهم حركتها فى الارتقاء ، واعتمدت جميع مدارس العالم وجامعاتها مؤلفاتهم فى تدريس العلوم ، وشهد لهم المؤرخون بأنه لولاهم لكانت أوربا بقيت فى الظلام البهيم .

ومن عجب أنهم عمدوا إلى الأخذ بمذهب أرسطو العملى ، ولم يأخذوا بمذهب أفلاطون الخيالى ، ولاشك فى أن هذا مما تأثروا به من تعاليم كتابهم الكريم .

---

(١) سورة النمل : ٦٤ .
(٢) سورة الأنعام : ١٤٨ .

هذه الحركة التى قام بها المسلمون الأولون فى العالم تعتبر من الأعاجيب التى يجب أن تتأملها العقول ، وتكبرها القلوب ... فمن كان يتوهم أن الركود الذى كان قد أصاب الجماعات البشرية ، والجمود الذى شل حركتها العقلية ، تحل محلهما حياة أدبية ، ويقظة علمية ، تأتيانها من قِبَل أمة بدوية أمضت أجيالا كثيرة فى الجاهلية والأمية ؟ .

يعلل الدكتور جوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) هذا الانقلاب الذى ليس له شبيه فى التاريخ بأن العلة فيه أن للأمة العربية قُدمة فى المدنية ، وأنها ورثت عن آبائها الأولين من الاستعداد للنهوض ، والقابلية للترق ، ما يكفى لإبلاغها هذا الشأو البعيد من المكانة العلمية .

وهذا فى نظرنا ونظر كل متأمل تعسف كبير فى انتحال العلل ، لا يقره عليه العلم نفسه الذى يستند إليه الدكتور جوستاف لوبون فى تقريراته التاريخية . فهذه القدمة لم يختص بها العرب وحدهم ، فقد كان للصينيين والهنديين والمصريين والبابليين قدمة فى هذه المجالات المدنية ، فلماذا تختص قدمة العرب وحدهم بإخراجهم من جاهليتهم الأولى الموروثة طفرة ، والتغلب على سائر الأمم التى كانت على تدهورها لا تزال تحتفظ فى بدء نهوض الأمة العربية بدرجة من المدنية تجعل لها السَّبق فى مجالها أجيالا كثيرة ؟

يحاول الدكتور جوستاف لوبون أن لا يجعل للعامل الإسلامى أثراً يذكر فى إحداث النهوض العربى المحير للعقل ، وهيهات أن يفلح فى ذلك ، وليس يرى الباحث فى تاريخ العرب الحديث غير الإسلام سبباً فى إحداث هذا الحدث الضخم من التجديد العالمى الذى لم تر البشرية له شبيهاً قبل بعثة خاتم المرسلين محمد ﷺ .

فلو كان العرب قبل البعثة المحمدية قد تداعوا إلى تحسين شئونهم ، وتوحيد قبائلهم ، وصرحوا بما كان لهم من المكانة المدنية فى ماضيهم ، ودعوا لإحياء مواتها ، وإعادة سلطانها ، لكان للمشتبه عذر فى إشراك تأثير هذه الدعوة مع الإسلام فى إعادة بناء حضارتهم ، ولكن الإسلام جاء والعرب فى أحط دركات الجاهلية ، وأشد درجات الجمود ، وبذل مجهودا كبيرا فى إيقاظ طائفة منهم ، غير معتمد على قدمة

لهم فى المدنية ، ولا على مكانة لهم فى المجموعة العالمية ، ولكن بين لهم أنهم على ضلال مبين ، وأنهم إن لم يقبلوا الإسلام دينا ليصلحوا به حياتهم ، جُوزوا على ذلك جزاء نكرا فى عالم وراء هذا العالم .

فكان أثر دخولهم فى الإسلام ، وقيامهم بتعاليمه ، حدوث هذه النهضة مباشرة . فالذى يسلم به العقل أن كل ما حدث لهم من الرقى جاءهم بتأثير مبادئ هذا الدين فيهم لا غير .

هذا القول قد يعتبر غريبا عند أمثال الدكتور جوستاف لوبون من الأجانب ، ولكنهم لو ألقوا نظرة على كِتاب الإسلام ، وتأملوا فيما جاء فيه من المثل العليا ، ومنها ما نحن بصدده من الاستماع إلى كل قول ، والأخذ بأحسن ما فيه ولو جاء به مشرك ، أدركوا أن هذا الدين يشتمل على جميع أصول الارتقاء الأدبى والمادى على أكمل الوجوه وأعلقها بالنفس . تناولها أتباعه اعتقاداً فأثرت فيه تأثيراً لم تنل مثلها أية فلسفة فى العالم ، وأقامتهم على سمت من الحياة يؤديهم إلى الغايات البعيدة تأدية آلية . وهى لم تؤثر هذا التأثير فى العرب وحدهم ، ولكن فى كل آخذ بالإسلام من الأجناس الأخرى ، فلم يمتز فيه العرب الأقحاح عن الفرس والديلم والزنوج وغيرهم ، مما يدل على وحدة المؤثر بصرف النظر عن الاستعداد الوراثى ، والمؤهل الجنسى .

وفى نظرى أن هذه الناحية من تاريخ الإسلام يجب أن تكون موضوع دراسة علمية دقيقة ، فإن الانقلاب الضخم الذى أحدثه الإسلام فى العالم من الجهتين المادية والأدبية ، مما لا يجوز إغفاله ، فهو كما يكشف عن العلل الحقيقية التى أحدثته ، يفتح أمام الباحثين مجالا بسيكولوجيا من أعظم ما عهد إلى علم النفس بيان أسراره ، وتعيين عوامله . فإن كل ما علل به هذا الحادث الجلل مما أملاه على الذين شرعوا فيه تعصبهم الدينى ، أو هروبهم مما يؤدى إليه من صدق رسالة الذى تم على يديه ، مما لا يوفى حاجة الناس فى هذا العصر ، ولا يثلج صدورهم . وإنى لا أشك فى أن هذه الدراسة ستشغل بال العلماء فى يوم من الأيام ، وسيكون لها أثر بالغ فى بيان حجة الإسلام وفى انتشاره فى الخافقين بخطى أوسع مما هى عليه الآن :

﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثامن عشر ، ص ٥٠٤ ، سنة ١٣٦٦ هـ .

الإسلام والعمران

يشيع أعداء العقائد أن الأديان والعمران لا يتفقان ، لا لأن الأديان لا ترفع رأسا بالحياة الدنيا فحسب ، ولكن لأنها تنطوى على غرض خطير وهو نشر دعوتها فى العالم أجمع ، وإعلان الحرب على كل أمة لا تدين بدينها متى تسنى لها ذلك . وقد عرف من تاريخ الأمم أن الحروب الدينية كانت كوارث على العمران العالمى ، وقد فنيت أمم برمتها فى سبيلها ، وسقطت حضارات كانت مفاخر للجماعات التى أقامتها ؛ كل ذلك كان فى سبيل التخالف فى العقائد بين الأديان المخرفة .

ليس يعقل أن يحمِل دين إلهى أهله على الإسراف فى قتل المخالفين لهم فى العقيدة ، والذهاب فى اضطهادهم والتمثيل بهم إلى أبعد حدود الوحشية ؛ ولكن رجال الدين هم الذين كانوا يجنون على أتباعهم فيوهمونهم بأن هذه القسوة فى معاملة أعدائهم تقع عند الله موقع القبول ، ويكتب لهم عليها حسنات ينعمون بها فى حياتهم الخالدة .

كان هَمّ الأمم قبل الإسلام أن يغزو بعضها بعضا ، إما لسلب بعضها بأيدى البعض الآخر من الأموال والذخائر ، واتخاذ الأسرى وتسخيرهم فى الأعمال ، وإما لضم بلادهم أو بعضها إلى بلادها إشباعا لنهمة عياهلهم فى امتداد السلطان واتساع رقعة الملك .

فكان إذا وقعت الحرب بين أمتين انقطع ما كان بينهما من علاقات ، لا إلى مدى معقول ، وفى حدود الإنسانية ، ولكن إلى الوحشية المجردة من كل عاطفة ، والقسوة التى لها حد تقف عنده ؛ فمن حرق الزروع ، وهدم المدن ، وإبادة ما حوت من آثار ، إلى تقتيل الأسرى ، ونهب دور غير المحاربين ، والعدوان عليهم بكافة ألوان الإرهاق والتعذيب .

على هذا الوجه ساءت العلاقات بين الأمم والشعوب ، وإلى هذا الحد بلغت الأحقاد الدفينة بين الجماعات ، كأن بينها تِرات موروثة من مئات السنين ؛

فإن كان حظ الرق الذى اكتسبته الإنسانية من الحروب انتقال ما يكون لدى الأمم المقهورة من أسرار الصنائع والعلوم إلى الأمم الغالبة ، وانتشارها على هذا الوجه بين الشعوب ، فإن ما خسرته هذه الإنسانية من تضاغن هذه الجماعات المتناحرة وما جرته من التخريب ، زاد على ذلك الكسب أضعافا مضاعفة ، واقتضى أن يجمد العالم على حالة واحدة آلافا من السنين .

وقد دلت الحرب الماضية والتى سبقتها على أن شنشنة الأمم فى حب تخريب العمران ، لا تزال على ما كانت عليه ؛ فقد رأينا الأمم المتمدنة تجاوزت بآلاتها الجهنمية ضرب المحاربين ، إلى تخريب دور الأهلين ، ودفنهم تحت أنقاضها بتسليط أسراب جهنمية من الطائرات عليهم ، وما كان يدور بخلد أحد قبل نشوب هاتين الحربين بأن المتمدنين يبلغ بهم التحاقد مع وحدة دينهم ومدنيتهم إلى حد التفكير فى إبادة بعضهم بعضا ، وهدم عمرانهم وتذرية أنقاضه فى ذيول السافيات !

جاء الإسلام والدول العالمية على ما وصفت ، وقد شوهد أن العالم غير الإسلامى لا يزال عليه ، فأنحى على الفساد فى الأرض إنحاء ، فى عبارات مؤثرة ، وألوان من البيان ، اقتلع جذور هذه الوحشية المتطرفة من قلوب أهله ، وأحل محلها إنسانية لا تعدو عليها الاعتبارات العدائية ، ولا تبلغ منها الأحقاد الموروثة كائنة ما كانت .

اعتبر القرآن الفساد فى الأرض من الجنايات الاجتماعية الكبرى ، وحذر أهله منها فى آيات جمة ، ووصف مرتكبيه من الأفراد والجماعات بأوصاف لا تدع لمن فى قلبه أثارة من الإنسانية ، ميلا إلى ارتكابه مهما تخيل وراء ارتكابه له من الفوائد .

حرّم الإسلام الفساد فى الأرض ، كما حرم الفسق والسرقة وجميع الجرائم الشنيعة ، والآثام الذميمة ولم يستثن ؛ ومراد الله من ذلك واضح وهو أنه أعد المسلمين لأن تؤول إليهم خلافة الأرض ، كما آلت إلى الدول الكبرى قبلهم ، وأنهم فى طليعة عصر جديد من حياة البشرية ، وفى حاجة إلى مبادىء وأصول من النوع الذى سيجدون الحاجة ماسة إليه فى سيرتهم وهم يتحملون التبعات العالمية التى ألقتها الأقدار على عواتقهم ، فأكثر الله لهم من الوصايا الخاصة بوجوب احترام آثار العمران فى الأرض ، باعتبار أن العالم أمة واحدة ، وإن قضت عليها الجهالات بالانقسام

والتفرق ، وأن مصيرها التوحد لا محالة ، وأن هذا العمران ليس بملك أمة واحدة ، ولكنه حق لجميع العالم ، فملاشاة جانب منه يعود بالضرر على العالم كله ، إن لم يكن إلا بتأخير ما سيبتنى عليه من عمران أرقى منه ، فقد كفى به إثما مبينا .

وهنا يجب أن نسرد للقارىء بعض الآيات التى تنهى عن الفساد فى الأرض يرى فيها ما ذكرناه من معانيها بأجلى عبارة ، وأرفع بيان :

قال الله تعالى تشنيعا على المفسد : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الفَسَادَ ﴾ (١) والمراد من الحرث المزروعات فالقرآن كما يحض على احترام حياة الناس يحض على عدم العدوان على المزروعات .

وقال تعالى يذم قساة الفاتحين : ﴿ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٢) فهو ينبه ذويه بأن الفتح الذى قد تقضى به سنة الوجود لا يقتضى إفساد المدن وتحطيم عمرانها ، وإذلال أهلها ، كما كان يفعل الرومانيون من شد وثاق أشراف الأمة التى يفتحون بلادها ، وسوقهم كالأغنام إلى عاصمتها ليجروا عربة النصر بين هتاف النظارة ، وما ينصب عليهم من إهاناتهم .

ووصف الله الفاسقين الذين أعد لهم سوء العذاب يوم الدين بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللهِ مِن بَعدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (٣) . عهد الله هو ما عاهد أرواحهم عليه من الايمان به ، وقطعُ ما أمر الله بوصله المراد منه قطع صلات الأرحام والأخوة العامة بين الناس ، والإفساد فى الأرض بإزعاج أمن أهلها ، وإفقارهم ، وتخريب مدنهم ، وكل ما ينطبق عليه معنى الإفساد .

وقد وجه الحق جل وعز الخطاب إلى هذه الأمة فقال تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرحَامَكُمْ ﴾ (٤) أى فهل يتوقع منكم

---

(١) سورة البقرة : ٢٠٥ .
(٢) سورة النمل : ٣٤ .
(٣) سورة الرعد : ٢٥ .
(٤) سورة محمد : ٢٢ .

أيها المسلمون أصحاب الدين العالمى العام إن ولاكم الله خلافة الأرض أن تفسدوا فى الأرض ، وتقطعوا صلات القرابة الإنسانية بينكم ؟ ثم وجه سبحانه وتعالى إلى الذين يجرؤن على ذلك أشد ما يوجه إلى الجناة الطاغين من الزجر ، فقال تعالى : ﴿ أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ (١) .

ومما لا أحب أن أغفله من البيان عقب ما مر من هذه الآيات ، هو أن من أدل الأدلة على أن هذا القرآن مصدره الوحى الإلهى ، أن كل هذه التوصيات باحترام العمران ، وعدم الفساد فى الأرض ، صادرة من بلاد العرب وقد كانت على عهد نزوله تكاد تكون خالية من آثار العمران ، وكان العرب قد نسوا منذ أجيال أنه قد كان من قبائلهم من لها قُدمة فى العمران ؛ فكثرة التوصية فى هذا الموضوع إشارة قوية من الحق إلى أنّ المسلمين سيحتكون بالأمم ذوات العمران ، ويخشى أن يحملهم الورع على تحطيم ما يجدونه من آثاره فى دور العبادة والملاعب والنوادى وغير ذلك ؛ وقد امتد ملك العرب إلى نحو ربع الكرة الأرضية ، وصادفوا فيها من القصور والمؤسسات ودور العبادة ما لا سبيل إلى حصره فتركوه على حاله . ولقد صادفوا فى مصر من التماثيل والأنصاب والأصنام ما كانت الأمم الموحدة تعتبر تحطيمه من جلائل الأعمال ، فتركها المسلمون على حالها لم يتعرضوا لها بسوء ، ولولا ذلك لخفى علينا من تاريخ الفراعنة ما لا يمكن الوصول إليه .

حقا إن هذا لمن العجب العاجب ، ولاسيما إذا أضيف إليه أن الأمم فى أول عهدها بدين جديد تبالغ فى التمسك به ، وتتشدد فى دحض كل ما عداه وإبطال دعوته ، والتعفية على آثاره ؛ فكان بناء على هذا يجب أن تغرق الأمة الإسلامية فى أول عهدها بالفتوحات فى تحطيم كل ما تصادفه لدى أعدائها من دور العبادة ، وما تقابله من النصب والتماثيل ، وتتعدى ذلك إلى رجاله والقائمين عليه ، فتوغل فيهم قتلا وتعذيبا على سنة الأقدمين ؛ فظهور المسلمين فى أول عهدهم بالدين بهذا المظهر العالى من التسامح مع المقهورين ، وحماية معابدهم ومعاهدهم ، وإطلاق الحرية

---

(١) سورة محمد : ٢٣ .

لهم فى القيام بأمور دينهم ، كل ذلك من الدلائل الباهرة على أن الإسلام هو الدين العام الذى يسع الناس أجمعين (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثامن عشر ، ص ٧٨٥ ، سنة ١٣٦٦ هـ .

الحرب والإسلام

شرع الله الدين الإسلامى ليتولى الناسَ فى ناحيتيهم الروحية والمادية ؛ ففى ناحيتهم الروحية أقامهم على الطريق السوى من تحكيم العقل ، وإيثار الحق ، وإقامة العدل ، ومراعاة الآداب ، وإعلان تساوى العالم أجمع فى الحقوق والواجبات ، لا فضل لأبيضهم على أسودهم ، ولا لعربيهم على أعجميهم ، والعمل الجدى على جعل الحياة الأرضية مثابة إخاء وتواد وتراحم بين أهلها أجمعين ، وتطلُّب المُثل العليا فى كل مطلب من مطالب الروح ، ومقام من مقاوم العلم ، ومرمى من مرامى الحياة الفاضلة .

وفى ناحيتهم المادية سنّ لهم النظام والوحدة والتكافل ، وتناسِى الذات فى سبيل حياة الجماعة ، والتضحية لبلوغ المقامات المحمودة ، حتى إذا جرت إلى الحرب .

الحرب ، نعم الحرب ؛ ألم تر أنها لا تزال وسيلة من وسائل حلول المشاكل الاجتماعية إلى هذا العهد الذى بلغت الإنسانية فيه أشدها ، ونالت العقول رشدها ، فإلى أى مآل كانت تؤول حالة الجماعة الإسلامية التى دُعيت لنشر الدين العالمى العام ، فى عهد كان الحق لا يمكن الاحتفاظ به إلا بالقوة ، والحكمة لا يستطاع الإدلاء بها إلا إذا حاطتها القوة ، بل والحياة لا يتأتى أن تبقى إلا إذا نافحت عنها قوة ؟

إذا كانت الأمم الغربية بعد أن نالت ما نالته من ثقافة علمية عالية ، وألمعية فلسفية سامية ، ومدنية مادية راقية ، لا تزال تعمد فى القرن العشرين لحل مشاكلها المختلفة إلى الحرب ، فهل يعقل أن تحرَّم الحرب على أمة تألفت قبل ثلاثة عشر قرنا ، ونيط بها إحداث تطور عالمى من الناحيتين الدينية والاجتماعية ، وهما أدعى إلى إثارة النفوس من جميع الخلافات البشرية ؟

أباح الإسلام الحرب ، ولكنه حاطها من الملطِّفات بما لم تبلغ إليه مدنية القرن العشرين ، ولا إلى ما يقرب منه ، وخلصها مما كانت تنشره الكتب التى يعتبرها الأوربيون مقدسة . فقد جاء فى الكتاب الخامس من الزبور قوله :

« إذا أدخلك ربك فى أرض تملكها ، وقد أباد أمما كثيرة من قبلك ، فقاتلهم حتى تفنيهم عن آخرهم ، ولا تعطهم عهدا ، ولا تأخذنك عليهم شفقة أبداً » .

وقد خاض الأوربيون باسم الدين حروبا كانت شر الحروب التى شبت بين البشر عامة ، فى قسوتها وتناسى كل الحقوق الإنسانية فيها . فالإسلام لم ينفرد بين الأديان السابقة والفلسفات المعاصرة بأنه دين يقر الحرب ، ولكنه انفرد ، كعادته ، بتلطيف هذه المجازر الإنسانية إلى آخر حد يمكن الوصول إليه ، بدون الإخلال بسلامة الحوزة ؛ فوضع للحرب حدودا ، وشرط على الغزاة شروطا ، كلها ترمى إلى احترام الدماء البشرية ، والعمل بأرق ضروب العطف على الإنسانية ، ولم يهمل مع هذا أن يشير على ذويه بأنه إن جاء وقت ترى الإنسانية فيه أن الحرب أصبحت أداة وحشية ، وأن فى التفاهم والتعطف خيراً بدلا منها ، فإن عليهم أن يتابعوا الإنسانية فى ترقيها ، ويدخلوا فيما يدخل فيه الناس من اعتبار الحرب أداة وحشية ، والجرى على ما يجرى عليه الناس من حلول الخلافات بالطرق السلمية كما سيأتى هنا .

قلت : إن الإسلام أباح الحرب ولكنه لطف من حدتها ، حتى جاوز ما أدخلته المدنية عليها بمراحل كثيرة .

(أولا) أن تكون لغرض مشروع كالدفاع عن الحوزة ، لا لهوى ملك ، ولا متابعة لأطماع رئيس .

(ثانيا) أن تكون الرحمة شعار المؤمنين ، فلا يقتلون طفلا ولا شيخا ، ولا رجل دين ولا مستسلما ، ولا امرأة ، ولا أحدا من خدم المحاربين ، ولا أن يحرقوا دور أعدائهم ، أو يقطعوا أشجارهم .

(ثالثا) أن لا يسرفوا فى استثمار انتصارهم ، فلا يجردون المغلوبين من حقوقهم ، ولا يصادرون أموالهم ، ولا يضطهدونهم لدينهم ، ولا يتقاضون منهم إلا الجزية ، وهى مبلغ من المال ، كما قال العلامة (دوزى) الهولاندى فى كتابه تاريخ الفرق الإسلامية ، يقل كثيرا عما كانت تتقاضاه منهم حكومات تلك الأمم المغلوبة .

ولم يهمل الإسلام مع هذا كله أن يشير على ذويه بأنه لو جاء وقت تعتبر فيه الحرب من الوسائل الوحشية ، عند ما تصل الإنسانية إلى درجة من الرقى تسمح

للمتخاصمين أن يحلوا منازعاتهم بالتحكيم ، فعليهم أن يجروا فى تيار هذا التطور العظيم ، ويدخلوا فيما دخل فيه الناس من النظام الجديد ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [1] .

أنا فى هذا المقام مضطر لأجل إثبات أقوالى هنا أن استشهد مؤرخين لا يمتون إلى الإسلام بصلة ، وإنما هم رجال اجتماعيون يعطون الحوادث حقها من البيان والتفصيل .

قال المسيو (هنرى دوكاسترى) أحد حكام الجزائر السابقين ، فى كتابه (الإسلام — تأثرات ودراسات) L'Islam, impressions et ètudes :

« بعد أن دان العرب للإسلام ، واستنارت قلوبهم بهذا الدين ، برزوا فى حال جديدة أمام أهل الأرض كافة ، هو حال المسالمة وحرية الأفكار فى المعاملات ، ائتمارا منهم بما ورد فى القرآن من الإيصاء بمحاسنة الناس ، بعد تلك الآيات التى كانت تنذر القبائل المارقة . إلى أن قال :

« هكذا كانت تعاليم النبى بعد أن دخل العرب فى الإسلام ، وقد اقتفى أثره فيها خلفاؤه من بعده ، وذلك يضطرنا إلى القول بما قاله قبلنا (روبنسون) : إن شيعة محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين محاسنة الأجانب ، ومحبة انتشار دينهم . هذه العاطفة هى التى دفعتهم فى سبيل الفتح ، وهو سبب لا حرج فيه . فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه الظافرة ، إذ أغاروا على الشام ، وانقضوا انقضاض الصواعق على أفريقيا الشمالية من البحر الأحمر إلى المحيط الاطلانطيقى . ولم يتركوا أثرا للعسف فى طريقهم (تأمل) ، إلا ما كان لابد منه فى كل حرب ، فلم يبيدوا قط أمة أبت الدخول فى الإسلام » .

ثم قارن المسيو (هنرى دوكاسترى) بين هذه الرحمة والعطف من الإسلام ، وبين الشدة والروح الحربية فى الأديان التى تقدمته . فنقل عن الكتاب الخامس من الزبور قوله : « إذا اقتربتَ من مدينة لتحاصرها فاعرض عليها الإيمان ، فإن قبلته

---

(١) سورة الأنفال : ٦١ .

فقد سلم كل من فيها ، وإن أبت وبادأتك بالعدوان فشدد الحصار عليها ، ومتى وفقك الله للظفر بها فأحطم رأس كل ذكر فيها بحد الحسام » .

ثم قال المسيو (هنرى دوكاسترى) :

« فكان من وراء محاسنة المسلمين للأمم المقهورة أن انتشر الإسلام بسرعة ، وعلا قدر رجاله الفاتحين ، لما سبقه من ظلم براطرة المملكة الرومانية الشرقية (وهى مسيحية) التى أبغضها الناس ، وكرهوا الحياة فى ظلها . هذا وإذا انتقلنا من الفتح الأول للإسلام إلى حين استقراره ، رأيناه أكثر محاسنة ، وأكرم معاملة لمسيحيى الشرق كله . فما عارض العرب أبدا شعائر الدين المسيحى ، بل بقيت رومية نفسها حرة فى مراسلة الأساقفة فى مختلف البلاد الإسلامية .

إلى أن قال :

« وهذه المحاسنة العظيمة من جهة المنتصر للمقهور هى التى أضعفت تأثير الديانة النصرانية جدا ، ثم زالت بالمرة من شمال أفريقيا . على أن الإسلام لم يكن له دعاة يقومون بنشره . فلم يكره على الأخذ به أحدا بالسيف ولا باللسان ، بل دخل القلوب عن حب واختيار . وكان هذا من آثار ما أودع فى القرآن من صفات التأثير والأخذ بالألباب » .

« ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين فى بلاد الأندلس حتى صاروا فى حالة أهنأ من التى كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم (الوزيجو) .

ويقول دوزى العالم الكبير :

« إن هذا الفتح لم يكن ضارا بأسبانيا ، وما حدث من الهرج والمرج بعده لم يلبث أن زال باستقرار الحكومة المطلقة الإسلامية فى تلك البلاد . وقد أبقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم ، وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء . وكثير منهم تولى قيادة الجيوش مثل (سيد) . وقد تولد من هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأمة الأندلسية إلى المسلمين ،

وحصل بينهم تزاوج كثير » انتهى كلام المسيو دوكاسترى .

هذا أثر الفتوح الإسلامية ، والحروب التى شنها المسلمون على الأمم بقصد نشر الدعوة كما طلبه الحق إليهم ، وكلفهم بالقيام به ، وهى سيرة لا يوجد لها مثيل فى التاريخ الدينى أو الاجتماعى لأمة من أمم الأرض .

وهذا الجيش الإسلامى العربى الذى يدافع الآن عن فلسطين قد فاز بتقدير العالم أجمع فى استقامته فى غزواته ، وعدله حيال أعدائه ، وقيامه بأعباء كل التكاليف الأدبية التى تفرضها عليه مهمته ، حتى استحق ثناء جميع من وقف على أخباره ، وقارن بين سيرته وسيرة خصومه (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد التاسع عشر ، ص ٦٨٣ ، سنة ١٣٦٧ هـ .

الوعى القومى والوعى العالمى والإسلام

يراد بالوعى القومى شعور الأمة بوجودها كوحدة اجتماعية ، لها حقوق طبيعية ، وعليها واجبات إنسانية . فأما حقوقها الطبيعية فهى أن تعيش فى بلادها حرة مستقلة ، تستغل ما تحت يدها من الأرض دون أن يحد من نشاطها فيها متحكم ؛ وأن تنشىء بينها وبين الأمم المختلفة علاقات أدبية ومادية دون أن يعترض هذا الإنشاء متسيطر . فهذا الوعى الجماعى الذى يشبه الوعى الفردى من جميع الوجوه ، يوجه الأمم إلى طرق الحصول على مقوماتها ، ووسائل درء المهددات لوجودها ، ويجعلها تحتاط للحوادث قبل وقوعها ، وتتخذ لها ما يدفعها عند طروئها . هذا الوعى ضرورى للجماعات ضرورته للأفراد ، وحرية التصرف فى توجيهه لابد منها للحصول على كل ما يثمره للجميع من نظام ووئام واتجاه حر مشترك ، يتأدى بهم إلى الغايات التى كتب للانسانية أن تبلغها .

ولكن الحالة البدائية للجماعات اقتضت ، لأسباب شتى من القصور العقلى والعلمى ، أن يقتصر وعيها القومى على وجودها الذاتى ، وعلى قواها ووسائلها دون أن يكون لها الخيرة فى أمرها ، لوقوعها فى أسر حكومات استبدادية منها ، هى التى أقامتها ، أو لأن حالتها من القصور هى التى اقتضتها وأخضعتها لها . وكان هذا هو النظام العام فى جميع الشعوب إلى ما قبل خمسة قرون ، أى حوالى عهد انتهاء القرون الوسطى ، حيث تيقظ فى النفوس عامل جديد للحياة الاجتماعية ، وهو إصلاح أداة الحكم بحيث تتجلى فيها إرادة الأمة ، فتعطى نفسها الوجهة التى تريدها ، وتهيىء لها الوسائل التى تؤديها إليها .

انتقال بعيد المدى فى طراز حكومات الأمم ، انتهت إليه أرقى الجماعات ثقافة ، وأرفعها أدبا ، وأكثرها ميلا إلى الترقى ، وأسرعها اجتيازا لمراحل الحياة فى خطى ثابتة يؤمن معها الزلل ، وتبلغ بها الغاية ، مع شعور عام من جميع الأفراد بها ، وهم لذلك يتوزعون التبعات فى المحافظة عليها ، والمنافحة عنها .

ومنذ نحو قرن من الزمان ، بدرت بوادر شعور عال لبعض كبار المفكرين رموا به إلى ضرورة اعتبار الإنسانية كلها أمة واحدة ، يجب أن تبطل بينها الحروب ، وأن تقوم على مبدأ التعارف والتفاهم ، ليتحقق بذلك مؤدى الناموس الأدبى الذى يأبى بطبيعته العلوية أن يفرق بين بنى آدم بسبب اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ، ويتفق والمنطق الاجتماعى من أن إبطال التناحر ، والقيامة على سنة التعاون ، أجدى فى هذه المرحلة التى بلغتها الإنسانية على المجموعة البشرية ، وأقوى أداة لإيصالها إلى كمالها المنشود .

ولكن هذا البصيص من النور العلوى الذى شعر به بعض كبار القلوب ، لم يصل حتى خبره إلى الدهماء ، فما يزال الناس على ما كانوا عليه من التفرقة بين الشعوب ، وسيبقون على هذه الحالة حتى تصل العلاقات الدولية إلى مأزق لا تستقيم معه إلا بتآخى جميع الأمم وقيامها على سنة التعاون والتكافل التى كانت تحلم بها بعض العقول الراقية ولا تستطيع أن تجاهر بها .

ومن المعجزات العلمية الإسلامية ، أنه جاء بنوعى الوعى الاجتماعى ، القومى والعالمى ، على وجه يمكن أن يتصوره العقل ، ويقره العدل المطلق ، والشعور العالمى بالحق .

بدأ الإسلام فى تكوين مجتمعه على السنّة الديمقراطية الصحيحة : بنشر دعوته بين الأمم أجمع ، غير مراع إلا وجهة الإصلاح على مقتضى أصولها الطبيعية القويمة ، باشعار جميع طبقات الأمم بحقوقهم وواجباتهم ؛ فصاح بالناس كافة وهم فى غفلة من أمرهم ليوقظهم من سباتهم قائلا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾ [١] .

ثم راعى فى جمعهم أن تكون الصلات كلها بينهم قائمة على الديموقراطية الصحيحة ، بدعوة الخاص والعام إلى كلمة واحدة لا تمايز فيها . فكلف كل فرد

---

(١) سورة النساء : ١٧٤–١٧٥ .

من المجتمع بما كلف به سواه ، لا فرق بين قوى وضعيف ، ولا بين شريف ووضيع .

فالوعى القومى فى مثل هذه الأمة يكون على القليل أشد ما يمكن أن يكون عليه ، لأنه أساس اجتماع الأفراد وترابطهم ، على خلاف سائر المجتمعات فإنها لم تؤلف تلبية لدعوة ، ولا تخيراً لمذهب ، ولكن من طريق التطور التدريجى الذى لا يحس بأدواره المتعاقبة ، ولا بعللها المؤثرة .

وقد صارح الكتاب الشريف الناس بما لهم وبما عليهم ، وكرر ذلك مراراً على ألوان شتى من البيان ، وفى حالات عدة من الحوادث ، حتى صار كل إنسان على علم تام بما له على الجماعة التى هو منها وما عليه لها ، وليس بعد هذا مزيد من الوعى الاجتماعى البالغ منتهى الكمال ، وهو الذى حمل المسلمين فى حادث الفتنة أن يتجمعوا فى نحو اثنى عشر ألفاً ويحاسبوا أمير المؤمنين عثمان على ما حدث من بعض عماله فى الأقطار . وقد أعقب ذلك ثورة قتل فيها الخليفة الثالث ؛ ولولا أن الوعى الاجتماعى كان لدى المسلمين الأولين مستوفياً شروطه ، لتأدت هذه الحركة إلى تفكك جماعة المؤمنين ، وتفرق كلمتهم ، ولكان ساغ للرومانيين والفرس المحيطين بهم أن يزحفوا عليهم ، ويستخلصوا ما اقتطعوه منهم من أقطار .

وقد وصف النبى ﷺ حالة المسلمين من هذه الناحية بقوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وقوله : « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

وإلى جانب هذا الوعى الخاص بث الإسلام فى روع المسلمين وعياً عالمياً ، ووطد قواعده فى عقولهم ونفوسهم ، وطالبهم بالعمل به وهو ما لم يسبق إليه فى تاريخ أية أمة من الأمم ، حتى الأمم المعاصرة لنا ممن ضربت فى الرق العلمى والفلسفى بسهم وافر . يظهر ذلك بأجلى عبارة وأقوم دليل فى قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [1] .

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

هذا إيذان للعالم كافة فى جميع بقاع الأرض ، متحضريهم ومتبديهم ، بأن الله لم يخلق العالم ليتخالفوا ويتناحروا ، ولكن ليتعارفوا ويتعاونوا على قطع مفاوز هذه الحياة ، وعلى التأدى إلى وجود كريم يليق بمكانة الإنسانية . وهذا التعارف وما يستدعيه من التعاون والتكافل ، يقتضى كل الصفات الجليلة التى دعا إليها القرآن من المساواة فى الحقوق ، والعدل فى الأحكام ، والرحمة بالضعفاء ، والأمانة فى المعاملات . وهى أصول قد تعذر تعميمها فى العالم فى العهد الأول للمسلمين ، فقد كان التعصب الأعمى للأديان والقوميات يمنع الناس من الدخول فى مثل هذا العهد من السلام العام ، ولولا ذلك وأثر الوراثات فى العقول ، لقبل الإسلامَ كل من بلغته دعوته ، ولكان للناس شأن غير شأنهم اليوم .

فللمسلمين والحالة هذه فوق شعورهم القومى ، شعور عالمى يشمل الإنسانية جمعاء ، وليس الأثر الأدبى لهذا الأمر بالشىء القليل : وهو يعين على تعليل الانتقال البعيد المدى الذى بلغه المسلمون فى أقل من ربع قرن من الزمان فى آدابهم وأخلاقهم وعوائدهم وعلاقاتهم وسيرتهم فى فتوحاتهم . فقد أثر عنهم من التسامح للأجانب عن الدين ما لم يؤثر مثله ، أو قريب منه ، عن أى أمة من الأمم ؛ فقد ساووا بينهم وبين أنفسهم فى المعاملات والمحاكمات والحقوق ، وهذا كله ما كان لينفذ لولا أنه مرتكز على وعى عالمى عام ، اكتسب قوة من معاملة النبى ﷺ لأهل الكتاب وغيرهم من الأجانب عن الإسلام ، ومن عدم التفرقة بينهم وبين المسلمين فى المبرات والصدقات ، بل فى بذل العلم إليهم وعدم البخل عليهم ببيان معاضله ، وكشف غوامضه . وقد قابل أولئك الأجانب عن الإسلام هذه المعاملة الحسنة بالإخلاص للمسلمين ، والتفانى فى خدمتهم ؛ فقد ترجموا لهم من الكتب القديمة ، وبالغوا لهم فى حل رموزها اللغوية ، ومعمياتها اللفظية ، ما لم يحصل مثله إلا بين الإخوان المخلصين ، بل القرابة الأقربين .

فالوعى العالمى الذى ظهر أول تنويه به فى القرآن الكريم ، وفى أحاديث رسول الله ﷺ ، كان من الأسباب القوية فى نهضة المسلمين التوسعية ، وانسياحهم فى الشرق والغرب ، وفى تسابق الناس جماعات وشعوبا للدخول فى هذا الدين ، مسوقين إلى ذلك بما تجلى على المسلمين من سعة أفقهم الاجتماعى ، ورحابة صدورهم للأجانب

والأغراب واللاجئين إليهم . فكانوا يساوونهم بأنفسهم أمام القانون ، وفى حقوق الجوار ، ويهادونهم ، ويقبلون دعواتهم إلى محافلهم وولائمهم ، ويعودون مرضاهم ، ويشيّعون موتاهم ، ويكشفون لهم أسرار العلوم والفنون والصنائع ، ويعطونهم حقهم من الإجلال والاحترام ، حتى إنه لِتَمَهُّر كثير منهم فى علوم الطب كان الخلفاء يتخذون أطباءهم منهم ، ويغدقون عليهم الأعطيات والهبات . وقد ذكر التاريخ أن دورهم كانت تضارع قصور الخلفاء فى سعتها وأبهتها ، وجمال مظهرها .

لا جرم أن الوعى العالمى الذى كان من أثره على المسلمين ما ترى ، يعتبر من المعجزات العلمية الخالدة للقرآن ، ويزيده إعجازا أن المسلمين الأولين عملوا به ، مع أنهم فى أول أدوارهم لم يكونوا على شىء من الثقافة الاجتماعية .

أين هذا لدى المسلمين مما كانت عليه الحال عند سواهم من الأمم التى كانت عريقة فى المدنية كالأمة اليونانية والرومانية ؟ فقد أثر عن أفلاطون قوله : « إنى أشكر ربى على ثلاث : على أنه خلقنى إنسانا ولم يخلقنى حيوانا ، وعلى أنه أوجدنى فى عهد سقراط ، وعلى أنه قدر لى أن أكون يونانيا ، ولم يقدر لى أن أكون من جنس آخر » . أين هذا من قول النبى ﷺ : « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بتقوى أو عمل صالح ، كلكم لآدم وآدم من تراب » ؟

وكان أرسطو الملقب بأمير الفلسفة تلميذ أفلاطون ، يعتبر الأرقاء من البهائم المجردة عن الحقوق الإنسانية : فأين هذا من قول عمر أمير المؤمنين : « كان أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » يعنى بلالا الذى كان رقيقا حبشيا ؟

هذه كلها آيات بينات ﴿ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ [*] .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد التاسع عشر ، ص ١١٠ ، سنة ١٣٦٧ هـ .

دفع شبهة عن الإسلام

كتب إلىّ كاتب معروف من يافا يصارحنى عن قيام شبهة عنده فى شدة العقوبات التى أوعد بها الإسلام المجرمين فى الدار الآخرة ، وقد أجبت حضرته بكتاب رأيت أن أنقله فى مجلة الأزهر لما فيه من دفع شبهة تحيك فى صدور كثير من الناس . وهذه صورة ما كتبته :

وبعد فقد قرأت كتابكم ، وأعجبت بصراحتكم ، وإنه لجدير بكل من تحيك فى صدره شكوك فى الدين أن يجاهر بها ، وأن يطلب إلى ذوى الرأى رأيهم فى إزالتها ؛ فلو فعل كل شاك مثل ما فعلتم ، لاضطر حفظة الأديان إلى وجدان الحلول المناسبة لكل ضرب من ضروب الشبهات ، ولزادت معرفة الناس بمبلغ المناعة التى يتحلى بها الإسلام ، إزاء طغيان العقول فى كل دور من أدوار التطورات العلمية .

إن شبهتكم التى ذكرتموها تنحصر فى شدة العقوبات التى أوعد بها القرآن المجرمين على إجرامهم ، وقد هالكم جدا أنه قرر لبعضهم الخلود فى النار . وقلتم إن المقصد من العقوبات لا يجوز أن يكون مبنيا على باعث الانتقام ، ولكن على مبدأ التربية والإصلاح ، ثم قلتم والعقوبات فى الإسلام لا تؤدى إلى هذه الغاية ، بل تؤدى إلى الإهلاك والإبادة !

اسمحوا لى أن أقول لكم إن هذه النظرة فى الإسلام سطحية ، وتنم عن تجاهل كبير للمبادىء الأولية المنصوص عليها فى الكتاب والسنة ، ألم يقل الله تعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ، وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ، وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ [1] ، أو لم يقل : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [2] ، ويقل : ﴿ إِنَّ اللهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [3] .

---

(١) سورة المائدة : ٦ .
(٢) سورة البقرة : ١٨٥ .
(٣) سورة البقرة : ١٤٣ .

وهل ينكر أن النبى ﷺ أمر أن تدفع الحدود بالشبهات ، وأنه كان يلقن الشبهات بنفسه للذى جاء إليه معترفا بأنه زنى ؛ فكان يقول له : لعلك لامست ، لعلك قبلت ، إلخ ، رجاء أن يقول ذلك فترفع عنه العقوبة ؟

وقد أكثر الكتاب من ذكر العفو فقال تعالى : ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [1] وقال : ﴿ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2] إلخ .

من هنا يتضح أن مبدأ الانتقام فى العقوبة ، وهو المبدأ الرث القديم الذى كان يأخذ به الأولون ، لا وجود له فى الإسلام ، وأنه قد حل محله مبدأ الإصلاح والتقويم بتخفيف العقوبات ، والجنوح لمصلحة المتهمين . وقد اعتد الإسلام مع هذا كله بضعف الإنسان بسبب ما يحيط به من عوامل الإغراء والتسويل ، فقال تعالى : ﴿ وخلق الإنسان ضعيفا ﴾ ، فأين يضع المعترض القسوة وحب الانتقام بين هذه الآيات الدالة على الغايات القصوى فى التلطف بكائن ضعيف جاهل كالإنسان ؟ .

نعم إن فى الكتاب آيات كثيرة على العنف والبطش فى العقوبات الأخروية ، ولكن هل تريد أقل من ذلك للتأثير فى نفسية أمة جاهلية ، عاشت آلافا من السنين على حالة من القسوة وغلظ الكبد ، بحيث كانت تقتل أولادها خشية الإملاق ، ويأكل بعضها بعضا فى سبيل البقاء ، وتفخر بالنهب والسلب ، وتتباهى بالقتل والفتك ، وتتمدح بهتك الأعراض ، واستباحة الحرمات ، ونشر المخاوف ، وتعميم المعاطب ، والتحلل من جميع الأوضاع البشرية والسماوية .

ألم يك مما يتماشى مع مبدأ التربية الحقة ، أن يكون إلى جانب الأصول العالية ، والمبادىء السامية التى يُراد أن تحل محل هذه الفوضى ، صيحةٌ من الزجر تتناسب وتلك القلوب الصخرية والنفوس الحيوانية ، وتكفى لأن تبلغ منها ما يجب أن يبلغه التنبيه من سامعه ، والإنذار من مستوجبه ؟

مما يدلك على أن المقصود فى الكتاب بكل ما تظنه انتقاما ، هو التأثير فى

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٤ .

(٢) سورة التغابن : ١٤ .

تلك القلوب العاتية ، والنفوس الجاسية ، ما جاء فى الكتاب نفسه من قوله تعالى : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ، ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ، يَا عِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ [١] .

وبعد ، فإن لكل محاولة ثمرة ، فماذا كانت ثمرة نشر الإسلام فى الأمة العربية ؟ أكانت ثمرة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، أم ثمرة شجرة خبيثة اجْتُثت من فوق الأرض ما لها من قرار ؟ أى أكانت ثمرتها تنشئة أمة طاغية بلغت منها العُنْجُهية مبلغها ، فركبت رأسها ، وملأت الأرض مظالم ومخازى ، وتهضمت الأمم فسحقتها تحت كلاكلها حتى سلبتها وجودها ، ثم بادت هى فى وسط طغيانها كما بادت جميع الأمم التى على شاكلتها ؟ أم كانت ثمرتها تأليف أمة ماجدة ، وصلت فيها آثار التربية النفسية إلى ذروتها ، فأقامت وجودها على أصول الفضائل ، وزاملت الأمم حتى التى دوختها مزاملة المتآخين فى الحق ، وأسست مدنية كانت مثلا أعلى لجميع الأمم ، يستمدون من علومها وفنونها ، ما يقيمون به أودهم ويقوون به وجودهم ، وهى تسمح لهم بذلك طيبة النفس ، ثقة بأنها بذلك تخدم الإنسانية ، وخدمة الإنسانية مرمى الإسلام الذى أوجدها من العدم ، وجعل لها هذه المكانة بين الأمم ؟

وكما يجب علينا أن ننظر للإسلام هذه النظرة العامة ، كذلك يجب علينا أن لا ننسى ما تسعه اللغة العربية من الاحتمالات المعنوية ، فالتخليد فيها يعنى طول البقاء لا الدوام . جاء فى الكليات : « كل ما يتباطأ عنه التغير والفساد تصفه العرب بالخلود ، كقولهم للأيام خوالد ، وذلك لطول مكثها لا للدوام » .

وقد هالتكم آيات الوعيد بما حملت من أهوال ومزعجات ، وخيل إليكم أنها تضر أكثر مما تنفع ؛ والواقع أنها أفادت العرب ، ما لم تفدهم الأحداث الاجتماعية التى توالت عليهم آمادا طويلة فنبغ منهم الراكعون الساجدون ، والمخبتون المتزهدون ، والصائمون المتنفلون ، والقائمون المتهجدون ، حتى وُجد منهم من يصوم الدهر ،

---

(١) سورة الزمر : ١٦ .

ويحرم على نفسه أكل اللحم ، ولولا أن النبى ﷺ نهاهم عن الإفراط لوجد منهم المتبتلون والمترهبون .

قلتم يمكننا أن نستغنى عن الإيعادات المخيفة ، ونفهم الناس بأن الامتناع عن المعاصى أجدى لهم ، فلنخاطب عقول الناس وضمائرهم ، بدل أن نخوفهم بالخرافات كما نخوف الأطفال !

نقول : الأسلوب الذى تذكرونه فى التربية يفيد فى جميع العصور ، ولكن فى عدد محصور من الناس ، ولا يفيد فى سوادهم الأعظم ، ولست أحيلكم إلا إلى التأمل فى أحوال الناس ، وبخاصة فى هذا العصر حيث اتفقوا على الإباحة ، فأصبحوا يجاهرون بما يستحى أن يجاهر به المتوحشون ، ومن الغريب أنهم يعتبرون من لا يقول برأيهم مأفونا !

والدين الإسلامى وُجد قبل نحو ألف وأربعمائة سنة ، والناس إذ ذاك لا يفهمون إلا لغة الحديد والنار ، وكانت حاجة العالم ماسة إلى تأسيس دين قيم يُعتبر إصلاحا لجميع الأديان ، وإقامة دولة تحدث انقلابا عالميا فى الأرض ؛ فإذا كان الإسلام قصَر اعتماده على مخاطبة العقل ومناجاة الضمائر ، لما انضم إليه إلا الأفذاذ من أهل الشعور الذين لا يغنون عن أنفسهم فى ميدان الصراع العالمى شيئا ، ولبطشت بهم الوثنية بطشة لا يفيقون منها إلا وهم فى عالم الأرواح المجردة ؛ فهل كنتم تريدون أن يخيب الإسلام فى تأسيس تلك الدولة العالمية ، وأن يترك للوثنية والأديان المحرفة المجال حرا لتفسد فى الأرض ؟

لعلكم تقولون : وماذا كان يحدث من السوء فى العالم لو كان خاب الإسلام ، وأى شىء كان ينقصه لو لم تقم له دولة فى الأرض ؟

نقول : كان يحدث فى العالم شر مستطير ، وينقصه خير كثير ، ألم يحرر الإسلام العقل من إساره ، وينصبه ميزانا للتمييز بين الحق والباطل ؟ إن هذا وحده يعتبر تحولا ضخما فى العقلية الإنسانية من ناحية الأمور الاعتقادية ، كان لا بد منه فى عهد بلغ فيه العقل رشده . أما علمت أن قادة الأمم كانوا يدعون للإيمان التقليدى ولا يقيمون للعقل وزنا ، وهذه حال أتت على حياة ملايين من الناس اعتُبروا مبتدعة

لمجرد محاولتهم تحكيم العقل فى العقائد ، وطلبهم الدليل على ما أمروا أن يؤمنوا به ، فكان الدين فى هذه الأحوال أداة استعباد فى أيدى طائفة من رجاله فى كل أمة ؟ ألم يك من أوليات المصالح البشرية أن ينشأ دين يعيد للعقل سلطانه ، ويرفع عن كواهل الناس آصار التقليد الذى فدحهم آمادا طويلة ؟ إى وربك ، وكان هذا الدين هو الإسلام ، الذى أقام العقل فيصلا بين الحق والباطل ، وأعلن أن الإيمان التقليدى غير مقبول ، فسقطت بذلك دولة المتحكمين فى الأديان ، ودخل الناس فى دور جديد من إجالة العقل فيما يطلب إليهم الإيمان به من العقائد ، فتآخى الدين والعقل لأول مرة فى تاريخ البشرية ، وكان أثر هذا الانتقال فى ترقية الشعوب ، وتحريرها من عبودية البِيَع والهياكل ، مما لا يمكن تفصيله فى هذه العجالة .

وكما حرر الإسلام العقل من إساره ، حرر الإنسان من عبوديته لرجال من أمثاله ، فأعلن أن لا وساطة بين الله وخلقه ، وأن الناس سواء أمامه لا يتفاضلون إلا بالتقوى أو بعمل صالح ، وأن كل إنسان مسئول عن عمله ومجازى عليه ، وأنه لا تنفعه شفاعة الشافعين ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى . والكلمة الخالدة التى يجب أن تكون عنوانا على هذا العهد من الانتقال من القصر إلى سن الرشد قول النبى ﷺ : « اعملى يا فاطمة فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا » .

وزاد الإسلام فى مدى هذه الحرية ، فأعلن أن الناس كلهم متساوون فى الحقوق والواجبات ، وأن اختلاف الأجناس واللغات والألوان لا تأثير له فى بلوغ كل إنسان غاية ما يتوق إليه من منازل الرفعة الدنيوية والأخروية ، فلا طوائف ذات امتيازات ، وطوائف محرومة منها ؛ ولا طبقات سيدة وطبقات مسودة ؛ بل مساواة عامة كاملة بين آحاد الأمة الواحدة وبين شعوب الأرض كافة ، فقال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [1] .

فهذا الأصلان : حرية العقل والضمير ، وحرية الآحاد والأمم ، كم كنت

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

تقدر لحدوثهما من الآماد ، وكم كنت تتوقع للإنسانية حتى تصل إليهما من الانقلابات ، لو لم يجيء الإسلام فيعلنهما على رءوس الأشهاد ، وينافح عنهما حتى جعلهما من المثل العليا بين الأمم فى سنين معدودة ؟

ثم إن الأمم كانت قبل مجيء الإسلام خولا مستعبدة لأمتين عظيمتين : الفرس والرومان ، وكانت تتنازعان السلطان عليها ، وتسوقان من خضع منها لها إلى مجازر الحرب التى تثور بينهما ، وكانت مصلحة العالم تتطلب أن تقلم أظفار هاتين الأمتين ، كى لا تعبثا بحقوق الجماعات البشرية فى سبيل مطامعهما ؛ فمن الذى قام بهذه المهمة العالمية غير الإسلام ؟ إنه احتك بهما معا ، فأفنى أولاهما فى جثمانه ، وانقلبت خيرا مما كانت ، وأحال الثانية إلى حدودها الطبيعية ، فكيف يمكن أن يقال بعد هذا : كان يمكن للعالم أن يستغنى عن مجيء الإسلام ؟

وها هو الإسلام فى نقائه الأول يرفع إلى اليوم علم الديموقراطية الصحيحة ، التى كان هو نفسه أول من أسسها فى الأرض ، وبين يديه جميع التطورات الاعتقادية والأصولية التى أوجدها ، منتظرا أن يستقر السلام ، ليعمل أبناؤه مع الذين سيعملون على إعادة بناء الإنسانية ، وإقعادها على أصول المدنية الفاضلة التى كان هو أول من أهاب بالأمم إليها فى الأرض (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء الخامس ، ص ٢١٦ ، جمادى الأولى سنة ١٣٦٢ هـ .

البدع فى الإسلام

لا يوجد تعليم أدبى واجتماعى فى الأرض يجافى بروحه وحرفيته البدع الدينية ، والخزعبلات الاعتقادية ، والتقاليد الخرافية ، بقدر ما هو عليه من ذلك كله دين الإسلام . ناهيك بدين كان من أوليات ما شرع من أجله تخليص الإنسان من الآصار الوهمية التى أنقضت ظهره ، والوساوس الجاهلية التى ضللت عقله ، والجهالات الوراثية التى أفسدت قلبه ، حتى يكون من التنزه منها على مثل ما كان يوم ولدته أمه ، أى على الفطرة التى فطره الله عليها . هذه هى الحالة التى شرع الإسلام ليؤدى الإنسان إليها ، وقد صرح له بأنها هى الدين القيم ، وكل ما عداه مما لم يثبت علميا ، ولم يتقرر عقليا ، فأضاليل مضللين ، وأباطيل مبطلين ، لا يصح له أن يرفع بها رأسا ، أو يقيم لها وزنا .

هذا هو الغرض الأول من الإسلام ، ومن أجل هذا استحق المسلمون أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس ، ولهذا السبب جعلوا شهداء على سائر الأمم فى غلوهم وتقصيرهم ، فقال تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ [١] ، وقال : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ [٢] .

لم يلبث الإسلام لصحة أصوله ، وسمو آدابه ، ونصوع حجته ، واستقامة محجته ، من الانتشار بين عشرات من الأمم ، أخذت به طواعية بدون إجبار ، وجرت منه على سنن ظهرت عليها آثارها فى سنين معدودة ، حتى آلت إليها خلافة الأرض ، وزعامة العلم ، وقيادة الأرواح .

ولكن الشعوب التى أخذت بالإسلام هى كسائر الشعوب سوادها الأعظم جاهلون أميون تأنس نفوسهم للبدع ، وتسلس مقادتهم للمضللين ، فانتشرت فيهم تقاليد وعادات ليست من الدين فى شىء بل مما يجافيه الدين ، وينافيه صريح الكتاب ،

---

(١) سورة آل عمران : ١١٠ .

(٢) سورة البقرة : ١٤٣ .

وصحيح السنة . فاضطر حماة الدين حيال ذلك أن يضعوا المؤلفات الكثيرة دحضا لهذه البدع الفاشية ، وزجرا عن هذه الضلالات الذائعة ، ولكن الأمية المستحكمة كانت تحول دون الاطلاع على هذه الزواجر ، فكان أثرها فيهم ضعيفا ، واكتسبت تلك البدع بسبب الاستمرار قوة ، واختلطت بالدين فى نظر الدهماء حتى صارت لديهم كأنها جزء منه ، وأصبح لها من المرتزقة دعاة يؤيدونها ، ويؤولون صريح الآيات لإثباتها ، وزادوا جرأة فوضعوا فيها مؤلفات تبررها .

حدث هذا كله فى دور فتور الدولة الإسلامية ، واشتعال نيران الفتن فى أجزائها ، وتغلغل عوامل التحلل فى جثمانها ، فلم تأبه لهذا التدهور المريع فى نفسية بنيها ، فتركتهم وشأنهم . فلما تنبه المسلمون لاسترداد مكانتهم الاجتماعية ، رأى عقلاؤهم أن ذلك ضرب من المحال ما دام عامة المسلمين على ما هم عليه من الأخذ فى دينهم بالأباطيل ، وفى عقليتهم بالأضاليل ، وفى عاداتهم بالبدع ، فكيف تؤثر روح الإسلام الصحيح فى شعوب استناموا إلى أصول ترجع بهم القهقرى ، واستراحوا إلى مبادئ تمنعهم الأخذ بما فيه نهوضهم وصلاح شئونهم ؟

والموجب للأسف أن هذه البدع التى يدين لها جميع العامة ، قد طغت على كل شئ حتى على الحكومات ورجال العلم ، فترى أكثر حكومات الشعوب الإسلامية تشاطر تلك الشعوب رسميا فى بدعها التى ليست من الدين ، وتحتفل بما يحتفلون به وعلى النحو الذى يجرون عليه . وإنك لتشاهد ذلك فيما تسمح به من اقتناء الأفراد مساحات واسعة من الأرض لإقامة مدافن خاصة لهم فيها ، وتصرح لهم ببناء مساكن عليها وتحليتها بكل وسائل البقاء فيها من ماء وكهرباء وغاز ، حتى أصبحت مساحة المقابر تكاد تساوى مساحات العواصم ، مما ليس له وجود فى أية مملكة من ممالك العالم ، وهنالك يرتكب من ضروب البدع باسم الإسلام ما الإسلام منه براء .

ومن مشايعة الحكومات للبدع العامية سماحها بإقامة المآتم ، وسد الطرقات فى وجوه المارة بما ينصب من سرادقات ، وهى تقتضى حفر الأراضى المرصوفة بالماكادام أو الأسفلت لإقامة السوارى الخشبية عليها التى تحملها وتحمل المصابيح التى

تمد على طول الشوارع المؤدية للدار إلى مسافات بعيدة ؛ وفى تلك السرادقات ترتكب من البدع فى حق تلاوة القرآن ما يعتبر دينيا من أشد الآثام .

وقد علق هوى هذه السرادقات بالأذهان إلى حد أن أصبحت عبئا ثقيلا على عاتق الناس ، ولكنهم يأتونها إما عملا بالسنة كما يكتبون ذلك فى المناعى ، والسنة من ذلك براء ، وإما صيانة لمكانة المتوفى أو أهله بين الناس . وقد اجتمع كثير من أعلام العلماء ، وقرروا حرمة الجلوس للتعزية ونشروها فى الجرائد . ولكنهم مع ذلك يأتونها على رءوس الأشهاد كأنهم ليسوا مكلفين بها قبل سواهم من الدهماء .

وأعجب ما شهدناه من هوى هذه السرادقات ، أن رجلا ماتت والدته فأخذ يستندى لإخراجها ، وإقامة سرادق لها ، أكف أهل السخاء ، وكنا نحن فيمن رآهم أهلا لبذل المعونة له . ولما مضى على وفاة والدته أربعون يوما ، وكانت فى حياتها تبيع قطعا من الحلوى بجانب جدار ، أسرع الرجل وإخوته ، وما فيهم من يكسب ما يزيد عن قوته اليومى ، إلى إقامة سرادق امتد بضعة عشر مترا سادين به الحارة الضيقة التى كانت تصل بين شارعين آهلين بالمارة ، احتفالا بمرور الأربعين على وفاتها . فلما بلغنى الخبر عجبت غاية العجب وقلت لمن أطرفنى به : ما أولى هذه الأم بقول عبيدٍ للشاعر عبيد بن الأبرص :

لأعلمنك بعد الموت تندبنى ... وفى حياتى ما زودتنى زادى

ليس هذا كل ما تؤاخذ عليه الحكومات ويؤاخذ عليه العلماء ، فإن هنا لك من منكرات المساجد والموالد ما لا يصح أن يصبر عليه .

فأما المساجد فقد أقيمت فيها القباب ، وأوقدت فيها السرج ، وأدخل إليها القبور ، ورفعت عليها المقاصير ، ووضعت على شواهدها العمائم ، وسمح للناس أن يطّوّفوا بها ، وأن يضرعوا إليها ، وأن يقبلوا الأرض أمامها ، وسمح لهم أيضا أن يقيموا لها الاحتفالات السنوية تحت اسم المواليد ، وأن يجتمع الناس حول تلك المساجد ذكورا وإناثا فى حالة تهتك لا ترضى بها رجولة أمة تعرف كرامتها . وأغضى الطرف عن الفئام التى تتحلق وتأخذ فيما تسميه الذكر ، فيتمايل الذاكرون يمينا وشمالا حول واحد منهم ينشدهم بعض الأشعار الغرامية ، أو يضرب لهم على الصنوج النحاسية

(الساجات) ، أو ينفخ لهم فى صفارة ، وغير ذلك مما لا يمكن حصره .

فهذا المظهر من طغيان البدع الذى أدى إلى اعتراف الحكومات الإسلامية بها ، ومشاركة العامة فيها ، وسكوت العلماء عنها ، هو موطن الخطر على سمعة الإسلام ، وسقوط منزلته فى نظر الباحثين والناقدين . فإنهم يقولون : إن الإسلام لو كان على ما يقوله أفذاذ المصلحين الذين نبتوا فى جماعاته ، خالصا من هذه البدع والخزعبلات ، لما استطاعت الحكومات أن تشايع الدهماء فيها ، ولما سمح العلماء لأنفسهم بأن يسكتوا عنها . لذلك نرى فى جميع الكتابات الأجنبية التى نقرؤها التعبير بالإسلاميات على كل ما يعمله المسلمون فى بلادهم مما يتصل بالدين ، حتى أصبح يتعذر على أى إنسان أن يقول لأجنبى : إن ما تذكره من الأعمال المنسوبة للمسلمين ليست من الدين ، لأنك تسمعه يصيح بك على الفور : إذا كان ما تقوله حقا فكيف تشايعهم فيه الحكومات ، ويسكت عنه العلماء ؟

كلمة حق بعد الذى مر :

لقد مرت على المسلمين حقب من الفتور ، سنة الله فى خلقه بعد كل دور من أدوار الانقلابات التى تدخل فيها الأمم ، قضت على أهله بالاستنامة للبدع ، والأخذ بها تقليدا للشعوب التى احتكوا بها فى حياتهم الاجتماعية ، وتطاولت عليهم الآماد فيها حتى أصبحت من تقاليدهم ، وابتنت عليها عاداتهم ومعاملاتهم ، وأصبح يستحيل سلخهم منها طفرة بدون تعريض وشائج ترابطهم الاجتماعى للخطر ، والقضاء على وجودهم الاقتصادى بالتزعزع ، بل وعلى عاطفتهم الدينية بالضعف .

إن الناظر من بعيد الذى يستعرض هذه البدع ، ويرى كل ما فيها من الشناعات المنافية للعقل والدين ، والسخافات المجافية للكرامة والوقار ، يدركه ما يدرك كل غائر على كيان أمته من التحلل ، وكل حريص على شرفها من التدهور ، ولا يتمالك نفسه أن يصيح بالحكومات الإسلامية وبالعلماء صيحات حماسية يتناثر منها الشرر ، ثم يعود فيعجب من أن نداءه لم يصادف مجيبا ، مع أن أولى الحل والعقد يرون كلهم مثل رأيه ، ويرجون القضاء على جميع البدع مثل رجائه .

يعجب ولكنه لو كلف أن يعمل لاضطر أن يتئد كما يتئدون ، ولحسب لكل خطوة حسابها كما يحسبون .

إن أمرا فى ثلاثة أسطر تصدره الحكومة يكفى لمنع أى سرادق يقام لمأتم فى طول البلاد وعرضها ، ولا تجد من يعترضها فى ذلك ، بل تصادف من التأييد والتحبيذ ما يملأ قلبها غبطة وسرورا . ولكن عُدَّ معى كم بيتا تقضى عليه هذه الأسطر الثلاثة بالخراب من بيوت الفراشين والخيمية والطهاة وصناع المقاعد من النجارين والمنجدين ، وعمال الأبسطة وباعة البن والقارئين ؟

قس على ذلك إبطال الموالد ، وزيارة المقابر ، وتشييد المدافن إلخ مما لا يحصى كثرة ، ولكله تأثير بقدره فى الحالة الاقتصادية مما لا قبل لحكومة عل الإقدام عليه طفرة بغير تدريج .

فمعالجة هذه البدع والحالة هذه يجب أن تُستمد لها معونة الزمن الطويل ، فإن ما حدث واستقر ودخل فى صميم العادات ، وابتنت عليه مهن وصناعات ومتاجر يحتاج فى إزالته إلى مثل الزمان الذى نشأ واستولى على الأهواء فيه .

فإذا قلت : فكيف تسنى لرسول هذه الأمة ﷺ أن يقضى على الوثنية وما يتعلق بها من بدع وطامات ، وعلى الجاهلية وما تقوم عليه من سخافات وشناعات ، طفرة بدون تدريج فى نحو عشر سنين ؟ قلنا : هذا موطن الإعجاز الذى نستدل به على نبوة خاتم النبيّين . وهذا عمل لم يقم له شبيه فى الأرض من يوم خلقها الله إلى هذا الحين . وقد لجأ ﷺ إلى بناء أمة جديدة ، وأنجحه الله فيها ، مناقضة لجميع النواميس المعروفة عند البشر .

أما نحن وإن كنا نستهدى بهديه ، ونسترشد بسنته ، إلا أننا لا نملك مثل ما كان يواتى به من المدد الإلهى المعجز لتقوم الحجة على رسالته .

فالذى علينا اليوم نشر التعليم بين جميع الطبقات ، وإبطال ما يمكن إبطاله من بدع المساجد والموالد والمآتم دون التعرض لما يبتنى عليه تصدع فى النفوس ،

أو فى البناء الاقتصادى ، مع الميل بالتعليم إلى جانب التكريه فى البدع ، والتشنيع على المنكرات ، فتنشأ أجيال متعاقبة تنفى عن نفسها خبث هذه الطامات تدريجا ، فلا تحدث صدمة لا فى العاطفة الدينية ولا فى البنية الاجتماعية ، ونصبح بفضل الله كما يريده الإسلام منا أمة هادية مهدية ، مثالا يحتذيه الناس أجمعون ، كما كان آباؤنا الأولون (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ، الجزء السابع ، ص ٥٥٠ ، رجب سنة ١٣٥٨ هـ .

اتفاق العلم والإسلام

على تجريد الدين من الشوائب البشرية

انتشرت فى الشرق صورة شوهاء للنفسية الغربية من الناحية الدينية ، فوقر فى قلوب أهله أن فى الغرب حركة نشطة للتخلص من الأديان ، وأن المدنية تقتضى أهلها اطراح كل مدرَك قديم مهما كان موضوعه ، وتخلية الذهن من كل شغل يتصل بما بعد هذه الحياة .

نعم إن فى الغرب حركة ضد الأديان ، ولكنها موجهة ضد أشكالها الخارجية ، لا ضد روحها ومعناها . بل للدين الخالص اليوم فى الغرب دولة لم تكن له فى أى عهد من عهود المدنيات السابقة ؛ فأى دين من الأديان الموجودة ، يستطيع أن يثبت أنه هو الدين الخالص من التقييدات البشرية ، كان هو الدين الذى ينشده العلم ، وينشده أهل المدنية العصرية .

العلم ينشد دينا ؟ هذه كلمة يندر أن يتحمل تبعتها فى الشرق كاتب مسئول ، يرجو أن يكون لكلامه وزن لدى أهل النظر من الفلاسفة والباحثين .

نعم ، العلم ينشد دينا ، ديناً لا ينافى ما هُدى إليه من مصادر المعرفة ، ولا يناقض ما وصل إليه من مقررات يقينية ، ويكون مع ذلك متكاتفا وإياه على إبلاغ الشخصية الإنسانية كمالها المنشود .

وإنما يعاود العلم البحث فى الدين ، لأن المعارف اليقينية التى جدت فيه من ناحية الدراسات النفسية ، والتجارب العملية فى الشخصية الإنسانية ، دلت على أن الآفاق المحدودة التى يعيش فيها الإنسان فى حياته المادية هو والحيوانات على حد سُوى ، تضيق منادحها عما يشعر به من الحاجة الملحة إلى جواء تناسب قواه المعنوية الكامنة فى صميم روحه .

كان العلم يعتبر هذا الولوع منه باجتياز الحدود ، إلى عهد قريب ، اندفاعا منه وراء الخيال ، وكان يعد ذلك ضارا بارتقائه ، ولكنه بعد أن رأى أن للإنسان

عقلا أرفع من عقله العادى ، محجوبا وراء حياته العادية ، وشاهد من سمو مداركه الباطنة ما سمحت له به التجارب المحدودة ، أدرك أن الإنسان معذور فى تبرمه بالحدود المضروبة عليه ، وأدرك سر تحطيمه لأقوى السياجات التى يحاط بها فى أدوار وجوده ، وفهم معنى قول الفيلسوف العالمى أرنست رينان فى كتابه (تاريخ الأديان) :

« من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه ، وكل شىء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها ؛ ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والفن ؛ ولكن يستحيل أن يبطل التدين أو يتلاشى ، بل سيبقى أبد الأبيد حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الطينية » انتهى .

كل هذا وما كشفه العلم حديثا من قيام المذهب المادى على مقررات ثبت فسادها ، وعلى حدود اتضح أنها تضيق عن تعليل ظواهر قامت الأدلة المحسوسة على صحتها ، اضطر العلماء أن يواتوا الميل الفطرى فى الإنسان بالاعتراف بالعاطفة الدينية . ولكن مجرد الاعتراف بالعاطفة لا يوفى بحاجتها ، فلا بد من دين تسكن إليه ، وتسبح فى الآفاق العليا التى تحن إليها على جناحيه ؛ ومعنى هذا أن العلماء اضطروا لأن يعملوا فى عالم الدين ، ما عملوه قبل ثلاثة قرون فى عالم العلم ، وهو تخليصه مما علق به من الآراء العاطلة ، والشروح الباطلة ، والنظريات البعيدة عن التحقيق ، وأفضى ذلك بهم إلى وضع دستور له يقوم عليه ، فيحفظه من تسرب الخيالات إليه ، واندساس الضلالات فيه . فلم ينظر العلماء فى الأديان الموجودة ، لاعتقادهم أن ليس واحد منها تتوافر فيه الشروط التى قرروا توافرها فى الدين الصحيح ؛ فقام جمهور من أعليائهم ، فألفوا دينا سموه الدين الطبيعى ، أساسه الاعتقاد بوجود خالق حكيم للكون ، خلقه وحكمه بنواميس عامة ، وبوجود حياة أخرى للإنسان يجازى فيها بما عمله من خير أو شر .

قال الفيلسوف الكبير (جول سيمون) الفرنسى ، وهو أحد الأقطاب الذين وضعوا هذه الديانة :

« إنا نؤدى فى أثناء هذه الحياة الواجب الذى رسمه الخالق لنا تحت رعايته وعنايته ، وعندما ينتهى بقاؤنا الدنيوى فهو إما أن يثيبنا أو يعاقبنا » .

ثم ذكر الأمر الذى يقتضى المثوبة أو العقوبة فقال :

« أما الأمر الذى يقتضى المثوبة الحسنة فهو طاعة الإنسان لقانونه الخاص وعمل الخير . ومؤدى قانون الإنسان الخاص هذا هو حفظ ذاته ، وترقية خصائصه المودعة فيه ، ثم هو محبة وخدمة إخوانه ، ومحبة وعبادة خالق ذاته . ولكن ما هى الطريقة التى يعبد بها الإنسان ربه ؟ إن أداء الواجب وعمل الخير هو عين العبادة ، والحب والعمل والإخلاص هى لب العبادة وحقيقة الصلاة . والإخلاص للوطن هو خدمة الله . هذه هى الديانة الطبيعية ، وهذه هى العبادة الطبيعية .

« كل أصول مذهبنا هذا واضحة لا رموز فيها .

« أما أصوله فهى الاعتقاد بوجود إله قادر على كل شىء لا يغيره شىء ، خلق العوالم وحكمها بقوانين عامة ، ووجود حياة أخرى نؤدى لنا كل وعود هذه الحياة ، وتكافىء المظالم بالجزاء الأوفى . هذا هو اعتقادنا . أما صلاتنا فهى أن يكون قلبنا مملوءا بمحبة الله » .

وأئمة الديانة الطبيعية من العلماء الأوربيين ، لا يكرهون العبادة الجسمية إلا إذا اعتبرت غاية لا وسيلة ، كما يؤخذ من أقوال الفيلسوف الكبير جول سيمون ، فهم على حد قول الفيلسوف الأشهر (كانت) : « العبادة الخارجية لا تكون رديئة إلا إذا اعتبرت غاية لا وسيلة ، بل هى تعتبر نافعة ومجدية إذا لم تعتبر إلا وسيلة لإيقاظ وتقوية العواطف الفاضلة فى النفس البشرية » .

* * *

يرى مما تقدم أن العلم شرع منذ أكثر من خمسين سنة يعمل فى سبيل تمحيص الدين ، مثل ما فعله فى سبيل تمحيص العلم ، وهو تخليصه مما شيب به من الآراء البشرية ، والأوهام الطائفية ، وقد بلغ منه ما أراد بتأسيسه الديانة الطبيعية . عمل ذلك وهو لا يعلم أن الإسلام سبقه إلى هذا الإصلاح بنحو ثلاثة عشر قرنا ؛ فإن

الإسلام لم يُشرع باعتبار أنه ديانة جديدة ، ولكن باعتبار أنه الدين المطلق الذى أنزله الله على جميع أنبيائه ورسله فى جميع العصور ، فحرفته الأمم ، وأفسدت أصوله القيمة بأوهام وشروح وتأويلات ، خالتها تفيده وتخدم أغراضه ، وجهلت أنها أخرجته عن دائرته ، وأحالته إلى علم بشرى مناسب لعقلية العهد الذى كان فيه .

وقد صرح الإسلام بهذا الأصل الخطير فى قوله تعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا ، وَٱلَّذِى أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، ٱللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (١) ، ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِٱللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، وَمَا أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (٣) ، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ ، قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٤) ، ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ (٥) ، ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ، وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَى ، إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٦) ، ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (٧) ، ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِى أَدْعُوا إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ، أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ، وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٨) ، ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ

---

(١) سورة الشورى : ١٣ .
(٢) سورة البقرة : ١٣٦ .
(٣) سورة يونس : ٣٦ .
(٤) سورة البقرة : ١٧٠ .
(٥) سورة الروم : ٢٩ .
(٦) سورة الزمر : ٣ .
(٧) سورة الإسراء : ٣٦ .
(٨) سورة يوسف : ١٠٨ .

وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّٰاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) ، ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

وقد جرى الإسلام فى هذا المجال إلى حده الأقصى الذى ليس بعده مذهب فى التجريد ، فحصر الدين فيما فُطرت عليه كل نفس من وجدان لا يتعدى منطقة الشعور الغريزى ، فقال تعالى : ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللهُ ، وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ * فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللهِ ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٣) .

هذه غاية فى تجريد الدين لم تصل إليها أية فلسفة فى الأرض ، وتسامٍ فى النظر إلى أفق لم يحلق فيه أبصر بصير ، وإسناد للغريزة الموجبة للدين إلى مستقر من النفس لا يتطرق إليه وهم ، بحيث يجده كل إنسان فى صميم إنسانيته لا يجرده منه كفر ، ولا يضعف من تسلطه عليه شك . وقد شرح النبى ﷺ الفطرة بقوله : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . وهذا يعنى أن الدين هو الوجدان الغريزى الذى لا يحتاج إلى تلقين ملقن ، ولا إلى تعليم معلم ، وأن كل ما يزاد عليه يفسده ، ويخرجه عن حده .

إذا عُلم كل هذا فما يحاوله العلم اليوم من تجريد الدين من الأوهام والأهواء والظنون ، قد شرع فيه الإسلام من أول ظهوره ووصل به إلى غايته القصوى ، وقرنه بالعمل على جمع الإنسانية برمتها عليه . وليس أحد فى حاجة لأن أقول له إن الإنسانية إن أجمعت على قبول شئ فهى لا تجمع إلا على ما هو أشبه بالعلم الضرورى ، لا على ما تزيده العقول عليه ، وهذا الشرط لا يتوافر إلا فى هذا الدين ، والآيات الواردة فى تدعيمه وتثبيته فى العقول تعد بالعشرات ، وفيها من روعة الجلاء

---

(١) سورة الأنعام : ١٥٣ .

(٢) سورة النمل : ٦٤ .

(٣) سورة الروم : ٢٩-٣٢ .

والوضوح ما لا سبيل إلى صرفه والتلاعب فيه . والمسلمون يستطيعون أن يعرضوا بضاعتهم هذه على العالم خالية من كل شرح ؛ فإن الآيات الواردة فيه بيِّنة إلى حد أن كل بيان تقرن به يعتبر تزيُّدا لا حاجة إليه .

بقى أن المسلمين إن أرادوا أن يكونوا ممثلين لنظرية فى الدين على هذه الدرجة من السمو ، وجب أن يكونوا هم المثل الأعلى فيها ، فلا يسمحوا لخاصتهم ولا لعامتهم أن يكونوا بأعمالهم وعاداتهم ، أمثلة سوء للذين يريدون أن يروا ما يكون عليه حال جماعة أنزل عليهم هذا النور الساطع منذ نحو أربعة عشر من القرون .

وما عليه المسلمون من مدابرة العمل بهذا الأصل العظيم ، وشيوع ما يدل على نقيضه فى كل جماعة من جماعاتهم ، هو الذى صرف أهل العلم من الغربيين عن تلمس هذا الاصلاح الكبير لديهم . ومن أعجب المتناقضات أن المسلمين مع اعترافهم بوجوب تطهير مجتمعاتهم من كل ما يدابر سمو الإسلام ويناقضه ، يتهيبون من أداء هذا الواجب الخطير ، فلا أدرى لعمرى مم يخافون ؟! (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الثالث عشر ، الجزء السابع ، ص ٢٩٤ ، رجب سنة ١٣٦١ هـ .

هل للمرأة أن تتعلم العلوم العالية وأن تخالط الرجال وتشاركهم فى الأعمال ؟

كتب إلينا كاتب فاضل يقول : يرغب بعض الشبان اليوم أن تتعلم المرأة المصرية العلوم العالية ، وأن تخالط الرجل وتشاركه فى الحياة العملية ، زعما منهم أن فى هذه المخالطة والمشاركة فائدة لها وللمجتمع ، ويرى غيرهم أن ليس لها ذلك ، فهل لكم أن تبينوا الحق فى هذه القضية من النواحى الاجتماعية والأدبية والدينية ؟

ونحن نجيب حضرته بأن الإسلام لم يضع للنشاط العقلى للمرأة حداً ، فأباح لها أن تتوسع فى العلوم ما أمكنتها الفرص من ذلك ، وما ساعدها عليه استعدادها ، ولم يمنعها أن تبث علمها فى الناس ، ولم يحظر على الرجال الأخذ عنها ، بل روى عن النبى ﷺ أنه قال : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » يريد عائشة أم المؤمنين . وقد روت ما رأته من سنته ، وما وعته ذاكرتها من كلماته ، وأخذه عنها الرجال ، وكانوا يقصدونها ليستزيدوها علما . وما كانت هى تضن عليهم بذلك .

ورويت لغيرها من نسائه ﷺ أحاديث كثيرة أخذها عنهن المسلمون وعملوا بها .

واشتهر فى التابعين نساء أخذن العلم وبرعن فيه ، منهن ابنة سعيد بن المسيب ، ومما روى عنها أنها لما تزوجت وبكّر زوجها خارجا ، سألته أين يذهب ؟ فقال لها إلى حلقة أبيك سعيد . قالت له : اجلس أعلمك علم سعيد .

فالمسلمون فى الصدر الأول لم يروا بأسا من أن تتلقى المرأة العلوم العالية . فلما استبحر العلم فيهم ونبغ فيهم الأئمة أصحاب المذاهب ، لم ير واحد منهم بأسا فى تلقى المرأة العلوم العالية ، بل سمحوا لها أن تجتهد إن بلغت درجة الاجتهاد ، وجوز بعضهم أن تلى القضاء ، وأن تفتى المسلمين .

وقد دل تاريخ المسلمين فى جميع أدوارهم أن نساء بلغن درجات عالية فى الأدب وسائر العلوم ، ولم يوجد من أنكر ذلك عليهن على أى وجه من الوجوه .

أما مشاركتها للرجل فى أعماله الخارجية ، فإن الفطرة المجردة والعلوم العصرية نفسها تنافيها ، وترى فيها خطرا عظيما على المجتمع .

فأما الفطرة فإنها تأبى أن ترى المرأة ، التى اختصها الخالق بمهمة تكثير النوع الإنسانى وتربيته ، تتكلف ، فوق ما تعانيه من المشاق ، مشاطرة الرجال أعمالهم المرهقة ، وأن تهجر دارها ساعات طويلة ، وأن تترك أولادها يهيمون على وجوههم فى الشوارع والأزقة وهم فى أشد الحاجة إلى حمايتها ورعايتها .

هذا أمر يأباه مجرد الفطرة ، لذلك ألهم الناس من أقدم عهودهم أن يضنوا بنسائهم عن الأعمال الخارجية ، وأن يقصروهن على الحياة الداخلية ، اللهم إلا همجا متوحشين يعيشون بجوار الغابات الأفريقية والاسترالية ، فيجلس رجالهم لا يعملون شيئا ويسرحون نساءهم ليجلبن لهم ما يتسنى لهن جلبه من جذور الأشجار وأوراقها ، وما يصطدنه من بعض الحيوانات الصغيرة ليقتاتوا بها ، كما تفعل الوحوش الضارية ، فهؤلاء لا يقام لهم وزن ، ولا يعبأ بهم فى استدلال .

وأما العلم فقد قال كلمته الأخيرة فى هذا الموضوع ، ولا يزال أقطابه يرددونها فى كل مناسبة . وإنا نؤتى القارىء خلاصة من ذلك مستخرجة من كتاب النظام السياسى على مقتضى الفلسفة الوضعية للفيلسوف الكبير أجوست كومت الفرنسى ، واضع تلك الفلسفة ومؤسس علم العمران ، قال : « ينبغى أن تكون حياة المرأة بيتية ، وأن لا تكلف بأعمال الرجال ، لأن ذلك يقطعها عن وظيفتها الطبيعية ، ويفسد مواهبها الفطرية . وعليه فيجب على الرجال أن ينفقوا على النساء دون أن ينتظروا منهن عملا ماديا ، كما ينفقون على الكتاب والشعراء والفلاسفة ، فإذا كان هؤلاء يحتاجون لساعات كثيرة من الفراغ لإنتاج ثمرات قرائحهم ، كذلك يحتاج النساء لمثل تلك الأوقات ليتفرغن فيها لأداء وظيفتهن الاجتماعية : من حمل ووضع وتربية . ومن جهة أخرى فإنه لو سمح للنساء ، على ضعفهن ، أن يشتغلن خارج بيوتهن ، تعرضن لمنافسة قوية من جانب الرجال ، فلا ينلن بجانبهم إلا الحثالة التى

يعفون عنها ، فيقعن فى الفاقة ولا يجدن القوت إلا تبلغا . بله الضرر الفادح الذى يحيق بمجتمعاتهن من جراء خروجهن على نظام الطبيعة ، وعصيانهن لنواميس الحياة الصحيحة » .

هذا رأى العلم الحق ، أما ما يكتب ضده وينقله عنهم المفتونون بالمظاهر منا ، فهو رأى جمهرة من قصصيين وكتاب إباحيين يسوغون للمرأة أن تخرج على مقتضى الفطرة ، ويخدعون السطحيين من القراء عن الحقائق العلمية ، وغرضهم من ذلك ترويج كتاباتهم بدعوى تجديد الحياة الاجتماعية ، والخروج مما رث وبلى من التقاليد الوراثية .

وقد أثرت هذه الكتابات فى أوربا والشرق بسبب أن الناس ميالون إلى قراءة الأقاصيص ، والكتابات السطحية التى توافق غرائزهم الشهوانية ، فتكوّن رأى عام على أصالة هذه النظرية ، فاندفع الناس فى تحقيقها اندفاعا جنونيا ، فهجر النساء الدور وأقبلوا على الأعمال الخارجية ، وكان من أثر هذا الاختلاط ذيوع عادات لا تتفق والحياة الصالحة ، كانت شرا مستطيرا على الزواج المشروع ، فكثر الأخدان والخدينات ، وطمت العلاقات الخائنة بين الجنسين ، وشاعت العزوبة بين الشبان ، وأصبح التبرج المخالف للذوق السليم عادة مألوفة ، واستهتر الناس فى ذلك حتى أصبحوا يرون أن بروز النساء نصف عاريات ضرب من ضروب الأناقة ، ووجه من وجوه الظرف ، وحتى صار مما يروقهم أن تصور لهم الجرائد اليومية التى يقرءونها صور الخليعات المتهتكات ، فيصرفوا فى التأمل فيها وقتا ثمينا ، ويدعوها لأبنائهم وبناتهم غير خاشين أن ذلك يؤثر فى آدابهم تأثيرا شنيعا .

ولكن الإنسان متى اعتاد شيئا وألفه ترقى فيه ، وأبلغه إلى أقصى أطواره ، فانتهى أمره بأن لا يقنع بالعرى النصفى ، فأوجد العرى الكامل فى بعض المسارح التى يتردد عليها . فهل وقف به التطور فى الخنا إلى هذا الحد ؟ لا ، ولكنه أبى إلا أن يبلغ به إلى ما بعده ، فابتكر مبدأ العرى فى الأحوال العادية لا على المسرح فحسب ، وأسس أندية له فى أكبر عواصم بلاد المدنية يجتمع فيها رجال ونساء ، فيتجردون من ثيابهم ويمضون ساعات طويلة على تلك الحالة فى محاضرات وألعاب رياضية ، وما تجر إليه من ضروب المنكرات ، ثم يلبس كل منهم ثيابه ويعود إلى بيته .

نعم إن الحكومات تضيق الخناق على هذه الأندية ، وتطارد أصحابها ، ولكنها عاجزة عن ملاشاتها ، وهى تزيد انتشارا يوما فيوما .

أفتظن أن تطورات الإنسان فى هذا الباب تقف عند هذا الحد ؟ اللهم لا ، إلا إذا حدث ما ليس فى الحسبان من حدوث قوارع جائحة ، ومثلات ما حقة ، يقتضيها هذا العمل الحيوانى البحت ، فيرد أصحابه عنه صاغرين : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [1] .

هذا ولو دقق الباحث فى شئون العالم ، وشخص علل المجتمعات العصرية تشخيصا علميا دقيقا ، لرأى أن أكثر ما تشكو منه هذه المجتمعات من تدهور أدبى ، وتعقد اجتماعى ، واضطراب مالى ، منشؤه تسامحها فى تهتك النسوة ، وتركها حبالهن على غواربهن .

نعم إن من غرائز المرأة التصون ، ولكن الرجل لا يفتأ يخدعها بالمسوّلات والمغريات ، ليميت هذه الغريزة فيها ، ويطوّح بها إلى ميدان الإباحة ، وقد أنجح فى إغوائها إلى حد بعيد ، فهى اليوم تتبع خطواته ، ولكنه قد بدأ يتبرم بها ، حتى إن أشد المولعين بفتنتها أخذ يشّهر بتهتكها ، ويبنى أقاصيصه على إغراقها فى تبذلها .

وقد خسرت المرأة من استسلامها لهذه الآراء الضالة كل مميزاتها ، ولم تستعض عنها شيئا مما وعدها به مضللوها .

كانت المرأة ممنعة فى سُتر من العزة ، فأصبحت بهذا التهتك مبتذلة . والتهتك فى حقيقته مبالغة فى عَرض النفس ، وكل معروض مهان كما لا يخفى . والإضراب عن الزواج مظهر من مظاهر هذا الهوان . فكأن المرأة بكثرة عرضها نفسها على الرجال قد فقدت أعز شىء عليها وهو عرشها !

وكانت المرأة فى الدار حاجة من حاجات النفس ، يسكن إليها الرجل ليروّح عن نفسه ، فأصبح الرجال لكثرة اختلاطهم فى الحياة العملية بالنساء يتطلبون وقتا يخلون فيه لأنفسهم بعيدين عنهن ، فكرهوا الزواج ، وأرادوا أن تكون بيوتهن خلوا منهن ، لأنه لم يبق معنى لاستمرار العيش معهن خارجا وداخلا !

---

(١) سورة الروم : ٤١ .

وكانت المرأة تُدخر لأداء أسمى مهمة فى العالم وهى تربية الصغار ، وتلقينهم مبادىء الآداب ، وأصول الأخلاق . وقد أطنب الفلاسفة والمربون فى خطورة المدرسة البيتية ، فجُردت المرأة بتأثير هذه التعاليم الفاسدة من وظيفتها الشريفة ، وأسندت إليها وظائف مبيدة لكرامتها النسوية فى المراقص والمقاهى ودور التمثيل والسينما . وتَسَتَّر الإباحيون وراء كلمة الفنون الجميلة ، فأحدثوا انقلابا خطيرا فى حياة المرأة ستجنى الإنسانية شروره أجيالا طويلة .

هنا يثور علينا ثائر فيرفع عقيرته قائلا : أنتم تريدون أن تسجنوا المرأة ، وأن تذلوها ، وأن تستغلوا مواهبها ، وأن تسلبوها استقلالها ، وأن تجردوها من كل عمل تكسب به قوتها ، وتحتل به مكانها تحت الشمس .

كلمات جوفاء ! استخدمها هؤلاء الثائرون على نظام الطبيعة فى استدراج النساء إلى الحياة الإباحية ، ولا يزالون يستعملونها لستر خطيئتهم الفادحة . ولكن على مَن كل هذه الثرثرة ؟ أَعَلى أرفع الناس عقولا من الفلاسفة والاجتماعيين ، أم على الذين يرون بأعينهم المخازى التى جنوها على مجتمعاتهم وضاعت فيها حيل المصلحين ؟

إن الناس يشهدون اليوم تدهورا خلقيا ، وانحطاطا أدبيا ، لم يرو تاريخ البشر له مثيلا ، فإذا كانت حياة النوع البشرى لا تقوم إلا بانغماسه فى هذه المقاذر ، فأهْوِن بها من حياة تموت معها جميع الغرائز الإنسانية الكريمة : من الغيرة على العرض ، والحرص على الكرامة ، والترفع عن الفحشاء ، والتنزه عن النقيصة !

لو كان الإنسان خلق بهيما لعاش عيشة البهائم ، ولما ثار على هذه المقاذر ، ولكنه خلق إنسانا ، فهو كما يشعر بشهوات جثمانية ، وأهواء نفسية ، كذلك يشعر بمميزات معنوية لم يمنحها الحيوان ومنحها الإنسان ، لتصده عن النزوات البهيمية . فالإنسان قد ينحط ، وينحط ، ويتغلغل فى الانحطاط إلى أبعد حد ، ولكنه لا يفقد مميزاته المعنوية مهما أراد أن يفقدها ، فلا تزال به حتى تريه تلك المقاذر على حقيقتها ، فيثور عليها ، ويدفعها عن نفسه فى شىء كثير من العنف والجبرية .

ودليلنا على هذا أن الإنسان كثيرا ما سقط فى مهاوى الرذيلة حتى ظُن أنه لن يخرج منها ، وأنها قتلت كل ما فيه من غرائز شريفة ، ولكنه لم يلبث أن نفضها

عن عاتقه ، وخرج منها يتطلب الحياة الصحيحة . لو كان الأمر جاريا على غير هذه السنة لما رأيت للفضائل دولة فى الأرض بعد أن بلغت الرذيلة أقصى مداها فى أدوار كثيرة من حياة البشرية .

فأما ما يشنعون عليه من سجن المرأة وإذلالها ، وسلبها استقلالها ، فتلك صيحات يقصد بها التهويل ، وطمس معالم الحقائق ، وإلا فكيف يتخيل الناس أن قصر المرأة على مملكتها البيتية سجن وإذلال لها ؟ وهل يطالبها المصلحون المعاصرون بغير ذلك ؟ وإذا كان يفهم أن اشتغال الإنسان بما خلق له سجن له ، فكلنا إذاً مسجونون ، من أول المؤلف فى مكتبه إلى المُعَدِّن فى منجمه . وإذا كان هذا يستقيم فى الفهم فلتُعتبر المرأة مسجونة كجميع أبناء نوعها ، إذ لا وجه لاستثنائها منهم .

أما استقلال المرأة فلا يعنى فى علم الاجتماع شيئا غير الشذوذ عن الربط الاجتماعية ، فإن المرأة خلقت لتكون زوجة ، والزوجية تفرض على كلا الزوجين التزامات متبادلة ، فلا معنى للاستقلال هنا مع وجود هذا الترابط الوثيق بين الاثنين . ولكن لما كان القصصيون الذين لا شغل لهم إلا فى الكلام عن الحب والمحاولات الغرامية والخيانات الزوجية ، فهم يلوِّحون بهذا الاستقلال للمرأة ليسوِّغوا لها الخروج على الالتزامات الزوجية ، بل وعلى نظم الطبيعة نفسها . وإذا كان مملى النظم الاجتماعية هم الأدباء والقصصيون ، فعلى الاجتماع البشرى العفاء وسوء المنقلب .

ويقولون : أتريدون أن تجردوا المرأة من كل عمل تكسب به قوتها ؟ ونقول نحن : لا ، فإننا نريد أن تكسب المرأة قوتها من طريق الزوجية ، لأن الله خلق النساء على عدد الرجال مع تفاوت لا يعتد به هنا تارة وهناك تارة أخرى . ولكنكم أنتم بتسويلاتكم لها الخروج والتبرج والاختلاط بالرجال ، قد عملتم من طريق غير مباشر على إشاعة العزوبة كما قدمنا . وشيوع العزوبة يفضى إلى وجود جيوش من النسوة لا يجدن القوت ، فيضطررن للعمل مع الرجال . والعمل مع الرجال يزيدهم إغراقا فى العزوبة للأسباب التى لا تخفى على أحد . فأنتم الذين قضيتم على المرأة بأن تذل فى العمل الخارجى . نعم : هو إذلال لها أى إذلال ، فإنها لم تخلق لتمتهن كبائعة أو كاتبة أو سائقة أوتوموبيل أو سمسارة أو حوذية الخ الخ ، ولكنها خلقت لتكون ربة بيت ، وأن هذا البيت لو كان كوخا حقيرا فهو أكرم لها ، وأحفظ

لمميزاتها من أن تكون بائعة أو كاتبة أو سكرتيرة .

ولسنا ننكر أن المجتمع مهما بالغ فى المحافظة على النظام الطبيعى حيال النساء فسيوجد منهن من يعوزها القوت ، ولكن عدد المعوزات يكون قليلا يمكن الحكومة الرشيدة من تدبير أعمال لهن تليق بكرامتهن .

ولكنكم أيها الثائرون لا يعنيكم قوت المرأة ، وإنما يعنيكم أن تجدوا بطلات لأقاصيصكم من المائلات المميلات ، وما لكم والنساء العاملات التى تلفح وجوههن النار ؟ فليس مقصدكم المدافعة عن النساء ولكن إخراجهن من خدورهن ، وما إكثاركم من ذكر استقلالهن وحقوقهن إلا ستر لمبادئكم الإباحية .

وقد فطنت أوربا وأمريكا لما يتنى على عمل المرأة وحريتها المفرطة واستقلالها من المضار على الشئون الاقتصادية ، فأخذ مصلحوها يضعون حدًّا لعملها الخارجى ، ويدعونها للدخول فى خدرها ، وقد أخذت هذه التحوطات شكلا عمليا فى كثير من الأمم الصناعية كالولايات المتحدة وألمانيا وايطاليا ، ولابد من أن تبلغ أقصى غاياتها فى مستقبل ليس بالبعيد .

هنا يسوغ لى أن أرفع صوتى عاليا ، مؤكدا أن الفطرة الإنسانية الكريمة أحكم من أن تقع فى هذه الفخاخ الشيطانية ، فتدع هذه المدنية التى حصلتها ببذل جهود جبارة وفى قرون عديدة ، تنحل وتلاشى تحت تأثير السبب نفسه الذى حل ولاشى المدنية الرومانية من قبل ، وهو تبرج النساء وطغيان الميول الإباحية . فإن عجز المصلحون عن قمع هذه الميول فليست هذه المدنية بأكرم على الله من المدنيات التى سبقتها ، فإنها تنوء تحت عللها القاتلة ، وتصبح كأن لم تكن شيئا مذكورا ، وتحل محلها مدنية يعرف أهلها كيف يحافظون على الحدود التى حدها المبدع الحكيم للخلق : ﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ [*] .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد السادس ، الجزء السابع ، رجب سنة ١٣٥٤ هـ .

المبررات العلمية
لمبدأ تعدد الزوجات فى الإسلام

صدرت كتابات كثيرة فى أوربا من جانب المستشرقين والاجتماعيين فى مسألة تعدد الزوجات فى الإسلام ، كلها ترمى إلى استهجان هذه العادة ، وتنصح المسلمين بضرورة الإقلاع عنها ، بل منهم من علق ارتقاء المسلمين من الناحية الاجتماعية على إلغائها . وقد أثرت هذه الكتابات فى كثير من المسلمين فأصبحوا يتطلبون وجه التخلص منها ، وانقسموا هنا إلى طائفتين : طائفة ، وهى قلة لا وزن لها ، ترمى إلى حذفها من الشرع الإسلامى بصرف النظر عن تبعات هذا الحذف من الناحية الدينية . والطائفة الأخرى تعمل على إبطالها بالاستناد إلى تأويل بعض النصوص .

يقول هؤلاء : قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [1] ثم قال : ﴿ وَلَن تَستَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [2] فتكون النتيجة المنطقية لهذين النصين فى نظرهم ، دعوة صريحة للاكتفاء بواحدة . وعلى هذه القاعدة يمكن إبطال تعدد الزوجات من طريق إسلامى بحت لا قدرة لأحد على الاعتراض عليه ، كما يقولون .

وقد سرى هذا الضرب من الاستنتاج حتى إلى غالب الذين يلمون بمسألة تعدد الزوجات ، ولم يفطن أحد منهم إلى أنه مبنى على الاقتضاب المعيب . ولو كلف الكاتبون أنفسهم إتمام قراءة الآية ، لأدركوا أنهم بالاستشهاد بها فى هذا الموطن بعيدون عن الصواب كل البعد . أما النص الكامل للآية فهو : ﴿ وَلَن تَستَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [2] . ومعناها أنكم أيها الناس

---

(١) سورة النساء : ٣ .

(٢) سورة النساء : ١٢٩ .

لا تستطيعون أن تراعوا العدل المطلق بين نسائكم ولو حرصتم على ذلك كل الحرص ، فعليكم أن تعاشروهن بما تستطيعون من عدل ، فلا تميلوا لإحداهن كل الميل وتذروا الأخرى كالمعلقة ، أى التى لا زوج لها ، بتركها مهملة من العطف والمحبة .

فالإسلام كما ترى ، يبيح تعدد الزوجات ، ولكنه يحيطه بأوامر مشددة فى وجوب العدل فيه ، فلا يقبل أن تكون المرأة بسببه فى موقف مزر بكرامتها ، قال النبى ﷺ : « من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط » .

بقى علينا أن ننظر فى مسألة تعدد الزوجات من وجهة اجتماعية لنرى هل الإسلام رمى منها ، كعادته فى جميع مباحاته ، إلى غاية بعيدة ، إن كانت تخفى على قصار النظر فلا تغم على بعدائه ؟

الإسلام أول محرر للنساء :

لقد عهد الناس الإسلام شديد العناية بالنساء إلى حد أن خوّلهن من الحقوق ما لم تبلغه المرأة الغربية إلى اليوم .

فأما من الوجهة الروحية فقد سوّى بينهن وبين الرجال ، فلم يوصد فى وجوههن سبيلا إلى مرتبة ، ولم يضع لهن إلى السمو حدا ، فقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

وأما من الوجهة العلمية ، فقد أباح لهن أن يتناولن ما يروق لهن من العلوم حتى يبلغن أرفع الدرجات ، وسمح للرجال أن يتلقوا عنهن العلم ، وأن يثقوا برواياتهن وكفاياتهن .

وأما من جهة الحقوق المدنية ، فإن الإسلام وضع المرأة فى المستوى الذى فيه الرجل ، فقرر أن ترث وأن تكون ذات مال تتصرف فيه بجميع وجوه التصرفات ، مستقلة عن أبيها وزوجها ، وأن يسمع قولها فى الأمور العامة للمجتمع ،

---

(١) سورة النحل : ٩٧ .

حتى إنه ليسمح لها أن تلى القضاء والإفتاء ، واعتبرها فى بيتها سيدة حاصلة على جميع موجبات الكرامة ، فلم يكلفها أن تخدم زوجها ، بل ولا أن تخدم نفسها إن كان زوجها موسرا . وهى بالدخول فى تعاقد الزواج لا تقع تحت أسر زوجها ، ولكن فى حياة مشتركة بينها وبينه . وقد أباح الإسلام تحقيقا لهذا المبدأ أن تشترط فى العقد أن تكون عصمتها بيدها فتفصم عرا الزوجية فى أى وقت أرادت .

هذه حقوق منحها الإسلام للمرأة قبل أن تفطن هى للمطالبة بها ، وقبل أن يتطوع رجال لطلبها لها بأكثر من ألف سنة ، وليس لنساء أرقى الأمم مثل هذه الحقوق إلى اليوم . فالذى قام بتحرير المرأة تحريرا لا مرمى بعده إنما هو الإسلام ، لا العلم ولا المدنية الحديثة .

فهل الإسلام الذى هذا شأنه فى حماية المرأة ، ورعاية حقوقها الطبيعية ، يعود فيجعل من تعدد الزوجات ما يحط من كرامتها أو ينقض حقا من حقوقها ؟

المسألة تحتاج لنظر ، لا لأن وجه الصواب فيها يدق عن الفهم ، ولكن لأن ما أحيطت به من الأهواء ، وسحر التقليد الأعمى للأقوياء ، يجعل الكلام فيها فى حاجة إلى مقدمتين لا محيص عنهما :

المقدمة الأولى – جبل كثير من الرجال على أن لا يكتفوا بزوجة واحدة ، فإذا اضطروا للاكتفاء بواحدة سعى بعضهم إلى إشباع ميولهم من طريق غير مشروع ، فيذيع الزنى وما يتعلق به من الإغراءات والتسويلات ، وهتك الأعراض ، ولست فى حاجة إلى لفت الأنظار للأضرار التى يحدثها هذا النوع من العدوان على الآداب وبناء الاجتماع .

المقدمة الثانية – إن الجماعات البشرية لا تزال ملتاثة ببقايا من الحيوانية ، فخير وسيلة لترقيتها أن يعترف لها بهذا الضعف ، وأن توفى مقتضياته فى دائرة شرعية تناسبه ، وأن يكتفى بالإشارة إلى المثل العليا لتسير نحوها تدريجيا محفوزة بالارتقاء الذى تبلغ إليه تحت نور العلم والحكمة . أما مطالبتها بالمثل العليا وهى فى هذا الدور ، فيفضى إلى أنها تتخذ من عاداتها وأهوائها شريعة عملية تجرى عليها ، فتحرم بذلك

من رقابة الوازع الأدبى ، وتخبط فى مطالبها الجسدانية على غير هدى ، ويستشرى أمرها فيها فلا يستطاع ردها عنها .

على هذين الأساسين الحكيمين بنيت الشريعة الإسلامية ، فإنها اعترفت بضعف الإنسان أولا ، قال تعالى : ﴿ وَخُلِقَ ٱلإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (١) ، وجرت فى تكليفه على مقتضى هذا الضعف ، فقال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (٢) ، واكتفى بالإشارة إلى المثل العليا ، وحض الإنسان على بلوغها بقدر ما يصل إليه جهده ، غير متغال ولا مندفع ، فقال تعالى : ﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ (٣) وقال ﷺ : « إياكم والغلو فى الدين » ، وقال : « الإسلام متين فأوغل فيه برفق » .

وغرضه من هذا الأسلوب الحكيم أن لا يجاوز بالإنسان طاقته ، فيضع له ما لايستطيع القيام عليه ، وأن يتمكن من ضبط مقتضيات هذا الضعف البشرى ، فلا يدعه يشتد بالإهمال ، حتى يصل إلى درجة الإعضال ، فيسوق الجماعات إلى الإسفاف فى ميولها البهيمية ، حتى تتجاوزها إلى ما لا يناسب كرامة الإنسانية ، ولا يتفق وتمشيها نحو المثل العليا .

فالإسلام أقر مبدأ تعدد الزوجات لا ليساير الشهوات الخسيسة فى الإنسان ، ولكن ليحصر ميوله الجنسية فى دائرة لا تتعداها ، ليستطيع أن يتعهدها بالتقويم حتى لايتفاقم شر هذه الميول فتهوى بالإنسان إلى درجة لا يمكن رفعه منها .

فتأمل الآن تحت هذا الضوء فى الشرائع الوضعية التى لم تأخذ بتعدد الزوجات ، تجدها اضطرت إلى قبول ما هو شر منه ، لا عليها فقط باعتبار أنها شرائع ، ولكن على المحكومين بها أيضا ، إذ فتحت باب التدهور الأدبى فى وجوههم على مصراعيه .

---

(١) سورة النساء : ٢٨ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٦ .

(٣) سورة التغابن : ١٦ .

فاضطرت أولا إلى إباحة العلاقات الآثمة بين الجنسين ، بل بين آحاد الجنس الواحد ، إن كانت عن تراض ، وإلى مشروعية الوساطة فى هذه العلاقات ، فانحط الذوق الأدبى فى هذه المجتمعات حتى قبلت تحت ستار الفنون الجميلة ضروبٌ من التبرج والعرى كلها ذات آثار خطيرة على المقومات الاجتماعية ، والآداب النفسية . ثم انتهى أمر هذه الشرائع بقبول مبدأ تعدد الزوجات نفسه تحت ستار المخادنة ، فالمخادنة علاقة غير شرعية يقصد منها أن يوفى الإنسان حاجاته البهيمية دون أن يتقيد حيال المرأة بأى حق . فالغبن الذى يقع على المرأة من ناحية هذا الارتباط العرفى لايقف عند حد ، لأنها تكون عرضة فى أى وقت للطرد هى وأولادها دون أن يكون لها أى حق عند الرجل الذى عاش معها السنين الطوال .

ولكن الإسلام بإقراره مبدأ تعدد الزوجات ، سمح لهذه الميول الجنسية البشرية أن تجد حاجتها ، وفى مقابل ذلك استطاع أن يحصر هذه الميول فى دائرته ، فحرم الزنى ، وجميع ما يتصل به ويشتق منه ، وأبطل كل المحاولات التى يموهها الإنسان ليصل منها إلى إشباع اندفاعاته المنحطة ، وفى الوقت نفسه حمى الإسلام المرأة من عدوان الرجل ، فلم يقبل أن تكون فى علاقاتها الجنسية معه إلا على حالة زوجة لها ولأولادها حقوق مقررة لا يستطيع الرجل التفصى منها .

فالذين يريدون إلغاء مبدأ تعدد الزوجات فى الإسلام ، ويظنون أنهم بذلك يخدمون مجتمعاتهم ، عليهم أن يتذكروا أن إلغاء هذا المبدأ يؤدى إلى حلول المخادنة محله ، وينشر الزنى ، ويفسد العلاقات بين الجنسين ، ويحفز إلى تدهور الأخلاق ، وسقوط الآداب .

فإن قيل إن كل هذا حاصل الآن ، ويزيد عليه مبدأ تعدد الزوجات . فنقول : وما ذنب الإسلام فى هذا ؟ إنه شرع شرعا يصل بالإنسان إلى أرفع درجات الكمال ، وقد برهن على صلاحيته لذلك ، فأنال الذين عملوا به خلافة الله فى الأرض ، وتوعد الذين يحيدون عنه بسوء المنقلب ، فكان ذلك مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِن بَعْدِ خَوفِهِم أَمْنًا

يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ ﴾ [١] أى الخارجون عن دائرته .

فإن كنا لا نعمل بالإسلام فالتبعة تقع علينا لا عليه .

وإنا فى هذا الموطن نرى أن نستنزل عجب القارىء من هذا الأمر وهو : إن الذين يدعوننا إلى تقليد الغربيين يتظاهرون بأنهم أنصار المرأة ، والمدافعون عن حقوقها ، فما بالهم يدعون قومهم إلى إبطال مبدأ تعدد الزوجات ، والنتيجة المحتمة لإبطاله قيام مبدأ المخادنة مقامه ؟ فهل من الانتصار للمرأة أن يوقعوها فى هذا الحضيض لتصبح زوجة مجردة من الحقوق للرجل أن يستغل طيباتها ، حتى إذا لاح له أن يتخلص منها طردها هى وذريتها منه ، لتذهب بهم حيث شاءت تتكفف الناس ؟

إن كانوا يرون أن هذا من الانتصار للمرأة ، فإن الإسلام لا يرى ذلك ، فهو لا يقبل أن تنحط المرأة إلى هذه الدركة السحيقة ، ولا يحب أن يراها إلا زوجة ذات حقوق مقررة على الرجل ، تلجأ فى الحصول عليها إلى الشريعة فتنصفها ممن يريد التملص منها .

فعلى الذين تفتنهم هذه المدنية على علاتها ، أن يروها على ما هى عليه ، لا على ما تصورها لهم أوهامهم ، فإن فعلوا ذلك تبين لهم منها ما يجب أخذه ، وما ينبغى تركه ، ولاحت لهم جهات قوتها وجهات ضعفها ، فإن انتدبوا لنصح قومهم بعد ذلك كانوا حكماء فى كتاباتهم ، منطقيين فى أحكامهم .

سحر التقليد الأعمى للأقوياء :

لا أنكر أننا ونحن فى دور الضعف الذى نحن فيه نقع تحت سلطان قاهر من الاستهواء نرى معه كل ما عليه الأقوياء حسنا ، ونندفع لتمجيدهم عليه ، وتقليدهم فيه ، ونحسب كل ما نخالفهم فيه أثراً من آثار الوحشية الأولى ، ومعطلا من معطلات التقدم والارتقاء ، ولا نعدم ونحن تحت سلطان هذا الاستهواء أن نجد شبها تسوقنا

---

(١) سورة النور : ٥٥ .

إلى الاعتقاد بفساد ما نحن عليه ، وننسى كل الثلم والثغرات فى الشكل الذى افتتنا به ، بل ننسى ماضيه الذى أوجب عليه ما هو فيه وما هو بسبيله من المحو والإثبات ، والتغيير والتبديل فى أوضاعه ، ليصل إلى حالة يمكنه الاستقرار عليها .

كانت المدنية الراهنة بالأمس تستنكر الطلاق وتعده هادما للأسرة ، ومدنسا لرابطة الزواج المقدسة ، ثم عادت فأباحته منذ نصف قرن ، واستهتر الناس فيه حتى صار يطلب لأتفه الأمور .

وكان أنصار المرأة يعدون عملها خارج بيتها من التجديدات التى يجب أن تشجع بإفساح المكان لها فى كل مجال حتى الجندية وضرب النار . فلما جرى العمل على هذا الأصل رأى مصلحوهم أن البيوت قد أقفرت ، والأسر قد آذنت بالانحلال ، وحل محلها شكل مستنكر من أشكال الحياة ، والأعمال قد ضاقت فى وجوه الرجال لأنها لا تكفى الجنسين معا ، فشرع زعماؤهم يعالجون هذه الحالة برد المرأة إلى البيت ، والعمل على ترويج الزواج الذى منى بأزمة قاضية من جرّاء هذا الانقلاب .

ونحن ، معشر الضعفاء ، مضطرون بحكم سلطان التقليد للأقوياء ، أن نتقلب معهم فى جميع هذه الأدوار غير مفكرين فى أن لنا نظاما مدنيا معطلا هو المثل الأعلى لأمثاله ، فلا نعيره نظرا لأننا لم ندرسه على ضوء العلم .

نحن الآن فى دور انتقال والأمر لم يخرج من يدنا بعد ، فلسنا حيال أمر واقع من أمور هذه المدنية ثبت ضرره نتلمس له الملطفات ، فالواجب الاجتماعى يقضى علينا بأن نتخير من النظم ما يكون نفعه أكثر من ضرره ، لأن النافع الذى لا تشوبه شائبة ليس بموجود فى هذه الحياة .

فأمامنا فيما يتعلق بالحياة الجنسية نظامان : أحدهما يبيح تعدد الزوجات ، ويحرم كل ما وراءه من العلاقات الآثمة بين الجنسين ، ويضرب بيد من حديد على أيدى المتلاعبين بالأعراض ، الخائضين فى ضروب الفحشاء . والآخر يحرم تعدد الزوجات ويبيح المخادنة والعلاقات الآثمة بين الجنسين ، ولا يضرب على أية يد تمتد إلى تناول أى محظور فى هذا المجال .

هذان النظامان يبيح كلاهما تعدد الزوجات ، ولكن الأول يعتد فيه بحقوق المرأة وأولادها ، ويعنى بأمر الفحشاء فلا يدعها تفسد النفوس ، وتحط الآداب . وأما الثانى فإنه لا يعتد بحقوق المرأة ولا بحقوق أولادها ، ولا يبالى بالفحشاء ما دامت عن تراضٍ .

فإن كان لابد من إباحة التعدد كما ترى فليس فى الأرض نفس كريمة ترضى أن يكون حظ النساء منه حظ البهائم العجماء ، وإن كان لابد فى كلتا الحالتين من أولاد فلا يوجد من يسمح بأن يكون عبؤهم كله ملقى على عاتق الأمهات .

فمن كان لم يسمع بما جرّت إليه هذه المسألة من المشاكل الاجتماعية فى أوروبا ، فليطلع على محاضرات المؤتمرات التى تقيمها جمعيات الاتحاد النسوى فى العالم ، فهى مما تدمى له الأفئدة ، وتذوب النفوس حسرات .

التحوط لدرء بعض الاعتراضات :

قد يقال : إن الرجل الذى يعقب أولادا من زوجتين يعتبر آثما لأنه يخلق أعداء طبيعيين بين النساء والأولاد .

فهل معنى هذا أن الرجل الذى يعقب أولادا من امرأتين إحداهما شرعية والأخرى غير شرعية لا يعتبر آثما ، لأنه لم يخلق أعداء طبيعيين بين النساء والأولاد ؟ هل هذا صحيح ؟ وهل يقوى على النقد ؟

ولكن الإسلام قد احتاط لما قد يولده تعدد الزوجات من عداوة بين النساء أو حقد بين أولادهن ، إذ أمر الزوج بإقامة العدل بين أولاده جميعا ، وأمره أن يسوى بينهم فى التربية والتعليم والنفقة من مطعم ومسكن وكسوة ، كما أمره أن يجعل زوجاته على قدم المساواة فى ذلك كله ، وحذره أن يخص إحدى زوجاته أو أحد أولاده بأى شيء مما قد ينجم عنه بذر بذور الضغينة والبغضاء بين أفراد أسرته ، ففى هذا الجو من العدل والمساواة لا تجد العداوة مجالا للتولد والنماء . والذى يتتبع الحوادث المتعلقة بتعدد الزوجات يجد أسبابها ترجع إلى عصيان أوامر الشريعة فى هذا الشأن .

وقد يقال : لو سألنا أية امرأة عن تعدد الزوجات والمخادنة ، لفضلت أن يخادن زوجها ألف امرأة على أن يتزوج عليها واحدة زواجا شرعيا ، لأنه بعد خاتمة المطاف يعود إليها ، ويعطف عليها .

نقول : هذا كلام ليس له أساس من الواقع ولا من التجارب اليومية ، فإن المرأة التى يتخذ زوجها عليها خدينات تكون أسوأ حالا من التى يتخذ عليها زوجات شرعيات ، لأن الأخير يكون معتدا بأمر الزوجية ، وقابلا ما يتنى عليها من حقوق وواجبات ، ولكن الأول يكون عادة خالع العذار ، يجرى فى أعقاب شهواته راكبا رأسه لا يلوى على شىء ، فينفق أكثر دخله على اللائى خلبن عقله من بنات الهوى ، ويقتر على زوجته الشرعية تقتيرا يوقعها فى الإعواز . نعم إنه يعود فى النهاية إلى زوجته الأولى ، ولكن بعد أن يكون قد نضبت ثروته ، وتصوحت زهرته ، وفسد ما بينه وبينها من العلاقات .

وقد يقال : لا يتصور أن تخلص امرأة لرجل متزوج بغيرها ، فهى تعلم أنه يغشها ، وأنه ذو وجهين ولسانين الخ .

ولكن الواقع أن المرأة إذا رأت زوجها يعدل بينها وبين زوجته الأخرى ويسوى بينهما فى جميع حاجيات الحياة ولا يضن عليها بما يجب عليه أداؤه لها ، لاشك أنها تطمئن إليه وتخلص له وتعيش معه فى هناء وصفاء .

وبعد : فإن الذين يغمضون أعينهم عن العيوب التى تنطوى عليها حضارتهم يخيل إليهم أن ما هم فيه هو ما تدعو إليه المدنية فلا يطلبون عنه حولا ، ولكن التاريخ دلنا على أن الأمم إذا أوغلوا فى الإباحة معرضين عن الخلق الكريم ومبادىء الفضيلة فلابد أن تعصف بهم العواصف ، وتزل بهم قدم بعد ثبوتها ، وربما تأدوا من ذلك إلى الغلو والإغراق فى نقيض ما كانوا فيه من إباحة عامة .

إن المرأة فى المدنية الرومانية كانت قد بلغت إلى حد من الإباحة بحيث كانت تظهر عارية على المسارح العامة ، ونالت من السلطان على النفوس بحيث كانت تملى إرادتها على رجال الحكم ، فلما انقض صرخ تلك المدنية بسبب هذه الإباحة نفسها ، سلبت المرأة حريتها هذه ، وجردت حتى من حقوقها الطبيعية ، وعاشت أكثر

من ألف سنة فى أوروبا مقصورة على البيت ، ومزدراة إلى حد أن حرم عليها الضحك وأكل اللحم ، ووضع على فمها قفل حديدى يمنعها الكلام .

عود إلى القضية التى نحن بصددها :

المشكلة التى نحن بصددها تنحصر فى مسألة واحدة وهى : هل الأجدى على المجتمع أن يباح فيه تعدد الزوجات لصيانة حقوق النساء كافة ، لا المتزوجات منهن فحسب ، وقطع ذرائع العلاقات الخائنة التى تعدو على حوافظ الاجتماع فتسبب لكيانه الفساد ؟ أم أن يحرم التعدد مع ترك الباب مفتوحا لكل ضروب العلاقات الآثمة ، وما تجر إليه من فساد الأخلاق ، وتدهور الآداب ؟

لا أظن أن عاقلا غيورا على حياة مجتمعه يختار الحالة الثانية ، لأنه لا يرى فائدة من تحريم التعدد شرعا وإباحته عرفا ، وترك نتائجه السيئة تعبث بالنفوس والآداب ، حتى تكون سببا فى العودة إلى بربرية لا مفر منها ، كما حدث لأكبر امبراطورية فى الأرض وهى الامبراطورية الرومانية .

وقد يقول قائل : نمنع التعدد الشرعى والعرفى معا ، ونعمل على منع ذيوع العلاقات الآثمة بين الجنسين حتى لا تصبح خطرا على كيان الاجتماع .

نقول : هيهات هيهات ، فإن الميل للتوسع فى العلاقات الجنسية لدى كثير من الناس أمر لا يستطاع تداركه بغير الاعتراف به ، والاحتياط لنتائجه بوسائط مشروعة ، توسلا لضييق دائرته إلى أقصى حد ممكن . فإن أهمل أمره وترك طليقا من كل تقييد باسم القانون ، كسر كل سد يوضع أمامه ، وطغى حتى لا يمكن حصره فى حدود معقولة ، ولا دليل بعد الواقع المحسوس .

هذا هو الذى قصده الإسلام بإباحته التعدد شرعا ، ليتمكن من قطع الطريق عليه عرفا ، ومن السيطرة على كل ما تجر إليه فوضى الشهوات ، وطغيان الميول البهيمية .

أظننى قد وفيت الموضوع حقه من البيان ، فلأكتف بما قدمت ، والله ولى الهداية [*] .

(*) مجلة الأزهر : المجلد الخامس ، ص ٥٢٨ ، سنة ١٣٥٣ هـ .

الاسترقاق عند الأمم وفى الإسلام

بمناسبة مرور مائة عام على إبطال الاسترقاق

كان الاسترقاق شائعا بين الأمم قبل عهد الإسلام بألوف من السنين ، فكان قدماء الهنود والصينيين والمصريين والأشوريين والبابليين والفرس واليونانيين والرومانيين وغيرهم يتخذون الرقيق من أسرى الحروب ، كما يحصلون عليه بالشراء من أصحاب النخاسة ، وهم رجال ينبثون فى بعض الأصقاع يختطفون من يقع فى حبائلهم من النساء والبنات والغلمان ، بقصد الإتجار فيهم كالماشية سواء بسواء ؛ وكانوا يعرضون سلعهم البشرية فى الأسواق ، فيتردد عليها الراغبون يقلبون هذه المخلوقات التعسة الحظ ، ولا يدعون خفيا من جسمهم إلا فحصوه ، ثم يساومون مواليهم فى أثمان ما يقع اختيارهم عليه منهم ، فيعتملونهم كما يعتملون البهائم ، ويتحكمون فى حياتهم وموتهم ، غير خاشين رقيبا ولا حسيبا ، لا من ناحية الحكومة ولا من ناحية الرأى العام .

وكانت القوانين فى هذه الأمم تعطى السادة كل حق على أرقائهم حتى حق قتلهم ؛ فكان المماليك يجلدون ويعذبون لأقل هفوة ، وكثيرا ما كانوا يقتلون لأحقر الأسباب . وكان الناس يسيغون هذه القسوة لاعتقادهم أن الأرقاء ، وخاصة السود منهم ، ليسوا من الأسر البشرية . وقد اشترك الفلاسفة مع الدهماء فى احتقار الأرقاء حتى إن أفلاطون الفيلسوف اليونانى الكبير ، وتلميذه أرسطو الملقب بأمير الفلسفة ، قررا فى تعاليمهم أن العبيد يجب أن يحرموا من الحقوق المدنية .

وقد نقل التاريخ أن الشبان فى إسبارطا من الممالك اليونانية ، كانوا يمرنون على الفتك بالأعداء فى أشخاص العبيد ، فكانوا يوقفونهم جماعات جماعات ، عزلا من السلاح ، ويأمرون شبانهم بالهجوم عليهم والتنكيل بهم ، فكانوا يقومون بما يؤمرون به فتجرى دماء أولئك الأرقاء أنهارا ، بلا داعية معقولة غير تعويد الشبان على سفك الدماء ، والتنكيل بالأعداء .

وروى أن بعض براطرة الرومانيين كان له فرقة موسيقية من المماليك ، فارتأى أن يتر سواعد الضاربين على الآلة المسماه بالترومبيتا ، وأن تربط مضاربها فى أعضادهم لكيلا يتكلفوا ثَنْى أذرعتهم وهم يضربون عليها .

وكان نساء اليونانيين والرومانيين فى ذلك العهد محجبات ، فكان الرجال يتخذون الخصيان لخدمتهن ، وكانت تزهق أرواح الألوف المؤلفة من الأطفال الذين يعدونهم لهذه الخدمة بتأثير هذا العمل الجراحى الخطير الذى كان يزاوله رجال ليس لهم أقل علم بالجراحة وتضميد الجروح .

ولما جاءت الديانتان اليهودية والنصرانية تركت الاسترقاق على ما كان عليه ، فبقى أتباعهما عاملين به إلى نحو منتصف القرن التاسع عشر .

ولما اكتشف الأوربيون أمريكا واستعمروها ، وجدوا أنه تعوزهم الأيدى العاملة وخاصة بفلاحة الأرض ، وحفر المناجم ، فكانوا يرسلون بسفنهم إلى شواطىء أفريقا فيشحنونها بمئات من الزنوج ويعودون بها إلى أمريكا ، فيموت من هؤلاء السود من يموت فى الطريق ، فيلقون بهم فى اليم ، ويعتملون من بقى منهم فى أشق الأعمال وأشدها إرهاقا فى مقابل تغذيتهم وإيوائهم ليس إلا . أما العناية بصحتهم والاهتمام بتثقيف عقولهم ، وإعدادهم للحياة الصحيحة ، فكان لا يفكر فيه إنسان ، لأن الدهماء كانوا يعدونهم أحط من البيض من كل الوجوه . من هنا كثر السود فى أمريكا حتى ليبلغ عددهم هنالك اليوم نحو عشرين مليونا غير الذين هاجروا منهم إلى أفريقا منذ أعلن تحريرهم ، وأسسوا لهم مملكة فى شمال غينا الشمالية باسم جمهورية ليبريا ، تحت حماية انجلترا ، لا تزال قائمة إلى اليوم .

ولما جاء الإسلام نظر فيما نظر فيه من أمر العالم فى حالة الأرقاء ، فلم يرمن الحكمة إبطال الاسترقاق طفرة ، ولكنه أحدث انقلابا خطيرا لم يحدث ما يشبهه ولا ما يقرب منه على يد أى مصلح عظيم ، فقرر أن المماليك إخوان لمواليهم لهم عليهم حقوق الأخوة ، فقال عليه الصلاة السلام : « إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ولو شاء لجعلكم تحت أيديهم » . لذلك منع النبى ﷺ أن يقول أحدهم : عبدى وأَمَتى فقال : « لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ، ولكن ليقل فتاى وفتاتى » .

هذا تجديد فى أمر الاسترقاق لم يكن يخطر على بال إنسان فى الأرض قبل الإسلام ، وهو حد فاصل بين القسوة الجامحة وبين مخلوقات بريئة أوقعها نكد طالعها فى الأسر وليس لها غير الله من ملجأ تلجأ إليه .

ولم يقف الإسلام من عنايته بالرقيق عند هذا الحد الأدبى ، ولكنه تعداه إلى أقصى حدوده المادية ، فلم يغفل طعامه وشرابه وكسوته ، فأراد أن يساوى فيها سادته فقال ﷺ : « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم : أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون » الحديث . وقال ﷺ : « إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه وليأكل معه ، فإن لم يفعل فليناوله لقمة » وفى رواية أخرى : « إذا كفى أحدَكم مملوكُه صنعة طعامه ، فكفاه حره ومؤنته وقربه إليه ، فليجلسه وليأكل معه ، فإن لم يفعل فليناوله ، أو ليأخذ أكلة فليروِّغها (أى فليشبِّعها بالدسم) وأشار بيده ، وليضعها فى يده وليقل كُلْ هذه » .

هذا ما لم يسمع به أحد قبل الإسلام ، فإن الناس كانوا يتخذون الأرقاء تعظما وتكبرا ، فإذا أكلوا وقفوهم أمام موائدهم للخدمة ، فيصيب سادتهم من أطايب الأطعمة ويتركون لهم نفايتها . وكانوا من ناحية اللباس يختصون بأرقها وأثمنها ، ولا يسمحون لمماليكهم إلا بأخشنها وأرخصها . من أحسن ما يروى فيما يتعلق باللباس أن عليا كرم الله وجهه أعطى غلامه دراهم ليشترى بها ثوبين متفاوتى القيمة ، فلما أحضرهما له أعطاه أرقهما نسيجا وأغلاهما قيمة ، وحفظ لنفسه الآخر ، وقال له : أنت أحق منى بأجودهما ، لأنك شاب وتميل نفسك للتجمل ، أما أنا فقد كبرت ويكفينى هذا .

أما من ناحية الاعتمال فقد أوصى النبى ﷺ أن لا يكلف الأرقاء ما لا يطيقون ، فقال من حديث فى حقهم : « ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فما أحببتم فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله ، فإن الله ملككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم » وقال ﷺ : « للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق » .

وكان عمر رضى الله عنه يذهب إلى العوالى فى كل يوم سبت فإذا وجد عبدا فى عمل لا يطيقه وضع عنه منه .

ويروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه رأى رجلا على دابته وغلامه يسعى خلفه ، فقال له : يا عبد الله احمله خلفك ، فإنما هو أخوك روحه مثل روحك ، فحمله . ثم قال أبو هريرة : لا يزال العبد يزداد من الله بعدا ما مُشى خلفه .

ولما استدعى عمر أمير المؤمنين إلى الشام ليمضى صلحا فى بعض بلادها كما اشترط أهلها ، كان يتناوب فى الركوب بينه وبين غلامه ، فلما قربوا من المدينة كان الدور فى الركوب للغلام ، فانتهى عمر إلى معسكره وهو يمشى وعبده راكب .

وأما من ناحية الإحسان إلى المملوكين والتلطف فى معاملتهم ، فإن الإسلام قد شدد فى ضرورة ذلك تخفيفا لحالة العبودية على العبيد ، فقال النبى ﷺ : « من ضرب غلاما له فكفارته عتقه » .

وقال عبد الله بن عمر : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله كم نعفو عن الخادم ؟ فصمت عنه رسول الله ، ثم قال : اعف عنه فى كل يوم سبعين مرة » .

وقال الزهرى من أئمة الحديث : متى قلت للمملوك أخزاك الله فهو حر .

وعن أبى مسعود الأنصارى قال : « بينا أنا أضرب غلاما لى إذ سمعت صوتا من خلفى : اعلم ياأبا مسعود – مرتين – فالتفت فإذا رسول الله ﷺ ، فألقيت السوط من يدى ، فقال : واللهِ للهُ أقدر عليك منك على هذا » .

ودخل رجل على سلمان رضى الله عنه فوجده يعجن ، فقال له : يا أبا عبد الله ، ما هذا ؟ فقال : بعثنا الخادم فى شغل فكرهنا أن نجمع عليه عملين .

وقال النبى ﷺ : « من كانت عنده جارية فصانها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها ، فذلك له أجران » .

من أعجب وأعظم ما يذكر فى هذا الموطن أن الإسلام قرر أن الأرقاء يثابون على الطيبات فى الآخرة ضعف ثواب الأحرار ، ويعاقبون على جرائمهم فى الدنيا بنصف عقابهم . فخل هذا جانبا وانظر إلى ما كان يعاقب به الأرقاء على أصغر الهفوات بنصوص القوانين الوضعية .

أما الحياة الآخرة فقد كان ميئوسا منها بالنسبة لهم ، لأنهم كانوا يعتبرون مجردين من الأرواح البشرية !

ولقد حبب الإسلام فى العتق إلى حد لم يعهد له مثيل فى الأمم ، فجعل العتق جزاء فى الكفارات عن كثير من الآثام ، وحض عليه فى أحاديث كثيرة ، وسهل على المملوكين سبيل الحرية بواسطة المكاتبة ، وهى أن يكاتب المولى عبده على مال يؤديه إليه فى مقابل عتقه ، فينصرف للعمل والكد حتى يؤدى لسيِّده ذلك المال فيصبح حرا . ومن شدة رغبة الإسلام فى العتق أن جعل الله جزءاً من مال الزكاة ينفق على مساعدة الأرقاء على الخلاص من أسرهم بإمداد المكاتبين بالمال لتوفية ما عليهم .

ومن أجلّ وأكبر ما نذكره من آيات الإسلام أنه لم يوصد باب العلم فى وجه عبد بحجة عبوديته ، ولكن تركت له حرية التعلم والتبحر حتى وصل عدد كبير منهم إلى درجة الإمامة ، كبلال مولى أبى بكر ، وسالم مولى أبى حذيفة ، ونافع مولى عبد الله بن عمر ، وتولى كثير منهم الخطط الهامة فى القيادة والإدارة ، فولى رسول الله ﷺ بلالا المدينة ، وولى أسامة بن زيد مولاه قيادة جيش فيه أبو بكر وعمر .

وقد جرى المسلمون على هذه السنة ، فاتفق أن كان جميع الأئمة فى الأقطار الإسلامية فى القرن الأول من الموالى إلا واحدا . قال العلامة السخاوى فى شرح ألفية الحديث للعراقى : « إن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى قال للزهرى إمام الحديث يوما : « من يسود أهل مكة ؟ فقال الزهرى : عطاء . قال هشام : بم سادهم ؟ فقال الزهرى : سادهم بالديانة والرواية . فقال هشام : نعم : من كان ذا ديانة حقت الرياسة له ، ثم سأله الخليفة عن اليمن ، فقال الزهرى : إمامها طاووس ، وكذلك سأل عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة ، فأخذ الزهرى يعد له سادات هذه البلاد ، وكلما سمى له رجلا كان هشام يسأله أهو عربى أم مولى ؟ فكان الزهرى يقول : مولى (أى أصله مملوك أو ابن مملوك) إلى أن أتى على ذكر النخعى فقال : إنه عربى . فقال هشام : الآن فرجت عنى ، والله ليسودن الموالى العرب ويخطب لهم على المنابر » .

هذه آيات إسلامية تأخذ باللب والقلب معا ، وتدل فى جملتها وتفصيلها على أن الإسلام كان يعطى الحق لأهله بصرف النظر عن ألوانهم وجنسياتهم ، عملا بقول النبى ﷺ : « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح » وجرى المسلمون على هذه الطريقة ، فلم يحرموا العبيد من تولى أرق المناصب ، وقد اتفق أن تولى بعضهم الملك أيضا .

قلنا فى أول هذه المقالة : إن الإسلام أقر الاسترقاق كما أقرته جميع الأديان ، ولكنه امتاز عنها بحصر وسائله فى دائرة واحدة معقولة هى دائرة الحرب الشرعية ، أما بقية وسائله التى يجمعها اسم النخاسة فقد أبطلها وعفى على أثرها ، فلا يحل لمسلم أن يشترى إنسانا اختطفه النخاسون من بين أحضان أبويه . فكان الإسلام بذلك أول من قضى على النخاسة قبل أن يفكر فى ذلك الأوربيون بنحو ألف ومائتى سنة . فلم يبق للاسترقاق إلا هذه الدائرة وهى قابلة للضيق ، بل وللزوال أيضا على حسب الأحوال ، فقد تقل الحروب لعدم ما يقتضيها ، وقد تزول بتاتا إذا نجحت الجهود التى تبذل لاتقائها ، وربط الدول والأمم بميثاق الألفة والتعاون .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [(١)] .

وإذا فرضنا أن أمنية السلم العام لم تتحقق ووقعت حرب كان من نتائجها دخول المحاربين أسرى في يد المسلمين ، فإن لإمام المسلمين أن يمن على الأسرى فيهبهم لأنفسهم ويطلق سراحهم بدون أى مقابل سوى ابتغاء مرضاة الله تعالى .

وعندما دعت إحدى الدول فى سنة ١٨٣٤ إلى عقد اتفاق عام بإبطال الاسترقاق كانت الدول الإسلامية على اختلاف جنسياتها أوّل الملبين لإجابة هذه الدعوة ، لأن دينها الإسلام يسعى إلى تحرير الرقيق ، بل يجعله من القربات التى يتقرب بها المسلم إلى ربه .

---

(١) سورة الأنفال : ٦١ .

هذه صفحة مجيدة من صفحات الإسلام تتمثل فيها أصول إسلامية هى أعجب ما وصل إلى علم البشر منذ خلقهم الله إلى اليوم . وأى شىء أعجب وأدل على إلهية هذا الدين من إحاطته الأرقاء وهم أضعف طوائف البشر وأحقرها فى العرف العام بهذه الحماية التى لم يسمع بمثلها فى الأرض ، وتخويله إياهم حقوقا على سادتهم ما كان يحلم بها الأحرار أنفسهم فى العهود الخالية ؟ (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الخامس ، ص ٣٢٩ ، سنة ١٣٥٣ هـ .



الأخـلاق

اختلف الناظرون قديما وحديثا فيما تناولوه من مباحث ومسائل ؛ واتسعت شقة الخلاف بينهم فيها نفيا وإثباتا ، ووجوبا وجوازا ، وإطلاقا وتقييدا ، إلا فى الأخلاق ، فقد اتفقت كلمتهم على وجوبها للفرد لصالح نفسه وللمجتمع فى جملته ، لا باعتبار أنها حلية أدبية ، ولكن باعتبار أنها ضرورة حيوية لا تستقيم حياة فردية ولا اجتماعية إلا بها . فكما أن الفرد يضيره ويفسد من أعماله أن يكون كاذبا مرائيا حسودا شريرا ماكرا ، كذلك تضر المجتمعات شيوع هذه الصفات فى آحادها ، لأن هذه الصفات المنكرة كما تصد هؤلاء الآحاد عن النجاح فى معاملاتهم ، تحول بينهم وبين التماسك فيما بينهم لتأليف اجتماع قوى مترابط الأجزاء لا تتسرب إليه المحللات العارضة .

لهذا السبب كان أول ما توجهت إليه عناية الفلاسفة والمشترعين والعاملين على إنهاض الجماعات البشرية ، الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة ، باذلين فى سبيل دعمها ، وتقوية أسسها أقصى جهودهم ، لأنها هى القوى الأدبية التى تربط الآحاد ، وتجعل منهم مجموعا متجانسا يصلح للحياة بين الجماعات المماثلة له ، ويقوى على منازعتها الحياة كما تنازعه هى إياها بقوى متعادلة ، فلم يبالغ الفيلسوف (شاتوبريان) حين قال : « الأخلاق أساس كل مجتمع » .

أما الإسلام فقد جعل للأخلاق المكان الأرفع من عنايته لكل الاعتبارات المتقدمة ، ولاعتبار آخر أعلى منها قدرا ، وأعم أثرا ، وهو إعداد النفس البشرية لقبول الإشراقات العلوية ، وتكييفها لتستطيع الاضطلاع بالمُهمة التى ناطها الإسلام بكل مسلم فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [1] أى شهداء على الناس فى غلوهم أو

---

(١) سورة البقرة : ١٤٣ .

تقصيرهم ، فى تعقلهم أو تقليدهم ، فى استقامتهم أو انحرافهم ، ويكون الرسول عليكم شهيدا ، أى فى قيامكم على الصراط السوى ، وفى التخلق بأخلاق الله ، والعمل بمحابّه ، وتجنب مكارهه ، وفى دعوة الناس إلى المعروف ونهيهم عن المنكر .

وضع الإسلام الأخلاق فى مستوى لم تضعها فيه أية فلسفة فى الأرض على شدة عنايتها بها ، وتباريها فى الإشادة بذكرها ، فقال النبى ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » والمفهوم من هذا الحصر ببداهة النظر أن الإسلام يعتبر مكارم الأخلاق غاية للدين الحق ، وثمرة لوسائله المختلفة ، ولا يعقل أنه يمكن وضع مكارم الأخلاق فى مكانة أسمى من هذه المكانة .

وقد بنى الإسلام كل ما ندب إليه من الآداب على هذا الأصل . قال الفضيل : « قيل لرسول الله ﷺ : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل ، وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها ، قال : « لا خير فيها هى من أهل النار » .

لم يكتف الإسلام بمجرد الدعوة إلى حسن الخلق ، فعمد إلى وسيلتين فعالتين من وسائل حياطة أهله من فساد الأخلاق فجعلهما من أهم أصوله : (أولهما) تحريمه الينابيع الثلاثة للشرور ، وهى الخمر والميسر والزنا ، تحريما لا هوادة فيه . و(ثانيهما) إيجابه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إيجابا لا هوادة فيه .

فأما الخمر فإنها بسلبها عقل شاربها تدفعه لكل ضروب المنكرات ، إلى حد أنه قد يقتل نفسه أو يقتل غيره ، وتهيئه بالإدمان عليها لكل ضروب الاستهانة بالفضائل النفسية ، فتحريمها على الناس يدفع عنهم كل ما يأتى من قبلها ، ويحفظ عليهم اتزانهم العقلى الذى يفرقون به بين الحسن والقبيح ، وبين الفضيلة والرذيلة ، وأثر ذلك فى تقويم أخلاقهم لا يقف عند حد .

وأما الميسر فهو فضلا عن أنه رذيلة من أكبر الرذائل لابتنائه على سلب مال الغير بغير حق ، يفضى إلى التخلق بالغش والتدليس والمهاترة وغرس الغل والحقد والبغضاء فى النفوس ، حتى ليفضى بعض هذا إلى إراقة الدماء ، وكل ذلك يقدح فى الكمال الذى أمر المسلم بجعله نصب عينيه ، وبالاتجاه فى كل محاولاته إليه .

وأما الزنا فهو ذريعة للالتياث بأخلاق السفلة الرعاع من العدوان على

الأعراض والأنساب ، والتذرع بسفاسف الصفات من التحايل والتخفى وإفساد النفوس بالمغريات من المال أو الوعود الكاذبة ، وجميع هذه الوسائل تمحق المروءة ، وتدس بصاحبها فى حمأة الخسران .

وأما الوسيلة الثانية وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقد شدد فيها الإسلام كل التشديد فقال : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) . وقال فى حق أمة هالكة : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٢) جعل عدم تناهيهم عن المنكرات التى يقترفها شرارهم سببا لهلاكهم ، وزاد على ذلك تشنيعا على إهمالهم هذا الأصل ، فقال النبى ﷺ : « لتأمُرنّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم فتنا كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيرانا » .

وزاد الإسلام على هذا الأصل الكريم نظاما تكافليا فجعل آحاد الأمة قوّاما بعضهم على بعض ، فقرر أنه لا يحل لمسلم أن يرى منكرا فيهز كتفيه ويمضى فى سبيله ، ولكنه أمر أن يبذل قصارى جهده فى معالجته ، فقال ﷺ : « من رأى منكم المنكر فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الإيمان » . وقال : « الدين النصيحة . فقيل : لمن يارسول الله ؟ قال : لله ورسوله ولعامة المسلمين وخاصتهم » . فالنصيحة لله بالقيام بما أمر به ، والانتهاء عما نهى عنه ، والنصيحة لرسوله باتباع سنته ، وتأييد شريعته ، والنصيحة لعامة المسلمين وخاصتهم بتنبيههم إلى محاب الله ومكارهه ، والإهابة بهم إلى سبيله .

هذا النظام التكافلى الذى انفرد به الإسلام من أكفل النظم لحماية الأخلاق فى الأمم ، وأفعلها فى تطهير نفوسها من الرذائل .

هنا قد يعترض علينا بعض الناس بأن هذا النظام ينافى الحرية الشخصية ، ونرد عليه بأن الحرية الشخصية لا يصح أن يكون لها احترام إلا فى الأمور المباحة التى لا يعود منها ضرر على المجتمع ، والإسلام قد أباح لكل إنسان أن يستعمل حقه الطبيعى فى كل ما لا ينافى القانون العام ، وما لا يجافى ناموس الأخلاق ،

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٤ .

(٢) سورة المائدة : ٧٩ .

أما فيما عدا ذلك مما تحرمة الشريعة ، وينكره العقل ، ويفسد الآداب العامة ، ويضر بكيان المجتمع فإن الإسلام يحظره حظراً لا هوادة فيه ، ويجعل لكل فرد من أفراده حق إنكاره وإزالته بكل وسيلة يراها أصلح للقيام بواجبه حياله . فإن استطاع أن يزيله بنفسه فعل ، وإلا رفع أمره إلى ولاة الأمور ليتولوا أمر إزالته بما لديهم من وسائل القمع . فهل من الحرية الشخصية الموافقة لمصلحة المجتمع أن يفتتح أحد الناس ماخورا يحشر إليه النسوة الساقطات ، ويسهل على الفساق ارتكاب الفحشاء ؟ وهل منها أن يتخذ حانوتا لبيع الخمر وأن يسقى الناس منها على مرأى من الناس لإزهاق عقول المولعين باحتسائها ؟ وهل منها أن يؤسس بعض أهل البطالة محلا للمقامرة لاستنزاف ثروة الناس ، أو للإتيان على ما فى أيديهم فى سبيل اللعب ؟ .

إن قال المعترض : نعم ، لم نكلف أنفسنا الرد عليه ؛ وإن قال : لا ، قلنا : أفلا يكون من مصلحة الأمة إزالة هذه المنكرات لاتقاء ما تجر إليه من البلايا والويلات ؟

وغير هذه المنكرات أمور تنافى الآداب ، وتجرح الأخلاق ، يتخيلها الإباحيون من الصغائر وهى تجر إلى أكبر الكبائر ، وأفدح المحظورات ، كمعاكسة الغاديات والرائحات من النساء ، والرقص الخليع على مرأى من الناس الخ الخ ، فأية حرية شخصية تبيح هذه الموبقات ولها من النتائج ما تتقزز منه النفوس السليمة ؟ .

فالنظام التكافلى الذى اختص به الإسلام ينفى جميع هذه المفاسد دون أن تحتاج الحكومة إلى شرطة وجلاوزة لمراقبته ، وكف أهل البطالة عنه . وعمل الإسلام هذا فضلا عن أنه لا ينافى نظم الحكومة الرشيدة يوافق ما هدى إليه علم الاجتماع ، ودلت عليه أطوار المجتمعات .

قرر علم الاجتماع أن مجموع الأمة كالجسد الحى ، وأن آحادها فيه كالخلايا المكونة لمجموعه ، وأن بين الآحاد ترابطا طبيعيا يشبه ترابط تلك الخلايا بعضها ببعض ، وأن فساد بعضها أو مرضه يؤثر فى مجموعها بنسبة ذلك الفساد أو المرض ، فإذا كان هذا علما مقررا فكيف يصح للآحاد وهم الخلايا المترابطة المتكافلة فى بنية الاجتماع أن يغضوا ، وهم عقلاء مدركون ، عما يصيب شركاءهم فى ذلك الاجتماع وهم مرتبطون بهم أدق ارتباط ، وأثر تركهم وشأنهم تقع ويلاته عليهم أجمعين ، ولا تخص جماعة منهم دون آخرين ؟

أليس المنطق الاجتماعى يقضى بأن تحرص خلايا الاجتماع على صحتها وقوتها حتى لا يكون فساد بعضها وضعفه سببا فى اختلال كيانها العام ، وإصابته من جراء ذلك بالأمراض التى يعجز عنها نطس الأساة كما هو الشأن فى المجتمعات الراهنة حتى الآخذة منها بأوفر حظ من المدنية والثقافة ؟

أليس ما تشكو منه الأمم اليوم من اضطراب الأحوال وتفاقم العلل ، والتواء أمرها على القادة والهداة ، كل ذلك من أسباب تركهم الخلايا الفاسدة تعمل فى بنية مجموعهم ، ويستشرى مرضها فيها ؟

كل هذه الأسرار التى كشفها علم الاجتماع ، قد أوجزها الكتاب الكريم فى آية يجب أن تكتب بحروف من نور على صفحة الوجود ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [1] . فإذا كان عبث العابثين بمبادىء الأخلاق لا تقتصر مضاره عليهم بل سيصيبنى منها شىء ، فكيف أغضى الطرف عنهم ، وأدعهم وشأنهم يأتون ضروب المنكرات ، ولا أحاول أن أصرفهم عنها بكل الوسائل الممكنة ؟

فهل إذا جد الجد وحلت الفتن بالمجتمع ، وأصبح الناس حيارى لا يعرفون وجه الخلاص منها ، ودفعتهم الكوارث لمواجهة أخطر الانقلابات ، نقول : إن حدث ذلك أيشفع لنا وللبريئين من أمثالنا أن نقول إنا لم نقترف من هذا شيئا وإنما تركنا غيرنا يعمل ما يشاء احتراما لمبدأ الحرية الشخصية ؟

أية حرية مشئومة هذه التى تدفع بالآحاد والجماعات فى تيهور الفتن المتأججة ، ويحاط العابثون بها بحماية النظم الموضوعة ، فلا يملك أحد أن يقفهم عند حد من تهورهم ؟

فعلى الذين يدافعون عن مبدأ الحرية الشخصية بمعنى الإباحة العامة أن يثبتوا لنا أن عدوان الأفراد على الأخلاق والآداب والتقاليد المقررة لا يؤثر على بنية الاجتماع

---

(١) سورة الأنفال : ٢٥ .

خلافا لما نصت عليه العلوم الاجتماعية ، فإن عجزوا فليدلوا لنا بعلم يدلنا على أن ذلك العدوان أجدى على الجماعات من منعه ، فإن أعيوا فعليهم تبعة ما يجنون على أنفسهم وعلى مجتمعاتهم والله من ورائهم محيط .

أما نحن ففى أيدينا الدليل العلمى القاطع على أن ما قرره الإسلام وانفرد به من هذا النظام التكافلى العام ، هو خير ما تصان به المجتمعات من النصب ، وأنه سيكون فى يوم من الأيام معاذا لجميع الحكومات من شرور الآثام التى يرتكبها الأفراد ، ويكون ذلك مصداقا لما قاله الفيلسوف (برناردشو) الانجليزى : إنه لا يشفى أوروبا من عللها غير الأخذ بالإسلام .

فعلى المسلمين فى جميع بقاع الأرض أن يستنوا سنة الإسلام فى مكافحة ما اعترى جماعاتهم من الأدواء القاتلة ، وليس لهم أن يقلدوا الغربيين فيما لا يسمح به منطق ، ولا يستقيم عليه حال ، فإن دينهم يحثهم على الأخذ بالأحسن ، لا على الأخذ عن غيرهم بدون علم ولا هدى ولا كتاب منير .

إن هذا القرآن الذى بين أيدينا يكفل لنا سعادة الحياتين ، فيؤاتينا بالأصول ويسندها بالدلائل القاطعة ، ويدعونا للنظر فيها وتعقلها والأخذ بها على بصيرة ، فيقول تعالى : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) ويقول : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (٢) وأى قول أصدق من هذا وقد أيده العلم والمنطق السليم ؟ (*) .

* * *

(١) سورة يوسف : ١٠٨ .

(٢) سورة الإسراء : ٩ .

(*) مجلة الأزهر : المجلد الخامس ، ص : ٤١٤ ، سنة ١٣٥٣ هـ .

الماديون وأصول الأخلاق

ينكر الماديون وجود الخير المطلق ، زاعمين أن الخير والشر أمران نسبيّان ، فما ينفع الإنسان يسميه خيرا ، وما يضره يسميه شرا . ويبتنى على هذا أن ليس للأخلاق أصول أولية أوجدها الخالق وطبع الناس على الأخذ بها فى أعمالهم وتصرفاتهم ، وإنما هى المصالح الوقتية تحتم عليهم اتباع هذه الخطة أو تلك ، تبعا لما تقتضيه تلك المصالح نفسها منهم .

وهم فى هذا الشطط إنما يصدرون عن فلسفتهم المادية ، إذ يزعمون أن الإنسان حيوان ، لا فرق بينه وبين غيره من الحيوانات إلا فى كمال جثمانه ، وفى قبوله للترقى ، لقيامه على تركيب يسمح له بذلك . وهو مثل سائر الحيوان ليس له روح تخلد فى حياة بعد هذه الحياة الأرضية . وكل ما عزاه الإنسان لنفسه من الخصائص الروحية والعقلية ، ومن الاتصال بعالم أعلى من هذا العالم ، إنما هو شىء زينه له الهوى والخيال ، وأرسخه فى ذهنه الوهم والضلال .

رأس الماديين المعاصرين (بوخنر) الفيلسوف الألمانى الذى توفى سنة ١٨٩٩ قد حشر فى كتابه المسمى (القوة والمادة) جميع الأصول المادية ، وبالغ فى دعمها بما زعمه من المقررات العلمية ، حتى سمى أشياعُه هذا الكتاب بالكتاب المقدس للمادية .

ادعى هذا الفيلسوف فى كتابه أن ما يسمى بالناموس الأدبى خيال محض ، واتّهم الروحيين من الفلاسفة بأنهم سريعو الانخداع بالقشور ، فعاب عليهم ادعاءهم وجود خير مطلق ، زاعما أنه ليس فى الوجود أصل أدبى مقرر ، فقال :

« إن المبادىء الأدبية ثمرة التربية ، وهى تترقى وتتهذب على طول الزمان حتى لدى الأمم المتمدنة ، والوجدان الأدبى مثل الوجدان الدينى من مبتكرات قادة الأديان الذين يدعون أنهم يصدرون عن الله مباشرة ، فما الوجدان الأدبى فى حقيقته

إلا الاعتقاد بوجوب أعمال محدودة اعتبرتها الهيئة الاجتماعية أصولاً لا يجب الأخذ بها لضرورتها لها ليس إلا ».

هذا ما قاله بوخنر ، ولكن التحقيق أن للصفات السامية أصولا إلهية يجب البحث عنها من طريقها ، وقد ألهم الله الإنسان أن يعيش فى هيئة اجتماعية من بنى نوعه . ولما كانت الحياة المشتركة لا تقوم إلا على أصول من العدل والأخلاق والآداب ، أوحى الله إلى الإنسان الأول التمسك بها ، وتتابعت الأديان السماوية على حض الناس على التقرب من مُثُلها العليا ، على قدر ما تمكنهم من ذلك الوسائل العلمية والأدبية .

ولكن بوخنر ينكر كل هذا ويزعم أن ليس هذا الوجدان الأدبى بفطرى فى النفس البشرية ، وإنما هو مجموع عادات أوجبها على الشخص المكان الذى يعيش فيه ، وأرسخها فيه شعوره بوجوب تطبيق أعماله على الحاجات الاجتماعية . فالخير عنده ليس له أصل قديم ثابت وإنما هو الخلق الذى ينطبق على حاجة النوع الإنسانى أيًا كانت طبيعته .

وعليه فقد يعتبر الشر فى زعمه خيرا والعكس بالعكس . فالمجرم الذى يعاقب على جنايته ليس هو بجان فى الحقيقة كما يقول ، فلئن عاقبته الهيئة الاجتماعية فإنما تعاقبه لأن ما فعله خطر على نظامها الحيوى ، وهى لها الحق فى معاقبته ، لأن مصلحة الجماعة فوق مصلحة الفرد .

ثم تصدى بوخنر للحرية الإنسانية التى اعتبرها العلماء الروحيون مبدأ للاختيار والإرادة ، فهدمها قائلا : إنها وهم باطل ، فإن الإنسان فى ذاته حادث طبيعى محكوم بالطبيعة التى كوّنته ، وبالمناخ الذى نشّأه ، وبالبيئة التى ربّته ، وبالجنس الذى نسله ، وبالتربية التى غُرست فيه من صغره .

يرى القارئ مما مر أن الماديين يجعلون الحاجة الاجتماعية أصلا لسائر الأصول الأدبية والاجتماعية ، وأن هذه الأصول لا أصل لها لا فى فطرة الإنسان ، ولا فى الخارج .

وقد قالوا : إن الحاجات الانسانية هى : (أولا) حاجات مخية . (ثانيا) حاجات قلبية . (ثالثا) حاجات حسية . (رابعا) حاجات غذائية ، مرتبة هذا الترتيب . والذى يدعو إلى اعتبار الحاجات المخية فى المقدمة كونها أرقى مما يليها ، والذى يليها أرقى مما بعده ، إلى الحاجات الغذائية التى هى دون جميع الحاجات ، إذ يشترك فيها أدنى النباتات مع الإنسان .

وقالوا : على هذه الحاجات قامت حياة الإنسان فى كل جيل ، ونشأ منها جميع ما يتشدق الإنسان به (فى زعمهم) من الألفاظ الضخمة والعبارات الطنانة ، مع أنها لا تعلو عن الحاجات الحيوانية فى كبير شىء .

ونحن لأجل الرد على هذه الشبهات نقول :

مما لا يستطيع بوخنر نكرانه بوجه من الوجوه ، أن فى الكون نظاما ثابتا لا يتغير بتغير الأزمان ، ولا يتحول بتحول الإنسان . هذا أصل تعترف به كل فلسفة فى العالم . ذلك النظام مشاهد محسوس ، عليه بنيت جميع العلوم ، وبينه وبين الإنسان ارتباط من جميع الوجوه ، بل الإنسان لا يستطيع الافتكاك عن هذا النظام لأنه جزء من أجزاء الكون . وقد اكتشف الإنسان فيما وقع عليه بصره من هذا الكون علاقات بين الحوادث والظواهر سماها نواميس طبيعية ، وتتبعها فى الحوادث المشابهة فوجدها ثابتة لا تتغير .

فوجود هذا النظام الكونى البديع ، وتلك النواميس الطبيعية الحكيمة ، حقيقة ثابتة لم نسمع بمن حاول نقضها قديما ولا حديثا حتى الماديين أنفسهم .

ثم إنه مما لا يستطيع أن ينكره منكر أن الإنسان امتاز عن جميع الكائنات المحسوسة بأنه كائن عاقل مدرك ، عَقَل أن له وجودا خاصا ، وأدرك أن فى الوجود العام الذى يعيش فيه نظاما له نواميس مقررة لا يحيد عنها إلا بإرادة عليا من مبدعه .

وإن الإنسان فكّر وتدبر ، وقاس حاضره على ماضيه ، وقارن بين حوادثه المختلفة ، فأدرك بعد انتهائه إلى درجة عالية من العقل أن كمال حياته مرتبط بكمال إدراكه لتلك القوة الحافظة للنظام الكونى . وتاريخ الفلسفة حافل بكل هذه المحاولات فى خلال العصور .

ولقد أدرك الإنسان أنه لم يمتز على سائر الكائنات بالعقل إلا لأنه خلق لإدراك غاية لا يدركها سواه من سكان هذا العالم ، وأنه سوف يحقق لنفسه بها كمالاً يسيطر به على الطبيعة نفسها ، فيستخدم قواها لمصلحته ومصلحة ما يحيط به . هذا ما أجمع الفلاسفة على القول به ، وهو ما يسميه الإسلام بخلافة الله فى الأرض .

ترقى الإنسان فى العلم والشعور فرأى فى الكون دلائل ناطقة على العناية الإلهية بالكائنات ، وعلى وجود قوى لا يدرك كنهها دائبة على تربيتها وتكميلها ، وعوامل خصصت لترقيتها وتهذيبها ، فهو أينما يوجه وجهه لا يرى إلا آثار تلك العناية ، ودلائل هاتيك القوى ، وهذا ما يسميه علماء الكون بناموس الارتقاء العام .

وقد تعمق الإنسان فى البحث عن هذه القوى الدائبة على ترقية الكائنات وتكميلها فوجدها فيضا دافقا من مدبر حكيم لا يحيط به عقله ، ولا يستوعبه ذهنه ، إذ وجد فيها نظاما لا يتطرق الخلل إليه ، وإحكاما لا يجوز الخبط عليه ، وعدلاً لا تفلت منه الذَرّة ، وعناية نشرت رواقها على كل كائن ، فعاش فى ظلها ما لا يحتمل اللمس ضعفا ، كما عاش ما يرجّ الأرض بمشيته قوة ، إذ أمدت ذلك الضعيف بما به قيامه وبقاؤه ، وألهمته ما يدافع به عن نفسه ويحفظ نوعه .

أدرك الإنسان كل هذا وعقله ، وأعجب به وأشاد بذكره ، ولم يتخلف الماديون عن غيرهم فى هذا المجال ، فوضعوا المطولات فى سرد بدائع الطبيعة ، والنظام السائد فيها ، والترابط المحكم بين أجزائها ، ووقف الإنسان أيضا بصورة إجمالية على بعض ما فى الكون من تقدير وتدبير وقصد ومراعاة للأصلح .

وهل كل هذه الصفات الفائضة على الكون إلا أصول سامية قامت عليها السموات والأرض ، وانتظمت بها عوالمها حتى بهرت ظواهرها العقل ؟ وهل هى إلا خير محض ، وجمال بحت ، وكمال لا يقف جلاله عند حد ؟

فكيف يسوغ لفيلسوف بعد هذا أن يقول : إنه ليس فى الكون أصول أدبية ، وإن الخير والشر أمران نسبيان ، فما ينفع الإنسان سماه خيرا وما يضره سماه شرا ، والواقع أن الشر كل ما خالف نظام الوجود وآدابه ، والخير كل ما وافقه وساير نظامه ، والإنسان مدفوع لمحاكاة الطبيعة فى آدابها ونظامها ، فكلما بلغ من ذلك

حدا قلّ شره على نسبته ، فلا يزال يتحراه ويقتاس به حتى يصبح رجلا كاملا متخلقا بأخلاق مبدعه الظاهرة فى مصنوعاته ، الواضحة فى أعلامه ، التى نصبها لمن يعقلها من كائناته ؟

كيف يزعم زاعم أن العدل والظلم يستويان ، وأن القسوة والرحمة يتعادلان ، وأن الجهل والحكمة يتوازيان ؟ وهلا يرى أن النوع البشرى مدفوع إلى الأخذ بالصفات العليا ، ودائب فى الابتعاد عن الصفات الدنيا ؟ ألم يفرد للتمدح بالفضائل كتبا ، ويقم للعاملين بها نصبا ؟

لعل الذى فتن هؤلاء الماديين أنهم يرون القبائل العريقة فى الوحشية لا تفرق بين المحامد والمذام من الصفات الإنسانية ، ولكن أيخفى عليهم أن هذه الجماعات ما قضى عليها بما هى فيه غير الجهل ، وأنها متى أمدت ببصيص من نور العلم اندفعت بفطرتها لتحرى الفضائل ، والإملاس من الرذائل ؟

إن التمويهات الكلامية التى ساقها بوخنر فى كتابه ، وافتتن بها بعض البسطاء من قرائه ، لا يصح أن تكون ماثلة فى فلسفة القرن العشرين إلا على سبيل التدليل على فساد الذوق المنطقى عند ماديى القرن التاسع عشر ، فإن الفيلسوف الذى يسمح لنفسه أن يقول كما قال بوخنر : « إن المجرم الذى يعاقب على جنايته ليس هو بجان فى الحقيقة ، وإنما هو يعاقب لأنه أتى فعلا يضر المجتمع الذى يعيش بين ظهرانيه » . إن متفلسفا كهذا لا يصلح أن يحشر فى عداد أهل التفكير والروية ، فإنه بحكمه على الإنسان بهذا الانحطاط قد سلبه أخص معارفه الضرورية ، من التمييز بين الجمال والقبح ، وقد ثبت وجود حيوانات تفرق بينهما . وإذاً يكون الإنسان أحط منزلة من الحيوان .

الخلاصة أن النظريات المادية الإلحادية ليست كما ترى إلا عصارة من آراء ضالة ، وسفسطات بائرة أدت إلى مذهب لا يفتتن به إلا الذين تستهويهم الزخارف الكلامية ، ولا يجدون فى أنفسهم قدرة على تحليل المسائل الفلسفية (*) .

(*) مجلة الأزهر : المجلد الخامس ، ص : ٨٩ ، سنة ١٣٥٣ هـ .

قضية الأخلاق والإنسانية

لو كانت الجماعات البشرية تجرى على ما يراه عقلاؤها أصلحَ لوجودها ، وأقومَ لحياتها ، لكان شأن الإنسانية غير ما نراه اليوم ، نبلا فى الآداب ، وسموا فى العادات ، وشرفا فى المقاصد ، ولكانت بلغت من المعارف مدى أبعد مما هى عليه اليوم ، وكانت مدنيتها خالصة من أكثر ما يشوبها من المثالب . لأن العقلاء لا يجرون وراء الأهواء ، ولا يجعلون للرذائل سلطانا عليهم تقودهم إلى مواطن الهلكة صاغرين . ولكن العقلاء قليلو العدد فى كل مجتمع ، قد لايبلغون واحدا فى كل ألف . فماذا تفعل هذه القلة الضائعة ، فى هذه الكثرة الزاخرة ، وخاصة إذا لم يكن معها وازع من سلطان ، أو رِدء من قوة ؟

الحكمة قديمة كقدم الإنسان نفسه ، فقد دلت أساطير الجماعات ، حتى فى أبعد عهودها ، أنها لم تحرم من أفذاذ من آحادها ، مُنحوا مواهب عقلية ارتفعوا بها عن مستوى السواد الأعظم درجات كثيرة ، أدركوا معها من أصول الحياة الطيبة ، ما لم تدركه الجماهير الصاخبة ، ولكن أنى لهم أن يتغلبوا على شهوات تلك الجموع ، وخاصة إذا كانت محرومة من أوليات المعرفة ؟ وقد رأينا كثيرا ما طغت ضوضاؤها المدوِّية على أصوات أولئك الحكماء ، فلم يشعر بها أحد ، بل كثيرا ما سطا عليهم غوغاؤها لشذوذهم عن طريقتها ، فقضوا عليهم كما كانوا يقضون على الحشرات المؤذية .

قضى الناس آماداً طويلة فى هذه الحياة الجاهلية ، كان الخالق يتعهدهم فيها برسل يبينون لهم الطريق القويمة ، ويشيدون لهم بالحياة الصالحة ، فما كانوا ليرعووا عما هم فيه ، بل كان يحملهم ذلك على إساءة الظن بأولئك الرسل ، فيقتلونهم أو يشردونهم عن أوطانهم إلى حيث يأمنون تأثيرهم ، ويتقون شرهم !!!

كثيرا ما قيل إن علاج هذه الحالة السيئة يتوقف على إذاعة العلم وإزالة الجهل ،

وهى وسيلة فعالة ولكنها ليست بحاسمة ، فلا تزال فى البلاد التى أخذت من المدنية بنصيب وافر ، فئام وآحاد لا خلاق لهم من الأخلاق الإنسانية الشريفة ، وإليهم يرجع جميع ما يروى عن تلك البلاد من جرائم منظمة ، وجرائر مدبرة ، ولكن مهما كانت الحال فان انتشار العلم وسطوع أنواره على الجماهير ، خير من بقاء الأمة فى سُدَف من الجهل ، وأغلال من الأمية .

السبب العلمى الصحيح لعقم التربية الخلقية فى الأمم ، يرجع إلى تعدد العوامل فى ملاشاة تأثيرها ، فإنها لأجل أن تؤثر فى النفسيات يجب أن تصادف فيها :

(**أولا**) استعداداً فطريا للتأثر بها ؛ وهذا الاستعداد هو الشرط الأول فى نجاحها ، فإن لم يكن كان من العبث توقع أى نجاح لها . ألست ترى أن أخوين شقيقين ، وقد يكونان توأمين ، تكوّنا فى مستقر واحد ، وولدا فى بيت واحد ، وربيا جسدا وروحا على أسلوب واحد ، ونشئا فى مدرسة واحدة ، قد شبا من الأخلاق على طرفين متناقضين ؟ فإذا كان للتربية الخلقية تأثير ذاتى ، لصبت هذه الغلامين فى قالب واحد . وقد فطن إلى هذه الحقيقة شاعر حكيم فقال :

إذا كان الطباع طباع سوء فلا أدب يفيد ولا أديب

وأقام زميل له الدليل المحسوس على هذه الحقيقة فقال :

فموسى الذى رباه جبريل كافر وموسى الذى رباه فرعون مرسل [١]

(**ثانيا**) بيئة تصلح لتقدير الصفات الإنسانية العالية ، والمكافأة عليها .. فإن استوى عندها الخبيث والطيب ، أو فاز الخبيث بالنصيب الأوفر بسبب خبثه ، اتقاءً لشره ، كان ذلك فى العمل على ملاشاة آثار التربية ، أمضى من كل عامل غيره .

(**ثالثا**) شجاعة أدبية فى الجماعة ، تسمح لها أن تنقد الناس نقدا ، فتصارح المسىء باساءته ، وتحمد للمحسن إحسانه ، بصرف النظر عن مكانه المادى .

فلهذا لا تستطيع أن تصادف أمة تغلب سيرةُ العقلاء سيرةَ السفهاء فيها ،

---

(١) موسى الأول فى هذا البيت هو السامرى طاغية بنى إسرائيل ، وقد جاء فى الأساطير أن جبريل رباه .

وهذا الأثر السيء قد عالجته الجماعات المختلفة على ضربين مختلفين ، فعالجته الأمم الشرقية ، وخاصة الإسلامية ، باستعمال الإجبار لكبح جماح المعتدين ، على ما رسمه الكتاب والسنة من العقائد والعبادات والمعاملات . وعالجته الأمم الغربية بترك الأمر وشأنه ليتفاعل ، وما مُنحه الإنسان من عقل ، وما أودع فطرته من أدب ، وما حُليت به طبيعته من مناعة ، ذهابا من تلك الأمم أن هذه خير وسيلة لحياة الإنسانية خالصة من أهواء الطوائف ، وأوهام الطبقات ، ومزاعم المتصدرين لقيادة الأرواح ، مما كانت له آثار مهلكة فى النوع الإنسانى ، والهبوط به إلى دركة العبودية ، لطبقة انتحلت لنفسها الحقوق الإلهية المقدسة ، فى جميع عهود البشرية إلى عهد الثورة عليها فى القرن الثامن عشر .

لا جرم أن التفضيل بين هذين المبدأين يوقع فى الحيرة ، لا من ناحية أن الإجبار على اتباع الطريقة المثلى شين اجتماعى يجب التخلص منه ؛ ولكن لأن إقامته وسط عالم كله على خلافه ، وضرورة الاختلاط بأقوام مباح لهم ارتكاب كل ما يعاقَب المسلم عليه ، كل هذا وغيره يجعل تطبيق هذا الإجبار من الصعوبة بمكان .

لهذا السبب اضطرت أمم إسلامية للأخذ بمذهب أهل الغرب فى احترام الحرية الشخصية للأفراد . هذا حسن ، وهو فى نظرنا لا معدى عنه ، ولكنا نشترط أن نأخذ بهذا المبدأ معدَّلا فى حدود الحرية الشخصية . فاذا سُمح لزعماء الحرية الشخصية أن يعاقبوا من يبصقون أو يتنخمون فى الشوارع ، محافظة على صحة الناس ، كذلك يجب أن يُسمح لهم أن يمنعوا تهتك الرجال والنساء فيها محافظة على آداب الأمة ، وهلم جرا .

اجتمعتُ مرة ورجلا لا أعرفه فى قطار ، فأخذ يشيد ، لبعض المناسبات ، باستقامته ، وبأنه يكره أن يؤذى أحدا الخ ، ثم تمادى فى الحديث فعلمت منه أنه يشرب الخمر . فقلت له : إنك قلت إنك مفطور على كراهة الأذى ، فكيف تسمح لنفسك أن تشرب الخمر ، وأذاها محقق لنفسك ولأسرتك ولمجتمعك ؟

فقال : كيف ذلك وأنا أشتريها بمالى وأشربها فى دارى ؟

فقلت له : إن المال الذى تنفقه عليها تقتطعه من نفقه أولادك ، وحَسْوُك

إياها على مرأى منهم تَجْرىء لهم على معاقرتها ، وفى كل هذا أذى لهم ، قد يتفاقم عند بعضهم حتى يهلكه .

فلم يُجِر جوابا وانقطع الحديث بينى وبينه .

الحق أن فى كل تعدٍّ على الآداب والأخلاق الفاضلة ، أضرارا مادية قد لا تقف عند حد ، بل الواقع أنها هى الأسباب المباشرة فى إيصال البشرية إلى هذه الدركات من الشرور والويلات .

وقد يحار الإنسان حينما يرى أن زعماء الحرية الشخصية تشددوا فى تقييد هذه الحرية فى ناحية الأمور المادية ، ولم يراعوا ذلك بل أغفلوه فى ناحية الشئون الأدبية ، إلا ما يعده الذوق العام غليظا جافيا . ولكن هذه الحيرة تزول متى عُلم أن وَضَعة هذه النظم من أهل القرن الثامن عشر فى الغرب ، كانوا لا يعترفون بوجود ناحية روحية فى الإنسان ، ويعتبرون كل ما سنته الأديان من المحافظة على سلامة هذه الحالة لا ضرورة له البتة . فلو كان المسلمون ادرعوا بالشجاعة الأدبية ، وجمعوا فى نظمهم بين مراعاة الناحيتين ، أول ما أرادوا أن يقتاسوا بأهل الغرب فى القرن الماضى ، لكانوا قد وفوا بحق هذه الأمة عليهم ؛ ولكن ما فاتهم هم لا يجوز أن يفوتنا نحن ، فنحن أمة تعنى بالناحيتين الجسمية والروحية ، وقد جاء العلم الغربى نفسه فأيدنا فى عقيدتنا فى الروح ، فلا عاب علينا فى نظر الغربيين أنفسهم أن نستكمل نظمنا ، فنقيد الحرية فى كل ما يعدو على الناحية الروحية ، كما نقيدها ويقيدها غيرنا فى كل ما يعدو على الناحية المادية ، فى حدود الاعتدال وعدم التنطع .(*)

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، ص ٣٨٦ ، سنة ١٣٦١ هـ .

أثر العبادة فى حياة المسلمين الاجتماعية

ضمنى مجلس يوما وأحد رجال القلم من غير المسلمين ممن تؤديهم بحوثهم إلى تناول الكلام عن الإسلام ، فلما أخذ كل منا مجلسه ، نظر إلىّ وخصنى بكلمات من الثناء شكرته عليها ، ثم قال : لقد كنت أرجو أن يضمنى وإياك مجلس فأطرح عليك سؤالا أطلت البحث فى جوابه حتى اهتديت إليه ، وأحب أن أرى رأيك فيه .

فقلت له : وما هو ذلك السؤال ؟

فقال : بم تعلل سرعة قيام المسلمين ، وانسياحهم فى الأرض ، وتأسيسهم لدولة بذت دولة الرومانيين فى الاتساع وبسطة السلطان ، مما حير عقول الباحثين ولم يجدوا له تعليلا يقبله العلم الاجتماعى وتسيغه فلسفة التاريخ ؟

فقلت له : أتحفنى بالجواب الذى وفقت إليه لأرى رأيى فيه أولاً .

فقال : إنى أرى أن علة هذه السرعة كانت شدة تماسكهم ، وقوة ترابطهم ، حتى أصبحوا على كثرة عددهم كالجسد الواحد تديره إرادة واحدة ، ويدبر حركاته عقل واحد .

قلت : أحسنت فى وجدان العلة ، فإنه جدير بأمة تصبح من الترابط كالجسد الواحد أن تأتى بالآيات فى التوسع وبناء صروح المجد ، ولكن فاتك أمر جلل وهو أن تفسر كيف حدث ذلك التماسك الذى لم يكن مثله لأمة قبلهم ، وقد كانوا فى أمسهم مثلا يضرب فى تفرق الكلمة ، وفى التحاقد الذى كان كثيرا ما يحملهم على التناحر ، فإن انقلاب جماعات كانوا بالأمس على شر حال من التنابذ والتكافح إلى جماعة واحدة متحدة المبدأ والغاية ، تضطلع بمهمة اجتماعية كالتى اضطلع بها المسلمون الأولون ، وتنجح فى أدائها ، رغما عن جميع العقبات التى صادفتها ، والقواطع التى قابلتها ، قلنا : إن مثل هذا الانقلاب المحير للعقل يعوز تفسيرا ، إذ ليس هو بالأمر العرضى ، ولا بالسبب الثانوى ، ولكنه الأصل الأصيل فى إحداث

ذلك التماسك الذى أدهشكم من آثاره ما أدهشكم . وإذا كان هذا أثر التماسك بين آحاد الأمم ، فما الذى يمنعها أن تأخذ به لتصل إلى أقصى غايات الاجتماع من أقرب الطرق إليها ، وبمثل السرعة التى أدت المسلمين إليها ؟

فسكت مخاطبى قليلا ثم قال لى : وما سر ترابط المسلمين هذا الترابط المتين فى نظركم ؟

قلت : إن سره فى نظرى يرجع إلى الحكمة التى بنيت عليها عباداتهم ، فقد كتب على المسلمين صلاة وصوم وزكاة وحج . فالصلاة عمل تشترك فى أدائه الجوارح والقلب معا ، وقد روعى فى حركاتها الجسدانية أن تمثل الإنسان واقفا أمام خالقه خاشعا مستسلما قارئا ، فإذا أتم قراءته ركع خاضعا ، ثم قام وخر ساجدا ، واضعا جبهته على الأرض ، وهو غاية ما يستطيع الإنسان أن يظهره من دلائل الطاعة والعبودية لقيوم السماوات والأرض . أما عمل القلب فقد أمر الإنسان أن يتجرد فيه من جميع علائقه بالدنيا ، وأن يثير فى نفسه شعورا قويا بصلته بخالقه . فيُطلب إليه أول ما يدخل إلى الصلاة أن يقول : « الله أكبر » قاصدا بذلك محق جميع الأغيار ، والتحلل من جميع الآصار ، مطرحا كل هوى وكل خاطر ، حاصرا جميع قواه الروحية فى مبدعه الحكيم الذى لا يحصره وصف ولا يحده مكان . فإذا تم له هذا التجرد بدأ يتلو أم الكتاب ويعقبها بما تيسر من السور أو الآيات . فهذا العمل القلبى إذا أُدى على ما ينبغى رفع من نفسية الإنسان ما لا ترفعه دراسة الفلسفة سنين ، وهذب من شعوره ، ولطف من إنسانيته ، وأزال من أدواء نفسه ما لا تستطيعه العلوم مجتمعة .

والصوم إمساك عن الأكل والشرب ساعات معدودة ، يقضيها المسلم فى فكر أو ذكر أو عمل ، بعيدا عن المشاغبات والمعاكسات ، تفرغ فيها النفس لِذاتها تحت جو من التجرد صالح لإبراز أقصى مكنوناتها من القوى المعنوية ، والأنوار القدسية .

والزكاة مِران إجبارى للنفس على أن تفكر فى حاجات غيرها ، وتسد مفاقر إخوانها ، وإخضاع للغنى بسلطان الشريعة على أداء حق المجتمع من المال الذى اجتمع لديه ، باعتبار أنه عضو من هذا المجتمع لا حياة له إلا بحياة المجموع وسلامته .

والحج رمز عملى لوحدة الوجهة ووحدة الغاية ، وإشعار للناس كافة بأنهم إخوان فى الله ، وإن فرقت بينهم المناسب ، وباينت بينهم المناصب ، وأنهم وهم محرمون فى صعيد واحد يمثلون حالة الفطرة ، إخوانا متحابين أمام معبود واحد ، لا ينظر إلى صورهم ولا إلى أموالهم ، ولكن ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم .

إن هذه العبادات كلها تتكافل فى إعداد النفوس إلى كمالها باستثارة القوى المعنوية الكامنة فيها ، فما الذى يمنع هذه النفوس من التحاب والترابط ، وجميعها قد خلص من إسار الأوهام ، وافتك من سلطان الأهواء ، وتطهر من أدران الأدواء ؟ وكيف لا يكون الترابط بينها على أقوى ما يتُخيل وقد سلمت من جميع العلل المفرقة ؟

قلت لمحدثى كل هذا ، فأظهر إعجابه به ، ثم أخذنا فى أحاديث أخرى حتى تفرقنا .

وإنى أحب فى نهاية هذه المحادثة أن ألفت نظر المسلمين إلى وجوب أداء العبادات على ما أمر الشرع الحكيم : من التدبر فيها ، وإعطائها حقها من الخشوع ، والمثابرة عليها . وقد أشار الله إلى ثمرات هذه العبادات فى تكميل الإنسان فقال فى حق الصلاة : ﴿ إِنَّ ٱلإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ (1) . فانظر إلى هذه الثمرة الكريمة التى تتحصل من الصلاة ، ثمرة لو بذل الإنسان فى سبيلها ملء الأرض ذهبا ما حصل عليها ، وهى أنه يصير من ثبات الجأش ، ورباطة القلب بحيث لو أصابه ما تطير له النفس شَعاعا ، وينخلع من هوله الفؤاد ارتياعا ، لثبت له ثبوت الرواسخ ، وهذه منزلة تَحدّث عنها الفلاسفة ولم يصلوا إليها ، وقد نالها المسلمون بفضل إيمانهم وعباداتهم ، فكانوا إذا زلزلت الأرض تحت أقدامهم ، ومادت رواسى الخطوب أمام أعينهم ، صمدوا لها مطمئنين ، حتى تأخذ حدها وتنجلى وقد زادتهم إيمانا إلى إيمانهم .

وقد أمرهم الله إذا جد الجد ، واشتد الكرب ، أن يلجأوا إلى العبادة يستمدون منها روحا يقاومون بها ما يحتوشهم من خطر ، ويساورهم من أمور كُبر ، فقال

---

(1) سورة المعارج : ١٩-٢٢ .

تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَاشِعِينَ ﴾ (١) . فانظر كيف يأمرهم أن يلجأوا إلى الصلاة يتقون بها الشدائد ، ويستفتحون بها أبواب الخير .

وقد أوعد الله تعالى الذين يعبدونه وهم لا هون بأمورهم الدنيوية ، لا يتدبرون ما يقولون ، ولا يعقلون ما يقرءون ، فقال : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ (٢) . فإن مثل هذه الصلاة لا تؤدى إلى الثمرة التى وضعت لها ، فلا يحصل مقيمها على شىء ، قال عليه الصلاة والسلام : « كم من مصل ليس له من صلاته إلا التعب ، وكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش » .

ووصف الله تعالى الصلاة بأنها طهور للإنسان تدرأ عنه أدران الصفات الساقطة ، والخصال الموبقة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ (٣) ، فإذا أداها الإنسان حق تأديتها منعته عن محارم الله ، وحفظت له كرامة إنسانيته . وإذا أداها ساهيا أو لاهيا حرم من ثمرتها ، قال النبى ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا » .

وقال الله تعالى فى ثمرة الصوم : ﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (٤) وهذا الخير لا يقف عند حد ، فإن النفس متى انقطعت عن أهوائها ورغباتها بالصوم ، استعدت لتلقى الإفاضات الإلهية ، وكان اتصالها بالعالم الروحانى أكمل وأتم مما تكون عليه فى حالتها العادية ، وليس فى وسع أحد أن يقدر قدر ما ينال الإنسان بهذا الاتصال من الرتب المعنوية .

فلا غرو أن يكون المسلمون وهم يتعرضون لكل هذه المزايا الروحانية على أكمل ما يُتخيل لأمة من الترابط والتساند ، وعلى أعلى ما يتصور من ثبات جأش

---

(١) سورة البقرة : ٤٥ .
(٢) سورة الماعون : ٤-٥ .
(٣) سورة العنكبوت : ٤٥ .
(٤) سورة البقرة : ١٨٤ .

أمام الزعازع ، ورباطة قلب حيال الخطوب الجسام ، فيحاولون تذليلها بعقول لم يذهب بها الهلع ، ولم يؤثر فيها الذعر . ولا عجب بعد ذلك أن يلين لهم ما استعصى على غيرهم ، وأن يبلغوا ما حاولوا أن يصلوا إليه بأسرع مما وصل إليه سواهم (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الخامس ، ص : ٢٣١ ، سنة ١٣٥٣ هـ .

رمضان شهر الصيام

نحن اليوم فى مستهل رمضان ، وهو الشهر الذى أُمرنا أن نقوم فيه بفريضة الصيام ، وهى أحد أركان الإسلام الخمسة .

والصيام ، كما يدل عليه اسمه وكما فهمه الذين فرض عليهم : رياضة دينية ، لا متعة بدنية ، وهى ككل العبادات الإسلامية ، قصد بها رفع الإنسان عن حضيض الحيوانية ، إلى المستوى الذى يليق بمواهبه الأدبية . فكل ما يبطل هذه الثمرة المرجوة منه ، أو ينقص منها ، يعتبر عملا معاكسا للمرامى التى قصدت من إيجابه .

ونحن إذا رجعنا إلى سيرة النبى ﷺ وسيرة أصحابه ، تحققنا أنهم كانوا يعتبرون رمضان شهر إمساك عن الفضول من جميع الضروب ، ومهلة تَطَهّر وتنزّه عن جميع الكدور الجسدية والنفسية .

لعل قائلا يقول : ما للدين وأمر التغذى ، وهو وضع طبيعى ، القصد منه إمداد البدن بما يحتاج إليه من المواد التى تدثر فيه بسبب الجهود التى يبذلها فى المحاولات المختلفة ؟

نقول : إن حكمة تدخل الإسلام فى أمر التغذى ، أن الجسم والروح مترابطان فى هذه الحياة ، والروح جوهر كريم لا تكدره الأعراض ، ولكنه مودع فى هذا الغلاف المادى ، وهو الجثمان ، لا يسمح له أن يتصل بالوجود إلا من خلال الحواس التى جعلت فيه ، ولا أن يدرك منه ما يدركه إلا بواسطة المادة المخية ، التى جعلت أداة للإدراك . ولما كان هذا الجثمان مخلوقا من التراب فهو عرضة لكل ما يعتور الأجساد المادية من الآثار ، وأشد ما يصيبها منها ما ينصبّ عليها من ناحية الغذاء . لذلك كانت حاجة الإنسان ماسة إلى تعهد جسده بالمطهرات والمزكيات ، وليس منها ما هو أفعل فيه من الصيام ، وتدبير ما يحتاج إليه من الطعام .

نعم الصيام ، أما سمعت أنه قد تقرر علميا أن الأجساد البشرية متى لم يراع فى تغذيتها الاعتدال ، وتخيُّر ما يناسبها من المواد ، فسدت أعضاؤها ، واستدت أوعيتها ، وتصلبت شرايينها ، وتضخمت أجهزتها ، باكتسائها بالمواد الشحمية ، وشحن دمها بالمواد الأجنبية عن البنية ، وترسبت على جدران خلاياها ، وسببت لها أعراضا ثقيلة من الألم ، والإعياء ، والترهل ، وضعف الذاكرة ، وضلال المشاعر ، وعدم الاحتمال ؛ وتعدت هذه المواطن المادية إلى الصفات الأدبية فضيقت الخلق ، وولدت الضجر ، وسببت المالنخوليا والحمق ، وأغرقت فأحدثت اليأس ، وقد تسوق إلى الانتحار ؟

رأى العلماء أن الإنسان متى وصل إلى هذه الحالة أو بعضها ، كان أحوج ما يكون إليه الإمساك عن الطعام أياما متوالية ، بل أسابيع ، لتزايل أعضاءه هذه المواد الدخيلة ، لأنه إذا لم يعامل علله هذه بالإمساك عن الطعام ، كان ما يتناوله من الطعام مدعاة لبقاء تلك المواد فيه ، فلا يشفى مما يشعر به ، ولو تعاطى كل عقاقير العالم ، بل هى تزيده خبالا على ما لديه من الخبال [1] .

نعم إن السواد الأعظم لا يصلون إلى هذه الدركة من الانحطاط البدنى ، ولكنهم لا يخلون قط من الأمراض والأعراض التى تسببها لهم الأغذية ، فهم فى حاجة ماسة إلى الصيام وتدبير الغذاء .

وقد شرع الإسلام هذا الصيام لهذا الغرض ، فهو رياضة جسدية ، يقصد بها تطهيره من المتخلفات الغذائية ، التى رانت على أعضائه الباطنة ، فسببت لها أعراضا ثقيلة يشعر بها ولا يعرف لها علة ، وتقوم حجابا بين روحه وما أُعدت له من الإشراقات العلوية ، وهذا أكبر حرمان تمنى به الحياة الإنسانية ، التى خلقت لتحقق موعود الله من الترقيات الصورية والمعنوية .

---

(١) الخبال لغة : الفساد يكون فى الأفعال والأبدان والعقول . وهو أيضا : النقصان والهلاك والسم القاتل .

الصيام فى الإسلام وإن لم يكون إمساكا مطلقا عن الطعام أياما متوالية ، كما ينصح به العلم فى الأحوال الثقيلة ، فإنه يهيىء للبنية فترة طويلة من خلاء المعدة تتمكن فيها حركة الحياة من تصريف جزء من المتخلفات الضارة للأغذية ، وبتوالى هذا الإمساك ثلاثين يوما متوالية ، يتخلص الجثمان من جزء عظيم من تلك المتخلفات فيشعر بحياة جديدة .

هذا بشرط أن لا يُعَقب هذا الإمساك الطويل عن الطعام كل يوم بأكلتين ضخمتين يفتنُّ فى تنويع ألوانها ، ما يشاؤه له النهم الذى اعتاده فى حياته العادية ، فيصبح الصيام عليه شرا وبيلا ، ولا يجنى منه ما يرجى أن يجنيه من الفوائد المادية والمعنوية .

نعم إن الناس اعتادوا متى جاعوا أن يتشهوا ضروب الأطعمة ، من العجينيات والحلوى والبقول والمتبلات والمخللات ، وأن يندفعوا فى التهامها متى غربت الشمس التهام من لا يحسب لتبعات الأغذية حسابا ، حتى إذا انتهوا من الأكل أدركهم من الثقل ، وتراخى الأعضاء ، وخمود العقل ما يدرك المفرطين ، وكان يجب أن يدركهم نقيض هذه الأحوال ، من نشاط الجسم والعقل ، وانبساط النفس . وبالإدمان على هذه الحالة ثلاثين يوما متوالية يخرج الصائمون وهم فى حاجة إلى اللجوء إلى المستشفيات ، وكثير منهم يصاب بأمراض عضالة لم يكونوا يشعرون بها من قبل .

ونحن لأجل أن نبين للقارىء ما يجره النهم ، والجهل بدستور التغذى على الصحة ، وما يجلبه من الويلات على الحياة ، نبين فى اختصار ما لا يسع إنسانا جهله من فلسفة التغذى فنقول :

المواد المائعة والجامدة التى يتناولها الإنسان فى غذائه ، لا تخرج فى تركيبها عن كونها إما مركبة من ثلاثة عناصر : (الأوكسيجين والايدروجين والكربون) ، وإما من أربعة عناصر : (الأوكسيجين والايدروجين والكربون والأزوت) .

الطائفة الأولى من هذه الأغذية : تدعى المواد الاحتراقية ، ومهمتها أن تحترق فى خلايا الجسم فتؤتيه بالحرارة الغريزية وبالقوة الضرورية ، وهى كالمواد الدهنية والسكرية والنشا ومح البيض .

والطائفة الثانية من الأغذية : تدعى المواد الأزوتية أو الزلالية أو البروتينية ، وفائدتها إيتاء الجسم بخلايا جديدة بدل الخلايا التى تدثر منه بالجهود اليومية ، وهى مثل زلال البيض والجبن واللبن والفول والعدس وما إليها .

إذا علم الإنسان ذلك ، وجب عليه أن يعلم بجانبه أن البنية الإنسانية تحتاج إلى مقدار (معين) من كل منها لا إلى أكثر منه ، وأن كل زيادة عن الحد المقرر يلقى بها الإنسان إلى معدته تستحيل إلى مادة سمية تتسرب إلى الدم فتسمم الأعضاء وتفسدها .

هنا يصطدم علم التغذى وعقيدة العامة اصطداما مروعا ، يصرع فيه عدد لا يحصى من الناس كل يوم . ذلك أنهم يزعمون أن التغذى ما دام يؤتى الجسم بالمواد الضرورية له ، ويولد له القوة ، فالإكثار منه يزيد فى تلك القوة ؛ على حين أن العلم يقرر أن كل زيادة عن الحاجة فى التغذى تضعف الجسم وتوقعه فى شر عظيم .

ولكن للعلم هنا فى موضوع هذه الزيادة تفصيل : ذلك أنها لو كانت من المواد الثلاثية العناصر ، لم تحدث تسمما ولكنها تحدث تشحما ، فيتضخم الجثمان ، وتكتسى أعضاؤه الباطنة بطبقات كثيفة من الدهن فلا تكاد تؤدى وظائفها إلا ببذل جهد كبير . وهذا الجهد يشعر به صاحبها فيتعب من أقل حركة ، ويعتريه البُهْر ، وخفقان القلب ، وضيق النفس ، ولا يعود إلى راحة نسبية إلا بعد مرور وقت يمضيه فى الهدوء .

وأشد ما يصيب هذه الأعضاء يقع على القلب ، وهو أشرف عضو فى الإنسان ، دائم الحركة لو وقف بطلت بوقوفه الحياة ؛ فتخيلْ عضوا هذه مكانته ، يضطر للحركة فى أغلفة متراكبة من الشحم أحاطت به من جميع الجهات ، فتراه يجاهد مجاهدة المستبسل ليؤدى وظيفته بكل مشقة ، وصاحبه غافل عن هذا الأمر الجلل ينظر إلى بدانته فيفرح بها ، ويسجل بالفخر كل رطل يزيد على وزنه ، ويتجاهل أنه تحت إصر هذه البدانة أصبح عاجزا : لا يستطيع أن يقاوم عاديا ، ولا أن يرفع ثقلا ، ولا أن يصعد سلما عاليا ، ولا أن يسرع الخطى فى مهم ؛

فمثل هذه الحالة يجب أن تعتبر عجزا ، وهى فى الرجال أقبح منها فى النساء ، فمن بلى بها فليبادر بالتخلص منها بالصيام الصحيح ، والإقلال من المواد الثلاثية العناصر .

أما الزيادة من المواد الرباعية العناصر ، فهو يؤدى إلى التسمم لا محالة ، لأن الزائد من هذه المواد يستحيل إلى بولينا ، وهذه البولينا إذا أضيفت إليها ذرة واحدة من الأوكسيجين استحالت إلى حمض بوليك ، وهو سم قاتل لا يجوز أن يبقى فى الدم بحال . وهو يخرج بالمعالجة الحكيمة ، بشرط أن يقطع عن البنية المدد الوارد إليها من الخارج ، وذلك يكون بالاقتصار على ما هو ضرورى لها من تلك المواد .

وقد بحث العلماء فى المقدار الواجب تعاطيه منها ، فقدر أولا بنحو ١٥٠ غراما كل يوم ، ثم تبين أن هذا القدر كبير ، فأسقط إلى ١٠٠ غرام ، ثم إلى ٨٠ ، ثم رئى أخيرا أنه يكفى أن تكون ٢٥ غراما . وممن عنى بهذا التقدير من كبار العلماء الدكتور هندهيد الدانمركى ، وقد سلك فيه طريق التجربة ، فكان يختار رجالا من الذين يعملون بأجسادهم أعمالا عنيفة ، ويكيل لهم الأطعمة ويزنها بحيث لا يجاوز مقدار ما يستخرج منها من المواد الرباعية العناصر ٢٠ أو ٢٥ غراما ، فرأى أن هذا القدر قد كفاهم ، واستدل على ذلك ، بعد تجربة عام كامل ، بجودة صحتهم ، وقدرتهم على الاستمرار على العمل بدون كلل ، وانتهى من تجاربه بالنتائج الآتية :

(**أولا**) أن المادة الزلالية الموجودة فى الأغذية النباتية أفضل من المادة الزلالية الموجودة فى الأغذية الحيوانية .

(**ثانيا**) أن الأغذية التى تقل فيها المادة الزلالية تزيد فى قدرة الجسم على احتمال المشاق .

(**ثالثا**) أن عدد الوفيات بأمراض الكبد والكليتين والأمعاء يبلغ بين سكان المدن نحو أربعة أضعاف ما يبلغه بين الفلاحين الذين معظم طعامهم من الخبز والبطاطس والمواد الدهنية .

وقال : إن العرب الذين يكتفون فى طعامهم بالخبز والتمر فيهم من صلابة العود ، وشدة الصبر على التعب ما يدهش الأوربيين . وإن جراية جنود السخ من الهنود ،

وهم من أشد جنود الدنيا ، لا يجاوز فى اليوم كأسين من اللبن و٢٥ أوقية من الخبز (أى نحو نصف أقة) ، وأوقيتين من الزبد (وهما يساويان نحو ٢٥ درهما) ، وأربع أواق من الفاصولياء (أى نحو ٥٠ درهما) وخمس أواق ونصف من البطاطس (أى نحو ٦٢ درهما) ، وهم لا يأكلون اللحم إلا مرتين أو ثلاثا فى الشهر .

وقد امتحن علماء آخرون النتائج التى وصل إليها العالم الدانمركى ، نخص بالذكر منهم الأستاذ تشتندن الانجليزى ، وأجرى هذه التجارب على نفسه وعلى غيره فاقتنع بصحة ما ذهب إليه الدكتور هندهيد .

هذا رأى العلم فى مقادير الأغذية الضرورية للإنسان العادى .

وقد ذكرنا البدانة وضررها ، وعزوناها إلى الإكثار من تعاطى المواد الثلاثية العناصر ، ونستدرك هنا على ذلك بقولنا : إن من الناس من يفرط فى الأكل إلى حد التخم ، وهو نحيل الجسم . وقال الدكتور جاستون دورفيل فى كتابه صناعة إطالة الحياة :

« إن جميع المفرطين فى الأكل ليسوا ممتلئين شحما ، فمنهم من يكونون على العكس نحاف الأجسام ، ولكن القسمان يستويان فى الهلاك بسرعة ، وإن جهل كل منهما ما يؤديه إليه سم الأغذية من سوء المصير .

ثم قال :

« من الناس من يفرط فى الأكل ولا يصيبه أذى ، بل تظهر عليه دلائل الصحة الكاملة ، فترى وجهه موردا ، ومحياه مشرقا ، فيعيش السنين الطوال لا يشتكى أقل وجع ، ثم لا يلبث أن تسمع بأنه قد مات وهو فى عنفوان القوة ، فتدهش لذلك ولا موجب للدهش ، فإن هذا الأكول لم يكن فى جسده مراقب عتيد يعاقبه على كل إفراط وتفريط ، فتمادى فى شأنه فتراكمت عليه السموم فقتلته ولا كرامة » .

وبعد :

فنحن اليوم نؤدى فريضة الصيام ، وقد جعله الله وسيلة لتزكية أجسامنا وعقولنا وقلوبنا من طريق الإمساك عن الأطعمة التى تهلكنا على النحو الذى بينته

فى هذه العجالة . فإن احتال محتال على الإبقاء على العادة السيئة التى تسربت إلى المسلمين ، فقلبت شهر الرياضة والنزاهة إلى شهر نهم وقصف [1] ، فزعم أننا أمرنا بالإمساك عن الطعام ساعات معينة ولم نؤمر بما يعدو ذلك من الإقلال منه ... قلنا له : إن الاعتدال فى الطعام ، وتحرى القدر الضرورى منه لحفظ الحياة ، وعدم تعدى ذلك الحد إلى الإسراف ، أمر مأمور به فى الإسلام فى الشهور العادية ، فوجوبه فى شهر العبادة ألزم . ألم يقل الله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [2] .

أو لم يقل النبى ﷺ : « حسب أحدكم من الطعام لقيمات يقمن صلبه » ؟ أو لم يقل أيضا : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه » ؟ أفكان الله ورسوله يأمراننا بالاعتدال فى الطعام فى الأيام العادية ، ويبيحان لنا الإسراف فيه فى شهر النسك والعبادة ؟

فلننتهز هذه الفرصة السانحة لنا فى هذا الشهر الكريم ونقفو أثر النبى ﷺ ، وأثر أصحابه ، لنصل إلى بعض ما وصلوا إليه من كرامة الحياة ، وعزة الوجود ، وشرف البقاء ، والله ولى المحسنين [*] .

* * *

---

(١) القصف : اللهو واللعب والتوسع فى الطعام والشراب .

(٢) سورة الأعراف : ٣١ .

(*) مجلة الأزهر : المجلد العاشر ، ص : ٦٩٠ ، سنة ١٣٥٨ هـ .

حكمة الصيام فى الإسلام

يمر بنا شهر رمضان من كل عام فيستقبله المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها بما هو أهله من الاحتفاء والاحتفال ، وينتدب كبار الكتاب لتحبير المقالات الضافية الذيول فى بيان منافعه فى العقول والأبدان ، وفوائده للقلوب والأرواح ، وإنه لقمن بكل هذه العناية لجليل أثره فى النفوس ، لو قامت به على وجهه الصحيح ، ولم تتحول عن صراطه السوى .

ذكر العلماء للصيام حكما كثيرة ، وعندنا أن أولى تلك الحكم بالبيان ، أثره على الإنسان فى رياضة النفس ، وثمرته فى تخليصه من سلطان المادة .

الإنسان جسد وروح ألّف الخالق الحكيم بينهما على تخالف طبيعتيهما إلى أمد محدود ؛ فمن الناس من تتسلط كدرة المادة عليه فتغلب فيه الصفات البهيمية ، حتى إنك لتراه فى مظهره إنسانا مستكملا جميع صفات التقويم الحسن ، فإذا اطلعت على دخيلة حاله تبين لك أنه يحمل نفس حيوان ضار ، لا يفكر فى غير رغباته الجسدية ، وشهواته البدنية ؛ ولا يبالى فى سبيل الوصول إليها أن يرتكب كل دنية ، أو فعلة وحشية ؛ ومثل هذا لا يعيش إلا ليأكل ويتوسع فى توفية شهواته ، وما هى إلا سنون حتى يدركه الهرم ، ويقعد به الضعف ، فيموت ميتة الحيوان الأعجم ، لم يحصّل من جهاده الدنيوى نورا يعرج به إلى العالم الذى خلق ليتحول إليه .

وقد ثبت علميا أن تجرد الإنسان لاتباع شهواته المادية ، وإغفاله لمميزاته الروحانية ، يجر عليه وعلى بنى نوعه أكبر الجرائر ، ذلك أنه لم يخلق كالحيوان محدود المطالب ، محصور الرغائب ، حتى يكون ما يحصله من حطام الدنيا كافيا لسد مطامعه ، ولكنه خلق مطلق القوى ، بعيد مدى الغايات ؛ فهو لا يكتفى بلباس وطعام يوفى بهما حاجات جثمانه ، بل لو حصل الدنيا كلها وجعلها فى قبضته وجد فى مذخور قواه مددا لاحد له يمكنه أن ينفقه وراء أى مطلب من المطالب التى يجد نفسه مدفوعا إليها ، فإذا لم يتدارك الدين الحق مثل هذه الشخصيات الخام

بالتهذيب والتلطيف ، اجتمع منها فى الأمة الواحدة عدد كبير لا يستطاع ترويضهم وإدخالهم فى حظيرة حكومة صالحة .

فشرع الله الصيام رياضة للنفوس ، يمكن بواسطته وبواسطة الصلاة تحويل القوى الأدبية العظيمة القدر فى الإنسان ، إلى ما ينقله من حضيض الحيوانية التى هو فيها ، إلى أرقى درجات السمو الروحانى الذى خلق ليصل إليه .

فكيف يحقق الصيام هذه الرياضة ، ويدفع بتيارات القوى الأدبية الإنسانية إلى وجهة تصلح معها للحياة الملكية ، بعد أن كانت تزيده بدون هذا التحويل حيوانية على حيوانية ؟

إن الإسلام بفرضه الصلاة والصيام على ذويه قد حلاهم بأقوى الوسائل لإحداث أعجب ضروب التطور فى النفس البشرية ، بحيث تصلح لجذب أمة من طرف إلى طرف فى فترة من الزمان لا تكفى لإحداث مثل هذا الأثر الخطير فى فرد واحد .

فالصلاة عمل قلبى وعضوى لو أُدى على وجهه الصحيح لأحدث فى مؤديه انقلابا تدريجيا يشبه ما يفعله المغناطيس الحيوانى فى تعديل الطباع ، وتهذيب الأخلاق ؛ وفتح باحات روحانية للنفس تتصل معها بعالم الروح ، وتستمد منه حياة علوية ، وقوى أدبية .

تبدأ الصلاة بتكبيرة الإحرام : الله أكبر ، فلو استشعر المصلى وهو يذكر هذه العبارة معناها الصحيح ، صغرت فى عينه جميع الأغيار ، ومحقت جميع الصور ، وشعر بأنه ماثل أمام القادر الذى أبدعه . هذا الشعور وحده يخلعه من عالم المادة ويدخله عالم الروح ، فإذا قرأ فاتحة الكتاب ، وتأمل فى معانيها ، واستشعر إلى ما تشير إليه من طلب الهداية إلى الصراط المستقيم ، كان كل ذلك منه يشبه ما يسمى فى عالم النفس بالإيعاز الذاتى (Auto - suggestion) فتتكيف به نفسه من طريق الاستهواء ، وتندفع لتحقيقه بكل ثبات ومثابرة . كل هذا على شرط أن يكون الدخول فى الصلاة بتجريد النفس لها من جميع الأغيار .

فإذا انضمت فريضة الصيام إلى الصلاة فى كل عام شهرا ، بلغت خاصة الإيعاز الذاتى أشدها ، وأثمرت أعظم ثمراتها .

وهذا على شريطة أن يكون الصيام كما سنه الإسلام ، لا كما حولته إليه العادات .

إن شهر الصيام الآن يعتبر شهر قصف ولهو ، وسهر وسمر ، وهو فى حقيقته شهر زهد ورياضة وورع . وهو على ما نؤديه عليه من التوسع فى المآكل ، وإحياء الليالى بالملهيات ، والنوم إلى ساعات متأخرة من النهار ، يعتبر من أشد الضربات على الصحة الجسدية والصحة النفسية معا . فالقانون الصحى لا يسمح بأن يجيع الإنسان نفسه طول النهار ، فإذا جاء المساء أكل أكل المسعور المحروم حتى لا يستطيع التنفّس ، ثم عاود الكرة بعد بضع ساعات باسم السحور ، فحشر إلى معدته كل ضروب المحظورات الغذائية ، وشرب على كل ذلك ماء غزيرا .

لا جرم أن من يرتكب مثل هذا العبث يخرج من رمضان متعب الجسم والعقل معا .

ولكن الصيام فى الإسلام هو على النحو الذى كان يعمله النبى ﷺ وأصحابه ، فقد كانوا يفطرون على تمرات ، ثم يقومون لصلاة المغرب ، فإذا أدوها عادوا لإتمام الطعام ، وهو لا يتعدى لقيمات كانوا يقيمون بها أصلابهم ، ثم جلسوا يتحدثون حتى يأتى موعد النوم العادى فى ناشئة الليل ، تلك الآونة الحافلة بالإشعاعات المهدئة للأعصاب ، ومنهم من كان يستيقظ فى الهزيع الأخير من الليل للتهجد ، ومنهم من كان ينام إلى ما قبل صلاة الفجر بقليل فيصيب قليلا من الطعام ، ثم يتوضأ ويتنفل حتى يؤذن المؤذن بالفجر فيصلون الصبح . ثم منهم من كان يظل يقظا إلى المساء ، ومنهم من كان تأخذه بعد الفجر سنة من النوم ، ثم يقومون إلى أعمالهم لا يتخلفون عن عاداتهم فى شيء .

الصيام على هذا النحو يعتبر عملا رياضيا له تأثير كبير على جسم الإنسان وروحه ، يدخل فيه فى كل عام مرة ، ويخرج منه وقد تطهر قلبه ، وتزكى ضميره ، وتنقى دمه ، وتقوت أعصابه ، وفوق ذلك كله ، هبطت عليه من عالم القدس نفحات روحانية ، وإشراقات ربانية ، لا يتصور العقل مبلغ ما تفعله فى ترقيته إلى مراتب الكمال .

هذه الرياضة إذا أضيفت إلى الصلاة ، أحدثت بين الإنسان وعالم الروح أوثق الصلات ، ونقلته من عالم الحيوانية الذى هو فيه إلى وجود سام تتيقظ فيه أكرم غرائز النفس ، وأشرف عواطفها . وهذا وحده يفسر لنا حدوث ذلك الانتقال المحير للعقل فى نفسية عرب الجاهلية فنقلتهم طفرة من حياة وحشية حافلة بالميول البهيمية ، والمقاصد العدوانية ، والإباحة الحيوانية ، إلى حياة مدنية آهلة بالعواطف الشريفة ، والنيات الكريمة والغايات النبيلة ، حياة أوصلتها إلى خلافة الله فى الأرض ، وهى درجة لم تنلها فى تاريخ الإنسانية كله إلا أمم معدودة ، نالتها الأمة الإسلامية فى أقل من ثمانين سنة ، فوصلت إلى ملك لم تصل إليه أكبر دولة فى الأرض فى ثمانمائة سنة ، وأحدثت فى العالم من الآثار العلمية والعملية والفنية ما لا تزال الأمم عيالا عليه إلى اليوم .

هذه آثار العبادات الإسلامية على الأمم ، إذا أديت على وجهها الصحيح لا على ما آلت إليه اليوم : صلاة صورية ، وصيام اتخذ وسيلة لإثارة القَرَم ، والتوسع فى النهم .

بَصَّرنا الله بديننا القويم ، وجعلنا ممن قال : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [1] [*] .

* * *

(١) سورة البقرة : ٢٨٥ .

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، ص : ٥٦١ ، سنة ١٣٦١ هـ .

الصيام فى نظر العلم

أظلنا شهر رمضان ، وهو كلما أهل أعاد إلى أذهاننا عبادة جليلة الأثر من ضروب العبادات فى الإسلام . وأذكر أنه قد سألنى سائل يوما عن العلة فى سرعة ارتقاء المسلمين الأولين ، سرعة لم يعهد لها مثيل فى أمة من الأمم ، وكان يتوقع أن أجيبه من الناحية الاجتماعية البحتة ، فقلت له : يرجع أكبر الأثر فى ذلك إلى أنواع العبادات فى الإسلام .

فقال ، وقد عجب من إجابتى : وكيف ذلك ؟

قلت : أول تلك العبادات الصلاة ، وهى تبدأ بقول المصلى : « الله أكبر » ومؤداها استصغار كل ما سوى الله ، فلا النفس ولا الأهل ولا المال ولا المتع الجسدية بذات خطر بجانب الله . وهذه العبارة تتكرر فى كل ركعة بضع مرات ، فلا يكاد يقطع المصلى عن التفكر فى صلاته قاطع حتى يقول : الله أكبر ، قائما وراكعا وساجدا وجالسا ، فيضعف سلطان الأغيار على نفسه ، وبضعفها يكمل اتصاله بقيوم السموات والأرض ، فيستمد منه حياة أدبية ، وقوة معنوية لم يكن ليتخيلها ، وبإدمان الصلاة خمس مرات فى اليوم تتبدل حاله ، وتكمل رجولته ، ويتحقق استقلاله ، ويحس فى نفسه بأنه من ضمن القوى المسخرة لتنفيذ مقاصد الخالق فى الأرض .

وثانى العبادات : إيتاء الزكاة ، وهو نظام اقتصادى فذ لم يشارك الإسلامَ فيه أى نظام اجتماعى ، وتتطلبه أوربا وأمريكا فلا تستطيعان أن تنالاه ، وقد حمى حياة جماعات المسلمين من الفقر أجيالا طويلة ، والفقر مدعاة للانقلابات الخطيرة ، ولاختمار روح الحرب الأهلية .

وثالث العبادات : صوم رمضان ، وهو أسلوب آخر من أساليب تعريض الإنسان لنفحات مبدعه ، فإن فى إجاعة الجسد تغليبا للروح عليه ، ومتى تم لها الغلب عليه دفعته إلى عالم السمو دفعا ، وكان تخلقه بالمُثُل العليا طبعا لا تكلفا .

ورابع العبادات : الحج ، والغاية منه تحقيق الوحدة الاجتماعية تحقيقا عمليا ، وإشعار كل فرد من المسلمين بأنه عضو من جسد واحد لا معدى له عن التكافل معه .

فمجموع آثار هذه العبادات يخلع عن عنق الرجل المسلم نير الطبيعة ، ويخلى بينه وبين مصدر القوى العلوية فيستمد حوله وطَوْله مباشرة منها ، فلا عجب أن يكون فى توثبه إلى أغراضه أسرع وصولا وأكثر محصولا من غيره .

كان هذا جوابى لمن سألنى عن سبب السرعة المحيرة للعقل التى استولى بها المسلمون على الزعامة العالمية فى الأرض .

وعلى ذكر الصيام نقول : إن له فوق ثمرته الروحانية القيمة ، ثمرةً جسدية لا يستهان بها ، إن أدّى على وجهه ، ولم يتخذ وسيلة للإسراف فى تنويع الأطعمة والإفراط فى تناولها .

ذلك أن الجسم الإنسانى على اختلاف أعضائه وآلاته مؤلف من خلايا ميكروسكوبية كل منها يتركب من كيس غشائى محوية فيه مادة حية يقال لها البروتوبلاسما ، وفى وسطها نواة صغيرة . هذه الخلايا تغتذى من الدم الذى يتخللها بواسطة عروقه وأوعيته التى لا تحصى ، فتأخذ منه ما يقيم أودها ، ويعينها على أداء مهمتها ، وكلما كان الدم نقيا غير حامل لمواد أجنبية كانت صحة هذه الخلايا جيدة ، وحالة الأعضاء التى تتألف منها طبيعية ، ولكن إذا دخل إلى باطن هذه الخلايا مواد أجنبية عنها ، أو بقايا متخمرة من أغذية فاسدة ، اعتلت صحتها ، وضعفت الأعضاء والآلات التى تتألف منها ، وشعر الجسم بحالة مرضية تستدعى المعالجة والعناية .

وهذه الاختمارات التى تحدث فى المعدة والأمعاء من جراء التغذى ، كثيرا ما يتولد منها ميكروبات تهاجم الخلايا الجسدية وتثقبها وتتكاثر فيها وتفسدها ، ويمتد تأثيرها إلى عدد لا يحصى من الخلايا المجاورة ، فتصيب العضو الذى تقع فيه بمرض عضال قد يفضى إلى موت صاحبه .

نعم : إن الخالق الرحيم جعل من هذه الخلايا جنودا ، وأقدرها على مكافحة الميكروبات وابتلاعها وملاشاتها ، ولكن قد يكون عدد الميكروبات كبيرا فلا تقوى

هذه الخلايا المجندة على التغلب عليها ، فتشتد وطأتها على الجسم ، وتورده حتفه بعد معاناته آلاما مبرحة .

فالويلات التى يكابدها الإنسان من ناحية الأغذية التى يتناولها لا تقف عند حد ، وهى ليست كذلك لأنها ضارة بطبيعتها ، ولكن لأن الإنسان لا يتبصر فى تناولها . فقد اعتاد أن يألف أكل أشياء لا يصح أن تؤكل أصلا ، أو لا يصح أن يستكثر منها . وهو على أى حال قد تعوّد أن يتناول من الأطعمة أربعة أو ثلاثة أضعاف ما يكفيه منها ، وهو ما يتعود ذلك إلا من ناحية التربية . فقد كان أبواه لا يدخران وسعا فى تحضيضه على الأكل ، توهما منهم أن هذا يقويه وينشئه تنشئة ضليعة .

وقد ثبت أخيرا أن الأطفال الذين يُنَشَّئون على أغذية قليلة تطول حياتهم إلى أكثر من ثلاثين سنة بعد السن العادية لموت الإنسان . وقد جربوا ذلك فى الفيران ، وهى أشبه الحيوانات بالإنسان ، من حيث التأثر بالعوارض ، فأتوا بفيران صغيرة أطعموها قليلا ، وأخرى تركوها تأكل كما تشاء ، فشبت الأولى نحيلة ، ولكنها عاشت ثلاث سنين صحيحة ، وشبت الثانية بدينة ولم تعمر غير سنتين ، وهو عمرها العادى ، وقد كررت هذه التجربة لتكون حاسمة .

فتأثير الأغذية فى صحة الإنسان بعد كل هذه التجارب لا يمكن أن تكون محل نزاع ، وقد عرف ذلك من أقدم عهود الإنسانية ، فقال أبوقراط ، وكان عائشا قبل المسيح بنحو خمسة قرون : « أكل الناس أكل السباع فمرضوا ، فغذوناهم بأغذية الطيور فصحوا » . وقال النبى ﷺ لما أهداه المقوقس عاهل مصر بطبيب : « نحن لا حاجة لنا بطبيب لأننا قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » ، إشارة حكيمة إلى أن سبب أكثر الأمراض الأغذية .

فمن الذى يطوف بفكره وهو يتناول الطعام على مائدة مُوقرة بأطيب الألوان أن أكثر ما يستدر لعابه منها ، ينغص عليه عيشه ويقصر من أيام حياته ؟ وليست التبعة فى ذلك تقع على تلك الطيبات ، وإنما تقع على طريقة صنعها ، والإسراف فى تدسيمها وتتبيلها ، وعلى متعاطيها فى التبسط فى تناولها ، وفى تكرار العود إليها قبل الخلاص من البقايا المتخلفة منها .

فمهمة الصيام فى هذه الحالة ، إن أداه القائم به على وجهه الصحيح كما رسمته السنة النبوية ، تعتبر من أمس المهام بصحة الإنسان ، وأعودها بالخير والبركة عليه ، لأنه باقتصاره على وجبتين يترك للقناة الهضمية وقتا كافيا للتخلص من الفضلات المتخلفة فيها ، وتجد عوامل التطهير فى البنية فرصة سانحة للقيام بواجباتها ، فلا ينقضى رمضان حتى يكون الجسد قد أفرز كل ما يكون قد تراكم فيه من سموم الأغذية ، وبقايا التخمر ، وتكون حوافظ الأعضاء من شر الميكروبات قد أتت عليها اصطلاما وإبادة ، فيخرج الصائم من رمضان وقد تبدل شخصا آخر .

ولكنه إن تعدى ما رسمته السنة النبوية من القصد فى التغذى ، وإعطاء الروح حقها من الورع ، والقلب حظه من الطهر ، فأسرف فى تناول مشتهياته ، وغلّب على نفسه سوء الخلق ، وشغل لياليه باللهو والسهر ، فلا عجب إن خرج من الصيام مُوقرا بأعراض السموم الغذائية ، والإفراطات الشهوانية .

من أضر ما تعوده الناس فى رمضان أن يكثروا من أكل ألوان الحلوى ، والحلوى تصنع عادة من السكر الصناعى ، وهذا السكر معتبر علاجا لا غذاء ، فلا يسمح بالأخذ منه إلا فى حدود معينة . وهو خلاف السكر الطبيعى الموجود فى العسل والفاكهة ، وهو سكر صحى لا يضر أكله بل ينفع ويدفع أعراضا مرضية كثيرة . فإن قيل : إن أصل السكر الصناعى نباتى ، قلنا : إن توالى عمليات الإماعة والتصفية عليه تفسد العناصر العضوية التى فيه ، وتحيله إلى محصول صناعى لا يفيد الجسم بل يضره . وقد ألف الدكتور (كارتون) من كلية باريس كتابا أسماه (الأغذية الثلاثة المميتة) اللحم والكحول والسكر ، شن فيه على السكر غارة شعواء ، ولم يسمح لصحيح البنية بأن يتعاطى منه يوميا أكثر من أربع قطع ، وهى ما تكفى لتحلية كوب من شراب الليمون .

الصيام أسلوب عملى للتطهير الجثمانى والروحانى معا ، فيجب أن تعرف له هذه الصفة ، ويجب أن لا يخرج به عن حده ، وإلا انقلب شرًّا على كليهما معا (*) .

(*) مجلة الأزهر : المجلد التاسع ، الجزء الثامن ، شعبان سنة ١٣٥٧ هـ (صفحة ٥٧٠) .

وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ

إنه نظرا لاقتراب موسم الحج ، نهيب بكل مسلم إلى انتهاز الفرصة إذا سنحت لهم لأداء هذه الفريضة ، لا سيما وقد تيسرت سبل الوصول إلى البلاد المقدسة الآن ، وأصبح الحاج يستطيع أن يجد حتى فى البلاد العربية من وسائل الراحة ما لا كان يحلم به آباؤنا من قبل .

وقد فرض الله الحج على المستطيعين له ، الذين تتوافر لهم الصحة والمقدرة المالية ، فمن آنس فى نفسه الاستطاعة المشروعة وخف إليه ، فقد وقع أجره على الله ، وأصبح فى كِلاَءته وحمايته بفضله وكرمه .

ونحن نريد فى هذه المناسبة أن نذكر كلمة فى الحج نضمنها ضروبا من الفوائد العلمية والحكم الإسلامية ، فنقول :

تاريخ الحج :

الحج من الشئون الدينية التى كانت تعرف من لدن أقدم العصور عند جميع الأمم ، فما من أمة إلا ولها مكان معين أو أمكنة تحج إليها ، وحادا أو جماعات ، فى وقت واحد أو أوقات متعددة .

فكان لقدماء المصريين وللسريان هياكل مقدسة يحجون إليها .

وكان الصينيون ولا يزالون يحجون إلى هياكل معينة فى بلاد التبت وبلاد التتار وغيرها .

أما الهنود فحجهم إلى هيكل تحت الأرض فى جزيرة اليفانتا على سواحل مالابار ، أو إلى هيكل جاجرنات أو غيرهما .

أما اليونانيون القدماء فكان لهم فى بلادهم وفى مستعمراتهم بآسيا هياكل يقصدونها ليمضوا فيها وقتا فى العبادة والنسك ، أشهرها هياكل جوبتير وديانا ومنيرفا إلخ .

وقد أُمر الإسرائيليون أن يؤموا أورشليم يمضوا فيه عيد الفصح متعبدين مخبتين .

ولما جاءت المسيحية جعلت أمكنة الحج فى أول عهدها قبور الأولياء والشهداء . ثم حولته إلى أورشليم ، فكانوا طوال عهد القرون الوسطى يقصدونها لأداء هذا الواجب .

الحجاج من أهل الملل السابقة على الإسلام كانوا يرون أن من وجوه الزلفى من الله أن يتكبدوا فى حجهم حرجا شديدا ، فكانوا يتعمدون إرهاق أبدانهم ، كأن يقصدوا مواطن الحج مشيا على الأقدام ، أو حفاة تُدمى أرجلَهم الرمضاء . ومنهم من كانوا يتوجهون إلى الحج موقرين بسلاسل حديدية تهد القوى ، أو يقطعون إليه المساوف الشاسعة وهم داخل أكياس ليتعثروا فى كل خطوة من خطواتهم .

أما الأتقياء من الصينيين فينذرون أن يطوفوا بتلك الهياكل زحفا على بطونهم ، معتمدين على مرافقهم ، أو حاملين أثقالا باهظة على ظهورهم . وكان على الكهان أن يعينوا لهم أى أنواع الإرهاق الجثمانى أحب إلى الله من غيره .

الحج فى الإسلام :

كان العرب قبل الإسلام كسائر الأمم يحجون فى عهد جاهليتهم إلى البيت الذى بناه إبراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام فى مكة ، حتى أن أبرهة عامل أصحمة ملك الحبشة باليمن ابتنى قبل مبعث النبى ﷺ بنحو أربعين سنة كنيسة فى صنعاء ، وحاول أن يحمل العرب على الحج إليها . فلما لم ينجح فى محاولته اعتزم أن يهدم الكعبة ، فقصدها على رأس جيش ممتطيا صهوة فيل له ، فرده الله عنها ، ولم يبلغ مراده منها .

ولما جاء الإسلام جعل الحج ركنا من أركانه الخمسة ، وهو أشد أركانه كلفة ؛ لذلك أحاطه بكثير من وجوه الإعفاء جريا على أسلوبه الحكيم فى دفع الحرج عن متبعيه مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (١)

---

(١) سورة الحج : ٧٨ .

وقوله : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ (١) . فاشترط له الاستطاعة من صحة ومال ، وكره أن يرهق فيه أحد نفسه ولو تطوعا وتطلبا لزيادة الأجر . فقد روى أن النبى ﷺ رأى رجلا ماشيا يتهادى بين ولدين له يريد الحج ، فسأل عن شأنه ، فقيل : يا رسول الله إنه نذر أن يزور البيت ماشيا . فقال : « كلا ! إن الله غنى عن تعذيب هذا نفسه ، احملوه » أى على بعير .

قلنا : أقر الإسلام الحج ، ولكنه لم يدعه على ما كان عليه فى عهد الجاهلية ، فإن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة الأجساد رجالا ونساء مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون . وقد سجل الله عليهم ذلك ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ (٢) . المكاء : الصفير ، والتصدية : التصفيق . وأمر النبى ﷺ لما قوى سلطان الإسلام أن لا يدخل البيت عريان .

ونظّم – سلام الله عليه – الحج فجعل له أميرا يتقدم الناس ويتفقدهم ، ويدفع بوائق الطريق عنهم ، حتى إذا انتهوا إلى البيت تولاهم هو وخطباؤه بالإرشاد لخيرى الدنيا والدين .

وكان رسول الله ﷺ إذا أراد تعميم العلم بأمر من الأمور خطب به الناس فى الموسم ، أو أوعز إلى أميره أن يخطب الناس به هنالك .

فحوّل الإسلام الحج على هذا الوجه من عبادة جسدية لا روح فيها ، إلى عبادة اجتماعية روحية ذات أثر بليغ فى ترقية شئون المسلمين . وقد أشار الله تعالى إلى هذه المزايا العظيمة بقوله تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ (٣) الآية . وقد فسر العلماء المنافع بأنها دينية ودنيوية معاً . وهذا شأن الإسلام فى كل ما فرضه على الناس : يراعى فيه مصلحة الحياتين جميعا .

فلو أردنا أن نستقصى ما يمكن أن يثمره الحج للمسلمين كافة من وجوه

---

(١) سورة المائدة : ٦ .
(٢) سورة الأنفال : ٣٥ .
(٣) سورة الحج : ٢٧–٢٨ .

المنافع الأدبية والمادية لضاق علينا المجال ، فإن لم يكن فيها إلا تعارف الشعوب الإسلامية ، وإلمام بعضها بحاجات بعض ، لكفاها ذلك عاملا قويا فى دفعها إلى تبادل الوسائل والتعاون على سد المفاقر، ولوصلت جميعا على هذا النحو من التكافل إلى مستوى رفيع بين شعوب العالم .

ولكن هذه الثمرات الاجتماعية الجليلة لا يمكن أن تكون إلا إذا تطورت فكرة الحج لدى المسلمين حتى تبلغ المفهوم من مراد الله من الحج . فإن المشاهَد لدى أكثر المسلمين الآن أنهم لا يلحظون فيه إلا الناحية الروحية وحدها ، وكان لتجريده لهذه الناحية أثر ظاهر فى حصره فى طبقة من المسلمين لا تتعداها إلا نادرا .

إذا تقرر هذا كان من أوجب واجباتنا أن ننوه بمنافع لحج للدين والدنيا معا ، وأن نكثر من ترويج هذه الحقيقة فى الأذهان ، وأن ننبه خطباء المساجد إلى ملاحظة هذا الأمر الجلل فى شهور الموسم من كل عام .

ولكنا نعلم من ناحية أخرى أن هذه الدعوة لا تنتج كل ما يرجى منها إلا بارتقاء العمران فى البلاد المقدسة ، وتيسير سبل الوصول إليها . أما الشطر الثانى من هذا الشرط فقد تم بما خصص للحج من بواخر إسلامية تعنى جد العناية براحة الحجاج فى ذهابهم وإيابهم ، مما أصبح مفخرة لمصر ، ونرجو أن يحذو حذوها جميع الأقطار الإسلامية . وأما الشطر الأول منه وهو انتشار العمران فى البلاد المقدسة فأدعى للعناية . فقد مر على الناس زمان كانت الشقة بين مكة والمدينة مخوفة إلى حد أنه كان من المخاطرة بالنفس اجتيازها . هذا فضلا عن أنها كانت تقطع على الإبل فتظل هذه الحيوانات تسير سيرها الوئيد اثنى عشر يوما ، ويضطر من عليها من الشيوخ والنساء أن يمضوا لياليها فى وسط فيافٍ جرداء ، أو وديان موحشة ، محرومين من جميع وسائل الإسعاف . وقد تغير ذلك اليوم ، فتعلم أذكياء العرب تسيير الأوتوموبيلات ، فصارت تقطع تلك الشقة فى ثلاث . ولكن الثلاث كثيرة على الناس أيضا فى مثل هذا العصر ، فلابد من اختصارها إلى يوم واحد بواسطة خط حديدى يمد بين مدينتى الحرمين ، يكون فيه كل وسائل الراحة لقاصدى أداء هذه الفريضة .

ويجب أن تنشأ فى مكة والمدينة فنادق على الطراز الحديث ، وأن يستكثر فيهما من عدد الأطباء والصيدلات ، وأن يدخل إليهما جميع المستحدثات النافعة من

الأنوار الكهربائية والخطوط التلغرافية والتليفونية ، السلكية واللاسلكية ، والبُرد الجوية ، حتى لا يشعر الحجاج بانقطاعهم عن العالم .

نعم : إن هذه التجديدات سائرة هنالك بحيث يرجى لها أن تنتهى إلى هذه النهاية ، ولكن يجب العمل على تنشيطها بكل ما يستطيعه المسلمون من وسيلة ، سواء أكان ذلك بتأليف الشركات ، أو بالتبرع بالمال لجماعة تنتدب لإحداث هذه الأعمال . بهذه الوسيلة يتضاعف عدد الحجاج ، فبعد أن يكون أكبر عدد للحجاج مائتى ألف من سائر الأقطار قد يبلغ المليونين بل أكثر من ذلك ، وفى هذا رواج عظيم للشركات التى تقوم بهذه المنشآت ، وباب رزق واسع للعرب الذين يعتبرون موسم الحج حيلتهم الوحيدة فى الحياة .

ربما يرى بعضهم أنه كلما كثرت المشاق من أداء فريضة الحج ازداد ثواب الحاج . هذا لا مشاحة فيه ، ولكن لا يجوز الإبقاء على هذه المشاق لمصلحة بعض المتطوعين فى سبيل حرمان أكثر المسلمين من أداء هذه الفريضة ، إذ ليسوا كلهم من قبيل هؤلاء المتطوعين ، والإسلام جاء باليسر فى كل شىء ، ورفع الحرج عن كل ما يتعلق بالدين ، فهو دين الكافة لا دين طائفة من الناس ، وقد بنى على التيسير لحكمة عالية وغرض عظيم .

فهل خير للمسلمين أن يحج عدد قليل يجازفون بحياتهم لينالوا أكبر حظ من الثواب بسبب المشاق والأخطار التى يتعرضون لها ، أم أن يحج منهم عدد كبير لا يتكبدون مثل هذه المشاق ، ولا يتعرضون لمثل تلك الأخطار ، مكتفين بثواب القائمين بما فرضه الدين ؟

لا أظن أن يحدث خلاف فى أى هذين الأمرين خير للمسلمين ، لا لأن المصلحة تقضى به ، ولكن لأنه يوافق روح الإسلام من الرفق والتيسير ودفع الحرج والعنت فى كل شىء ، عملا بقوله تعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [1] (*) .

---

(١) سورة المائدة : ٦ .

(*) مجلة الأزهر : المجلد السادس ، الجزء العاشر ، (صفحة ٧١٥) ، شوال سنة ١٣٥٤ هـ .

القصص فى القرآن

القرآن خاتمة الكتب الإلهية ، نزل به الروح الأمين ، على قلب محمد خاتم المرسلين ، هداية للعالمين .

ولما كانت هذه الهداية تشمل الناحيتين المادية والأدبية ، وتقتضى توفية الحاجتين الروحية والعلمية ، نزل القرآن مشتملا عليهما معا ، وجاءت فيه تلك الهداية على نوعيها متماشية مع تطور الأفهام والعقول ، ومسايرة لترقى الآداب والعلوم ، لكيلا يجيء زمان يتناقض فيه العلم والوحى ، ويضطر الناس معه لترك هداية القرآن والتعويل على هداية العلم ، ويكون فى ذلك دليل ضمنى على قصور الكتاب ، ينتهى إلى تكذيب علنى بسماويته ، احتاط لذلك الأمر القرآن ، وانفرد دون سائر الكتب بهذا الاحتياط ، على اعتبار أنه خاتمة الكتب الإلهية ، ليبقى على الدهر نبراس هداية لأهله مهما بلغوا من درجات الألمعية ، وإلى أى حد وصلوا من الفتوحات العلمية ، والانتقالات المادية والأدبية .

ونحن قبل أن نصل إلى موضوعنا نبين وجوه هذا الاحتياط التى جُعلت لتكون حوافظ للعلماء والمتعلمين أن يتدهوروا فى مزالق الفلسفة والعلم ، إبقاءً عليهم من التورط فى هذه الفتنة .

من تلك الحوافظ قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [1] رداً على سؤال بعضهم عن ماهية الروح . والمراد من هذه الآية أن يتحقق الإنسان أن ما وصل إليه من العلم لا يوصله إلى إدراك ماهية الروح ، وأنه يجب عليه أن لا يتعجل فى الحكم حتى لا يقع فى الخطأ .

ومنها قوله تعالى : ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [2] ، وقوله تعالى :

---

(١) سورة الإسراء : ٨٥ .

(٢) سورة الأنبياء : ٣٧ .

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [١] إيذانا منه عز وجل بأنه مذخور للإنسان علم عال يتبين له به أن هذا القرآن حق .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [٢] ، وفيه ردع للمستبدين بآرائهم ، ليطأمنوا من كبريائهم ، ويحدوا من مزاعمهم ، ويعدوا أنفسهم لتلقى نقد الناقدين ، وتقويم العارفين .

ومنها قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [٣] ، وهو إعلان صريح بأن كل قول يجب أن يكون لصاحبه على صوابه دليل ، وأن كل من يُلقى إليه هذا القول يجب أن يطالب بهذا الدليل ، وإلا رُد عليه ما يقول .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [٤] وفى آية أخرى : ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [٥] ، وفيه تصريح بأن كل مُدْلٍ برأيٍ يجب أن يعتمد فيه على العلم ، وإلا عد قوله ظنا وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا .

وهذا كله مؤدى الدستور العلمى الذى وضعه العلامة (بيكون) الانجليزى بعد نزول القرآن بألف سنة ، وخلد به اسمه فى التاريخ .

ومنها قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ، كُلٌّ مِّن عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [٦] وهذا نص صريح على

---

(١) سورة فصلت : ٥٣ .
(٢) سورة يوسف : ٧٦ .
(٣) سورة البقرة : ١١١ .
(٤) سورة الجاثية : ٢٤ .
(٥) سورة النجم : ٢٨ .
(٦) سورة آل عمران : ٧ .

أن فى الكتاب الكريم آيات متشابهة ، أى يدق إدراكها ، وتتخالف العقول فى فهمها ، وتضل فى تحقيقها ، وشُفع ذلك بنهى المؤمنين عن الاشتغال بتلك الآيات ، ونعَى على الذين يتبعونها قصدَهم إثارة الفتنة أو تأويلها ، وما يعلم تأويلها إلا الله ؛ ويكتفى المتمكنون من العلم بأن يقولوا : آمنا به ، محكمه ومتشابهه ، كليهما من عند ربنا ، وما يدرى ما ينطوى عليه هذا الموقف من الحكمة إلا أصحاب العقول .

المتأمل فى هذه الحوافظ القرآنية يجد أنها جد معقولة ، فإن فى الكتب السماوية ، غير ما تأمر الناس به أو تنهاهم عنه ، من الآداب الكريمة ، أو الصفات الذميمة ، أمورا أخرى تتعلق بما وراء الطبيعة يجب أن يؤمن بها الناس استكمالا لحاجات أرواحهم ، وفيها إشارات لذوى البصائر النيرة لا يدركها على حقيقتها سواهم ؛ ولو اشتغل بالبحث فيها جمهور الناس ، وقعوا فيما وقعت فيه الأمم السالفة من التجسيد والتشبيه ، ودب إليهم الخلاف فيها فأصبحوا شيعا لا تجمعهم جامعة .

وفى القرآن الكريم أيضا ، على اعتبار أنه خاتم الكتب السماوية ، أخبار عن الأمم التى سلفت ، وعن الرسل الذين أرسلوا إليهم ، وعن الآيات التى عززوا بها مواقفهم لديهم ، وفى كثير من هذه الأخبار والآيات ما لا يدركه العقل فى قصوره ، ولا يعترف به العلم فى حالته الراهنة ، ولم يذكرها التاريخ أيضا ، اتخذها شبهات على الأديان من يريدون التخلص من سلطانها ، داعين إلى الناس أن يحذوا حذوهم . ولو نظروا إلى أن العلم لا يزال فى مهده ، وأن ما حصله الناس منه على جلالة قدره ، لا يبلغ عشر معشار ما سيبلغونه منه بعد قرن واحد أو بضعه قرون ، لقللوا من غلوائهم ، وعدلوا من تطرفهم . ألا يرون أن العلم الأوربى الذى كان قبل قرن واحد يقرر أن زمان العقيدة بالروح والحياة الآخرة قد انتهى ، آل أمره اليوم إلى بذل جهود الجبابرة فى تحقيق أمر الروح وبقائها بعد الموت ، حتى بلغ منه أبعد مدى ، وأعلن ذلك على رءوس الأشهاد ، وأدخل هذه البحوث إلى جامعاته الكبرى ومنها كمبردج وأكسفورد ؟

وفى عهود المرسلين السابقين ، كان الناس ، وهم فى حاجة شديدة إلى التخلص من الصفات الحيوانية ، بالخضوع للتعاليم السماوية ، لا يقنعهم بصدق المرسلين فى دعواهم إلا حدوث الخوارق على أيديهم ، فكان الخالق الحكيم يوالى الجماعات البشرية

بالرسل مزودين بالقدرة على إحداث تلك الخوارق من ضروب شتى . فلما آن للناس في هذه القرون الأخيرة أن ينظروا فى الديانات ، وكانت الفلسفة المادية قد طوحت بهم إلى نكران كل ما لم يؤيده دليل محسوس ، أسرعوا إلى التكذيب بالنبوات ، واتهموا الأنبياء بالخداع والتدليس . ولو كانوا عاشوا إلى هذا العهد ورأوا رأى العين أكبر علماء أوروبا وأمريكا اليوم يشتغلون بالتوسع فى دراسة الخوارق ، لأدركوا أن ما يكذبونه من أخبار المعجزات التى أرسل بها المرسلون ، أصبح فى العلم ما يبررها ، ويقربها من العقول بمشاهدات محسوسة .

وكما كذبوا بالرسالات ، وخوارق العادات ، اضطروا أن يكذبوا بالنبوات ، واعتبروا جميع هذه الأخبار من الأقاصيص الخيالية ، ومحصوا حوادث التاريخ مقتصرين فيه على الحوادث الدنيوية ، تاركين أخبار الرسل وما أرسلوا به من المعجزات لأصحاب الأديان ، ودعوا ما دوَّنه هؤلاء منها بالتاريخ المقدس . ولما كان أولئك القائمون بتمحيص التاريخ فى الثلاثة القرون الأخيرة من الملحدين الذين لا يؤمنون بخالق الكون ، ولا بالنبوات ، ولا بالوحى ، أطلقوا على التواريخ المقدسة للأمم اسم الميتولوجيا أى علم الأساطير ، وذهبوا فى تحقير هذه الميتولوجيا كل مذهب ، غير مفرقين بين ما يصح أن تطلق عليه هذه الكلمة من العقائد الوثنية ، والتقاليد الخرافية ، وبين الحوادث النبوية القيمة التى كان لها الفضل كله فى تهذيب النفوس ، وكبح الرعونات ، وتوجيه القلوب إلى المثل العليا من الحياة الإنسانية .

وجاءت الأجيال الحديثة فرأت نفسها من أخبار الأمم حيال تاريخ وميتولوجيا ، ودُربت على أن تعتبر الأول خلاصة ممحصة من حوادث الشعوب الماضية ، وأن تعد الثانية حكايات خيالية تنزلت من عقول ساذجة ، اخترعها لها رجال مدلسون ، فألفوا أنفسهم متحللين من كل ما حمّل الأقدمون أنفسهم من تكاليف عقيدية ، وتقاليد وهمية ، معتبرين كل ما يوجد فى تاريخ الأديان وكتبها المقدسة من أخبار وحوادث وانقلابات لا تتفق والتاريخ المبتور ، خرافات لا أصل لها فى الواقع !

فهل بعد هذا البيان يسوغ لإنسان أن يقول إن حادثة بعينها أو حوادث من قبيلها تتصل بالدين ، خرافات لا أصل لها فى الماجريات البشرية ؟

وهل بعد أن أعلن أجلاء العلماء الماديين فى أوروبا من أمثال وليم كروكس مكتشف إشعاع المادة ، وروسل ولاس نديد دارون ، وسيزار لومبروزو واضع علم الأسباب الفيزيولوجية للجرائم ، ووليم جيمس البسيكولوجى الأمريكى الأكبر ، وشرنك نوتزنج مدرس علم النفس بجامعة برلين ، إلى ما لا يحصى من أمثال هؤلاء ، قلنا هل بعد أن أعلن هؤلاء على رءوس الأشهاد وفى القرن العشرين ، أنهم قد اكتشفوا عالم ما فوق الطبيعة ، وأنهم يتحدثون مع كائناته ، وأن هذه الكائنات تتجسد أمامهم وتكلمهم ، وتحدث أمامهم من خوارق النواميس الطبيعية ما يدهش العقل ؛ قلنا هل بعد هذا يسوغ لعاقل أن ينكر المعجزات التى أيدت المرسلين فى دعواتهم الدينية ، باعتبار أنها تناقض العلم ، وتخالف نواميس الطبيعة ؛ وأن يعتبر كل قصص ورد عن مثل هذه الأمور فى الكتب الدينية من الخرافات التى لا أساس لها من التاريخ ؟ أى تاريخ بشرى يتخذ معيارا لما حدث وما لم يحدث من أخبار الإنسانية ، وهو قائم على اعتبار أن وجود الخالق والروح الإنسانية والحياة الأخروية ، والأرواح العلوية والسلفية من الأمور الخيالية ، ويتبع ذلك أن كل ما يروى عنها ، ويناقض العلم الذى قصروه على معلوماتهم المحدودة ، يجب أن يحسب من الأقاصيص الخرافية ؟!

نعم إن الحوادث التى صاحبت رسالات الرسل دخل فيها كثير من المبالغات ، ولكن لهذه المبالغات سمات يُهتدى بها إليها ، فكان الموافق للعقل والعلم لدى العائشين معنا فى القرن العشرين ، وشهدوا الفتوحات العلمية الحديثة من تفتيت الذرة وإحالتها إلى أصلها وهو القوة ، بعد أن عدها العلم مادة صلبة أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، ومن محاولة استخدام الأشعة الكونية لإحداث أعظم انقلاب فى حياة الإنسانية . ومن إثبات العالم الروحانى عمليا . كما صرح بذلك أكابر ممثلى العلم . وهذا واحد منهم (كاميل فلامريون) أشهر علماء الفلك فى القرن العشرين يقول فى كتابه (المجهول والمسائل النفسية) :

« لقد أثبتت المشاهدات الحسية وجود عالم روحانى محقق كتحقق العالم المادى المدرك بحواسنا الخمس » .

هذه مقدمة نذكرها بين يدى كلمة نريد أن نقولها عن القصص فى القرآن الكريم :

نوه الكتاب الكريم بأمم ماضية ومرسلين ، وقص من أخبارها وأخبارهم ما فيه موعظة للتالين والسامعين ، فلاحظ بعض المستشرقين ، وكلهم من غلاة الماديين ، أن من هذا القصص ما لم يرد فى التاريخ ، وبعضه يعتبر من الخرافات .

وجوابنا على هذا كله ما ذكرناه من أن الذين دونوا التاريخ قد جروا فى تمحيص الحوادث على مطابقتها لأصولهم فى تقرير الحقائق ، وقد بينا لك أن من أصولهم نكران وجود خالق الكون ، واعتبار الإنسانية والحياة بعد الموت من أعرق المعتقدات الخيالية ، وأشدها إضرارا برقى الإنسانية ، وهذا ليس بمعيار صحيح لتقدير ما هو حق وما هو باطل من الماجريات العالمية كما قدمنا .

أما ما يعتبرونه فى القصص من الخرافات ، فهو لأنهم بحثوا التاريخ على ضوء المبادىء المادية البحتة التى تعتبر ، كما قلنا ، وجود الخالق والروح ، والكائنات العلوية والسفلية ، وتأثيرها فى خرق النواميس الطبيعية ، من الأوهام الطفلية .

فإذا كان هؤلاء المكذبون ينكرون الحركة العظيمة التى قامت فى أوروبا بين العلماء مدة مائة سنة وراء إثبات عالم ما فوق الطبيعة على مقتضى الدستور العلمى ، ويهزأون بما أدت إليه من النتائج المحسوسة فى إثبات الروح والحوادث الخارقة للنواميس الطبيعية ، والقائمون بها أئمة العلم العالمى ومدعمو أصوله ، وقد ألفوا فيها مئات من الكتب ، وأسسوا لها مثلها من الجمعيات والمجلات ، وجمعوا لها نحو سبعة مؤتمرات عالمية فى أكبر عواصم الأرض ، ودخلت دراستها فى الجامعات وجعلت لها مقاعد فيها ، ينكر هؤلاء المستشكلون هذا كله وهو قائم بين أيدينا ويهزأون به ، أفيستغرب منهم بعد هذا أن ينكروا رسالات الأنبياء وأخبار الأمم السالفة وبيننا وبينها ألوف من السنين ؟ (*)

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد التاسع عشر ، (صفحة ٨) ، سنة ١٣٦٧ هـ .

حاجة الناس إلى الدين

لا تنحصر حاجة الناس إلى الدين فى تنظيم شئونهم الاجتماعية ، وإصلاح حالتهم الدنيوية ، فإن لهم فوق ذلك حاجات عقلية ونفسية لا معدى لهم عن سدها ، وهى أخص مهمات الدين ، وأسمى ما تنتظره الأرواح البشرية من الوساطة بينها وبين الملأ الأعلى .

عاش الناس آمادا طويلة رازحين تحت كلاكل الحاجات المادية ، فكان لا هم لهم إلا تحصيل ما به قوام حياتهم الجسدية ، وحتى وهم فى هذه الحالة لم تشغلهم تكاليف الحياة القاسية عن التطلع لما فوقها ، كما يدل عليه ما وُجد من الصور والعُوَذ على بعد مئات الأمتار من السطح الحالى للأرض ، أيام كان الإنسان فى العهد الأول من وجوده على هذا الكوكب .

وما كاد الإنسان يطمئن على وجوده المادى ، حتى كانت هذه الحاجة الروحية قد بلغت فيه أشدها ، فاستوعبت قواه النفسية ؛ فإذا كان الدين كما يقول الماديون قد دفع إليه الهلع من جوائح الطبيعة ، فما باله وقد ارتقى الإنسان فى أسباب مكافحتها بحوله وحيله ، يزداد ولوعا بالدين ، وتدلها فيه ، ويضحى فى سبيله وجوده المادى العزيز عليه ؟

يقولون : إنه فعل ذلك طمعاً فيما وُعد به بعد الموت من وجود كريم ، ونعْيم مقيم .

نقول : ومن أين أتاه هذا اليقين الذى يدفعه إلى هذه النهايات البعيدة ، وهو وقْف على الموجودات المحسوسة ، فهل يسوّغ لنا علم البسيكولوجيا أن نعتقد أن المعقول يبلغ درجة المحسوس فى تحصيل اليقين ؟

هنا تنشأ مسألة بسيكولوجية من أبعد المسائل غورا ، وهى : إذا كان اليقين الذى يحمل على التضحية بالذات ، لا يُعقل أن يحصل إلا من ناحية المحسوسات ،

فكيف حصل من ناحية الدين ، وهو أمر عقلى بحت كسائر المعقولات ، وليس فيها ما يبلغ من الاستيلاء على النفس هذا المدى البعيد ؟

الجواب على هذه المسألة هو الحل الوحيد لها ، وهو : أن فى النفس البشرية غريزة فطرية للتدين ، يدل عليها إجماع الناس على الاحتياج إليه ، حتى فى القرن التاسع عشر الذى بلغت النظريات الإلحادية فيه أوج عظمتها ، وما كان هذا الإجماع لينعقد إلا لأن فى النفس البشرية داعية فطرية إليه ، وفى العقل الإنسانى حاجة به .

هذا التعليل ليس يشق على الفهم ، فإن للإنسان عقلا لا يقف من مطامحه عند حد ، فهو دائم النظر فى الوجود ، مغرى بالاستدلال والاستنتاج ، لا يردعه عن محاولاته هذه عائق ، حتى ولا عظمة الوجود نفسه ، فهو يحاول الوصول إلى مساتيره بكل ما يستطيعه من وسيلة ، فإن أعياه أمره لجأ إلى خاصة التفكير فيه ، وسبح منها فى مجال لا حد له ، وعاد بمدارك عليه قد لا تتفق والواقع ، ولكنه يحرص عليها جهده ، ولا يفتأ يعرضها على محك النظر والاستقراء ، غير حاسب لما يناله من وراء ذلك من لغوب .

يرى الإنسان الحوادث الطبيعية تتوالى بين يديه ، فلا يدعها تمر حتى يشبعها تأملا وتتبعا ، ليدرك أسبابها القريبة منها ، والبعيدة عنها ، طماعية فى أن يدخل الوجود وما فيه فى دائرة علمه ، وحيز إدراكه .

وقد رأى الإنسان أنه كثيرا ما أخطأ فى النظر ، وشط فى الاستدلال ، وأبعد فى الاستنتاج ، ولكن ذلك فضلا عن أنه لم يردعه عن متابعة النظر ، زاده ولوعا به . وهذا هو سر عظمته العقلية ، وعلة تأسيسه للعلوم ، وتمهره فى الفنون ، وتدرجه فى تسخير قوى الوجود .

إن كائنا هذه سيرته فى العالم المحيط به ، لا يعقل أن لا يعبأ بتحديد علاقاته بهذا الوجود ، وبالعلة التى يتخيلها لنشوئه ، ولا أن لا يأبه بنفسه وبمصيرها بعد الموت . وهل للدين معنى غير هذا فى عصر من العصور ؟ وإذا كان الأمر على ما ترى فكيف يعقل أن يكون حامل هذا الاستعداد العقلى ، والميل الفطرى بلا دين ؟

فالعلم والدين إذاً حاجتان طبيعيتان للإنسان لا يستطيع أن يعيش بدونهما ،

وهو ما تراه بعينك فى كل جيل ، وفى كل دور من أدوار البشرية . وقد كابد كل منهما ما كابده الآخر ، من النشوء ساذجا محاطا بالأوهام والظنون ، ومن التدرج على مدى العصور فى التلطف والتهذب والتجريد .

فإذا أمكنك بعد هذا البيان أن تهدم العلم وتلاشيه ، وتمنع الإنسان من التشبث به والمضى فيه ، أمكنك أن تهدم الدين وتردع الإنسان أن يشتغل به .

يقول قائل : هذا تشبيه مع الفارق ، فإن العلم قوام الحياة الإنسانية ، لا صلاح لوجود الإنسان إلا به ، ولا ارتقاء له إلا به ، فلتشبث الإنسان به ولتعويله عليه سبب معقول ؛ ولكن الدين شهوة عقلية يمكن أن تستقيم بدونه أحوال الآحاد والجماعات ، فكيف تضعهما فى مستوى واحد من الضروريات الإنسانية ؟

نقول : هذه تفرقة غير صحيحة بين الحاجات الإنسانية . فقد تكون الحاجة العقلية أشد علوقا بالنفس ، وأفعل فى تقويم الحياة ، من الحاجة المادية ، والمدار فى هذا على قيمتها فى النفسية الإنسانية ؛ أفتريد أن تقول إن ميل الإنسان إلى التبسط فى حاجاته المادية أشد من ميله إلى طمأنينته الروحية ، وأنت ترى أنه كثيرا ما ضحى بتلك الحاجات فى سبيل هذه الحاجة القلبية ، بل كثيرا ما بذل وجوده المادى فى سبيلها ؟

إن قلت : كان ذلك فى عهد قصوره العلمى ، أما اليوم وقد بلغ درجة عالية من المعارف ، فقد بدأ يحس بأن تلك الحاجة الروحية مرتكزة على هوى يمكن التغلب عليه ، وقد امّلس من علائقه كثيرون ممن تأكدوا من أصله الوهمى ، وهؤلاء الكثيرون يزدادون كل يوم عددا ، حتى لسوف يلحق بهم ، ويقول بقولهم العالم كله .

قلنا : لو كان العلم قد حقق الظن به ، فكبح من رعونة البشرية ، وكسر من غُرامها ، وعدل من غلوائها ، إلى الحد الذى يحملها على قبول الأصول الأدبية ، والعمل بها ، وتسريتها على إخوانه فى الإنسانية كافة ، لا على الجماعة التى هو منها خاصة ، لكى تزول آفة المزاحمات الحيوانية ، والمنازعات القومية ، وتبطل الحروب المجتاحة ، ويجد الهرمى والزمنى والمستضعفون حاجتهم من الكفاف ، فى ظل نظام رحيم يضعه العلم ، وتهيمن على تنفيذه النفوس الكريمة ، ليعيش الناس إخوانا

متراحمين ، لا أعداء متناكرين ؛ قلنا لو أن العلم حقق هذا الظن فيه ، ساغ لأصحاب الفلسفة المادية أن يقولوا : أيها الناس ها هو العلم قد كفا كم كل ما أهمكم فى هذه الحياة ، وكفل لكم الأمن والطمأنينة والهناءة فيها ، فانضووا إلى لوائه ، واعتصموا بجنابه ، ودعوكم من كل دعوة غير دعوته ، فليس بعد كلمته كلمة تذاع ، ولا مع أمره أمر يطاع .

ولكن العالم يرون الأمر على عكس ما تبجح به الماديون ، فإذا كان قد أنجح فى تعبيد سبل المعاش ، والذهاب بالصنائع والفنون إلى غايات بعيدة من الإبداع ، فإن النفوس لا تزال ترتع فى حمأة الحيوانية ، وتدفع بأصحابها إلى ارتكاب كل ضروب القساوات البهيمية ، فهى ما تزال فى حاجة إلى رادع قوى من أدب عال . ومن أين يجيء هذا الأدب العالى وهى لا تعتقد أن فوق الوجود المادى مهيمنا عليه يثيب المحسن على إحسانه ، ويذيق المعتدى جزاء عدوانه ، وأن حياته غير منقطعة بموت جثمانه ، وأنه قد قُدر عليه الارتقاء الأدبى ، كما قُدر عليه الارتقاء المادى ، وأن أحدهما لا يغنى عن الآخر فى حفظ حياته ، واستكمال أسباب كمالاته ؟

يقول محاورنا : لو صح ما ذكرتموه لكانت العصور التى كان السلطان المطلق فيها للدين قد خلت من ويلات الحروب ، وآفات المنازعات ، ولعاش الناس فى ظله الظليل إخوانا متراحمين متعاونين ، ولكن الذى حدث أن الحروب فى تلك العصور كانت شرا مما هى عليه اليوم ، بين بعض الأمم وبعضها الآخر من جانب ، وبين جماعات الأمة الواحدة لتفرقها فى المذاهب ، من جانب آخر .

فنجيبه : الأمر كما قلت ، ولكن لم يكن سبب ذلك الدين ، وإنما كان سببه أن الإنسان كان ما يزال فى دور الطفولة ، وجماعاته فى دور التكوين ، وطبائع الشئون العالمية داعية إلى الاضطراب وعدم السكون . وقد عُصيت وصايا الدين وأولت لتوافق ما بقى فى النفسية الإنسانية من آثار النزعات الوحشية ؛ وأصْرح ما ألفت نظرك إليه الدين المسيحى ، فإنه لم ينه عن الحرب وإراقة الدماء فحسب ، ولكنه نهى عن مقابلة الشر بالشر مطلقا .

والإسلام وإن أباح الحرب جريا مع سنن الاجتماع ، فإنه أحاطها بجميع ضروب التلطيف فقال : ﴿ وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ ٱللهَ

لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [١] . وقال : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [٢] .

ولكن الواقع أن الإنسان يجرى فى أدوار تطوره على سنن لا يستطيع أن يتعداها ، فوضع له الدين هذه الملطفات لكيلا تطغى عليه الميول الحيوانية .

ولكن هلم أحدثك عما فعله العلم : إنه ما فتىء بعد أن نال حريته فى الأربعة القرون الماضية يحط من قيمة الإنسانية ويساويها بالحيوانية ، وقرر أن رق الإنسان لا يتم إلا على سنة الانتخاب الطبيعى ، الذى هو ثمرة التناحر المستمر بين الجماعات ، وقرر أن الحرب لابد منها لبقاء الأصلح للبقاء ، وإبادة الضعفاء ، فالسلام بهذا الاعتبار يكون نكبة على الإنسانية .

وقد كان من ثمرة انتشار المذاهب المادية المختلفة ذيوع رأى شوبنهوير فى التشاؤم ، ومؤداه أن الأمور تجرى فى الحياة من سىء إلى أسوأ ، وأن لا منجى للإنسان من شرورها إلا بالجلاء عن هذا العالم ، فكثر عدد المنتحرين بين الرجال والنساء ، الأمر الذى كان نادر الوقوع قبل سيادة هذه المبادىء .

وناهيك بما يستتبع فُشُوّ هذا المذهب من الاستخفاف بالحياة ، وكراهة النفوس للبقاء ، ألم يقل الفيلسوف المشهور (إدوارد هارتمان) تلميذ شهوبنهوير : « إن الإنسان متى وصل إلى درجة عالية من صنع الألغام ، فإن أول ما سيعمله نسف الكرة الأرضية بمن عليها ، وتذرية حطامها فى الجواء ، تخليصا للإنسان من ويلات هذه الحياة ! » .

فإذا كانت هذه ثمرة العلم المادى فهى ليست بالتى تمده بالحياة الطيبة ، وتدفعه إلى المثل العليا من الإنسانية الفاضلة ، بل هى ثمرة كلما أوصلته إلى تسخير قوة من قوى الطبيعة ، استخدمها فى ابتكار وسائل لإهلاك بنى جنسه ؛ فلا يعقل أن يسود السلام فى الأرض ويصبح أهلها إخوانا متزاملين ، كما تحلم بذلك النفوس المطمئنة ، ما دامت هذه الروح الشريرة لا تجد أمامها ما يكبح جماحها من عقيدة ملطفة .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٠ .

(٢) سورة الأنفال : ٦١ .

يقول مجادلنا : ومن أين تأتى بهذه العقيدة ، وتقيم على صحتها الدليل على شرط الفلسفة الحسية ، كما هو مطلوب العقلية الإنسانية الراهنة ؟

نقول : أين مجادلنا من تاريخ العلم وهو يُدل به علينا ؟ إن العلم يشتغل منذ مائة سنة بتحصيل هذا الدليل ، وقد انتهى إلى بينات سحقت المذهب المادى سحقا ، وذرته فى ذيول السافيات ، فهل لا يزال مجادلنا قابعا فى زاويته لم تبلغه منه دعوة؟ فما أحكم الأستاذ الفلكى الكبير كاميل فلاماريون حين قال فى كتابه المجهول والمسائل النفسية :

« إن من الناس من تسقط السماء على الأرض بين يديه فلا يشعر بها ! » (*).

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، الجزء الخامس ، (صفحة ١٩٧) ، سنة ١٣٦١ هـ .

منطق الدين

محاولة وضع أداة علمية لمعرفة الدين الحق

للمعقولات أداة يقال لها المنطق ، تعصم الفكر عن الخطأ ، وهو مؤسس على القوانين العقلية ؛ وللمعلومات أداة أيضا يقال لها المنطق العلمى ، تحمى الباحث فيها من الانخداع بالظواهر ، والخلط بين ما هو علم يقينى ، وما هو رأى مرجح ، وما هو افتراض مؤقت ، وتدُلُّه على ما يجب الجرى عليه فى جمع المشاهدات وترتيبها ، والتأمل فيها وتمحيصها ؛ كل ذلك ليأمن العقل بالأول من الخبط على غير هدى ، والتأدى إلى أوهام يظنها معقولات وليست بها ؛ ويتقى الباحث بالثانى رفع الأمور الظنية ، إلى مرتبة العلوم اليقينية ، فيقع بسبب ذلك فيما كان عليه السابقون من اعتبار الآراء والافتراضات معارف مقررة وهى ليست منها ، ويكون وجودها معطلا له عن الوصول إلى الحقائق الثابتة .

وضع المنطق أرسطو فى القرن الرابع قبل المسيح ، وأكمله من جاء بعده من كبار الفلاسفة ، ووضع الثانى العلامة (بيكون) الإنجليزى فى القرن السابع عشر . وأنا أرى أن الدين يجب أن يكون له منطق يحفظ من يريد الاهتداء إلى صحيحه من الخلط بينه وبين فاسده ، وفيما وصل إليه العلم العصرى والفلسفة الحديثة من المعلومات المحققة ، والنظرات الصادقة ، ينبوع لا ينضب لبناء أصول هذا المنطق . وإذا كان عهدٌ يُعتبر أكثر عهود العقلية الإنسانية صلاحية لهذا العمل الدينى الخطير ، فهو هذا العهد الذى نعيش فيه ، وذلك لعدة وجوه :

(أولها) أن العلم قد وصل إلى حد بلغ فيه سن الرشد ، لا من ناحية أنه انتهى إلى حدود ما يمكن معرفته ، ولكن من ناحية أنه أدرك أنه يستحيل أن يعين ما يمكن معرفته من المجهولات ، وما لا يمكن معرفته منها ، وأن أفق المعرفة انفرج أمامه إلى ما لاحد له ، وأصبح من كثرة ما منى بالمفاجآت ، يتوقع أن يباغت بشىء منها يقلب جميع مقرراته رأسا على عقب ، حتى قال العلامة الكبير هنرى بوانكاريه

أحد أعضاء المجمع العلمى الفرنسى فى كتابه (العلم والافتراض)

: « La Science et L'hypothèse »

« لما تروى العلماء قليلا (فى العهد الأخير) ، لاحظوا مكان الافتراض من العلوم ، ورأوا أن الرياضى نفسه لا يستطيع الاستغناء عنه ، وأن التجربة لا تستغنى عنه كذلك . حينذاك سأل بعضهم بعضا : هل هذه الصروح العلمية على شىء من المتانة والرسوخ ، وتحققوا أن نفخة واحدة تكفى لجعل عاليها سافلها » .

(ثانيا) إفاقة العقلية العلمية من غرورها القديم ، وهذه الإفاقة ثمرة الرشد الذى بلغه العلم ، وبيناه فى الوجه السابق ، فقد كانت الخيلاء العلمية قد انتهت فى القرنين الثامن والتاسع عشر إلى حد لا يطاق ، حتى ظنوا بأنفسهم ما لا يصح أن يظنه عاقل بنفسه ، وترفعوا فى سبيل ذلك عن قبول أى قول يخالف ما كانوا عليه . حتى إنه لما حلل العلامة (لافوازييه) الهواء إلى أوكسيجين وأزوت فى القرن الثامن عشر ، وأعلن ذلك للعلماء ، كذبوه أشنع تكذيب وعارضوه بأن الهواء من العناصر الأربعة ، وأنه لا يعقل أن يكون مركبا . فأخذ يلفت نظرهم إلى أنه إنما يحدثهم عن تجربة علمية يمكن شهودها عمليا ، لا عن رأى يقبل الأخذ والرد . فلم يرفعوا باكتشافه رأسا خمسا وعشرين سنة ، ثم قبلوه كارهين وكادوا لا يفعلون .

ولما اكتشف العلامة باستور أن الحى لا يمكن أن يتولد تولدا ذاتيا ، وكانت هذه عقيدة راسخة عند العلماء ، قابلوا اكتشافه بالازدراء والسخرية . فقال لهم : إنى لا أدعوكم إلى مسألة فلسفية ، ولكن إلى تجربة علمية ، فلم يقيموا لكلامه وزنا ، غرورا بما كانوا عليه ، فظل ينافح عن اكتشافه عشرين سنة حتى قبلوه مضطرين .

(ثالثها) بلوغ الدراسات الدينية ممن وقفوا أنفسهم لهذه الناحية التاريخية من النفسية البشرية ، إلى حد النضج ، فعرفت أصول الأديان ، وظهر تسلسل بعضها من بعض ، وعرف أن أصلها جميعا التوحيد الخالص لا التعدد فى الآلهة ، قرر ذلك كبار المستشرقين وعلى رأسهم الأستاذ الألمانى الكبير (ماكس موللر) . ودُرست الكتب السماوية دراسات تحليلية ، وضُبطت سنو تدوينها ، وعُرف ضياع أصول أكثرها ، وضياع تراجمها أيضا التى أخذت عنها النسخ الموجودة الآن ، واكتشفت أمكنة التحريف من بعضها ، وحللت شخصيات رجالاتها ، وحُررت أقوالهم

وآراؤهم ، وعُلم مبلغ تأثير كل منها فيما عليه أصحاب تلك الأديان الآن . فأصبح من يريد التبحر فى هذه الموضوعات ، حيال ذخر جليل القدر من مؤلفات توصله إلى ما يريد كشفه منها ساعة طلبه ، لا يبذل فيه جهدا ، ولا يكد له عقلا .

(**رابعها**) إكباب العلماء والفلاسفة وقادة الأفكار منذ تسعين سنة ، عقب ظهور حوادث خارقة للعادة ، على دراسة النفس الإنسانية على أسلوب عملى تجريبى ، من ناحيتى التنويم المغناطيسى والوساطة بين العالمين . وقد أفضت هذه الدراسات العملية إلى تجارب حاسمة تثبت وجود روح فى الجسم الإنسانى مستقلة عنه ، يمكن إخراجها منه بواسطة التنويم العميق ، فتتجسد على صورته تجسدا خفيفا مستعيرة جسدا من مادته ، يمكن تعيين وزنها ، بما نقص من جسم المنوَّم ، وتظهر حاصلة على عقليته ونفسيته وكل مميزاته ، ظهورا يلمس ويصور ، وتصدر منها أفعال مادية لا تدع فى النفس شبهة . ثبت كل هذا ثبوتا علميا ، ولا عبرة بمن يجهله ممن لا يعنيهم أمره .

هذه الثمرات العلمية التى تقررت على مقتضى الدستور العلمى الصارم ، قد أتت على جميع شبهات الماديين ، وقضت على مذهبهم قضاء لا أمل فى قيامه بعدها . فخلصت بذلك العقول من المآزق التى كانت دفعتها فيها الفلسفة المادية ، واتجهت إلى آفاق جديدة من الدراسات العالمية متبعة أصول الدستور العلمى ، لا سابحة فى جو الخيال الذى لا يؤمن معه الشطط ، ولا يرجى به الوصول إلى الحقيقة الطبيعية . هذا حدث جلل خص الله به أهل القرن العشرين الذى طغت فيه الفلسفة المادية طغيانا كادت معه تلحق الإنسان بالحيوان الأعجم .

(**خامسها**) كل هذه الفتوحات العلمية نبهت فى القلوب العاطفة الدينية ، وأيقظت مطالبها الروحية ، وفتحت للعقول آفاقا عليا تاقت معها إلى البحث عن نظام دينى يتفق ومقررات العلوم ، ويصلح لأن يرقى بالروح فى عالمها خالصة من وساوس الأساطير القديمة ، حرة من قيود التقاليد الميتولوجية البائدة . وقد دفعت هذه النزعة الشريفة رجالا من أكبر مفكرى العالم فى أواخر القرن التاسع عشر ، إلى وضع دين علمى سموه الدين الطبيعى ، جعلوا أساسه الاعتقاد بالله وبخلود الروح ، وتعاليمه الآداب العالية ، والأخلاق الصالحة ، والسيرة القويمة ، مما يشير

إليه العلم بجملته وتفصيله . هذه الديانة التى قام بها أكبر فلاسفة العصر من أمثال جول سمون وكارو ، لقيت إقبالا عظيما من كبار العقول ، وأصبح أشياعها لا يحصون كثرة وإن كان لا يشعر بهم أحد .

هذه الحالة العلمية والنفسية الراهنة ، تسمح لمثلى أن يستفيد منها فى وضع منطق دينى ، مستمد مما تقرر من ثمرات المعارف الممحصة ، بحيث لا يخرج فى أصل من أصوله عما ثبت بالبرهان القاطع من بحوث العلماء ، وما عرف من اتجاهات النفسيات الصافية . وإنى أعتقد أن الروح العصرية قد نضجت لظهور مثل هذا العمل العلمى ، فإن المقررات التى يجب أن يستمد منها مادته ليست مما يتغير بتغير الأزمان ، ولست أبالغ إن قلت إنها أصبحت بدهيات علمية تكاد تكون فى مستوى المعلومات الضرورية للإنسان .

الآن يسوغ لنا أن نبدأ فيما نحن بسبيله من بناء هذا المنطق الخاص فنقول :

الأصل الأول :

الناس كلهم إخوان متساوون فى الحقوق ، لا يتفاضلون بأجناسهم ولغاتهم وبيئاتهم وألوانهم ، ولكن بمزاياهم الأدبية ، وقواهم العقلية ، وقد خلقوا ليترافدوا على تذليل مصاعب الحياة ويتحابوا ، لا ليتناكروا ويتناحروا .

تفصيل هذا الإجمال :

من العلم المحسوس أن الناس جميعا نشأوا من أبوين اثنين ، فألفوا فى أول أمرهم جماعة واحدة ، قامت من الأرض على بقعة واحدة ، فلما كثروا وضاقت بهم بيئتهم ، نزحت طوائف منهم إلى بقاع جديدة ، ثم تكاثروا وتفرقوا ، وتكاثروا وتفرقوا ، وفى كل مرة يزداد بعدهم عن بيئتهم الأولى ، حتى ملأوا الأرض على رحبها . هذا هو السبب الطبيعى فى وجود القبائل والشعوب والأمم وتفرقها فى الأرض .

ولما كانت حياة الإنسان فى أول أمره ساذجة ، لم يضطر من اللغة إلا لما يدل على حاجاته الضرورية ، وكلما اضطر لشىء وأوجده بما مُنحه من قوة العقل ،

أطلق عليه اسما جديدا . وبما أن هذا التوسع فى إطلاق الأسماء نشأ وجماعاته متفرقة فى الأرض ، جاءت هذه الأسماء متخالفة ، وكان هذا سبب تخالف لغات البشر فى بقاع المعمور .

أما اختلاف الألوان ، فنشأ من تفاوت درجات الحرارة والرطوبة فى الأصقاع الأرضية ، فمن سكن البقاع من القطبين ، جاءت ألوانهم ناصعة البياض لضعف تأثير الأشعة الشمسية فى تلوين بشرتهم ، وكلما بعدوا عنهما واقتربوا من خط الاستواء ، اشتد فعل الشمس على خلايا أجسادهم فبعدت عن البياض الناصع يسيرا يسيرا ، حتى انتهت فى المناطق المحرقة إلى السواد الفاحم ، وكان هذا مصدر اختلاف الألوان فى النوع الإنسانى . ولو كان له مصدر غير هذا لوجدت فى المناطق المختلفة ، ألوان متخالفة لأهلها الأصليين ، وهذا لا وجود له ألبتة .

هذه هى الأسباب الطبيعية للفوارق الرئيسية بين طوائف الأسرة الآدمية .

ولسنا نشك فى أنه كان للبيئات المختلفة ، وما لقيته الجماعات فى رحلاتها الشاسعة ، ولاختلافات الجواء وانقلاباتها الكثيرة ، ولما اضطرت إليه من ضروب الجهود ، ولما دُفعت إلى التعويل عليه من المواد الغذائية ، والتواء طرق الوصول إليها ، قلنا : لسنا نشك فى أنه كان لكل ذلك تأثير فى إحداث الاختلافات فى أشكال جماجمها ، وصفات وجوهها ، وقابلياتها للتعقل والترق ، مما لا يجوز نكرانه أو تجاهل تأثيره .

هؤلاء الأقوام رغما عن تباعد بيئاتهم ، وتباين أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ، يعتبرون إخوانا بحكم النسب الطبيعى الذى لا خلاف فيه . وهم وإن اختلفوا فى بعض التفاصيل الصورية إلا أن لجميعهم نفوسا وعقولا وميولا متشابهة فى أصلها ، وإن تنوعت بسبب العوامل التى احتوشتها . ولكن هذه الاختلافات لم تَعْدُ على فطرتهم الإنسانية ، ولا تصلح أن تكون سببا لحرمانهم من الحقوق الطبيعية . فلا يوجد شعب فى الأرض يشذ عن الألفة والانضمام للجماعة ، لو آنس فى القائمين بهذه الدعوة روح الإنصاف والرحمة وشرف النفس ، ورأى أن نصيبه من العمل لمصلحة المجموع يحمل إليه كاملا موفورا . ولكنه يشذ وينفر ويفضل الموت على

الحياة دفاعا عن حوزته ، لو رأى أن قواه تستغل كما يستغل قوى الحيوان ، ولا يناله من وراء كده ما يقيم أوده ، ويصلح من شأنه .

فأساس الفرقة والتناحر ، الظلم والأثرة والغشمرة . وما دام الأقوياء المتعلمون يتصفون بها ، ويعامل بعضهم بعضا على موجبها ، فلا يزالون يتناحرون حتى تسفك آخر قطرة من دم الجاهلية فيهم . وهذا لا يمنع أن المثل الأعلى الذى قرره العلم هو أن جميع الناس إخوان ، وأنه يجدر بهم أن يتعارفوا ويتعاونوا ، لا أن يتناكروا ويتناحروا . أما مسألة : هل هذا ممكن أو غير ممكن فى هذه الحياة ، فلا تقدح فى أصالة هذا الأصل ، ولا فى كونه المثل الأعلى .

نعم لا تقدح فى أنها المثل الأعلى للحياة الاجتماعية ، لأنها إن كانت غير ممكنة فى عصر الإنسانية الراهن فذلك بسبب ما لا يزال موجودا فى النفسية البشرية من أدران الجاهلية ، وبقايا الصفات الحيوانية ، من الأثرة والعدوان على الغير وحب الذات وخمود العاطفة ، وقد أجمع علماء الأخلاق أن هذه كلها أدواء نفسية يمكن معالجتها وزوالها ، ولو بعد آماد طويلة تمضى فى التطورات الأدبية . وما كان من هذا النوع من الصفات فسواء أبقى ملازما للبشرية أم زايلها ، فلا يقدح وجوده فى وجود المثل الأعلى لحياة اجتماعية أفضل مما هى عليه .

على أن فى العالم الإنسانى أفرادا كثيرين حصلوا على درجة ممتازة من السمو الخلقى يقومون على هذا المثل الأعلى ، وهم لو وُكل إليهم تنظيم علاقات الناس بعضهم ببعض ، لما جروا إلا على هذه الشاكلة . وما جاز على هؤلاء الأفراد الكثيرين يجوز على غيرهم من بقية الناس ، ولو بعد آماد طويلة ، إن قدر للإنسانية أن تصل إلى الدرجة التى تتصورها من السمو الأدبى . وليس من شروط صحة المثل العليا أن تكون ممكنة فى عهد من العهود المنحطة للإنسانية ، ولكن يكفى أن تكون معقولة لديها ، ومبنية على أصول تقوم عليها الحياة على أكمل وجه .

تطبيق هذا الأصل على الإسلام :

قبل أن ننتقل إلى الأصل الثانى من المنطق الدينى ، يحسن بنا أن ننبه إلى أن هذا الأصل الأول ينطبق على أول أساس وضعه الإسلام ليقيم عليه صرح الدين العام ،

الذى أعلن أنه دين البشرية كافة ، فقد قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) . أنزلت هذه الآية إيذانا للناس كافة بأنهم إخوان أبوهم جميعا واحد وأمهم واحدة ، وأنهم وإن تفرقوا فى البلاد ، واختلفوا فى الأجناس واللغات والألوان ، فإن تلك الخلافات لا تزيل عنهم صفة الأخوة بل توجب عليهم أن يتعارفوا ، والتعارف يدعو إلى التعاون والترافد ، وإلى التكاتف والتساند على تذليل عقبات الحياة .

ولما كان شر ما خلفه تباعد البيئات ، وانقطاع الصلات ، وتباين اللغات ، وهماً استولى على نفوس كل جماعة بأنهم خير ممن سواهم ، وأنهم أحق برغد العيش ، والسيطرة على الخلق من كل من عداهم ، صرح الحق بأن هذا الوهم لا يجوز أن يقام له وزن ، وأن المعيار الصحيح للتفاضل هو تقوى الله ، والقيام بمحابه ، والابتعاد عن مكارهه . فلا الأبيض بأفضل من الأسود ، ولا العربى بأمثل من الأعجمى ، إلا بعمل طيب ، وبتقوى باعثة على الصلاح . وللنبى ﷺ تفصيل لهذا الإجمال ، فقد قال : « ليس لأبيض على أسود ، ولا لعربى على أعجمى فضل إلا بتقوى أو بعمل صالح ، كلكم من آدم وآدم من تراب » .

وروى أن أباذر الغفارى وهو من كبار رجالات الإسلام ، قاول عبدا أسود فى حضرة النبى ﷺ ، فاحتد عليه وقال له : يا ابن السوداء ! فغضب النبى ﷺ ونظر إلى أبى ذر وقال له : « إنك امرؤ فيه جاهلية ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل » إلى آخر الحديث السابق .

وكان النبى ﷺ لا يفرق فى الحقوق والمعاملات بين أبيض وأسود ، ولا بين عربى وأعجمى ، ولا بين حر ومولى ، فقد روى أنه ولى بلالا المدينة وفيها كبار الصحابة ، وأصله مملوك اشتراه أبو بكر وأعتقه .

وولى ﷺ باذان الفارسى على اليمن ، ولما مات ولى ابنه مكانه .

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

وكان لسلمان الفارسى وصهيب الرومى وغيرهما حظ كغيرهم فى التقلب فى المهام الاجتماعية .

عامل المسلمون جميع الشعوب التى دخلت فى دينهم معاملة الإخوان بدون التفات إلى لغاتهم وأجناسهم وألوانهم ، وعاملوا من عاهدهم أو خضع لحكمهم بأدق أصول العدل ، فساووهم بأنفسهم أمام المحاكم ، وراعوا فى معاشرتهم ما راعوه مع أبناء ملتهم من حقوق الجوار . وقد أمر الإسلام بمراعاة حقوق هذه الأخوة الإنسانية العامة حتى فى الحرب ، فأمر أن لا تحرق دور المحاربين ، ولا تباد زروعهم ، ولا تعطل مرافقهم ، وأن لا يجهز على جريحهم ، ولا يعتدى على أسيرهم ، بل أن يكرم ويحسن إليه . وبالغ فى وجوب مراعاة هذه العواطف النبيلة ، حتى أمر أن لا يمس خدم جيوشهم بسوء ، وأن لا يقتل الشيوخ والزمنى ورجال الدين ، وأن لا يصادروا فى حريتهم الدينية . وهذا شىء لم تعرفه الإنسانية حتى فى العصر الراهن .

فالإسلام فى كل محاولاته قد رمى إلى تأليف أمة عالمية ، تمثل فيها جميع الأجناس والأقوام والألوان تقربا من المثل الأعلى . وهذا أول ما حدث من نوعه فى الأرض .

فى المقالات التالية ندرس جميع أصول منطق الدين تباعا إن شاء الله (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد العاشر ، الجزء الثانى ، (صفحة ١٤٦) ، سنة ١٣٥٨ هـ .

منطق الدين
محاولة وضع أداة علمية لمعرفة الدين الحق
الدين غريزة عقلية

نشرنا فى العدد الماضى المقدمة والأصل الأول لهذا المنطق الدينى واليوم نورد الأصل الثانى منه :

الأصل الثانى :

الدين غريزة عقلية موهوبة لا مكتسبة :

لم ير المنقبون فى أساطير الأمم أمة مجردة من الدين ، إذا فُهم الدين بمعناه الساذج المتناهى فى البساطة ، ولكن إذا فُهم بتوابعه من عبادات وكهنة وهياكل ، فربما انخدع الباحث بعدم وجود تلك التوابع فظن أن بعض الجماعات تعيش بغير دين . وقد خطأ كبار العلماء هؤلاء الباحثين فى اعتمادهم على الظواهر ، وقرروا عدم وجود مجتمع يخلو من الدين على أية حالة من الحالات ، حتى الجماعات اللاتى كانت عائشة فى عصر الحجر . ومن هؤلاء العلماء الأستاذ روسكوف من جامعة فينا ، وماكس موللر من ألمانيا ، وهربرت سبنسر وتيلر من انجلترا ، وغيرهم ، وقد فندوا جميعهم قول المنكرين بالحجج الدامغة .

على أنه مما لا خلاف فيه أن الجماعات البشرية الأولية كافة قد أطبقت على القول بوجود قوة شاملة فوق العالم المادى هى مصدر كل خلق وإبداع ، تمد كل كائن بالقوى والوسائل الضرورية له لحفظ شخصه ونوعه . ويمكن استمداد الحول منها بالتوجه إليها وأحداث أمور خارقة للعادة . وقد سماها بعض هذه الجماعات (مانا) وبعضها (واكان) وغيرهم (وشورنجا) و(أورندا) إلخ على حسب اختلاف اللغات ولكن معناها عند الكافة واحد .

قال العلامة (ماكس موللر) الألمانى فى كتابه (أصل الدين وتطوره) :

: (Origine et dèveloppement de la religion)

« المانا فى اعتقاد البولينيزيين ترينا كيف ظهرت ، عند أحط الأجناس البشرية على صورة مبهمة وغامضة ، فكرة اللانهاية وغير المرئى ، أو كما سميناه فيما بعد بالالهى . وقد كتب المستر (كودرنجتون) وهو مبعوث مجرب ولاهوتى مفكر ، كتب من نورفولك (الولايات المتحدة) فى سنة ١٨٧٧ يقول :

« إن ديانة الميلانيزيين (بالاقيانوسية) تتألف من الاعتقاد بأن وراء هذا العالم قدرة فوق الطبيعة غير مرئية ، وعبادتهم لها تنحصر فى اتخاذ الوسائل للاستمداد منها لمصلحتهم .

وقال العلامة (جـ.ن.ب هويت) (Hewitt) عند كلامه عن هذه القدرة عند الايروكيين وهم هنود أمريكا الساكنون فى الجنوب الشرقى من بحيرتى أرييه وأونتاريو الآن .

قال فى مقالته : (أورندا وتعريف الدين) المنشورة فى مجلة (الانتروبولجيست) الأمريكية ، والأورندا هى المانا فى لغة الايروكيين ، قال :

« هى قدرة خفية يتصورها الإنسان المتوحش ملازمة لكل الأجسام المكونة للبيئة التى يعيش فيها ... فهى ملازمة للصخور وللمياه وللأعشاب والأشجار وللحيوانات وللناس وللرياح وللزوابع ، إلخ .

« ويعتبر العقل الساذج للإنسان هذه القدرة السبب المولد لجميع الظواهر الطبيعية ، ولكل مظاهر النشاط التى تحدث حوله » .

نقول : إن الذى قرره العلماء أن القول بوجود هذه القدرة العليا عام لدى الجماعات الأولية كافة . قال العلامة (س . دوفيسم) فى كتابه تاريخ الروحية التجريبية . (Histoire du Spiritualisme Expérimental)

« إن ما تجب معرفته والتنبه له هو أن هذه العقيدة تكاد تكون عامة بين جميع الجماعات الأولية ، والأرجح أنها تعمها جميعا دون استثناء ، حتى لدى الذين لا يعقل أن يكون قد حدث بينهم وبين غيرهم اتصال » .

ولكن الذى أوقع العلماء فى الحيرة ، وجود هذه العقيدة على الدرجة العليا

من التنزيه عند الشعوب الأولية ، وهى درجة لا تسمح بها عقولهم القاصرة التى لا ترتفع كثيرا عن العقلية الحيوانية . قال الأستاذ مارسل هابرت من أساتذة جامعة بروكسل الحرة فى كتابه (الإلهى) (Le Divin) صفحة ٢٥٥ .

« إن فى تصور المتوحشين وجود قدرة روحية عامة وغير متحيزة ما يوجب لنا شيئا من الارتباك العقلى والحيرة . ومع هذا فقد ثبت ثبوتا قاطعا أن الجماعات الساذجة تقول بهذه العقيدة وتعيش فيها . ويجب علينا أن نلاحظ هنا أن هذه العقيدة الآن يصاحبها عقيدة فى وجود الأرواح البشرية » .

نقول : ولكن الأمر الذى حير العلماء وأدهشهم أكثر من هذا هو أن عقيدة المتوحشين هذه هى القول العلمى الذى هُدى إليه العلماء فى الزمان الأخير . قال الأستاذ (فان جنيب) فى مجلة (ميركور دوفرانس) صفحة ٤٩٣ من مجلد سنة ١٩٢٤ :

« قد نبهت منذ زمان طويل ، عند ذكر خرافات وأساطير استراليا ، كيف أن عقيدة المانا التى هى أساس كل ديانة عند المتوحشين ، لا تفترق إلا من ناحية درجتها عن الأصل العلمى الراهن المسمى بالقوة الوجودية العامة » .

نقول إن هذا من الخطورة بمكان عظيم ، فإن فى ثبوت انتهاء العلم فى تحسسه من علل الوجود ، إلى قول لا يفترق عما كانت تقول به الجماعات الساذجة من المتوحشين ، ولا تزال تدين به جماعاتهم إلى اليوم ، إلى جانب ما كدسته من خيالاتها فى خلال العصور ، يعتبر بحق أمرا جللا يوجب التفكير .

قال العلامة (س . دوفيسم) فى كتابه (تاريخ الروحية التجريبية) الذى تقدم ذكره فى صفحة ١٦٦ عند إلمامه بهذه العقيدة :

« بناء على ما تقدم نقول أنه مما يوجب الفخار العظيم أن نسجل أن العلم الحديث قد وصل إلى ما يقرب من عقيدة المانا التى نشأ عليها النوع الإنسانى » انتهى .

أدلة الغريزية العقلية فى هذه العقيدة الأولية :

مما لا يمكن التسليم به ، أن تتواضع جميع الجماعات الأولية منذ نشوئها ،

على القول بعقيدة تعتبر اليوم غاية ما وصل إليه العلم من تعليل الوجود .

نعم إنها عقيدة ساذجة ولكنها سذاجة تنزيه لا سذاجة جهالة ، وهى لا تفترق عن عقيدة أرقى فيلسوف فى القدرة العليا التى أوجدت الوجود ، فالفيلسوف يرى أن تلك القدرة مصدر كل خلق وإبداع ، وأنها علة كل حركة وسكون فى عالم الكون والفساد . فإن زاد على الأولين فيها قال : أنها أزلية أبدية ، لا تتأتى معرفة كنهها بالحواس ولا بالعقل ، تحيط بكل شىء ، يصدر منها كل كائن وينتهى إليها . ولا يخفى أن هذه كلها محسنات لفظية اقتضاها التبسط فى التحقيق ، ولكن كل ما يمكن أن يقال من هذا القبيل لا يزيد على عقيدة الأولين شيئا . فهم إن كانوا لا يذكرون الأزلية والأبدية ، والشمول والإحاطة ، والبداية والنهاية ، فلأنهم لم يشعروا فى أنفسهم باعتراك الشكوك ، ونزاع الشبهات ، فلم يضطروا لإحاطة عقيدتهم بالتحوطات الكلامية ضدها .

والقول بأن هذه العقيدة غريزية فى العقل لا ينافى العلم الرسمى فى شىء ، فإنه يعد من مميزات الغريزة أنها تكون عامة فى النوع ، ولا يتحصل عليها من طريق التفكير . وهذا ينطبق على ما نحن بصدده من هذه العقيدة .

فأما كونها عامة ، فقد أثبتناه لك من طريق العلم نفسه ، فقد قرر كما رأيت هنا ، أنها موجودة حتى لدى الجماعات التى لا يعقل حدوث اتصال بينها فى حين من الأحيان ، وأنها وجدت فى كل زمان إلى أبعد ما وصل إليه علم الإنسان .

وأما كونها لم يتحصل عليها من طريق التفكير ، فمما لا يمكن التمارى فيه ، فإن الأفكار ، وبخاصة الساذجة منها ، إذا اتجهت لتعليل الوجود ، فلا يتصور أن تقع على معقول واحد يعتبر غاية فى السمو والتنزيه ، يفخر العلم نفسه بأنه انتهى إليه فى عهده الأخير .

وأية غرابة فى كون هذه العقيدة غريزية فى النوع الإنسانى ، وقد قُذف به إلى هذه الأرض حاصلا على غرائز عقلية كثيرة لولاها لهلك بعد وجوده بأيام معدودة ؟

ألم يُمتع الإنسان بحظ كبير من الأصول العقلية التى أصبحت فيما بعد أساسا لعلم المنطق ، كعلمه بعدم اجتماع النقيضين ، وبأن الشىء الواحد لا يوجد فى مكانين إلخ ، ولو كنا وُجدنا فى عهد الإنسان الأول لرأينا أنه قد نشأ متحليا بغرائز عقلية أخرى ضرورية لحياته مما لا يمكنه تحصيلها بجهوده الذاتية إلا بعد أمد بعيد .

على أن من لم يشأ أن يقول بغريزية تلك العقيدة ، وجب عليه أن يدعى بأنها ثمرة تأمل الإنسان فى الوجود وهو خالى القلب من جميع الصور الذهنية ، لأن التحليل العلمى أثبت أن هذه العقيدة سبقت جميع الخيالات الوثنية ، والخزعبلات الميتولوجية . وهذه الثمرة التأملية فى عمومها وبساطتها وتجردها من الخزعبلات الفكرية ، تقتضى أن يكون العقل بحكم تكوينه الطبيعى مضطرا للوصول إليها ؛ والفرق بين الحالتين يكاد لا يذكر ، فسواء أُفطر الإنسان على أن يدين بهذه العقيدة بحكم الغريزة العقلية ، أم تأدى عقله إليها لأول تأمله فى الوجود ، وقبل تلوثه بأية صورة ذهنية ميتولوجية ، فإن الأمر يرجع فى كلتا الحالتين إلى الفطرة الإنسانية . وكل ما بين الرأيين من الفرق ينحصر فى أن هذه العقيدة لم يجدها الإنسان مطبوعة فى نفسه بدون تأمل ، وإنما وصل إليها بعد أن تَطَلَّب علة الوجود فى أول عهده بالحياة فوجدها بدون كلفة .

تطبيق هذا الأصل على الإسلام :

إن من الآيات التى يجب أن تبهر الألباب فى هذا الدين ، أنه سبق العلم فى هذه الناحية بنحو ثلاثة عشر قرنا . ففى الوقت الذى كان يتلو النبى ﷺ قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (أى حائدا عن العقائد الباطلة) ، فِطْرَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [1] ، كان الناس لا يعرفون من أسرار الفطرة الدينية شيئا ، ولا يتخيلون أن يجىء بها وحى من السماء قبل أن يهتدى إليها العلم بنحو ثلاثة عشر قرنا ، إن هذه الآية صريحة فى أن الدين الحق فطرة فى النفس تهتدى إليها بدون كلفة ككلّ ما هو فطرى فيها ، وإنه عام فى جميع أفراد النوع البشرى .

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .

ومن العجيب أن هذا التصريح مذيل بقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، وهو حق ، فإنه لا يعلم هذا الاكتشاف إلا أفراد ممن وقفوا أنفسهم لتلقف فتوحات العلم .

والذى يقرأ قوله تعالى عن الدين الفطرى على بساطته : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ (١) ، ويكون مطلعا على ما انتهى إليه العقل العلمى فى العهد الأخير ، يجزم بأن إدراكا بشريا لا يستطيع أن يصدر هذا الحكم قبل وجود دواعيه بنحو ثلاثة عشر قرنا . فإن أى عالم يعتد برأيه اليوم لا يستطيع أن يحمِّل عقله غير مؤدى هذا الدين الفطرى ، الذى اكتشف أنه كان دين الجماعات الأولية من عهدها الأقدم إلى اليوم .

لا جرم أن هذا الأمر من أعظم المعجزات العلمية فى القرآن الكريم ، وآيتها محكمة لا تقبل التأويل ، وقد زادها النبى ﷺ إيضاحا فقال : « كل مولود يولد على الفطرة (أى على الديانة الحقة) ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » أى يحوِّلون فطرته عن صراطها ، بتلقين المولود تعليمات مما تواضعوا عليه وليس من الديانة الصحيحة فى شئ .

وقد بنى الله على هذه الحقيقة أن الناس كانوا فى أول أمرهم أمة واحدة على هذه الديانة الفطرية ثم اختلفوا ، فقال : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَاحِدَةً ، فَٱخْتَلَفُوا ﴾ (٢) . وبين فى آية أخرى سبب الخلاف فقال : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) . ومعناها كان الناس أمة واحدة متفقين على الدين الفطرى (كما ثبت علميا) ، فاختلفوا ، فبعث الله إليهم النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ، فحدث بينهم

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .
(٢) سورة يونس : ١٩ .
(٣) سورة البقرة : ٢١٣ .

اختلاف فى الكتاب نفسه ، وما اختلف فيه إلا الذين أعطوه بغيا بينهم ، أى حسدا أو ظلما ، فعكسوا الأمر فأصبح ما أنزل لإزالة الخلاف سببا فى استحكامه ، فهدى الله المسلمين للحق بإنزال القرآن إليهم ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

لو كشف هذا الأمر على هذا النحو للذين اكتشفوا الديانة الإنسانية العامة ، التى كانت تدين بها البشرية فى أيام سذاجتها الأولى ، خالصة من الخزعبلات التى أنشأتها الأفكار البشرية فيما بعد وقدستها ، متابعة لأوهامها وأهوائها ، لدهش أولئك العلماء ، ولكان دهشهم حافزا لهم على التنقيب فى مكنونات القرآن فى مجالات أخرى . ولا نشك فى أن هذا سيكون ، ونرجو أن يكون قريبا [*] .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد العاشر ، الجزء الثالث ، (صفحة ١٤٦) ، سنة ١٣٥٨ هـ .

منطق الدين
محاولة وضع أداة علمية لتمييز الدين الحق

الأصل الثالث :

الغرض من الدين ، وما يجب أن يقوم عليه من أصول :

لقى العلم من رجال الدين فى أوربا طوال عهد القرون الوسطى ، وهى تزيد عن ألف سنة ، عنتا لم يسبق له مثيل فى الشدة بين طائفتين ، فى جميع تاريخ النوع البشرى . فقد أسست محكمة خاصة لمحاكمة رجال العلم والفكر على ما يرتكبونه مما يعده رجال الدين مخالفا لآراء الكنيسة ، وكان إذا ثبت على أحدهم شىء من ذلك استتيب ، وأخذت عليه المواثيق بأن لا يعود إليه ، فإن عاد قبض عليه وألقى حيا فى النار . فأُهلك على هذه الصورة فى مدى القرون الوسطى رجال من ذوى الألمعية العالية ، ومن العباقرة المجددين ، من نيَّف عددهم على ثلاثمائة ألف نسمة . ولكن هذه العقوبة على فظاعتها لم تردع طلاب النور ، بل زادت عددهم ، فكانوا يظهرون كالكواكب الساطعة فى تلك السماء المكفهرة ، وكلما خبا واحد منها حل محله غيره ، غير حاسب لسوء المنقلب حسابا . واستمرت الحال على ذلك حتى ضعف سلطان رجال الدين ، لنشوء الشقاق العظيم بينهم ، بظهور البروتستانتية ، وصبوء ممالك برمتها إليها . والبروتستانتية اضطرت لاجتذاب النفوس إليها ، أن تطلق الحرية للعقول ، فخرج العلم منتصرا ، ولكنه من فداحة ما لحقه من اضطهاد رجال الدين ، جعل أول ما فكر فيه إسقاطهم وإسقاط ما يقدسونه من العقائد ، فلم يدعو ثغرة توصلهم إلى هذه الغاية إلا اقتحموها ، وأذاعوا ذلك بين الناس ، فانتشر الإلحاد بين جميع الطبقات ، وما زال ينتشر حتى اعتبر التمسك بالدين دليلا على الجهل .

ونحن لأجل أن نعطى القارىء مثلا مما كان يهاجم به الدين فى ظلال حرية الفكر ، ننقل له طرفا من أقوال العلماء : جاء فى دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية تحت كلمة (دين) ما يأتى :

« إن قلنا : إن الذوق الإنسانى يقتضى اعتقاد الأشياء التى يمكن تعقلها ، يقولون : لا ، لا ، ثم يحاولون إذلال هذا العقل الإنسانى الذى يدعى لنفسه حق التمييز بين الخير والشر ، وبين العدل والظلم ، حتى إذا تم تعمية عين العقل ، وتغشية باصرة البصيرة ، إلى حد أن تعتبر المعجزات أمورا عادية ، وأن تتوهم الأبيض أسود ، وأن تعد الرذيلة فضيلة ، يعود الدين فيهيب بالناس إلى الطاعة . فإن سألتهم نطيع من ؟ أنطيع عقولنا ، أم واجباتنا الطبيعية ، أم إحساساتنا القلبية ؟ أنطيع القوانين الحقة المفيدة للإنسانية ، والتى تنتج من تلك الأصول المتقدمة نفسها ؟ أجابوك : لا ، ولكن أطع وأنت أعمى . إلخ إلخ » .

وقال العالم فويرباخ وقد نقلته عنه دائرة المعارف لسابقة : « إن الفضيلة الدينية وخاصة الفضيلة العليا ، أى فضيلة القديسين ، هى أن تنبذ الحياة المدنية والسياسية ، وأن تطرح سائر الأعمال والأشياء الدنيوية ، باعتبار أنها لهو باطل ، لأجل أن تستطيع بدون ترويج لنفسك ، وبقلب منكسر ، أن تذبل فى انتظار الجنة ، وأن تقتل جميع عواطفك وميولك الطبيعية ، وتميت نفسك وتذللها » .

يرى القراء مما مر أن هؤلاء العلماء خلطوا بين الأديان وبين ما علقه عليها زعماؤها من تعليقات وشروح وتأويلات ، ولسنا نشك فى أنهم لو جردوا كتبها من هذه التوسعات ، واكتفوا بما فيها من نصوص الوحى لأمكن اتقاء أكثر هذه الانتقادات . وقد اتبع كثير منهم هذه النزعة من الاعتدال ففصلوا بين ما هو وحى وما هو شرح أو تأويل ، ولكنهم فى النهاية أظهروا اليأس من خنوع قادتها للفصل بينها ، لما رأوا من تشددهم فى الدفاع عنها . من هؤلاء الأستاذ (بنجامان كونستان) فإنه بعد أن أفاض فى كتابه (الدين وينبوعه وأشكاله وترقيه) ، فى إيراد العلل التى نهكت الجماعات البشرية من جراء المعتقدات الباطلة ، رأى وجوب تجريد الأديان منها ، ولكنه عاد فأظهر يأسه من قبول رؤسائها لهذا التجريد فقال : « بهذه الطريقة تخلص الأديان من أوهامها ، ولكنا لا نخال ذلك يتحقق ، لاعتقادنا أنها لا تتنازل عن عقيدة من عقائدها . ولما كانت هذه العقائد تناقض العلم وتعارضه ، فيكون من المقرر الثابت امحاء الأديان وزوالها » .

ولم يغفل الأستاذ بنجامان كونستان هذا تعليل زوال تلك الأديان فقال :

« إن كل قاعدة مهما كانت نافعة فى عهد فلابد أن تكون محتوية على جرثومة تعطل الرقى فى عهد مستقبل . لأن تلك القاعدة تأخذ بطول المكث شكلا عديم الحراك يأبى على العقل البشرى مسايرته فى مكتشفاته التى ترقيه كل يوم وتهذبه . إذا حدث ذلك انفصلت العاطفة الدينية عن تلك القاعدة المتحجرة ، وتطلبت سواها من القواعد التى لا تجرحها ولا تحرجها ، ولا تزال تضطرب حتى تصادفها » .

العاطفة الدينية غريزة طبيعية لا تقبل الزوال :

بعد أن اشتد العلم فى أوربا ضد رجال الدين حتى تصدى للدين نفسه كراهة لهم ، عقب ذلك عهد سكينة واعتدال ، فنظر أقطابه فى الدين نظرة تثبُّتٍ وتحقيق ، فظهر لهم أنه يقوم من النفسية الإنسانية على غريزة طبيعية لا يمكن إزالتها ، ولا تعفية أثرها . قال الفيلسوف الكبير (إرنست رينان) فى كتابه تاريخ الأديان :

« من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبّه ، وكل شىء نعده من متع الحياة ونعيمها ؛ ومن الممكن أيضا أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية ، والعلم ، والفنون ؛ ولكن يستحيل أن ينمحى الدين أو يتلاشى ، بل سيبقى أبد الآباد حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الأرضية » .

وقال العلامة (هنرى بيرانجيه) فى المجلد الرابع والعشرين من مجلات المجلات الفرنسية ، وهو الآن مدير لجنة الشئون الخارجية فى مجلس الشيوخ الفرنسى [1] .

« إذا كان النقد التاريخى قد هدم كل الأشكال الثابتة غير القابلة للتغير فى الأديان ، فإنه لم يستطع أن يعدو على الغريزة الدينية ، بل قد شهد باستمرارها وشيوعها فى كل دور من أدوار التاريخ ، وإن كل تلك الآلهة المختلفة والمتعاقبة تشهد بأن الإنسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم أنفه . ففى كل جهة وكل زمان قد شوهد

---

(١) تكررت هذه الاستشهادات إذْ ذُكِرتْ من قبلُ فى باب (المستقبل للإسلام) وذكرها هُنا بمناسبة الدفاع عن الدين بمعناه العام ، فهى نصوص ذات دلالة فى الموضوعيْن معا ، ومن هنا ألح الكاتب الكبير على تردادها . (المحقق) .

احتياج الإنسان إلى الدعاء والعبادة والتضحية فى أخس الأديان الوثنية كما فى أرق المذاهب الروحية . هذه هى الشرارة النفسية التى استخلصها من رماد العصور الماضية تاريخ المقارنة بين الأديان ، فمن المستحيل عليه أن يطفئها ، ولكنه سينقلها إلى المستقبل » .

وقال الفيلسوف الألمانى (جبيزلر) فى كتابه (تاريخ المعتقدات) :

« الدين خالد مثل خلود الإحساس الذى ينتجه ، ولكن علوم الدين مثل سائر العلوم يجب أن تكون قابلة للرقى على قدر الرقى العقلى ، وذلك مثل العلاقة الموجودة بين الحقوق وعلم التشريع ، فالحقوق لا تتغير ولكن علم التشريع يجب أن يتغير ويتهذب على الدوام » .

وقال الفيلسوف المشهور (أجوست سباتييه) فى كتابه (فلسفة الأديان) :

« لماذا أنا متدين ؟ إنى لم أحرك شفتى بهذا السؤال مرة إلا رأيتنى محفوزا للإجابة عليه بهذا الجواب ، وهو : أنا متدين لأنى لا أستطيع خلاف ذلك ، فالدين لازم معنوى من لوازم ذاتى . يقولون لى : ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج . فأقول لهم : قد اعترضت على نفسى كثيرا بهذا الاعتراض عينه ، ولكنى وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها . وإن ضرورة التدين أشاهدها بأكثر قوة فى الحياة الاجتماعية البشرية ، فهى ليست أقل تشبثا منى بأهداب الدين . إلى أن قال : فالدين إذن باق وغير قابل للزوال ، وهو فضلا عن عدم نضوب ينبوعه بتمادى الزمن ، نرى ذلك الينبوع يزداد اتساعا وعمقا تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفى ، والتجارب الحيوية المؤلمة » .

نقول : يتضح من هذا أن الرأى العلمى فى الدين قد تم نضجه ، فبعد أن بدأ العلم حياته ، بسبب السخيمة التى كان يشعر بها فى نفسه ضد رجال الدين ، مناوئا للدين ، عاد بعد أن عجز عن هدم الدين عقب كل ما بذله من جهد وعنف ، يثبت بالدليل المحسوس أن الدين لا يمكن هدمه لأنه غريزة طبيعية فى النفس البشرية . ولكنه مع هذا يرى أن كل ما حمله الدين من الشروح والتأويلات والأفكار البشرية زائل لا محالة . فلو اتفق وجود دين خال من خليط الآراء البشرية ، ومزيج التأويلات

الكلامية ، و لم يحتو إلا على أصول أولية ، ومبادئ بدهية ، فإن ذلك الدين يكون هو الحق ويتعين الأخذ به ، قال الفيلسوف الألمانى (كَنْت) المشهور :

« الديانة الحقة الوحيدة هى التى لا تحتوى إلا على قوانين ، أعنى قواعد صالحة للجرى عليها ، نشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة ، وتكون مجردة عن الأساطير والتعاليم الكهنوتية » .

* * *

إلى هنا انتهى علم العلماء الراسخين ، وفهم الفلاسفة المتثبتين ، وهى نهاية لا محيص عنها ، وهى نفسها الصفة المميزة للديانة الحقة التى يقرها العلم والفلسفة ، والتى ستكون – إن كانت موجودة – ديانة العالم أجمع يوم يتجرد من وساوسه ، ويتخلّص من أوهامه ، ويلقى عن عاتقه آصار الموروثات الاعتقادية ، وأوزار الشروح الكهنوتية ، والتأويلات الكلامية .

كل الذى نأخذه على العلم والفلسفة فى هذا الموطن هو أنهما تسرعا فقررا عدم وجود هذه الديانة لدى طائفة من المتدينين فى العالم ، وأن كل ما يوجد منها لا يصلح أن يكون دينا للبشرية الراقية . قال العلامة (هنرى بيرانجيه) المتقدم ذكره فى ذلك الموطن نفسه :

« إن حل المسألة الدينية هى أهم ما يشغل العالم المتمدن اليوم ، لأن مستقبل الأمم المتمدنة يتوقف على حلها . ثم قال :

« إننا لنرجو أن يتحقق هذا الحل ، لا سيما وقد تألفت الديانة القلبية ومحصت بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنسيين . فإن (جان جاك روسو) و(لامرتين) و(لامنّيه) و(مِيشْلِيه) و(كينيه) كانوا من كبار المبشرين بهذه الديانة (الجديدة) . وقريب منا (إرنست رينان) و(جيو) و(شوريه) و(ساباتييه) قد أعطوها قوة عظيمة » انتهى .

فإن سأل سائل : ما هى أصول هذه الديانة الجديدة ؟ أجبناه بما ذكره عنها الفيلسوف الفرنسى المشهور (كارو) فى كتابه : (البحوث الأدبية على العصر

الراهن) فقد قال : « هى الاعتقاد بوجود إله مختار خلق الكائنات واعتنى بها ، وهو متميز عن عالم الكَوْن والفساد وعن النوع الإنسانى ، ووجود روح فى جسم الإنسان متصفة بالادراك والحرية ، ومحبوسة فى هذا الجسم المادى أمدا لتبتلى فيه ، هذه الروح يمكنها بإرادتها أن تطهر هذا الجسم وتنقيه إذا عرجت به نحو السماء ، كما يمكنها أن تسفله بإخلادها إلى المادة العمياء ؛ والاعتقاد برفعة العقل على العواطف ، ووضع الحرية الخلقية التى هى ينبوع وأصل كل الحريات تحت سيطرة الاعتدال ، وإعطاء الأخلاق الفاضلة اسمها الحقيقى وهو التخليص التدريجيى للنفس من علائق الجسم ، والتهيؤ لساعات الموت بالزهادة ؛ وأخيرا الاعتراف بقانون الترق ، ولكن بدون فصل رق الإنسان فى معارج السعادة المادية ، من العواطف الفاضلة التى هى وحدها تبرر تلك السعادة » .

وقال العلامة الكبير (جول سيمون) الفرنسى فى كتابه (الديانة الطبيعية) :

« كل أصول مذهبنا هذا واضحة لا رموز فيها . أما أصوله فهى الاعتقاد بوجود إله قادر على كل شىء لا يغيره شىء ، خلق العوالم وحكمها بقوانين ونواميس عامة ، ووجود حياة أخرى تؤدى كل وعود هذه الحياة ، وتجزى الظالم بالجزاء الأوفى » انتهى .

نقول : لو كان هؤلاء العلماء أجادوا البحث فى الديانات القائمة اليوم لوجدوا طلبتهم فى إحداها مما لم تتناولها أيدى التحريف ، ولكن يجوز أن الذى صدهم عن مثل هذا التعمق فى البحث أنهم لم يصادفوا لها مظهرا ماديا من أحوال الشعوب التى تدين بها فلم يريدوا أن يتعبوا أنفسهم فى تلمسها من كتبها .

تطبيق هذا الأصل على الإسلام :

هل تتوافر الشروط التى يتطلبها العلم والفلسفة للدين الحق ، على الإسلام ، فيكون هو الدين الذى يصدق عليه أنه الدين العام للبشرية ؟

إنها تتوافر فيه ويزيد عليها إيذان من الله للناس كافة بأنه الدين العام الخالد . فلننظر الآن فى هذه الشروط وفى وجوه انطباقها على الإسلام :

يكتفى العلم والفلسفة حيال الديانة الحقة بأن يتوافر فيها شرطان اثنان : (أولهما) أن لا يكون فيها غير قوانين أى قواعد صالحة للجرى عليها تشعر النفوس بضرورتها المطلقة ؛ و(ثانيهما) أن تكون خالية من الأساطير الخرافية والتعاليم الكهنوتية .

والشرط الأول مجمل يحتاج لتفصيل ، فإن القوانين أى القواعد الصالحة التى تشعر النفوس بضرورتها المطلقة تشمل ما هو خاص بالاعتقادات وما هو خاص بالمعاملات والعبادات ، وما هو متعلق بالمحللات والمحرمات ، إذ لا يعقل أن يخلو دين منها .

فهل كل ما فى الإسلام مما هو خاص بهذه الأمور يعتبر قوانين صالحة لأن يجرى الناس عليها ، بل يشعرون بضرورتها المطلقة ؟ لننظر فى ذلك :

ما هو خاص بالاعتقادات فى ديانة القرآن :

أول ما طالب القرآن الناس به من هذا الأمر الجلل : (الإسلام) ، ومعناه لغة : الاستسلام ، والمراد به شرعا : الانقياد إلى إرادة الله ، وعدم التعصب للموروثات والتقاليد والعادات والأهواء والأوهام ، للتذرع بها إلى مقاومة إرادة الله .

ولكن أين هى إرادة الله ، وكيف نميزها من إرادة المدعين ؟

إرادة الله ممثلة فى الطبيعة ، وفيما أنزله مصدقا ومهيمنا عليها من شريعة ، فكل شريعة تنافى الطبيعة وما فيها من العنصر العقلى ، لا تكون شريعة لله ، فإن الله أجل من أن ينقض قوله فعله .

من هذا الأصل أصبح لدينا أداة مميزة ، للتفرقة بين ما هو إلهى من الشرائع وما هو مفترى على الله . فماذا دعا إليه القرآن تحت هذا الضوء القوى من التمحيص ؟

دعا إلى إقامة الدين ، الدين الذى ينطبق عليه هذا الشرط ، فدعا إلى دين الفطرة ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [١] وقد بينا لك فى فصل سابق أن الإنسان

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .

مفطور على الاعتقاد بصانع قدير حكيم ، وبوجود حياة وراء هذه الحياة ، وعلى إكبار الفضيلة ، واحتقار الرذيلة ، وعلى حب الخير وكراهة الشر إلخ . وقد اهتدى كبار علماء أوربا الذين قاموا بوضع الدين الطبيعى إلى هذه الأصول كما رأيت . وهذا أدل دليل على أنها فطرية أى طبيعية ، وأن النفس تشعر بضرورتها المطلقة حفظا لوجودها .

ولكن الاعتقاد بالله واليوم الآخر ، وبضرورة الأخلاق إلخ ، قد جر الناس إلى الاختلاف فيها ، والتناحر عليها ، فأيهما على حق وأيهما على باطل ؟

الخطب سهل ، وهو النظر أيها يوافق الطبيعة ، وهى عمل الله ، وأيها يخالفه ؛ والأداة الطبيعية للتمييز هو العقل ، فالذى يوافقه يكون هو الحق .

العقل لا يسلِّم أن يكون خالق الكون مما يمكن إدراكه بالحواس ، ولا معرفة كنهه بالفكر ، ويرى أنه يجب أن لا يشبهه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أن لا يحاط به علما : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ (١) .

ويرى هذا العقل وجوب الوقوف من جميع المعتقدات عند هذه الحدود الطبيعية ، وأن لا يصار فيها إلى ما تستحسنه الأهواء ، أو تصوره الأوهام ؛ وأن لا يعول فيه على التقليد ، ولا على الوراثة ، لأن هذه كلها تفضى إلى الأخذ بما لم ينزل به الله سلطانا ، وتكون عرضة للاختلاف والتنابذ بين الناس ، كما هو مشاهد محسوس بين عقائد البشر ، ومراد الله أن يجمعوا على كلمة واحدة لا يتطاول إليها النقد ولا التجريح ، ولا تخالف ما وضعه الله من أداة تمييز الحق من الباطل .

وقل مثل هذا فى كل ما يختص بسائر المعتقدات ، وهذا هو الذى قرره الإسلام ، فقد دعا إلى الله ، وأقام على وجوده الدليل ، فقال : ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٢) ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَالِقُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة طه : ١١٠ .

(٢) سورة إبراهيم : ١٠ .

(٣) سورة الطور : ٣٥ .

ثم أمر أن يرجع إلى حكم العقل فى كل ما يندرج فى باب الاعتقادات ، وأن يقام عليه الدليل ، وأن يتجنب فيه التقليد للآباء ، والتعويل على الأهواء ، والأخذ بالظنون ، فقال تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [(١)] ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [(٢)] ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [(٣)] ، ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [(٤)] ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [(٥)] ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [(٦)] ، وقال تعالى فى الكافرين : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [(٧)] أى يكذبون .

ما هو خاص بالمعاملات :

إن ما وضعه الإسلام من الأصول للمعتقدات يسرى على المعاملات أيضا . فقد جعل أساسها العدل الطبيعى المطلق ، لا العدل الإنسانى المقيد ، والفرق بينهما أن الأول لا يعتد باختلاف الأجناس والألوان واللغات والأديان والأحوال فالكل فى نظره سواء ، والعدوان فى نظره عدوان بصرف النظر عمن ارتكبه وعمن ارتكب ضده ، وجزاؤه لا يتغير بتغير الأشخاص . وأما الثانى فيفرق بين الناس اعتبارا لكل هذه الفروق .

وقد أمر الإسلام الإنسان بالعدل حتى فى مواطن القتال فقال تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [(٨)] ، أى ولا تحملنكم كراهتكم لقوم على أن لا تعدلوا فيهم . وقال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ

---

(١) سورة البقرة : ٧٣ .
(٢) سورة الروم : ٢٤ .
(٣) سورة الصافات : ٦٩ .
(٤) سورة الإسراء : ٣٦ .
(٥) سورة الأعراف : ٣٣ .
(٦) سورة ص : ٢٦ .
(٧) سورة الأنعام : ١١٦ .
(٨) سورة المائدة : ٨ .

ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (١) .

وأمر فوق ذلك أن لا يجهز على جريح ، ولا يتعقب مهزوم ، ولا يقتل خدمة المحاربين ، ولا يعتدى على الشيوخ ورجال الدين والنساء والأطفال والعبيد ، وأن لا تخرب بلادهم ولا تحرق ثمارهم ، وأن يحسن إلى أسراهم ، بل أمر أن لا يُسَبوا ، فقد سب قوم قتلى وقعة بدر فكره النبى ﷺ ذلك وقال للسابين : « لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون ، وتؤذون الأحياء ، ألا إن البذاء لؤم » .

إن دينا يأمر أهله بمعاملة أعدائهم على هذا النحو لجدير أن يعتبر مثلا أعلى فى المعاملات وأن تتسارع الأمم إلى الدخول فيه .

ليس فى الإسلام جزئية من جزئيات المعاملات إلا وأحيطت بمثل هذه التعاليم العالية القدر ، الجديرة بالإكبار والإجلال ، وليس يتسع لنا هذا الفصل لنأتى على تفصيل لهذا الإجمال ، وحسبك أن تعرف ما وصى أهله به فى حالة الحرب لتدرك مبلغ ما وصاهم به فى الأحول العادية ، فى جميع ضروب المعاملات ، من المساواة والإنصاف ، وتجاهل جميع الاعتبارات فى نصرة الحق على القوة ، وتحرى العدل الطبيعى المطلق فى كل حال .

ما هو خاص بالعبادات :

فى كل الأديان عبادات ، وهى أعمال قصد منها تهيئة الإنسان للاتصال بمبدعه فى أحوال خاصة من الركوع والسجود ، أو الإمساك عن الطعام ، أو الحج إلى أماكن مقدسة إلخ ، وحتى هذه العبادات فى الإسلام تجدها مدبرة تدبيرا بحيث تلائم الطبيعة ولا تشذ عن دائرة الأمور المعقولة . وقد قرر لها الإسلام دستورا عاما يتألف من أصول رئيسية لابد من مراعاتها فيها ، وهى :

(١) التكليف بقدر الاستطاعة : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (٢) .

(٢) فرضت العبادة لإصلاح الإنسان لا لتسخيره ولا إعناته : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ

---

(١) سورة البقرة : ١٩٠ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٦ .

لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ، وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) ، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (٢) .

(٣) الضرورات تبيح المحظورات : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ ٱللَّهِ، فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ (٣) .

(٤) يجب الاعتداد فى العبادات بحالة الإنسان من الضعف والقوة ، ومن الصحة والمرض ؛ وبواجباته نحو نفسه وأسرته ومعاشريه ومجتمعه . يفصل لك هذا الإجمال كله ما ورد عن النبى ﷺ حين بلغه أن عبد الله بن عمرو بن العاص يبالغ فى العبادة . فقال له : ألم أخبَر أنك تقوم الليل وتصوم النار ؟ قال : بلى يا رسول الله وإنى لأطيق ذلك . فقال له : كلا ، بل قم ونم ، وصم وأفطر ، فإن لبدنك عليك حقا ، ولزوجك عليك حقا ، ولزَوْرك عليك حقا (أى ولزائريك) . الحديث .

(٥) العبادة الروحية والعقلية خير من سائر العبادات . قال النبى ﷺ : « درهم من عمل القلب خير من مثل جبل أحد من عمل الجوارح » . وقال : « فكر ساعة خير من عبادة سنة » . وقال : « ما تقرب أحد إلى الله بشىء أفضل من طلب العلم » . وقيل له يوما : ليس فينا يا رسول الله من يشبهك فى العبادة غير فلان ، فإنه منقطع لها لا يزاول عملا سواها . فقال لهم : فمن يمونه ؟ قالوا : يا رسول الله كلنا نمونه . فقال لهم ﷺ : « كلكم أفضل منه » الحديث .

(٦) كل الأعمال التى يقصد بها الإنسان غاية شريفة لنفسه أو لأسرته أو لمجتمعه أو لبنى نوعه ، أو لأى كائن من الكائنات ، يعتبر فى الإسلام من أجل العبادات : كبدء صاحبِ السلامَ ، وقضاء حاجة لمضطر ، وتنفيس كربة لمكروب ، وكإماطة أذى عن طريق ، وصلة رحم ، وإسعاف حيوان ، وسقى نبات صديان ، إلخ إلخ ، قال عليه الصلاة والسلام : « إن المرء ليؤجر فى كل شىء حتى فى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته » .

---

(١) سورة المائدة : ٦ .
(٢) سورة البقرة : ١٨٥ .
(٣) سورة البقرة : ١٧٣ .

هذه العبادات كلها أعمال شخصية واجتماعية تعتبر من أخص ما تقتضيه الحياة المدنية ، وقد رأيت أن الإسلام يرفع قيمتها على العبادات البدنية ، ويحض عليها بكل ضروب المغريات الثوابية فى الدنيا والآخرة . ومن أعجب ما نقدمه من الأمثلة على ذلك ما رتبه على تنظيف الأسنان بالسواك ، والاستحمام يوم الجمعة ، من أجلّ المكافآت .

أمثال هذه العبادات يستحيل أن تصادف اعتراضا من أحد من المفكرين ، ولا أن تثير شكا فى كونها من أجل العبادات المستوجبة لأرقى الدرجات ، إن أريد بها وجه الله ، فى نظر أناسى قيل لهم إن الفضيلة هى أن تنبذ الحياة المدنية والسياسية ، وأن تذبل فى انتظار الجنة ، كما رأيت ذلك فى مقدمة هذا الفصل .

خلو الإسلام من الآراء الكهنوتية :

من الشروط التى يرى العلم والفلسفة وجوب توافرها فى الدين الحق ، خلوه من الأساطير والتعاليم الكهنوتية . وهل شرع الإسلام إلا لتحقيق هذا الغرض نفسه أى لتخليص البشر من سلطان الأساطير القديمة ، والتعاليم التى سنتها طوائف نحلت نفسها حق الوساطة بين الله وخلقه ، فأثقلوا عواتق الشعوب بتكاليف لا تقصد بها إلا تذليلهم لعبادتهم ، وتسخيرهم لخدمتهم ؟ لذلك لم يدع الإسلام وجها من وجوه التأثير فى إسقاط مكانات الأساطير ، ومكانات المسيطرين ، إلا أتى به لإسقاط دولتها ودولتهم ، قال الله تعالى فى الأساطير : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ [1] ، وقال : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ، إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [2] وقال فى إسقاط المسيطرين على الأديان : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [3] . وليس بعد هذا استفظاع للاستسلام لمدعى الوساطة بين الله والناس . وما يحسن إيراده فى هذا الموطن أن عدى بن حاتم ، وكان من أهل

---

(١) سورة النجم : ٢٣ .

(٢) سورة يونس : ٣٦ .

(٣) سورة التوبة : ٣١ .

الكتاب ، قال للنبى ﷺ : ما كنا نعبدهم يا رسول الله . قال : أو لم يكونوا يحلون لكم ويحرمون ؟ قال : بلى . قال النبى ﷺ : فذاك . أى هو ذاك . ومعناه أن التسليم لهم بحق التحليل والتحريم يعتبر عبادة لهم ، فإن ذلك من حق الله وحده .

وقال تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً (أى رجعة إلى الدنيا) فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ، كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا (أى يوم الحساب) رَبَّنَا إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴾ (٢) ، ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ (٣) . وقال تعالى : ﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ، حَتَّىٰ إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ : رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ. قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) . أى أن لكل من المقَلَّدين والمقلدين عذابا ضعفا . ولا مشاحة فى أنه يستحيل أن يؤتى بأبلغ من هذا الزجر فى إسقاط الذين يعطون أنفسهم حق السيطرة على أرواح الشعوب ، وفى ردع الذين يأخذون ما يلقونه إليهم باعتبار أنه واجب الاتباع .

وقد نهى الإسلام عن تقليد أى إنسان كائنا من كان ، إلا بعد محاكمة أقواله إلى العقل ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ، قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٥) وفى آية أخرى : ﴿ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة البقرة : ١٦٦-١٦٧ .
(٢) سورة الأحزاب : ٦٧ .
(٣) سورة الأحزاب : ٦٨ .
(٤) سورة الأعراف : ٣٨ .
(٥) سورة البقرة : ١٧٠ .
(٦) سورة الزخرف : ٢٢ .

وقد نبه جميع أئمة المسلمين إلى خطر التقليد ، وأهابوا بالناس إلى استعمال عقولهم فى كل ما يلقى إليهم . فقال الإمام أبو حنيفة : « حرام على من لم يعرف دليلى أن يفتى بكلامى » ، وقال : « هذا رأى أبى حنيفة ، وهو أحسن ما قدرنا عليه ، فمن جاءنا بأحسن منه فهو أولى بالصواب » .

وكان الإمام مالك إذا استنبط حكما قال : « انظروا فيه فإنه دين ، وما من أحد إلا مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا صاحب هذه الروضة » (يعنى النبى ﷺ) .

وقال الإمام الشافعى لتلميذ له : « يا أبا إسحق لا تقلدنى فى كل ما أقول وانظر فى ذلك لنفسك فإنه دين » .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : « انظروا فى أمر دينكم فإن التقليد لغير المعصُوم مذموم وفيه عمى للبصيرة » .

وقد أجمع المسلمون على ذلك فى كل زمان ومكان حتى يومنا هذا .

* * *

وبعد : فقد ثبت من كل ما مر أن الدين الذى يتطلبه العلم والفلسفة هو الإسلام ، فقد توافر فيه شرطاهما ، إذ ليس فيه كما رأيت إلا قوانين تشعر النفس بضرورتها المطلقة ، وهو مجرد عن الأساطير والتعاليم الكهنوتية (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد العاشر ، (صفحة ٢٩١) ، سنة ١٣٥٨ هـ .

كيف نحافظ على الدين ؟
فى هذا العصر

الجواب على هذا السؤال يجب أن يشغل المكان الأول من تفكير حماة الإسلام فى هذا العهد ، كما شغل حماة الأديان فى العالم الغربى طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حين شد العلم عليها فأثبت لهم وهن أصولها ، وتداعى أركانها ، لقيامها كما زعموا على الخيالات التصورية الموروثة ، لا على القواعد العلمية اليقينية .

نعم إن السواد الأعظم من الناس هنالك لا يزالون متمسكين بالدين ، ولكن على حساب الإيمان بالتقليد ، لا على حساب الإيمان بالدليل ، وهى حالة يعتبرها خصوم الأديان عرضية لا تلبث حتى تزول يسيراً يسيرا .

ونحن فى الشرق قد جاءت نوبتنا ، بعد أن انتشر العلم فى ربوعنا ، وتسلطت فلسفته على عقولنا ، فماذا أعددنا لهما لحماية حقائقنا ؟

إن كل ما أعددناه من الأسلحة لمكافحتهما ، المنطق ، وقد حطمته الفلسفة الجديدة باعتبار أنه قائم على المسلمات العقلية ، وهذه المسلمات لم تعد لها قيمة إقناعية ، جريا على الأصل الفلسفى الراهن ، وهو : أن كل معقول لا يقوم عليه شاهد من المحسوسات لا يصح الاعتماد عليه فى التدليل ، لأنه هو نفسه بحاجة إلى دليل يثبته . فانتقل بذلك ميدان الكفاح من عالم المعقولات إلى عالم المحسوسات .

لا أريد بهذا أن أقول إن المسألة انتهت إلى مأزق لا مخرج منه ، ولكننى أريد به أن أنبه القائمين على المحافظة على الدين أننا بسبيل جهاد عنيف يجب أن تُستخدم فيه جميع الأسلحة العلمية ، وهى تحتاج إلى خبرة واسعة لاستعمالها ، ولباقة بالغة فى توجيهها .

إننا فى زمان أصبحت تُوَجه فيه الشبه إلى الأديان من المعامل العلمية مباشرة ، ومنها ما كان يظن أنه مقطوع الصلة بها ، كالمعامل البيولوجية والفيزيولوجية

والجيولوجية إلخ [1] ، وقد لقى رجال الدين فى العالم الغربى من هذه الشبهات أمرا إمْرا ، وافتتن بشبهاتهم كل من لهم مشاركة فى هذه العلوم ، فشالت كفة الدين ، ورجحت كفة الإلحاد ، وأيقن الناظرون هنالك أن عهد الدين قد انقضى ، ولا يرجى له من مَعاد .

إن هذا الدور من الصراع بين الدين والعلم قد وصل إلينا منذ عهد قريب بما حمله إلينا الغرب من علومه وفلسفته ؛ فأصبحنا ولا محيد لنا عن الدخول فيه . ومما يعتبر من حسن حظنا أن يوافق عهدُ دخولنا فى هذا الصراع ، عهدَ إفاقة للعلماء الكونيين من غرور علمى طال عليهم الأمد فيه ، إفاقة كشفت لهم أنهم كانوا مخدوعين بمقررات اعتبروها يقينيات حاصلة على جميع شروط الدليل الطبيعى المحسوس ، على حين أنها كانت لا تخلو من عنصر الافتراض ، وهو يدع الباب مفتوحا للتعديل والتحوير ، بل للتخلى عنها إن ظهر أن غيرها أجمعُ منها لهذه الشروط . وهذه حالة طأمنت من الخيلاء العلمية إلى مدى بعيد ، وأهابت بأهلها إلى إطالة التفكير . قال العلامة الكبير هنرى بوانكاريه العضو بالمجمع العلمى الفرنسى فى كتابه (العلم والافتراض) . . (La Science et l'hypothèse), par Henri Poincarè :

« الحقيقة العلمية فى نظر المتأمل السطحى تعتبر خارجة عن متناول الشكوك . وعنده أن المنطق العلمى غير قابل للنقض ، وأن العلماء إن أخطأوا أحيانا ، فلا يكون ذلك إلا لأنهم لم يراعوا قواعده .

« والحقائق الرياضية فى نظره تشتق من عدد قليل من القضايا الجلية الواضحة بسلسلة من الأدلة المنزهة عن الخطأ . وهى مفروضة ليس علينا فقط ، بل على الطبيعة أيضا ، مقيدة الخالق نفسه ، ولا تسمح له إلا باختيار حل من بين الحلول القليلة العدد قلة نسبية . فيكفينا والحالة هذه عدة تجارب لنعرف منها أى شىء قد اختار الخالق منها . ومن كل تجربة من هذه التجارب تنتج طائفة من نتائج رياضية على هذه الصورة ، تعرفنا كل واحدة منها زاوية مجهولة من زوايا الكون .

---

(١) البيولوجيا : علم الحياة ، والفيزيولوجيا : علم وظائف الأعضاء ، والجيولوجيا : علم طبقات الأرض .

« هذا هو أصل الثقة العلمية لناس كثيرين من أهل الدنيا ، وللتلاميذ الذين يتلقون مبادئ علم الطبيعة . وهذا هو جهد فهمهم للدور الذى تؤديه التجربة والرياضيات ، وها هو أيضا غاية فهم كثير من العلماء الذين كانوا يحلمون منذ مئة سنة أن يبنوا العالم باستخدام أقل ما يمكن من المواد المستمدة من التجربة .

« ولكن لما تروّى العلماء قليلا ولاحظوا مكان الافتراض من هذه العلوم ، ورأوا أن الرياضى نفسه لا يستطيع الاستغناء عنه ، وأن التجربة لا تستغنى عنه كذلك . حينئذاك سأل بعضهم بعضا قائلين : هل هذه المبانى العلمية على شىء من المتانة ؟ ثم تحققوا أن نفخة واحدة تكفى لجعل عاليها سافلها . فمن ألحد على هذا الوجه صار سطحيا أيضا ، فإن الشك فى كل شىء أو الاعتقاد بكل شىء يعتبران حلين قليلى المؤنة ، فإن كلا منهما يعفينا من إعمال الروية » انتهى .

نقول : إن هذا القول قد يعده بعضهم جرأة غير محمودة ، وقد يعتبره آخرون شذوذا تدفع إليه حدة عصبية تغلب على مزاج صاحبه ، ولكن مثل هنرى بوانكاريه ، وهو مفخرة الأمة الفرنسية فى العلوم الرياضية ، لا يصح أن يتهم بهذه النقيصة ، لاسيما وليس هو بالمنفرد بهذه المزاعم ، فإن أركان النهضة العلمية كافة ، وهم من أجناس مختلفة ، يقولون بهذا الرأى نفسه . فإليك مثالا من ذلك : قال الأستاذ الكبير شارل ريشيه مدرس الفيزيولوجيا بكلية الطب الباريزية ، والعضو بالمجمع العلمى الفرنسى فى مقدمة كتبها فى كتاب (الظواهر النفسية) للدكتور ماكسويل النائب العام فى حكومة الجمهورية الفرنسية ، قال فى صفحة ٧ .

« يجب على الإنسان مع احترامه العظيم للعلم العصرى أن يعتقد بقوة أن هذا العلم فى عهدنا الراهن مهما بلغ من الصحة فهو لا يزال ناقصا نقصا هائلا . ثم قال فى صفحة ٩ منه :

« إن حواسنا من القصور والنقص على حال يكاد معها يفلت من شعورها الوجود كل الإفلات . فالقوة المغناطيسية العظيمة لم تُعرف إلا عرضا ، وإذا كان لم يوضع الحديد الحلو بجانب حجر المغناطيس اتفاقا ، كنا جهلنا دائما أن المغناطيس يجذب الحديد ، وما كان أحد منذ عشر سنين يحلم بوجود أشعة رنتجن (كتبت

هذه المقدمة فى سنة ١٩١٤) . وقبل أن تُكتشف الفوتوغرافيا كان لا يدرى أحد أن النور يؤثر فى أملاح الفضة ، ولم تكتشف الأمواج الهرتزية (نسبة إلى هرتز الطبيعى) إلا منذ ثلاثين سنة . ومنذ مائتى عام كان لا يُعرف عن القوة الكهربائية العظيمة إلا خاصة جذب الكهرمان إذا دلك بالصوف . ثم قال بعد ضربه الأمثال :

« لماذا لا نصرح بصوت جهورى بأن كل هذا العلم الذى نفخر به إلى هذا الحد ليس فى حقيقته إلا إدراكا لظواهر الأشياء ، وأما حقائقها فتفلت منا ولا تقع تحت مداركنا . والطبيعة الصحيحة للنواميس التى تقود المادة الحية أو الجامدة تتعالى عن أن تلم بها عقولنا ؟ مثال ذلك أننا إذا ألقينا حجرا فى الهواء نراه يسقط إلى الأرض . فلماذا سقط ؟ يجيبنا نيوتن بقوله : سقط لجذب الأرض له جذبا مناسبا لمادته ، وللمسافة التى سقط منها . ولكن ما هو هذا الناموس إن لم يكن مجرد تحصيل حاصل ، وإلا فهل فهم أحد كنه تلك الذبذبة الجاذبة التى جعلت الحجر يسقط على الأرض ؟ إن ظاهرة سقوط حجر على الأرض من الشيوع بحيث لا تدهشنا . ولكن الحقيقة أنه لا يوجد عقل إنسانى فهم ذلك . إن هذه الظاهرة عادية وعامة ومقبولة ، ولكنها غير مفهومة ككل ظواهر الطبيعة بغير استثناء (تأمل) .

« نرى البيضة تُلقح فتصير جنينا ، ونرانا نصف أدوار هذه الظاهرة ، ونحن بين مخطئين ومصيبين فى الواقع ؛ ولكن هل فهمنا ، رغما عن وصفنا الدقيق لها ، سر ذلك التحول الذى يحدث فى البروتوبلاسما الخلوية فيقلبها إلى كائن حى عظيم ؟ بأى معجزة تحدث تلك التجزؤات ؟ ولماذا تتجمع تلك التحببات هنالك ؟ ولما تتهادم هنالك لتعيد تآلفها فى مكان آخر ؟

« ألا إننا نعيش فى وسط ظواهر تتوالى حولنا ولم نفهم سر واحدة منها فهما يليق بقيمتها ، حتى إن أكثرها بساطة لا يزال سرا من الأسرار المحجوبة كل الاحتجاب . فماذا يعنى اتحاد الايدروجين بالأوكسجين ؟ ومن الذى استطاع أن يفهم ولو مرة واحدة معنى هذا الاتحاد ، وهو يفضى إلى إبطال خواص الجسمين المتحدين ، وإيجاد جسم ثالث مخالف للأولين كل المخالفة ؟ إن العلماء لم يتفقوا للآن حتى على طبيعة الذرة المادية التى توصف بأنها ليس لها ثقل ، وهى مع ذلك تصير ذات ثقل متى اجتمع عدد كبير منها .

« الأولى بالعالم الصحيح أن يكون متواضعا وجريئا فى آن واحد ، فتواضعه يكون بسبب علمه بأن علومنا ضئيلة ، وجريئا (تأمل) لأن مجال العوالم المجهولة مفتوح أمامه » انتهى .

هذا التحول العظيم لمذهب علماء الكون يعتبر فاتحة عهد جديد للعقلية العلمية ، سيكون من أثره حدوث انقلاب جلل فى الفلسفة مناسب له كل المناسبة . فبعد أن كان باب التحكم الإنكارى مفتوحا على مصراعيه ، ومدعوا بكل ضروب الإغراء إليه ، أصبح لا يستهوى إلا كل هزيل الروية ، قصير النظر . وهذا لا يعنى أن العقلية العلمية أصبحت سهلة القياد على الظنون والأوهام ، يمكن تحويلها من الإلحاد المستعصى إلى الإيمان المطلق بغير دليل محسوس ، أو حجة فى درجة العيان . لا ! فالأمر على العكس ، فإن ثبوت انخداعها فى عالم العلم ، وأدلته كانت من القوة بحيث تستهوى العقل ، يبعث فيها من خصلة التثبت ما تأمن معه أن تقع ثانية فى مثل ما كانت واقعة فيه من الغرور بالظواهر الخداعة ؛ فهى إذا كانت قبل اليوم مستعصية ومنيعة ، فهى اليوم أعصى وأكثر مناعة حيال كل ما ليس له دليل من الحس ، وما لا يمكن تحليله وتركيبه من المعلومات . فالكسب الوحيد الذى حصلت عليه الإنسانية هو أن العقلية العلمية أصبحت أكثر تواضعا أمام الوجود ، وأشد تلهفا على وجدان الحقيقة . فبعد أن كانت تحسب أن ليس وراء ما وقفت عنده من المحسوسات مذهب ، ولا بعد ما انتهت إليه منقلَب ، صارت تصرح كما يصرح الغلامة الكيمائى الكبير السير وليم كروكس رئيس المجمع العلمى البريطانى كما جاء فى مجموع خطبه بصفحة ٨ :

« لست بآسف من الحدود التى تضعها أمامنا الجهالة الإنسانية ، بل إنى أعتبرها منشطا منقذا . إنى أعتقد بأنى لست أنا ولا أحد سواى أهلا لأن نعين مقدما ما ليس بموجود فى الكون ، ولا أستطيع أنا ولا أحد غيرى أن نقول بأن شيئا بعينه لا يحصل حولنا فى كل يوم من أيام حياتنا . هذه العقيدة تحدث لى أملا قويا فى أن اكتشافا رئيسيا جديدا يمكن أن يحَدث فى مجال من المجالات فى أقل الأوقات تفكرا فيه » .

وكما تصرح العقلية العلمية الجديدة بلسان فيلسوف أمريكا الأكبر (وليم جيمس) المدرس بجامعة (هارفارد) كما جاء فى كتابه إرادة الاعتقاد
La volontè de croire :

« هل يعقل أن العلم ولم يمض على ميلاده إلا يوم واحد .... يستطيع أن يمثل لنا شيئا آخر غير صورة ضعيفة لما سيكون عليه الكون فى نظر الذين سيفهمونه على حقيقته فى يوم من الأيام ؟ كلا ! إن علمنا ليس إلا نقطة ، ولكن جهلنا بحر زاخر ، والأمر الوحيد الذى يمكن أن يقال بشىء من التأكيد هو أن عالم معارفنا الطبيعية الحالية محاط بعالم أوسع منه من نوع آخر لم ندرك خواصه المكونة له إلى اليوم » .

وتصرح بلسان الأستاذ الجليل أوليفر لودج رئيس جامعة برمنجهام فى خطبة له فى المجمع العلمى ، وهو رئيس القسم الرياضى والطبيعى فيه :

« إن الذى نعلمه ليس بشىء إلى جانب ما يجب علينا أن نتعلمه ، وقد يقال ذلك أحيانا بلا اعتقاد ، أما بالنسبة إلىّ أنا فهى الحقيقة الحرفية . وإرادة قصر مباحثنا على المجالات التى افتتحناها نصف افتتاح ، يعتبر خيانة لعهود الرجال الذين كافحوا للحصول على حرية البحث ، وتخييبا لأقدس آمال العلم » .

هذه بضعة تصريحات لأقطاب العلم العصرى بعد إفاقتهم من دور الغرور الذى كانوا فيه ، ولو شئنا لأتينا على ملء مجلد ضخم منها .

نعم ، إن هذا التحول فى العقلية العلمية لا يعنى فى ذاته شيئا غير الترقى من عهد الانخداع بالظواهر ، إلى عهد الاعتراف بالجهل بالحقائق ، والتأهب لبحث كل ما يعرض للبحث ، ولو كان فيه قلب للأصول المقررة ؛ ولكن هذا وحده يعتبر انتقالا يفضى بالعلم إلى مكتشفات قد تُثبت للإنسانية أمورا تحن إلى إثباتها ، وتراها أكبر المعزيات فى تكاليف حياتها ؛ خلافا لما كانت عليه الحال ، من اعتبار كل ما ليس بمادة محسوسة خيالات عقلية لا وجود لها فى الخارج .

وقد اندفع ألوف من العلماء من كل جنس فى التسعين سنة الأخيرة فبحثوا على مقتضى الدستور العلمى فى الروح البشرية ، والعالم الروحانى ، مباحث عملية

تجريبية ، ووقفوا على مشاهدات ذات دلالات بعيدة المدى ، ودونوها فى مئات من المؤلفات بكل لغة ، ونشروها فى مجلات خاصة وعامة ، بل وفى جرائد يومية كثيرة أيضا ، يمكن أن تكون أدلة حسية على صحة أهم الأمور الاعتقادية فى الأديان . ولا يزال البحث مستمرا فيها ، ونتائجه الايجابية تزداد كل يوم كثرة . ولا همّ لهؤلاء العلماء إلا التحسس من المجاهيل الوجودية بعد أن مزقت اليقظة التى حصلوا عليها الحجب التى كانت مسدولة على أعينهم ، فاهتدوا إلى أمور خطيرة للغاية تؤيد المعتقدات الدينية تأييداً لا حدّ له .

وقد كان من نتائج هذه الحركة أن تألفت جماعات من العلماء تكافح النظريات المادية كفاحا لا هوادة فيه ، وبالأدلة المحسوسة . ونحن نعرض للقراء مدى ما بلغ اعتداد بعض العلماء بهذه النتائج العلمية غير المنتظرة ليتبينوا مبلغ الانتقال الذى حدث فى العقلية العلمية منذ النصف الأخير من القرن التاسع عشر . قال العلامة الفلكى الأشهر (كاميل فلامريون) فى كتابه (المجهول والمسائل النفسية) ، تهكما بالذين يقفون بالعلم فى حدوده المادية القديمة :

« الذين يقولون : معاذ الله أن نصدق هذه المستحيلات ، لا لا ، نحن لا نصدق إلا نواميس الطبيعة ، وهذه النواميس معروفة ؛ هؤلاء يشبهون قدماء الجغرافيين السذج الذين كانوا يكتبون على خرائطهم عندما يصلون فى رسمهم إلى جبل طارق هذه العبارة : (هنا تنتهى الدنيا) ، ولم يعرفوا أن فى تلك الشقة القريبة المجهولة يوجد من الأرض ضعف ما كان يعلمه أولئك الجغرافيون الجسورون فى ذلك الحين » .

وقال فى صفحة (٧٥٠) من كتابه المذكور :

« فالمشاهدات الحسية تثبت وجود عالم روحانى محقق كتحقق العالم المادى المدرَك بحواسنا الخمس » .

وقال هذا العلامة نفسه فى صفحه ٨ من كتابه (القوى الطبيعية المجهولة) :

« أنا لا أخفى عن نفسى بأن كتابى هذا سيثير ثائرة مناقشات واعتراضات أصولية ، ولا يستطيع أن يقنع غير الباحثين المستقلين ، ولكن ما أقل العقول المستقلة

الحرة على سطح كوكبنا هذا ؛ وما أقل الميل الصحيح للاطلاع مجردا عن كل مصلحة ذاتية ! وكأنى بجمهور قرائى يقولون : أى شىء فيما ذكرت يوجب الاهتمام : أخونة ترتفع عن الأرض ، ومناضد تتحرك ، وكراسى تنتقل عن مواضعها ، وبيانات تقفز وستائر تضطرب ، وطرقات تحدث ، كل ذلك بلا سبب معروف ، وأجوبة ترد على أسئلة عقلية لم يتلفظ بها إلخ إلخ ، كل هذا من الأمور التافهة أو الهذيان الذى لا يصح أن يلفت نظر عالم من العلماء ....

« لا جرم أن من الناس من قد تسقط السماء على رءوسهم فلا يحسون . أما أنا فأجيبهم قائلا : ماذا تقولون ؟ ألا يعدّ شيئا لا يؤبه له عندكم أن ندرس طبيعتنا الخاصة ، وخصائصنا الذاتية ؟ » .

وقال العلامة (بييرجانيه) المدرس بجامعة السوربون فى كتابه (الحركة النفسية الذاتية) صفحة (٣٧٦) وما بعدها :

« المذهب الذى أوجزنا الكلام عنه يستحق درسا مدققا ، ومناقشة أصولية ؛ وإن التشكك والازدراء اللذين يحملان على نكران كل ما لا يُفهم ، وعلى ترداد كلمتى غش وتدليس دائما وفى كل مكان ، ليس لهما محل هنا ، ولا حيال ظواهر المغناطيس الحيوانى ، فإن الحركة التى دفعت إلى تأسيس خمسين جريدة فى أوربا ، وحملت على اعتقاد صحتها عددا عظيما من الناس لا يصح أن تعتبر قليلة القيمة » .

وقال الأستاذ الدكتور شارل ريشيه مدرس الفيزيولوجيا فى كلية الطب الباريزية والعضو بالمجمع العلمى الفرنسى ، فى المجموعة السنوية للمباحث البسيكولوجية لسنة ١٨٩٣ :

« لا يمكن أن يكون مثل هذا العدد العظيم من الرجال الممتازين فى انجلترة وأمريكا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا قد وقعوا تحت تأثير الانخداع الغليظ الثقيل ؛ والحقيقة أن كل ما وجه إليهم من الاعتراضات قد فكروا فيه ، وتناقشوا عليه ، ولم يزدهم أحد علما كلما عارضهم بمسألة المصادفات الممكنة والتدليس ، فإنهم فكروا فيها قبل أن يعارَضوا بها ، حتى إنى لا أستطيع أن أتوهم أن أعمالهم كانت عقيمة ، أو أنهم قد تأملوا وجربوا فى أوهام خداعة » انتهى .

إنى لم أرد من إيراد كل ما أوردته إلا أن أثبت أن العقلية العلمية قد افتكت من الربط الفولاذية التى كان قد أوثقها بها المذهب المادى ، وأنها قد أصبحت حرة تتناول كل بحث غير حاكمة عليه قبل النظر فيه بالاستحالة ، متابعة لأصول مقررة رسمت للبحوث العلمية حدودا لا تتعداها ، وقررت عدم وجود شيء وراء العالم المحسوس ، فهذا التحرر خطوة واسعة ستؤدى حتما إلى وجدان اكتشافات جديدة فى حقيقة القوى العاملة فى الوجود ، يستفيد منها الدين أدلة محسوسة على صحة العقائد التى يدعو إليها .

وإنى لم أعتدّ بالعلم الكونى هذا الاعتداد كله ، إلا لأنه هو المتصرف الوحيد فى عقلية الناس ونفسياتهم ، فما قاله فى شيء أنه محال أو وهم باطل ، فلا يوجد دليل فى الأرض يمكن أن يرفع عنه هذا الوصف ، وإن تظاهر حماة الأديان بخلاف ذلك .

وقد أردفت التبشير بهذا التطور الجلل الذى دخل فيه العلم ، بتأكيد رجال من عليتهم بوجود عالم روحانى ، وبعثورهم على أمور محسوسة تدل عليه دلالة قاطعة ، لأثبت صدق ما ذهبت إليه من أن هذا التطور سيكون فاتحة عهد انتقال بعيد المدى ، سيستعيد الدين من ورائه سلطانه على العقول .

وإذا كان هذا كله مسلما به فإن من المحافظة على الدين أن يدرَّس علم الطبيعة فى معاهده مراعى معه ذكر التطور الذى حدث فيه ، فلا تلقى أصوله باعتبار أنها حقائق مقررة لا تقبل التحوير ، ولكن باعتبار أنها تقريرات ظنية يؤخذ بها مع توقع تهذيبها أو استبدال غيرها بها متى كشف فى موضوعها أمر جديد . ويجب مع هذا أن تجعل لهذا العلم مقدمة تبين بها حقيقته والتطورات المتتالية التى دخل فيها ، ليرى المتعلم أنه أمام علم لم يبلغ بعد طوره الأخير .

ولا أرى بأسا من أن يتخير لطلبة الدين بعض ما أثبته علماء أوروبا بالتجارب العملية من وجود قوى فوق قوى الطبيعة تؤثر فيها فتبطل عملها ، أو تصرفها عن وجهها ، مما يعطيهم فكرة عامة على ما الإنسانية بسبيله من مكتشفات جديدة توسع من دائرة معرفتنا بحقائق الوجود .

أليس مما يؤسف له أن تبقى هذه المكتشفات وقفا على رجال العلم الكونى ، ويحرم منه الذين تحتم عليهم طبيعة ما يدرسونه أن يكون لديهم ذخر منه ليدحضوا به شبهات الملحدين ، وشكوك الشاكين فى صحة ما يقررون ؟

أو ليس مما لا يليق أن تبقى كتب العلم الطبيعى بين أيديهم فى ضلالها القديم ، مقررة أن المادة لا تنعدم ولا تتجدد ، على حين أن العلم الطبيعى نفسه قد توصل منذ أكثر من ثلاثين سنة إلى إفناء المادة بتحويلها إلى قوة ، وهو اكتشاف أصاب المذهب المادى فى الصميم ؟

فإذا أردنا أن نحافظ على الدين فى وسط عدد لا يحصى من الشبهات الإلحادية التى توجه إليه ، وجب علينا أن نمكن أهله من الأسلحة الماضية التى تحلل هذه الشبهات وترمى بها بواسطة المكتشفات الجديدة إلى مكان سحيق (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، الجزء الأول ، (صفحة ١٢) ، سنة ١٣٦١ هـ .

الدفاع عن الدين فى هذا العصر

اضطر الإنسان فى كل عهد من عهوده إلى الدفاع عن دينه من الناحية الأدبية والعلمية ، حيال أدوار الانتقالات العقلية التى ما تفتأ تتجدد تحت تأثير الاكتشافات العلمية الجديدة ، والتجاريب الحيوية المتعاقبة .

ولما كانت أصول الدين وتعاليمه ثابتة لا تتغير ، فإن الضرورات تدفع العقل البشرى لإدمان البحث عن وجوه التوفيق بين المعلومات الحديثة التى تطرأ وتوسع من مجال النظر ، وبين الأصول الثابتة التى يدين لها باعتبار أنها متنزلة من الأفق الأعلى .

من هنا نشأ إلى جانب الدين فرع علمى خاص بالدفاع عنه ، سماه المسلمون علم الكلام ، وسماه الأوربيون ابولوجيتيك Apologètique ,وكان هذا العلم فى القرون الماضية قليل الكلفة على القائمين به ، إذ كان لا يستدعى منهم أكثر من التمهر فى صوغ الحجج العقلية ، والتمرس بالخصومات المنطقية ؛ ولكن لما جاء عهد العلم ، وأصبحت المسائل الكبرى يفصل فيها فى المجامع العلمية ، وجب أن يُدخَل علم الكلام فى طور جديد قل أن يستطيع القيام به فرد واحد ، لأن المسائل الكبرى التى يهم الإنسان معرفتها ، وهى أصل الوجود ، وحدوث الكائنات وتنوعها فى الصور ، وتولد الحياة وسوقها للنباتات والحيوانات إلى كمالها ، ونشوء الروح الإنسانية ومظاهرها المختلفة من التعقل والتفكر والابتكار ، وظهور الأنواع ، وما ألهمته من مقومات حياتها ، وما سيقت إليه من محاولاتها ، كل هذه المسائل قد شغلت الفلاسفة والمفكرين قديما وحديثا ، وتكلم فيها رجال العلم على حسب ما وصلوا إليه من المكتشفات ، وغيروا وبدلوا فيما قالوه فيها فى مدى العصور ، حتى وصلوا إلى عهدنا الراهن وهى مسائل للدين فيها أقوال لا تتفق فى ظاهرها وأقوال هؤلاء الباحثين ، مما اضطر رجال الدين طوال عهد القرون الوسطى إلى فرض رقابة قاسية على رجال العلم ، ومعاقبتهم على مخالفتهم للكتب المقدسة عندهم ، وقد شددوا عليهم فى ذلك ليردعوهم حتى كانوا يحرقونهم بالنار .

فلما ظهر المذهب البروتستانتى فى نحو منتصف القرن السادس عشر ، وأخذت به أمم فى أوروبا الوسطى وغيرها ، رفع الخِناق عن أعناق رجال العلم ، لأنه كان من أصول هذا المذهب فى أول نشوئه إطلاق الحرية للباحثين ، وعدم العدوان على أحد بسبب مذهبه العلمى ، فقويت عزيمة رجال العلم على متابعة بحوثهم وعلى إعلانها غير حاسبين لرجال الدين حسابا ، حتى كادت هذه الحرية تصبح خطرا على الكنيسة ، فاضطرت للتضييق على العلماء ، ولكنها لم تصل بذلك التضييق إلى درجة القمع بالقوة ، فكان هذا مبدأ تاريخ حصول العلم على استقلاله .

تتابعت البحوث العلمية ، فى هذا الجو من الحرية ، وكان لها من النتائج فى تيسير وسائل العيش ، وتخفيف ويلات الحياة ، وزيادة الثروة العامة ، ما أقنع الناس طراً أن العلم ركن لابد منه فى بناء كل مجتمع متمدن ، وأن الوجود الدنيوى بدونه يصبح عبأ ثقيلا على أهله . هذه المكانة السامية التى نالها العلم بحق ، مكنته من التصريح بآرائه فى الدين وعقائده ، غير مقيم لآثاره فى عقول الآخذين به وزنا ، وتمادى حتى أعلن على رءوس الأشهاد بأن الدين عقبة فى سبيل انتشار الفلسفة العالية الجديرة بكرامة العقلية الإنسانية ؛ ورجال العلم لأجل أن يقنعوا الناس بصحة هذا الحكم ، أخذوا ينقدون كل ما جاء فى الدين خاصا بالوجود والموجودات ، وتاريخ الأمم والجماعات ، نقدا لم يراعوا معه الاعتبارات الواجب الاعتداد بها فى محاولة الفصل فى هذه الشئون ، وهم بسبب افتتانهم بالمذهب المادى ، وإنكارهم لكل ما هو فوق العالم الطبيعى ، قذفوا بكل ما هو متعلق بالعالم العلوى إلى عالم الأضاليل .

بماذا قابل رجال الدين هذه الحملات الشعواء ؟ قابلوها بقذف الاناتيمات (أى اللعنات) تلو الاناتيمات ، معتمدين على كثرة سواد العامة ؛ ولكن العامية يُنتقص من أطرافها كل يوم بانتشار التعليم ، وتسهيل طلب المعرفة للراغبين ، وكلما ازداد رجال الدين انكماشا ، آنس الناس فيهم عجزا عن الدفاع عن حوزتهم ، وأثر ذلك فى العامة أبلغ تأثير .

الخطب جد خطير ، وعلاجه ليس بالأمر العسير ، إذا لم يمن بالتقصير والتأخير . وأول ما يجب أن يفكر فيه اختيار الأسلوب الذى يجب أن يُتوخى فى مكافحة الشبهات

الموجهة إلى الدين ، وإعداد الأسلحة من الصنف الذى يعتمد عليه الخصوم ، فإذا لم يكن لدينا ما ينقض شبههم من العلم نفسه سقطت حجتنا ، واستُخِف بالحقيقة التى ندافع عنها .

نعم إن العلماء الكونيين بما يقومون عليه من النظر فى الكون ، وبناء أحكامهم على حوادثه ، يقفون موقفا يصعب على من ينازعهم فى حكم أن يساويهم فيه ، ولكنه لو كان يشاركهم فى معارفهم لأدرك نواحى القوة ، ونواحى الضعف من استنتاجاتهم ، فإن عن له أن ينازعهم فى شىء فإنما يحتج فى تلك الحالة بأقوالهم ؛ وإنى ضارب لك مثلا بمسألة النواميس .

أصبح من المقررات العلمية أن الكون محكوم بنواميس ثابتة لا تتغير ، وأن كل الكائنات مدينة لها بوجودها ، وبما فيها من قوى ووسائل تمكنها من البقاء عمرها المحدود .

هذه قضية يخيل للذين لم يرودوا جميع مجالات العلم ، ولم يتوسعوا فى الإلمام بمنازعات أهله ، أنها من البدهيات التى لا يصح لعاقل أن ينازع فيها ، تفاديا من أن يتهم بالجهل وقصر النظر ، وقصارى ما كان يلجأ إليه المدافع عن العقيدة أن يدلل على أن وجود هذه النواميس لا ينافى وجود الإرادة الآلهية ، بل هى مظهرها فى العالم المادى ؛ وعدم تخلفها لا يدل على أنها واجبة الوجود ، لأن الخالق حكيم ولا ينقض دستورا وضعه للكون ، لتتأدى الكائنات بالجرى عليه إلى كمالها ، على نظام لا تضل فيه العقول .

هذا كلام تثلج عليه بعض الصدور ، ولا يقيم له بعضها الآخر وزنا . ولكن الذين يكونون قد جاسوا خلال المسائل العلمية الكبرى ، يعلمون أنه ما من مُسَلم من المسلمات العلمية إلا وقع بين العلماء فيه نزاع يحد من سلطانه على العقول ، ويسلب عنه حق الحلول محل غيره من الفروض .

قال العلامة الكبير أميل بوترو Emile Boutroux العضو بالمجمع العلمى الفرنسى فى كتابه (تقلب النواميس الطبيعية) :

« من الخطأ أن يقال إن النواميس هى التى تدبر الظواهر الطبيعية ، لأنها لم تكن موجودة قبل الكائنات ، ولكن الكائنات هى التى اقتضتها ، وهى لا تبين إلا العلاقات التى تحدث من تأثير طبائع تلك الأشياء بعضها فى بعض ، هى سابقة فى الوجود على النواميس ...

« العالم يرينا فى كل مكان بجانب الدوام والاستقرار ، وهو مما يوجب القول باستقرار النواميس ، حالات أخرى من التغير والارتقاء والانحطاط ، وهى تقتضى القول بتقلبها ، وليس هذا فى النواميس الجزئية فحسب ، ولكن فى النواميس الكلية أيضا ...

« أكان هذا النظام العالى (يريد نظام العالم) مما يمكن أن يوجد ، إذا كان الثبات المطلق هو الناموس السائد فى الكون ، وكان الأصل الذى مؤداه أنه لا يتلاشى شىء ولا يتجدد شىء ، ساريا بدقة على الكائنات ؟ أكانت توجد فى العالم قيم متفاوتة ، أى صفات ومزايا بعضها أسمى من بعض ؟ أكان يوجد ترق وتكمل بين ثمرات قوة واحدة ثابتة لا تتغير ؟

« إن وجود الإنسان ، وهو كائن شاعر بذاته ، لا يمكن تفسيره بمحض فعل النواميس الطبيعية والفيزيولوجية ، فإن وجوده وأعماله تقتضى من الطبيعة إحداث ترقيات لا تستطيع إحداثها » .

وقال العلامة الكبير الأستاذ السير وليم كروكس الانجليزى فى خطبة له بالمجمع العلمى الانجليزى ، وما ننقله عنه هنا مقتبس من مجموعة خطبه صفحة (٣٦) :

« إن ما نسميه ناموسا طبيعيا هو فى حقيقته وجه من وجوه الاتجاه الذى يعمل على موجبه شكل من أشكال القوة ...

« فأى ضرب من ضروب الإرادة والفكر موجود خلف الحركات الذرية للمادة ليجبرها على اتباع طريق مرسوم لها من قبل ؟...

« وأى ازدواج من الإرادة والفكر يقود الحركة الآلية الصرفة للذرات المادية ، خارجا عن النواميس الطبيعية ، بحيث يحملها على تكوين هذا العالم الذى نعيش فيه » ؟

وقال العلامة المذكور فى خطبة أخرى (صفحة ٨ من مجموعة خطبه) :

« متى امتحنا من قرب بعض النتائج العادية للظواهر الطبيعية ، نبدأ بإدراك إلى أى حد تنحصر هذه النتائج ، أو كما نسميها النواميس ، فى دائرة نواميس أخرى ليس لنا عليها أقل علم » .

هذا كلام صريح من رجل يعتبر من أعلم الناس بالنواميس ، لأنه كيمائى ورياضى معا ، بأن الناموس فى حقيقته لا يعدو كونه وجها من اتجاه قوة تعمل فى التكوين ، لا أنه عامل مستقل ، وأن خلفه إرادة وفكراً هما العاملان الحقيقيان فى الواقع .

وقال الفيلسوف الكبير (ادوار لوروا) E. Le Roy ونقله عن العلامة الرياضى هنرى بوانكاريه H. Poincarè عضو المجمع العلمى الفرنسى ، مؤيدا له ، فى كتابه قيمة العلم **La valeur de la science** . .

« العلم لم يتألف إلا من تواضع العلماء على أصوله ، وهو لكونه على هذه الحالة يظهر لنا على ما هو عليه من الاستقرار . فالحوادث الطبيعية بل النواميس ليست إلا من مخترعات العلماء أنفسهم (تأمل) . فالعلم لا يستطيع ، وهذه حالته ، أن يكشف لنا عن وجه الحقيقة المطلقة ، وكل ما يرجى منه أن يخدمنا كقاعدة للعمل » .

هذا نموذج من آراء أقطاب العلم فى أصوله العامة ، وقد اخترت أصلا من أوليات أصوله مما يعتبر المتحذلقون التشكك فيه جهلا يوجب السخرية ، فما ظنك بغيره من الأصول ؟

ولكن لا يجوز أن يحملنا هذا على الاستخفاف بالعلم لنقيم على أنقاضه دولة الأوهام والظنون ؛ فإن العلم كما هو قاس على أصوله باعتبار أنها فى حاجة إلى التكميل ، قاس كذلك على مقررات لا مستند عليها إلا أنها من مرويات الأقدمين ؛ وهو إن كان ينقد بعض أصوله نقدا لا هوادة فيه ، فذلك لأنها لم توف بشرطه من ضرورة قيامها على التجربة ، وهو مرمى بعيد يجب أن يحسب حسابه المستخفون بالعلم من المتكلمين .

ونحن إن كنا نبغى من وراء أمثال هذه التحليلات العلمية نصرة الدين ، وجب علينا أن نسلك إلى مرادنا على أسلوب العلم نفسه ، وبالاستناد إلى يقينياته المقررة ، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا بعد أن نجرد الدين من كل ما ليس منه من الآراء البشرية ، وهذا ما سنتوخاه فى مقالاتنا المقبلة إن شاء الله [*] .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، الجزء السادس ، (صفحة ٢٤٦) ، سنة ١٣٦١ هـ .

أكبر أسباب الخلاف
بين أصحاب الأديان
بماذا تذرع الإسلام لحسم مادة هذا الخلاف ؟

أكبر أسباب الخلاف بين الأمم تعصبها لأنبيائها ، وذهابها فى تقديسهم وتنزيههم مذهبا لا يتفق مع العقل ، ولا يستقيم على دليل .

كانت الأمم فى العهود السابقة لا تدين للمقررات العلمية ، ولا تخضع للأحكام العقلية ، هائمة بين الحس والخيال ، فى واد لا يحده حد طبيعى ، ولا يسوده نظام من أى نوع كان .

كان الحس يزعج الأمم بأنواع من الفواعل الوجودية : من حر وبرد ، وجوع وظمأ ، ومرض وموت . فكانت تنفعل طبيعتها لهذه الفواعل أيما انفعال ؛ فتتطلب المَخْلص بالجد والكدح ، فإن أخفقت فى ارتياد المخلص من عالم يعلو متناول حسها ، نظرت إلى السماء مناجية الروح الأعلى قيوم السموات والأرض ، وهى نزعة ليس أكمل ولا أحق منها لو وقفت عند هذا الحد . ولكن الخيال يطمس جلالها وجمالها بما يحمل إليها من صنوف الأوهام والتصويرات الباطلة ، ويحمل الأمم على تجسيد هذا الشعور العالى ، فتدين الأمم لأنصاب وأصنام تتخيل فيها الوساطة أو الحلول ، أو غير ذلك من الأحلام . فإن رق شعورها وترفعت عن التجسيد الصورى ، جسدت الخالق ذهنيا ففرضته ملكا سماويا جالسا على كرسى الجلال وبين يديه الملائكة يأتمرون بأمره على طراز الملوك الأرضيين .

فكل رسول أرسل إلى تلك الأمم ، وسلم من بطشها ، رفعته إلى أرفع من مستوى البشرية ، وأكثرها دعاه ابنا لله ، وكان أكبر أسباب هذا الغلو ، اعتماد أولئك الرسل فى تأييد دعواهم على المعجزات . فكان عيسى عليه السلام يحيى الموتى وما دون ذلك من شفاء الأكمه والأبرص والأعمى ، وموسى أوتى العصا وغيرها ، وأوتى

من قبلها أنواعا أخرى من المعجزات . وكان لا سبيل إلى إخضاع الأمم للقانون والشريعة إلا بهذه الوسيلة ، فإن سلطان العقل لم يكن له عليهم من سبيل .

فكانت هذه الخوارق من أكبر أسباب رفع الأنبياء إلى درجة البنوة لله تعالى ، والغلو فى تعظيمهم ولا سيما بعد موتهم إلى حد نسوا معه الخالق ذاته ، فجعلت العبادة لهم دون سواهم .

فلما جاء دور الإسلام كانت الأمم قد دخلت من حياتها الأدبية فى دور التعقل والتفهم ، وعرفت لأحكام العقل ونواميس الكون قيمتها ، فلم تعد للمعجزات من أثر على خيالها ، حتى أن العرب لما أرادوا أن يبطلوا دعوة النبى ﷺ ، اقترحوا عليه أن يأتيهم بالمعجزات ، ويؤخذ من سياق طلباتهم ، أنهم كانوا لا يأبهون بها ، بل يشكون فيها وينسبون حدوثها للشعوذة . فقالوا كما حكى الله عنهم فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ (أى من ذهب) أَوْ تَرْقَى فِي ٱلسَّمَاءِ ، وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (١) .

يرى القارئ من سياق هذه التحديات مبلغ استخفافهم بالآيات . وقد نص الله تعالى على أنهم كانوا من الشك بحيث إنهم لو كانوا رفعوا إلى السماء لقالوا إن ذلك من تخييلات السحر لا من الله عز وجل ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ، بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (٢) سكرت أبصارنا : أى سدت عن الإبصار بالسحر .

إلى هذا الحد كان قد وصل الشك على عهد النبى ﷺ فى صحة المعجزات ، وهو كما يدل على التغلغل فى الإنكار والجحود ، يدل على مبلغ خلاص العقل من الأوهام والخزعبلات . فإن الجاهلىّ الذى يتشدد فى تصديق المحسوسات الخارقة للعادة ،

---

(١) سورة الاسراء : ٩٠-٩٣ .

(٢) سورة الحجر : ١٤-١٥ .

وينتحل لها أسبابا خفية ، أحر به أن لا يقبل ما دونها من التخييلات السحرية ، والزخارف الشعوذية .

فاقتضت حكمة الخالق الحكيم أن يرسل إلى الناس فى هذا الدور الأخير رسولا يأخذ الناس بأحكام العقل ، ويردهم إلى مقررات العلم والحس ، فكان نجاح النبى ﷺ فى مهمته ذلك النجاح الذى لم يصادفه رسول قبله أدل دليل على مبلغ ما يفعله البرهان الصحيح والعلم المؤسس على الحق الصريح فى نفوس الأمم .

من هنا انتقل الناس من دور التسليم بمجرد رؤية الخوارق ، إلى مستوى النظر فى الحوادث ، والاستدلال بالأعلام الوجودية ، وهى خطوة واسعة فى سبيل رقى البشرية ، تعتبر الغاية القصوى فى حياتها الدينية .

فكان سلاح نبى الإسلام فى بث دعوته العقل ، ووسيلته النظر فى الكون ، والاستدلال بأعلامه وبيناته ، وهذا مظهر لم يكن عهده الناس من مظاهر النبوة . فبعد أن كان الإنسان يقول للقائم بدعوة : ما هى معجزتك ؟ صار يقول له : ما دليلك العقلى ؟ فإن أدلى بالدليل كفاه ذلك عن كل خارق للعادة [١] .

سقطت فى هذا الدور دولة الخوارق ، وقامت دولة الأحكام العقلية والقياسات النظرية ، فقام المتدينون بالإسلام على غير السمت الذى كان يقوم عليه من قبلهم من الأمم المتدينة . قاموا على سمت العلم والنظر فى الكون والاستدلال بالحوادث ، فلا غرو أن أصبح المسلمون بعد عدد محصور من السنين أرقى الأمم علما وعملا ، وأبعدهم بالوجود وحوادثه خبرا .

فكانوا يدرسون الطبيعيات والرياضيات ، وينقبون فى الأرض عن خفايا المعادن ذات القيمة العظيمة فى الصنائع والفنون باسم الدين والقرآن وخلافة الله فى أرضه ، بينما كان من تقدمهم يقتل بعضهم بعضا تأليها للرجال ، واختلافا فى الأباطيل التى أحاطوا بها عقائدهم ، فلا عجب إن دوخ المسلمون من تلك الأمم فى أقل من قرن

---

(١) ليس مؤدى هذا الكلام أن النبى ﷺ لم تصدر منه معجزات كسائر إخوانه الأنبياء ، ولكن مؤداه أنه لم يجعل المعجزات أساسا للدعوة . أما معجزاته ﷺ فكثيرة شهدها عدد من الناس لا يدع للشك فيها مجالا .

ما لم تستطع أكبر الأمم شأناً أن تدوخه فى قرون عديدة . ولا غرابة إن بلغ المسلمون من المدنية الفاضلة ما لم تبلغه سواهم من الأمم البائدة .

إن من المدهشات بل من المعجزات التى تشهد لهذا الدين بأنه وحى إلهى صادق ، أنه حشر إلى حظيرته فى قرن من الزمان نحو مائة مليون من الأتباع بمحض وجوده لا بسيف ولا إغراء .

لأن المسلمين كانوا إذا أرادوا إخضاع أمة جريا على ناموس التغالب ، خيروها بين ثلاث : الإسلام أو الجزية أو الحرب ، وكانت الجزية التى يضربونها على الأمم لا تبلغ بعض ما كان يجبيه ولاتهم منهم بضرب وجوههم ، فكان يسهل على كل أمة تغلب لهم أن تدفع الجزية ، فما الذى اضطر هذه الملايين إلى الدخول فى الإسلام غير سماحة هذا الدين وانطباقه على أحكام العقل ، وظهور أهله بمظهر الكمال والفضل ؟

أما الدعوة فقد كان المسلمون أهملوها طمعا من أكثر الولاة فى زيادة أموال الدولة بما يجىء من الجزية ، فإن الرجل كان بمجرد دخوله فى الإسلام يعفى من الجزية ، فيكون فى ذلك عجز لإيراد الحكومة .

لهذا السبب كان بعض الولاة يكرهون أن تدخل الأمم المفتتحة فى الإسلام تفاديا من نقص الإيرادات .

ولكن الشعوب كانت ترى الفرق واضحا بين تعاليم دينها وتعاليم الإسلام ، فكانت تترامى إلى أحضانه طائعة مختارة ، حتى بلغ عدد من دخل منهم فى أقل من قرن فى الإسلام نحو مائة مليون كما قلنا ، وهذا عدد لم يسمع بمثله فى تاريخ دين من الأديان .

ولا يزال الإسلام سائرا فى طريقه من الانتشار العظيم ، ولو كان المسلمون اليوم على ما كان عليه آباؤهم من الفضائل التى يندبهم إليها دينهم لانتشر دينهم بلا دعوة انتشارا لا يدع لغير الإسلام من الأديان مجالا لمنازعته .

وقد بذل الإسلام مجهودا عظيما ليزعزع فى الأمم عقيدة تأليه النبيين حتى لا تقف هذه العقيدة حجر عثرة أمام ترقيهم ، فقال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ [١] .

وزاد على هذا بيانا فذكر شيئا من تفصيل حالات أولئك المرسلين حتى يزيل كل احتمال لارتفاعهم عن مستوى الإنسانية ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ ، وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [٢] .

كأنه قال إنَّ من يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق لا يصح أن يكونوا آلهة أو أجزاء من آلهة ، فهم أفراد من خيار هذا النوع لا فرق بينهم وبين سائر أفراده إلا أنهم اختيروا لأن يكونوا رسلا لله إلى عباده .

كان لهذه الآيات تأثير كبير فى كسر غلواء المتدينين ، وصد تيار التأليه عن النبيين ، ولم يزل هذا التأثير يرق وينتشر حتى صرنا فى قرن لا يجسر واحد فيه أن يعلن هذه العقيدة إلا فى بلاد لم تأخذ حظها من العلم والنظر .

وأخذ نوابغ القرون الأخيرة يبثون فى الناس مبدأ تنزه الخالق عن الولد والشريك ، وأن المرسلين ليسوا إلّا رجالا اقتبسوا النور عن الخالق وعكسوه على الناس ، فقال حكيم الشعراء (فيكتور هوجو) كما نقلته المجلة الروحية عنه :

« إن الشعور الفطرى المودع فى صميم الإنسان بوجود الله تعالى أتى إليه من تلك الشمس مباشرة (يعنى بالشمس الله عز وجل) ، أما الديانة اليهودية والصابئية والبوذية والمعددة والمانوية والمحمدية والمسيحية فهى من نور القمر ، لأن موسى وبوذا وزرادشت وأورفيه وكونفسيوس ومانى ومحمد وعيسى هم أنواع من الكواكب دائرة حول تلك الشمس يستشرفون نورها ويعكسونه على من دونهم من العالمين ، فالديانات التى هى أقمار الشمس الإلهية مهمتها إفاضة النور على الإنسان فى غياهب حياته وظلمات بقائه » انتهى كلامه .

---

(١) سورة النحل : ٤٣ .

(٢) سورة الفرقان : ٢٠ .

هذا كلام فيه جهات من الضعف إلى جانب جهات من القوة بارزة فيه ، والكنه مما يستشهد به على أية حال للدلالة على تحول العقلية البشرية عن تأليه الأنبياء ، وعلى اتجاه نظرها إلى الديانة الإسلامية بعد أن كان التعصب يحول بينها وبينه .

فالحوائل التى كانت تفرق بين الأمم ، وأشدها الغلو فى تقديس أنبيائهم ورفعهم إلى درجات الألوهية ، كادت تكون فى عداد الآثار التاريخية . فإذا وصل الإنسان إلى الخلاص منها توحدت الأديان على أسلوب القرآن ، وكان الفوز لأصوله على مر الأزمان (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد التاسع ، الجزء السابع ، (صفحة ٤٧٠) ، سنة ١٣٥٧ هـ .

الشبهات العلمية على الأديان

تحليلها ودحضها على أسلوب العلم نفسه

يهم المدافعين عن الإسلام فى هذا العصر أن يعرفوا جميع الشبهات العلمية التى يدلى بها فلاسفة العهد الحاضر على الأديان ، للتدليل على أنها لا تتجه إلى الإسلام . لذلك أرجو أن يعذرنا القراء إن بسطنا لهم هذه الشبهات بسطا بكل ما تحمله من نتائج قريبة وبعيدة ، مع التعقيب عليها بما يثبت أن الإسلام بمنجاة منها .

للفيلسوف الكبير (جيو) Guyo الفرنسى كتاب أسماه (اللادينية المستقبلة) أودعها أمهات الشبهات على الأديان ، وقد طبع مرات كثيرة فنقتطف منه تلك الشبهات فهو أوسع مصدر لها ، قال :

« مما قرره النقد العصرى للأديان أمر جدير بالنظر ، وهو أنه قد دلت مباحث المسيو روسكوف والمسيو ريفيل والمسيو جيرادوريال بأنه يستحيل القول بوجود أمم فى عصرنا هذا على سطح الأرض مجردة عن ديانة أو عقائد خرافية حتى فى الأمم المتوحشة ، وقد صار الإنسان كائنا متدينا بسبب أنه أعقل من غيره من الحيوانات .

« وغير هذا فإن الآثار الباقية من عهد الإنسان قبل التاريخ ، تدل بواسطة ما وجد من الطلاسم والمقابر وقطع من الجماجم مثقوبة بقصد التعليق ، على وجود الدين إذ ذاك .

« وإذا فتدين الإنسان يمكن اعتبار وجوده بطريقة لا تقبل الجدل من عصر الحجر المصقول .

« وإذا انتقلنا من الأمور المحسوسة إلى الظنون ، فيمكننا أن نقول بأن الإنسان قبل مائتين وخمسين ألف سنة كانت له عقائد مبهمة سطحية ، ولو لم يكن إلى ذلك العهد قد شعر بوجوب احترام للموتى يحمله لأن يحفر لهم قبورا ، ولا اتخذ لنفسه صنما يتقرب إليه بالعبادة .

« هنا نقطة ثابتة يمكن قبولها ، ولها نتائج هامة فيما نحن بصدده : ذلك أن الديانة لما لم يكن أصلها من عالم علوى (هذا رأيه) فقد ترقت تدريجيا على مقتضى نواميس منتظمة عامة ، وتولدت من أفكار ساذجة مبهمة تناسب تلك العقول الساذجة الأولية ، ثم تدرجت مترقية حتى وصلت إلى مستوى المدركات الكثيرة التركيب ، العظيمة القيمة التاريخية ، كما هى عليه الآن . من هنا ليس للأديان أن تتوهم أنها لم تترق من أصل بسيط ساذج ، بل هى ترقت على غير علم منها مقودة بحركة الترقى العام إلى الحالة التى هى عليها الآن .

« بقى علينا أن نحدد تلك الأفكار الأولية التى كانت أساسا للأديان . هنا يبتدئ الخلاف بين رؤساء العلم الدينى (يريد بهم العلماء الباحثين فى الأديان لا العلماء الدينيين) ، فبعضهم يعللون الأديان بواسطة وجدان عال نبع من صميم القلب ممثلا الحقيقة العلوية بإيحاء إلهى ، وبعضهم يعللها بقوله إنه خطأ من الإنسان فى التجربة ، وخطأ من عقله فى الاستدلال . فالأولون يرون أن الدين اندفاع من العقل الإنسانى ليسمو عن حضيض الطبيعة التى نحن متورطون فيها إلى مكانات الرفعة الملكوتية . والآخرون يرون أنه نشأ من تعليلات الإنسان للحوادث الطبيعية العادية تعليلا باطلا ، سواء فى ذلك الحوادث التى تقع تحت حسنا أو تجيش فى ضمائرنا . فهو فى نظر أحد الحزبين أرقى من العلم ؛ وفى نظر الحزب الآخر هو العلم فى طفولته .

« جميع الفلاسفة العقليين مثل أتباع ستروس ورينان وماتيو أرنولد يجدون فى الأديان جرثومة مذهبهم الراقى ، ويحنون رءوسهم إجلالا لها على حال توهم أنها استهزائية لولا أن لسان حالهم يشعر بأنهم مخلصون فيما يفعلون . فهم يرون فى الأديان أشرف وأبقى ما أنتجته العقول البشرية . أما الفلسفات الحسية فلا ترى فى أصول الأديان إلا ما رآه أجوست كومت وهو أنها وثنية خشنة .

« من هنا يرى القارئ أن مسألة البحث عن أصل الأديان على مقتضى الأسلوب الجديد الذى تتطلبه روح العصر الراهن هى من المسائل العويصة الحل . وقد كان الناس يتساءلون من زمان بعيد : هل الدين وحى إلهى أم وضع طبيعى ؟

فانتهت بالناس الحال اليوم لأن يتساءلوا : هل الدين مطابق للطبيعة الحقة ، أم هو نتيجة ضلال من العقل أو ضلال من النظر ، كان حدوثه أمرا مقضيا ثم هذبه العلم وأوضحه على تمادى الأزمان ؟ ويتساءلون أيضا : هل الإله المذكور فى كتب الأديان هو نفسه ذلك المعبود الوهمى الذى كان يعبده الوثنيون فكبره المتدينون ونزهوه على نسبة ارتقاء عقولهم ؟ » انتهى كلام الفيلسوف جيو .

ونحن نتصددى لتحليل هذا الكلام والرد عليه ، لأنه فى نظرنا يشتمل على قضايا تحكمية لا تدعو الضرورة إليها ، بل يوجد فى العلم نفسه ما يناقضها .

فقول الفيلسوف جيو : الأديان ليست من أصل علوى بدليل أنها نشأت ساذجة مبهمة ، ثم ترقت وتركبت على مقتضى نواميس منتظمة عامة ، فلا يصح أن يكون دليلا على أن الدين أصله أرضى . فإن العقل الإنسانى نفسه نشأ ساذجا مبهما ، ثم ترقى وتركب على مقتضى نواميس منتظمة عامة ، والعقل ليس بأرضى الأصل لأنها مجردة منه ، والمجرد من الشىء لا يعطيه ، فأصل العقل علوى كما هو بدهى ، وكونه نشأ ساذجا مبهما لا يقدح فى ذلك . فالحكم على الدين بأنه أرضى لا علوى لأنه نشأ ساذجا مبهما ثم ترقى – تحكم لا يسوغه عقل ، ولا تقبله فلسفة إلا الفلسفة المادية ، وقد تحطمت أصولها أمام الفتوحات الرومانية التى توالت فى التسعين السنة الأخيرة .

وكيف لا يعتبر الدين علويا وهو ينزع إلى التقرب من موجد الخليقة بالإخبات إليه ، والتقرب منه بحرمان النفس من مشتهياتها ، وبتقييد رغباتها ونزعاتها ؟

أليس للأصل حق فى توجيه النزعة التى يولدها فى النفس ، فلو كان ذلك الأصل أرضيا فهل يدفع بالنفس إلى ما فوق الأرض ؟ ولماذا ؟ فإذا لم يوجد سبب وجيه لإحداث هذا التوجيه المعاكس فلا يمكن أن يعقل ، فلننظر ماذا يقوله الفلاسفة الماديون بعد ذلك لعلنا نصادف ذلك السبب فى أقوالهم فنحاكمه إلى العلم .

يقول جيو : إن بعض البحاثين فى أصل الدين يرون أنه نشأ من تعليلات الإنسان للحوادث الطبيعية تعليلا باطلا ، وعلى ذلك فيكون الدين هو العلم فى طفولته .

ومعنى هذا أن الإنسان رأى أن الأنهار قد تطغى فتغرق أهله وحرثه ، أو تصيب ماشيته وأمتعته ، ورأى الصواعق تنقض فتحرق كوخه وتجتاح بعض ذويه ، ورأى الرياح تركب رأسها فتهدم بيته ، وتقتلع أشجاره ، أو تسقط ثمراتها ، ورأى السيول تصيبه فلا تبقى فى طريقها من أشيائه ولا تذر إلخ ، فنظر فى علل هذه الحوادث كلها فلم يجد لها تعليلا غير هذا : وهى أنها من عمل روح أو أرواح شريرة تغضب عليه لإهماله شأنها ، فتنتقم منه بإثارة هذه الجوائح عليه ، فحمله ذلك على وجوب الاعتراف بسلطانها وبعبادتها ، وتقريب القرابين لها ، وإهداء أثمن ثمراته إليها ، وتمادى فى ذلك وهذبه ونقحه على نسبة ترقى عقله حتى وصل إلى توحيدها ، وإلى تنظيم العبادات لها وتجريدها ، واعتبر ذلك وحيا إلهيا ، ناسيا أصلها الساذج ، والأطوار التى دخلت فيها تدريجيا حتى وصلت إلى ما وصلت إليه .

نقول : وهذا أيضا لا يسمح به العلم ، ولا يسمح به النظر الصحيح ، لأن شيوع الدين فى كل مكان ، وقِدمه فى النوع البشرى ، بحيث لم يصادف الباحثون فى أقدم عهود البشرية أمة أو قبيلة بغير دين – يشعر بأنه غريزى فى النفس البشرية ، فإن كل ما عُلم عنه يدل على أنه كذلك ، فمن شأن الغريزة الطبيعية أن تعم جميع أفراد النوع ، وأن تكون فيه اضطرارية لا اختيارية ، وأن تكون ذات طبيعة واحدة ، وذات وجهة واحدة . وهذا كله ينطبق على الدين فى النوع البشرى .

فإذا لم يكن الدين غريزيا لوجدت أمم وقبائل غير متدينة ، كما هو شأن كل أمر غير غريزى . ومن الغريب أن الأمم عاشت منعزلة بعضها عن بعض آمادا طويلة لا تعلم واحدة منها بوجود الأخرى ، فلما تم اتصالها بعد استكشافها وجدت أنها متدينة على الأسلوب نفسه الذى عليه كل أمة فى الأرض ، أفلا يدل هذا دلالة محسوسة على أن التدين غريزة قاهرة فى النفس البشرية ، وليست صفة مكتسبة من قبل ؟

يقول الفلاسفة الماديون : إن الدين نشأ من خطأ فى التعليل ، وهل الإنسان فى سذاجته كان يفزع إلى تعليل الحوادث التى تصيبه ، كما يفزع إليها الذى وصل عقله إلى درجة ما من درجات الارتقاء ؟ هب أنه كان يلجأ إلى التعليل ، فهل يصل أفراد النوع كلهم إلى علة واحدة ، وعلى نوع معين منها ، بحيث لا يوجد خلاف بين جميع أفراده إلا فى التسمية فقط ؟

هذا بعيد عن التصور ، ولا يمكن قبوله لا علميا ولا فلسفيا ، وإنى أعجب للذين يقبلونه وهم يرون وهيه إلى هذا الحد ! لكنهم مضطرون لقبوله على علاته ، لأنهم إذا لم يفعلوا اضطروا للقول بوجود غريزة دينية فى النفس البشرية . وهذا يضطرهم للبحث عن مصدرها ، فإذا اتجهوا هذه الوجهة استد عليهم باب الوراثة الحيوانية ، لأن الحيوانات مجردة من التدين ، بل قال كبير الفيزيولوجيين الأستاذ كاترفاج الفرنسى : إن الفارق المميز بين الإنسان والحيوان هو التدين ، أما سائر الصفات النفسية من حب وبغض وأمن وخوف إلخ ، فهى شائعة بين الإنسان والحيوان على أقدار متفاوتة .

وإذا لم تكن تلك الغريزة وراثية فكيف نشأت فى النوع البشرى طفرة ، وأمثال هذه الطفرة محال عندهم ، لأنهم لوقالوا بإمكانها اضطروا لنسبة التدين إلى عامل فوق الطبيعة يكفى لترسيخه فى نفس الإنسان وتعميمه بين جميع أفراده ؟

ولما كان من المتعذر قبول رأى الماديين فى أن التدين أصله تعليلات باطلة للحوادث الطبيعية بعد ما حللناه التحليل الذى رأيت ، فلم يبق إلا القول بأنه غريزة فى النفس البشرية غرزها فيها بارئها . وهذا ما يصعب عليهم أن يقبلوه هم ، لأنهم لا يعقلون وجود بارىء للكون ، وما ذنبنا نحن معشر الذين نعتقد بوجود بارىء للكون أن نُكَلف تعليلهم للتدين بتصديق ما لا يعقل ؟

من شبه هؤلاء الماديين أن الدين نشأ ساذجا ثم ترق بترقى العقول والعلوم ، وهذا القول منهم غريب لأن الدين ينحصر فى كلمتين : الخضوع لموجد الكون ، والتقرب إليه بالصالحات . والقرآن الذى هو آخر الكتب السماوية نزولا يصرح بهذه الحقيقة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [1] ، وقال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [2]

---

(١) سورة النساء : ١٢٥ .

(٢) سورة الروم : ٣٠ .

أى أن الدين الحق هو ما فطر الله النفس الإنسانية عليه من الاعتقاد بقدرة لا حد لها صورت هذا العالم وأبدعته ، ومن العمل بما هى مفطورة عليه من القوانين الباعثة على التكمل .

من هنا يرى أن الدين يعلن القرآن أنه أصل الأديان كلها هو من البساطة بحيث يعبر عنه بكلمتين : (الإيمان والإحسان) ، وكل ما ورد بعد ذلك فى القرآن فهو أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وتفصيل للأحكام وتعليم للإنسان وجوه العبادة الموصلة إلى الكمال النفسانى .

فإذا كان الدين من البساطة عند هذا الحد ، كما يصرح به آخر الأديان نزولا ، فمن أين نشأت شبهة الفلاسفة الماديين ؟ إنها نشأت بلا شك من ذهاب قادة الأديان المختلفة مذهب التوسع فى فهم هذين الأصلين ، فتكونت شروح وتأويلات نقلها الخلف عن السلف ، وزادوا عليها وقدموها للشعوب باعتبار أنها من الدين ، فأصبحت الأديان بذلك مجتمع أفكار بشرية ، صبغت بصبغة إلهية ، ثم تحجرت بمرور الزمن عليها ، فضاعت فى أطوائها بساطة الدين الفطرية ، وجاءت الفلسفة العصرية تناقشها الحساب وتنازعها السلطان على الأرواح .

ولكن الإسلام لبقاء كتابه بمنجاة من التحريف ، بقيت آياته الموحاة ظاهرة للعيان ، ومتميزة عن الشروح التى علقت عليها ، فإذا وقع نقد من العلم على شىء من أشياء المسلمين ، فلا يقع على الأصول الموحاة ، لأنها أصول علمية عامة اتفق البشر على صحتها وإطلاقها ، ولكنه يقع على الشروح البشرية التى علقت عليها ، وهو مما يمكن الرجوع عنه إلى الصواب . ومما أثر عن شراح المسلمين أنهم كانوا لا يأتون بفهم لهم إلا عقبوه بقولهم : (والله أعلم) ، ولم يحرموا على أحد نقده وتجريحه . ولو لم يصب المسلمين فتور فى بضعة القرون الأخيرة ، ولم يجمدوا على ما وجدوه لا يفكرون فيه ولا ينقحونه ، لكان كل ما شرحت به آيات القرآن موافقة اليوم لأقصى ما وصلت إليه العلوم الكونية من الثمرات العلمية .

على أنه مهما تكن الحال فإن جوهر الإسلام لا يلزمه ما عسى أن يكون قد أخطأ بعضهم فى فهمه ، أو قصر فيه عن مداه تأثرا بأحوال عصره ، فشبهة العلم التى أوردها الفيلسوف (جيو) لا تتناول الإسلام فيما تناولته من سائر الأديان .

يقول (جيو) : إن الفلسفات الحسية لا ترى فى الأديان إلا ما رآه أجوست كومت وهو أنها وثنية خشنة . فهب أن أقدم ما يعرف عن الأديان هى الوثنية الخشنة ، فهل هذا ينفى أن العاطفة التى دعت إليها أرقى وأشرف عاطفة بشرية ؟ ألم يبدأ كل علم عال وسواسيا خشنا فما زال يترقى ويتهذب حتى وصل إلى درجة عالية من النضج والصقل ؟ فهل الميول التى دعت إلى هذه العلوم يقدح فى سموها أن لا يصل الإنسان إلى مراميها طفرة ، وهو محتوش بكثير من القواطع المادية ، والعواثير الطبيعية ؟ أليس يدل على سموها وعراقتها فى الكرامة أنها دفعت الإنسان رغما عن هذه القواطع والعواثير إلى غايات بعيدة من فهم بعض الوجود ، وفهم شىء من قواه ونواميسه العاملة فيه ؟ فكذلك الدين لا يقدح فى شرفه وكرامته أن لا يكون الإنسان قد فهمه على أحسن وجه.وهو فى أخس أدوار جهالته ، وأحلك عهود عمايته . ومن يوفقه الله للاطلاع على فتوحات العلم فى الشئون النفسية فى القرن الأخير تتبين له حقائق يخجل من أنه كان يسعى فى إبطالها بدون دليل [1] .

* * *

(١) مجلة الأزهر : المجلد التاسع ، الجزء الثامن ، شعبان ١٣٥٧ هـ (صفحة ٥٠٥) .

الإيمان بما فوق الطبيعة

أساس لبقاء النوع الإنسانى وترقيه

اشتدت الفلسفة المادية فى القرن الماضى فى نشر أصولها ، معتمدة على ما كشفته العلوم الطبيعية من مساتير القوى الكونية ، ذهابا من قادتها إلى أن تجرد العقول من كل علاقة بما فوق الطبيعة يفضى إلى نضج القوى العقلية الإنسانية ، ويكون أثر ذلك على الأخلاق والمعاملات والعلاقات الاجتماعية رقيا لا تشوبه شائبة ، وكمالا علميا وعمليا يؤدى الإنسانية إلى عهدها الذهبى المنتظر ، دون أن ترتطم بمعطلات اعتقادية تحول بينها وبين الحقائق الكونية .

وقد بذل أشياع هذه الفلسفة جهد الجبابرة فى نشر مبادئهم ، فأكثروا من المحاضرات الفلسفية المؤيدة لمذهبهم ، وعمدوا إلى طبع المؤلفات التى تؤيد مزاعمهم طبعات رخيصة الثمن لتنتشر بين الطبقات الدنيا من الشعوب ، حتى تم لهم ما أرادوا من زعزعة عقائد العامة فى شئون ما فوق الطبيعة ، وأصبح الاستخفاف بالمقررات الدينية ، واعتبار قادتها وممثليها من العاملين على صد النفوس عن الاشتراك فى بناء العالم الجديد الخالص من شوائب الرجعية ؛ فكانت ثمرات هذه الجهود التى بُذلت ، انتشار روح التمرد فى الطبقات العاملة ، واستهتار أصحاب الأموال فى جمع الثروات ، وإنفاقها فى اللهو والقصف ، والتفنن فى ضروب اللذات ؛ ونشأت من هذا الوضع مذاهب متطرفة بين العمال وما فى حكمهم ، تذرعت بكل صنوف الوسائل المدمرة للوصول إلى نظم اجتماعية لو تحققت لكانت وبالا وبيلا على المجتمعات المتمدنة ؛ بل تألفت أصول اجتماعية اعتبرت مُثلا عُليا ، على حين أنها حالات استثنائية تولدها الضرورة ثم تزول بزوالها .

كل هذا لا يُظهر بوضوح تأثير المذهب المادى فى إنتاجه ، ولكن هذا التأثير يظهر فى تدهور الآداب العامة ، وفى ارتخاء الرُّبُط الاجتماعية إلى حد أن اعتبرت تلك الرُبُط فى بعض الجماعات من بقايا العصور الهمجية التى يجب العمل على حلها .

أما تدهور الآداب فى القرنين الأخيرين فلست فى حاجة إلى بيان أطواره ؛ فقد أصبح كل ما كان يعتقده الناس إفراطا أو تفريطا ، أو تجاوزا لحدود الأخلاق العالية ، يعتبر من بقايا الوساوس العتيقة . ففى البيت أصبح الأولاد يشبون على عصيان آبائهم وأمهاتهم ، مستلهمين هذه الحالة عنهم ، فقد نشأ التدافع أول الأمر بينهم ، فالأولون ببقية من الغيرة أرادوا أن يحدوا من حرية زوجاتهم تحقيقا لمبدأ القوامة الفطرية عليهن ، فنشأت مشادات بين الفريقين ، انتهت بخذلان الرجال ، وكان خذلانهم بعاملين ؛ أحدهما تسممهم بالمبادىء المادية ، وثانيهما بسيادة الروح الإباحية فى الخارج ، فأقروا بخطة خسف ، وانتهى أمرهم بالتسليم بدون قيد ولا شرط ؛ فكيف فى بيئة مثل هذه أن تُحمل النابتة على اتباع طريقة أدبية ، وما فائدتها فى بيئة هى مثال الانحلال والتدهور ؟

على هذا النحو عمت الفوضى البيوتات ، وتعدتها إلى دور الدراسات ، حتى أصبحت مهمة التعليم عبئا ثقيلا على القائمين بها .

أما من ناحية الربط الاجتماعية فقد أصابها من الارتخاء ما وصل إلى أشد درجات الخطورة . ومظاهر هذه الخطورة قيام الاعتصابات لأوهى الأسباب ؛ فبينا يكون دولاب الأعمال على أكمل ما يكون من النظام إذا ببادرة اعتصاب فى بعض فئام العمال ، لا يلبث أن يعم جميع الذين يعملون مثل عملهم فى جميع أرجاء المملكة ، فيصبح الناس إما لا يجدون خبزاً يأكلونه ، أو نورا يستضيئون به ، أو وسائل نقل تقرب بين مسافهم ، وتحمل تجاراتهم ، أو وقودا يدير آلاتهم ، ويدفع عادية الزمهرير عنهم . وكلما استرضيت طائفة خلفتها أخرى ، بغير مبالاة ، بما يستتبع هذه الإضرابات من وقف الأعمال ، وإرباك الأحوال ، وسقوط الوزارات ؛ وأكثر ذلك لا عن ضرورة ماسة ، ولكن تطلعا لولاية الحكم ، وتربصا للفرص لنيل بعض المآرب المادية ، وقد أصبح هذا الداء مستشريا إلى حد أنها لا تكاد تفرغ الجرائد من حوادث اعتصاب ، حتى تشتغل بغيره ، وهلم جرا .

وأشد خطرا على الإنسانية من هذا كله موت عاطفة التراحم بن الجماعات المختلفة ، والذهاب فى الخصومات إلى أبعد حدود القسوة والغشمرية ؛ فالأمم المتجاورة المتوحدة فى ديانتها وثقافتها ومدنيتها ، قد تتخالف فى سياساتها ومطامعها ،

فبدلا من أن تعملا على تقريب وجهتى نظرهما ، وتجهدا فى وجدان تسوية عادلة بين مصالحهما ، تعمل كل منهما على حرمان جارتها من حاجتها ، والاستئثار بكل الفوائد دونها ، فلا تجد الموتورة منهما إلا اللجوء إلى القوة فى الحصول على رغيبتها ، فتقع بينهما حرب ، والحرب وسيلة وحشية ، فهى تناحرٌ لا يصح وقوعه بين الأمم التى تعقل اليوم نتائجها من الخراب والدمار . وقد تجر هذه الحرب الدول التى تمت إلى كل من المتخاصمين بسبب ، فتنقلب إلى مجزرة عامة بين أمم تملك كل منها من آلات التدمير ما لا يصح استخدامه لإهلاك بعضها بعضا .

حدث كل هذا فى كل أدوار الانتقالات الاجتماعية ، حيث لم تكن وسائل الإقناع مغنية ، وبقى إلى اليوم وفى العالم محكمة دولية للعدل ! وفى هذا دليل محسوس على أن الأمم بعد أن بلغت هذه الغايات البعيدة من فهم الحقوق الطبيعية ، وذاقت ثمرات السلام فى النواحى العلمية والمدنية ، لا تزال تتغلب عليها النزعة الوحشية ، بل تفاقم شر هذه النزعة فيها إلى حد أنها تندفع إلى الخضوع لها ، وهى تعلم أن نتيجة ذلك إهلاك النوع الإنسانى ، وتجريده من كل ما كسبه من ثمرات المدنية والاكتشافات العلمية .

كل هذا أثر الفلسفة المادية ، لأنه يتماشى ومبادئها من تنازع الحياة ، وبقاء الأصلح ، وقيام الأقوياء على أنقاض الضعفاء ، وما افتتنت به العقول من أمثال هذه الكلمات الفارغة التى لو بقيت ، لأدت النوع البشرى إلى عهد من الوحشية لا يمتاز عما كان عليه النوع الإنسانى فى أول عهده بالوجود .

هنا يشعر القارىء بأن النوع الإنسانى ينقصه لأجل أن يحيا حياة طيبة ، ويزداد علما ورقيا إلى ما لا حد له يقف عنده ، إلى عامل أدبى يحد من نزعته الوحشية ، ويصده عن الانقياد لطبيعته الحيوانية . عامل يلائم ما متع به من روح علوى ينزع به إلى السمو الخلقى ، والرقى الأدبى ، والترفع عن التوحش الحيوانى . هذا العامل الأدبى هو ما حمله الدين إليه من الاعتقاد بعالم ما فوق الطبيعة . والذى يسهل على الدين مهمته العظيمة ، ويسوغ له الإدمان على الدعوة إليه ، أن الإنسان قد أدرك وجود هذا العالم العلوى من يوم ظهوره على الأرض ، ولا يزال على ما كان عليه إلى اليوم ، بل زاد شعورا به وشوقا إلى الاستزادة من معرفته .

نعم إن الإنسان أطلق العنان لخيالاته فى إدراكه لذلك العالم ، فما ترك شيئا مما يتصوره من كائنات روحانية ، وشؤون علوية ، إلا ألحقه به تحت أسماء واختصاصات شتى ، تخالفت الشعوب فيها تخالفا كبيرا ؛ ولكنها اتفقت جميعها على أن ذلك العالم العالى هو مصدر القوى العامة ، منه تشع على جميع الكائنات ، وإليه يرجع تدبيرها وتقويمها ، وأن العالم الظاهر للحواس منفعل له انفعال الجسم للروح ، والمادة للقوى التى تدبرها .

ولما اتسعت للإنسان آفاق المعارف الطبيعية ، زاد تعلقه بذلك العالم واعتقد أن فيه مُثلها العليا وغاياتها البعيدة..

وجاءت الأديان فأيدت الشعور الفطرى به لدى الإنسان ، وأزالت عنه ما ألحقته به طفولة الأمم من الأباطيل والخرافات ، وجعلته مصدر أمر الله ونهيه ، ومتنزل قدرته التى تمد الكائنات بما يربّها ويكملها ، ومثوى الأرواح والملائكة ، وفيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من المشاهد العلوية ، والأنوار القدسية .

فالنفوس البشرية الممتعة بالعقل والإدراك ، والشعور الحاد بالجمال والقبح ، إذا نالها البشم من معاناة الحياة الأرضية ، وأصابها الرهق من مغالبة حوادثها ، وشعرت بالهلع والوحشة من تعاقب الكوارث عليها ، لجأت إلى ذلك العالم المحجوب عنها ، فاستمدت منه القوة والصبر على تكاليف الحياة ، واستلهمت الروح الذى يشع منه المبادىء العليا لمعالجة العوادى التى تحيط بها من كل جانب ، فتشعر بنفحة مشجعة ، وطمأنينة مثبتة ، قد لا تبالى بعدها إذا لقيت حتفها ، لأنها تعتقد أنها ستنتقل بعد هذا الجهاد الموبق إلى ذلك العالم العالى ، لتعيش فيه مع الأرواح العالية ، والنفوس الطاهرة .

لا جرم أن الشعور بوجود ذلك العالم يجعل للحياة الإنسانية ، وللعنت الذى يصيب الإنسان فيها معنى ساميا ، وعاقبة معقولة ، ويحمله على ملازمة الخلال النبيلة ، والمبادىء القويمة ، خلافا لمن لا يعتقد بوجوده ؛ فإنه إذا تجهمت له الحياة فكر فى ارتكاب الجرائم ، واقتراف المآثم ، ولم يبال بشىءغير نفسه ؛ فإذا عمت هذه العماية حتى صارت عقيدة لأمة ، فإنها تتجه إلى طريق الشر ، فلا تحترم عهدا ، ولا تلتزم

ميثاقا ، فإذا قاتلت وانتصرت ، نشرت الرعب فى النفوس ، وأشاعت الظلم فى الأحكام ، وما تزال ترتكب منكرات تليها منكرات ، حتى تصادفها قوة أكبر من قوتها فتلحقها بالأذلّين .

فإذا استشرى هذا الداء الإلحادى ، واعتنقته الأمم ، وأثمر العلم من الأسلحة المدمرة ما يكون استعماله وبالا على الحضارة الإنسانية ، فإن تلك الأمم لا تتأخر عن استخدامه فتهلك الحرث والنسل ، وينتهى العالم بعد هذا الدور من التناحر إلى حالة من البؤس لا يرضاها أشد الناس عداوة لبنى نوعه .

ولقد كانت المبادىء الالحادية قد قويت شوكتها فى القرنين الثامن والتاسع عشر فكان ثمرة ذلك حدوث حربين عالميتين ، لم تراع فيهما المرحمة الإنسانية ، ولا العدالة العرفية ، فضرب المتحاربون المدن بالقنابل الضخمة غير مبالين إن كانوا يقتلون بها جنوداً فى خطوط النار ، أم الأسر الوادعة المكتظة بالنساء والولدان ، والهرمى والزمنى منهم ، فأبادوا ملايين من النفوس البريئة رغما من التمدن المادى الذى أفاده العلم للناس ، ولم يغن بعض ما كانت تغنيه العقيدة الدينية فى مثل هذه الأدوار الحرجة .

ولو اتفق اختراع قنابل أشد فتكا كالقنابل الذرية ، وحدثت حرب جديدة ، لتراشق بها الخصوم ، وإذ ذاك تتصوح زهرة المدنية ، ويخبو نورها ، وترتكس الجماعات البشرية إلى أسوأ مما كانت عليه أيام جاهليتها الأولى .

وليس بعد هذه التجارب المحسوسة دليل على أن العلم الطبيعى لا أثر له فى تهذيب النفسية الإنسانية ، ورفع كابوس الوحشية عنها ، اللهم إلا ظاهراً من التقاليد الأدبية يستخدمها الناس فى مقابلاتهم ومعاملاتهم ، وقلوبُهم من الإنسانية الفاضلة ، والكمالات الخلقية هواء .

هنا يعترض علينا معترض فيقول : إن ما ذكرته عن الوحشية المستكنة فى نفوس المتمدنين ، رغما عن بلوغهم الغايات البعيدة فى العلوم الطبيعية ، صحيح لا يمكن التمارى فيه ، ولكن تاريخ الجماعات فى أشد أدوار حماستها الدينية لم تخل من قساوات أسوأ مظهراً ، وأفظع مخبراً مما ذكرت . ألم يذبحوا مخالفيهم فى الدين ذبح الأغنام ، ألم يلقوهم جماعات فى النيران ، ألم يرموا بهم من شواهق الجبال

لا لشيء غير أنهم لا يدينون بدينهم ، ولا يتعبدون بكتابهم ؟

نقول : نعم ، حدث كل ذلك من الجانبين ، ونحن لم نقل إن العقائد وحدها تبلّغ الجماعات إلى المُثل العليا من الكمال الصحيح دون أن تستضيء عقولها بأنوار المعارف الكونية ، وتتشبع نفوسها بحكمة الدين الحق ؛ لذلك جاء الإسلام داعياً إليهما معاً ، فقال تعالى : ﴿ وقل رب زدنى علما ﴾ ، حتى أنه حصر كال العلم بالله والوقوف عند حدوده فى العلماء ، فقال : ﴿ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء ﴾ .

ودعا النبى ﷺ إلى طلب العلم ، وحث عليه فى أقوال أثرت عنه تثبت مُثلا عليا فى التحضيض عليه ؛ من ذلك قوله : « يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء ، فيرجح عليها » وقوله : « لموت عالم أشد على الله من موت قبيلة » وقوله : « اطلبوا العلم ولو بالصين » .

فالجاهل إذا تدين ولم يجد من تربيته البيتية ، ولا من ثقافته الحكمية ، من يردعه عن الشطط ، تخيل أن فى التنكيل بأعداء دينه ، والعدوان عليهم وسائل تحظيه من الله بأجزل المثوبات .

ومن الأمثلة التى نسوقها لبيان سمو الإسلام ، أن رجالا دخلوا فيه وآباؤهم كانوا لا يزالون على كفرهم ، فسألوا النبى ﷺ : هل يقتلونهم إن صادفوهم فى كتائب الأعداء ؟ فنهاهم عن ذلك احتراما لحرمة الأبوة ، بل نهاهم أن يقتلوا من أعدائهم الطاعنين فى السن ، والمصابين بمختلف العاهات ، والنساء والولدان وخدم المقاتلين ، ورجال الدين ، وحظر عليهم حرق دورهم ، وتقطيع أشجارهم ، وطلب إليهم أن لا يقتلوا أسراهم ، وأن يحسنوا إليهم ، وأن لا يقتلوا المستسلمين ، فاتفق أن أحد أصحاب النبى قتل مستسلماً ، فغضب النبى ﷺ من ذلك وقال له : « إنى أبرأ إلى الله من عملك » فقال إنه استسلم والسيف يهوى على رأسه تفاديا من القتل . فأجابه النبى : وهل كشفت عن قلبه ؟ إننا أمرنا أن نأخذ بالظاهر .

كل هذا يدل على أن الإنسان لا يمكنه أن يبلغ درجة الكمال النفسى إلا بالدين مقترنا بالعلم ، وليس بأحدهما دون الآخر . بهذا التحديد العظيم فى آخر أدوار الإنسانية جاء الإسلام ، فجعل الدين والعلم توأمين متلازمين ، وعاملين متكافلين ،

وضرب أهله فى الأرض متشبعين بهذه الحقيقة ، فلم يجدوا علما إلا تدارسوه ، ولا فلسفة إلا اطلعوا عليها ، عاملين بقول نبيهم ﷺ : « خذوا الحكمة ولا تبال من أى وعاء خرجت » و« خذ الحكمة ولو من مشرك » ، فاستقدموا العلماء والحكماء من كل قطر ، وتركوهم على دينهم ، وأجروا عليه الأرزاق بسخاء لم يسمع بمثله فى أمة قبلهم ، وكلفوهم ترجمة كتب العلم والحكمة ، وأكبوا عليها درسا ونقدا ، وتحريراً وتقريراً ، حتى بلغوا الغاية منها ، وزادوا عليها زيادات لا تزال محل إعجاب أئمة التاريخ إلى اليوم .

ولو كان دينهم لم يحضهم على طلب العلم هذا التحضيض الذى لم يؤثر عن أية أمة سواهم ، لبقوا على جهالتهم ، فانقلبت فتوحاتهم شرا عليهم وعلى البشرية ، ولبادوا كما بادت الأمم المتعسفة قبلهم ، ولما بقى لهم ولدينهم الأثر الذى بقى إلى اليوم وسيبقى على الدهر .

فعلى المسلمين أن يدرسوا هذه الناحية من تاريخهم ، فهى التى ستجعل من دينهم مفزعا للعالم كله فى مستقبل ليس بعيدا عنا ، وقد بدت بوادره فى الأفق ؛ فهلم لتحقيق هذا العهد الكريم ، عهد الإسلام الحق ، دين الإنسانية أجمع .

أما وقد بلغنا إلى هذا المدى ، فالذى بقى أن نقوله إن المدنية القائمة أصبحت مهددة بالزوال من ناحية العلم ، إذا لم تسعف بالعقائد الصحيحة . وقد أكرم الله هذا النوع الكريم فكشف له فى هذا الزمان الأخير من البينات المحسوسة ، على شرطه فى دراسة العلوم الكونية ، ما يوجد له إيماناً راسخا بما فوق الطبيعة ، وببقاء الأرواح بعد تركها للأجساد ، بما لم يدع شكا لمرتاب ، ولا حجة لمتردد : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [1] (*) .

* * *

---

(١) سورة الذاريات : ٢٠–٢١ .

(*) مجلة الأزهر : المجلد التاسع عشر ، الجزء الخامس ، سنة ١٣٦٧ هـ ، (صفحة ٣٨٥) .

وحدة الأمم ووحدة الأديان

شرع الله الإسلام ليكون دينا عاما للبشرية كافة بعد أن أصبح ذلك ممكنا بتواصل أممها ، وتعارف جماعاتها ، وتبادل تجاراتها وثقافاتها ، وقد اطرد هذا التقارب واتصلت حلقاته حتى لاحت بوادر الوحدة العالمية لبعيدى النظر منذ أجيال ، وصارت وحدة الدين أمرا لابد منه ، بل أضحت فى حكم الأمر الواقع لدى أهل النظر البعيد فى الشؤون الإنسانية . وكيف لا يكون الأمر كذلك والنفوس والعقول والعواطف البشرية تتفق فى مطالبها ووسائلها وغاياتها ، فإن تخالفت فى بعضها فإنما هو تخالف عرضى سببه تخالفها فى درجات ثقافاتها ، وتباينها فى أساليب تفكيرها . ولا يجوز لنا أن ننسى أن لاختلاف الأجناس واللغات والمدنيات ، تأثيرا خطيرا فى المباعدة بين الشعوب ، ولكن الكوارث الاجتماعية ، والأزمات الاقتصادية ، وضرورة هجرة الجماهير الفقيرة من بعض الأمم ، للعيش فى بلاد البعض الآخر ، تحت ضغط العوامل الاقتصادية ، كل ذلك أثر فى عقلية الجماعات البشرية ، وأضعف من شدة الروابط الجنسية ، ومهد السبيل للقول بإبطال الحروب ، وبضرورة إيجاد وشائج ودية بين جميع الشعوب .

فالوحدة العالمية فى طريق التكون ، وقد تواترت أشراطها بتأليف جماعات دولية للنظر فيما يشجر بين الأمم من خلافات إقليمية ، أو منازعات استعمارية ؛ بل تكلم كبار المتصرفين فى شؤون الأمم ، فى توزيع المواد الأولية الضرورية للصناعات ، مما يكثر فى بعض المستعمرات دون البعض الآخر ، على الأمم التى تحتاج إليها ، قطعا لذرائع الخلافات الدولية التى تجر إلى الحروب الوحشية . بل حدث ما هو أبلغ من ذلك فى موضوع الوحدة العالمية ، وهو نشوء رأى جديد لم يكن له أثر فى العالم الإنسانى ، وهو أن يكون للأمم أجمع حكومة عالمية تسوسها بروح المساواة والعدل ، فتنظر فى مصلحة كل منها كما تنظر الحكومة الواحدة فى مصلحة أمتها . وقد نادت بهذا المبدأ منذ سنتين جماعة فى أمريكا ، وصرح رجالات من أكبر الدول بأن هذا الضرب من الحكومة الجمّاعية هو الدواء الوحيد لحسم الخلافات بين الأمم ، وإبطال الحروب بينها ، وإقرار السلام والإخاء فيها .

هذا الاتجاه الإنسانى طبيعى محض ، ولا يحول دون تحققه إلا عوائق غير طبيعية من اختلاف الأجناس واللغات والعادات ، ولكن من يتأمل فى مصائر الأحوال ، ير أن هذه العوائق يضعف تأثيرها تدريجيا بانتشار اللغات ، وبترجمة المؤلفات ، وبتبادل السياحات ، وكل هذه العوامل تقوى يوما بعد يوم .

ولا يجوز أن يغيب عن الأذهان أن الانتقال بين الأقطار بواسطة الطيارات ، يعتبر من أقوى أسباب توحيد الشعوب . فالبلاد التى كان لا يمكن الوصول إليها إلا بعد نحو عشرين يوما بل أكثر ، يقيمها الإنسان على ظهر باخرة من ذوات السرعة المفرطة ، أصبح يمكن الوصول إليها فى ساعات معدودة . وقد تتحسن هذه الأداة إلى حد بعيد حتى تصبح المساوف الشاسعة التى تفصل بلاد العالم كأنها قرى متجاورة ، يذهب الإنسان إليها ويعود منها فى اليوم نفسه . فهل تسأل بعد هذا إلى أى مآل تؤول الاتصالات بين الشعوب بهذه السرعة ، وإلى أى مدى يبلغ التعارف بينها ؟

ولا تنس أنه كلما أتقنت الأمم فنون الاجتياح والتخريب ، واستكملت وسائل إبادة أعدائها بالقوى الذرية والأشعة الكونية ، وما سيكشف عنه العلم من الذرائع التى لا تبقى ولا تذر ، قلنا لا تنس أن غريزة حفظ الذات تدفع بالأمم ، تحت قيادة الغرائز العليا للإنسانية ، إلى ما يضع حدا لمتابعة هذه المجازفات الجنونية . وهل يقوم بهذه المهمة الخطيرة غير إخاء عام ينتشر بين آحاد النوع البشرى يحميهم غوائل أنفسهم ؟

إذا صح كل هذا فلا محيد عن حدوث إخاء عام بين البشر ، تتبعه وحدة سياسية شاملة لا تسمح للخلافات أن تتسرب إليهم . وتجىء وحدة التربية والتعليم فتكتسح من الأذهان كل ما علق بها من بقايا الخرافات القديمة ، والأوهام العتيقة ، فتهيأ الفطر لقبول دين عام يكون من السمو فى العقائد ، والتنزه عن الشكليات ، بحيث يتفق مع الفلسفة فى أرفع معانيها ، فتتجه الأفكار للإسلام لأنه آخر الأديان نزولا ، وقد صارح الناس بأنه الدين العام للعالم كافة . فلو أضفت إلى ذلك أنه شامل لجميع ما يرجو الناس أن يجدوه فى الدين العام من الأصول والوسائل ، لما ساورك شك فى أنه بالغ تلك المنزلة لا محالة .

هنا قد يقول قائل : إنك إذا كنت قد أحسنت فى بيان الأسباب المهيئة لوحدة الأمم ، فلم تبلغ هذا الشأو فى التدليل على اختيارها للإسلام ديناً لها ، فقد أغفلت أثر العلم فى تجريد الناس من العقائد ، وفى اعتبارها من الصور الذهنية لشعوب لم تبلغ درجة النضج فى تقديرها للوجود وقواه وعوالمه . وقد فرغ العلماء من أمر الأديان واعتبروها موضوعات خيالية ؛ تلهو بها الشعوب فى أدوار طفولتها .

نقول : إن هذا القول ، اتضح للعلم فى هذا العهد ، أنه بعيد عن الصواب ، وأن إجماع العالمين فى جميع العهود والبيئات على التدين لم يكن مظهراً للوساوس ، ولكن تعبيراً عن حقيقة مرتكزة على الفطرة البشرية ، لم يتحقق العلم من وجودها إلا منذ قرن ، أى حينما تحقق بعد بذل جهود مضنية فى البحث من وجود روح للإنسان ، وأن هذه الروح تنزلت من عالم علوى لتبتلى فى هذه الحياة الأرضية ، ثم تعود إليه بما كسبت من ثقافة وعلم ، لتتابع رقيها فى عوالم علوية بعد هذه الحياة الأرضية . وقد أمضى مئات من هؤلاء العلماء فى كل أمة متمدنة عشرات من السنين فى تحقيق الاتصال بالروح البشرية بوساطة التنويم المغناطيسى تارة ، وبوساطة الاتصال بالأرواح التى تجردت من أجسادها تارات أخرى ، مستخدمين فى تمحيص هذه البحوث الأسلوب العلمى على أكمل معانيه ، حتى تحققوا من وجود عالم روحانى وراء هذا العالم تنتهى إليه كل نفس بشرية بعد أن تخلع ثوبها المادى الذى تعيش به على الأرض . وقد دونوا ما رأوه من الأدلة ، معززة بالوسائل المادية التى توسلوا بها ، فى مؤلفات قيمة لا سبيل إلى تجريحها . وقد تألفت مؤتمرات عديدة فى أمهات المدن العالمية لتقرير ما وصلت إليه جهودهم المشتركة ، ونشرت نتائج مباحثاتهم فى كتب خاصة . فهذه البحوث مجتمعة كشفت البواعث الطبيعية للتدين بما لا يدع شبهة لباحث .

وهنا يجمل بنا أن نسرد للقارىء ما يقوم عليه الإسلام من الأصول الأولية ، والمبادىء الأساسية ، ليرى بما لا يدع له شكا أن الإسلام هو الدين الذى لا محيص عن الأخذ به عند ما يصل الإنسان إلى هذا الحد من الرقى العقلى ، والتقدم العلمى ، وأنه سيصبح فى آخر الزمان دين العالم كافة ، فإليك بإيجاز :

١ – الإسلام لا يضع لرقى الإنسان العقلى والمادى جدا .

٢ – ويعترف بحق الإنسان فى النظر والاستدلال ، بل يحثه عليهما ، ولا يعتد بما لا دليل عليه ، بل يعتبره هراء محضا لا يصح أن يلتفت إليه .

٣ – ويحضه على طلب العلم ويعتبر الاجتهاد فيه خيرا من العبادة .

٤ – ويحرضه على التقاط الحكمة ولو كان قائلها مشركا .

٥ – ولا يمنح لطائفة من الأمة من الامتيازات ما يجعل طاعتها واجبة .

٦ – ولا يفرق بين الأجناس والألوان واللغات فيجعل بعضها أفضل من سواها . فقد قال النبى ﷺ : « ليس لعربى على أعجمى فضل إلا بتقوى أو عمل صالح » .

فالإسلام بهذه المبادىء الأولية أتى على جميع التقاليد التى بليت بها الأمم من وضع الحدود لنشاط العقول ، ومن الحيلولة بين المفكرين والعلماء ، وبين العمل على ترقية الجماعات ؛ أو على تغيير النظم بما هو أفضل منها ، أو على تهيئة أسباب الانتقالات الاجتماعية والفكرية التى لا محيد عنها لدفع الأمم لبلوغ الغايات البعيدة من العلوم وتطبيقاتها . وهو بعدم منحه امتيازات لطوائف معينة من الشعوب جعل الباب مفتوحا أمام أهله لبلوغ المُثل العليا بدون قيد ولا شرط ، ومنع بذلك حدوث الانقسامات الاجتماعية التى تطوح بالشعوب إلى المذاهب المتضادة مما يضر بنشاطها الدينى والدنيوى معاً (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الحادى والعشرون ، الجزء الرابع ، سنة ١٣٦٩ هـ ، (صفحة ٢٩٢)

العالم يجب أن تتعارف شعوبه

كانت الأمم إلى عهد الدعوة الإسلامية منقسمة إلى جماعات وقبائل وشعوب وأمم مستقل بعضها عن بعض ، لا تجمعها جامعة دينية ولا مدنية ، بل كانت متعادية متناحرة كأن بينها ثارات موروثة ، حتى أن القبائل التى تعتزى إلى جنس واحد كانت على هذه الشاكلة من التعادى والتناحر . وقد مضى على الناس ، وهم على هذه الحالة ، آلاف من السنين لم يقم فيهم رجل واحد بدعوة إلى توحيد هذه الجماعات تحت ظلال أعم رابطة تجمع بينها ، وهى الإنسانية ، مع أن كثيرا من هذه الأمم بلغت شأوا بعيدا من المدنية ، كالأمة الصينية والهندية والمصرية والبابلية إلخ ، ثم تلتها الأمم اليونانية والرومانية والقرطاجية ، وقد بلغ فيها العلم والفلسفة إلى حدود بعيدة ، واتصلت لديها العقلية الإنسانية بأوج عال من المدركات التجريدية ، ومع ذلك ظلت على ما كانت عليه من الانقسام المزرى بكرامة ما كانت عليه من الفلسفة والعلم والمدنية . أفلا يكون من العجب العاجب أن تظهر هذه الدعوة لأول مرة فى تاريخ البشرية من صميم جماعات شتى لم تصل بعد من أطوار الاجتماع إلى درجة شعب أو أمة ؟

لا جرم أنها دعوة خارقة للعادة ، ولا يعقل تولدها فى قبائل لم تصل بعد إلى ما عليه غيرها من الوحدة الجنسية الخاصة ، فكيف تطفر إلى الوحدة النوعية العامة دون أن تجتاز أدوار الاجتماع الأولية ؟

هذه مسألة تحير الباحث عن العلل الأولية لأطوار المجتمعات المتتالية ، فندعها الآن وننظر فى موضوعنا نفسه من الناحية الفلسفية ، فهل من الممكن أن يوجد بين الأمم تعارف يفضى إلى إبطال الحروب ، وإلى التعاون على الاضطلاع بتكاليف الحياة ؟

يقول بعض الباحثين نعم ، ويقول بعضهم الآخر لا . فمن يجيب إثباتا يعتمد على ما سيكون فى المستقبل البعيد من الوحدة العلمية والوحدة العملية والوحدة الاقتصادية ، مستنداً إلى أن الأمم تتقارب فى ثقافتها العلمية تقاربا محسوسا سيتأدى

بالجرى عليه إلى الوحدة ، لأن العلم ما دام قائما على دستوره لا يمكن أن يختلف فى بلد عنه فى بلد آخر ، والتوحد العلمى يتبعه التوحد العملى والاقتصادى ؛ ومن جهة أخرى التنازع بينها يجرها إلى الفوضى والانحلال ، من هنا ستضطر محفوزة بحب البقاء إلى التفاهم فيما بينها ، وحل مشكلاتها على وجه ما تفاديا من استخدام القوة للحصول على أغراضها .

ثم إن المواد الأولية التى هى محل النزاع بين الأمم غزيرة فى الأرض تكفى جميع سكانها وتزيد عن حاجتهم ، فلا موجب لاختصاص بعض الأمم بها وحبسها عن سائرها . وقد تفاوضت الأمم ذوات المستعمرات الكبيرة وتراضت على توزيعها على مقتضى العدالة ، باعتبار أن الاختصاص بها مثار أكبر الحروب العالمية .

فهذه المقدمات إذا تمت كان تعارف الجماعات البشرية من ثمراتها الأولية .

أما الذين يقولون بعدم إمكان تعارف الأمم ، فيعتمدون على ما بين الجماعات البشرية من العصبيات المختلفة من جنسية ولغوية ودينية ، وعلى استبعاد تراضى الأمم على توزع المواد الأولية فيما بينها بالعدل ، وعلى ما تشعر به الأمم الكبرى من الكبرياء والغشمرية فى معاملة الأمم الصغرى .

والذى يثلج عليه الصدر هو أن كل هذه الحوائل يمكن أن تزول بتأثير الروح الديموقراطية وتأصلها فى النفوس ، وما ينضم إليها من كراهية الحرب واعتبارها بقية من بقايا الوحشية ، ووسيلة غير جديرة بكرامة الإنسانية .

والمشاهد المحسوس أن الأمم تعمل جاهدة على إبطال الحروب بإقامة محكمة دولية تفصل فى كل ما يشجر بين الجماعات من خلاف ، وتأليف جيش عالمى يوجه لتأديب كل جماعة تخرج على هذا النظام العام ، . فإذا تم للأمم المجتمعة اليوم وضع هذا النظام ، تم التعارف المنشود بين الأمم ، وتحقق حكم القرآن فى أنّ هذه الأمم خلقت لتتعارف وتتعاون ، ولم تخلق لتتناكر وتتناهب ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) ، فكانت هذه الآية الكريمة

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

من المثل الإسلامية العليا التى أنزلت إلى الآخذين بهذا المبدأ ليكونوا فى مقدمة الحاملين لرسالة المدنية ، والروح الديموقراطية ، والوحدة العالمية .

والناظر فى تاريخ الأمم الاستعمارية يجد أن أية أمة من الأمم لم تنظر إلى الأمم الخاضعة لها نظرة أخوية غير الأمة الإسلامية ، عملا بمدلول هذا المثل الأعلى . فقد كانت المعاملة العادية للأمم المقهورة هى نظام العبودية إلى أقصى حد ، بحيث لم تتقرر حقوق لها تطالب بها أمام العدالة ولا أمام الرأى العالمى العام ، وأسوأ ما شوهد من أحوال الاستعمار معاملة الدولة الرومانية للأمم التى خضعت لها ، فقد كانت تعاملها معاملة الأسرى لا أكثر من ذلك ولا أقل ، ولم يكن لما يصيبها جملة أو بعض آحادها من المظالم صدى يتردد فى ناحية ما ؛ ولو وصل همس منه إلى آذان الحكومة القائمة ، أهملته كأنه لم يكن . فإذا قابلت هذا العسف الشائن بما كان عليه الأمر عند المسلمين أيام صولتهم ، وجدت فارقا لا يمكن إدراك مداه يدل على أن العدل الإلهى نشر روحه على هذه الجماعات المقهورة فرفعها إلى درجة الأخوة للأمة الغالبة التى كان لها فى ذلك العهد خلافة الأرض .

ماذا أقول ؟ وجدتَ أن هذه الأمة الغالبة قد جعلت ممن تغلبت عليهم هيئة أمم متحدة تحكم بقانون واحد ، وتعامل بالمساواة المطلقة ، لا فرق بين قاهر ومقهور ، ولا بين عربى وأعجمى ، ولا بين أبيض وأسود .

هذا لا يكاد يصدق ، ولكنه ثابت مقرر لا سبيل للشك فيه ، وقد أفضى إلى نتيجة ضخمة لا شَبيه لها فى التاريخ ، وهى دخول الناس فى هذا الدين جماعات جماعات ، بل دخلته أمم برمتها ، ولم يمض عليه مائة سنة حتى كان عدد أتباعه مائة مليون نسمة ، وأمكن أهله أن يؤسسوا ملكا لم ينبغ لأمة فى التاريخ القديم ولا فى العهد الحديث ، وفى الوقت نفسه بلغت من الرقى العلمى إلى حد كانت معه أمبراطوريتها المترامية الأطراف تنشر النور فى جميع بقاع الأرض ، وكان لا فرق لديها بين بلد شرقى وبلد غربى ، ولا بين عربى وأجنبى ، فعملت فى الأندلس وفارس ومصر والمغرب وغيرها ما فعلته فى عقر بلادها من تأسيس الجامعات ، وبناء المراصد ، وإشادة المكتبات ، ولم ترصد لنشر دينها جماعة كالتى يراها الناس فى بلاد الشرق تابعة لبعض الدول ، اللهم إلا دعوة إلى الإسلام بالتى هى أحسن ، ودون تكالب على الناس ، أو تضييق عليهم .

ماذا تنتظر غير هذا من أمة كان من مُثُلها العليا أن الناس كلهم سواء ، وأنهم جميعا لأب واحد وأم واحدة ، وأن التفاضل بينهم لا يكون بالأصل ولا باللون ولا باللغة ، وإنما بتقوى الله والوقوف عند حدوده ، قلنا ماذا تنتظر منها غير هذه الآثار العمرانية ، والسيرة المثالية ؟ وماذا تنتظر من الأمم الأخرى التى كانت تزعم أن جنسها خير الأجناس ، وأن لغتها أفصح اللغات ، وأن لونها أدل على سموها من جميع الألوان ، وأن ما هى عليه من الدين أفضل الأديان ؛ قلنا ماذا تنتظر منها غير ماحفظه التاريخ من ظلم للمقهورين ، واستعباد لهم لا يعرف له حد فيقف عنده ؟ فكان الرجل يقتل الفرد أو الجماعة منهم فلا يطالب بدمه أو دمائهم أحد . وكان ينتهب أموالهم وينتهك حرماتهم فلا يجد المتهضم من يستعديه عليه ليحد من إيذائه .

هذه كانت حالة المسلمين وحالة الأمم الكبرى ، فما أعظم الفارق بينهما ! فارق لا يمكن فهم علته إلا إذا اعتبرنا أن ما كانت عليه الأمم من نظم ، اقتضتها طبيعتها البشرية ، وأوهامها التقليدية ، وأن ما كان عليه المسلمون تعاليم إلهية ، تنزلت عليهم من الأفق الأعلى ، لتدفع بالإنسانية إلى حالة من التطور ما كانت لتصل إليها بفضل مجهوداتها الذاتية .

ودليلنا على ذلك أن الأمم المتمدنة ، وقد بلغت شأوا بعيدا من العلم والمدنية ، لم تصل حتى اليوم تحت تأثير الدوافع الطبيعية ، والحوافز الحيوية ، إلى مثل المبادىء التى استهدى بها المسلمون أول نشوئهم فى تطوراتهم الاجتماعية .

وليس مما يعقل أن يفرض أنه قد يخرج هذا الانتقال الضخم فى المبادىء الأدبية التى لم تصل أمة إليها فى أى عهد من عهود التاريخ ، ولا أعظم أمة من أمم هذا العصر أيضا ، من صميم قبائل كان يأكل بعضها بعضا ، لا تعرف للإنسانية حقا ، ولا للعدالة رسما ، إلا ما تصوره لها أوهامها العتيقة ، وتقاليدها الموروثة .

فدليل الوحى الالهى يتجلى فى هذا المجال كتجليه فى كل مجال قارنا فيه الأصول الإسلامية بالمبادىء الإنسانية (*) .

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثامن عشر ، سنة ١٣٦٦ هـ ، (صفحة ٦٠٥) .

الدفاع عن الأخلاق الصالحة

الدفاع عن الأخلاق الصالحة فى الجماعات قديم الوجود ، لا لغرض دينى فحسب ، لأن بناء الاجتماع لا يقوم إلا عليها ، فلو تدهورت أو تحولت تأثر بناء الاجتماع بقدر ذلك . والاجتماع البشرى ليس كالاجتماع الحيوانى قائما على محض الغرائز الطبيعية ، بحيث لا يستطيع الحيوان عنها تحولا ، ولكنه قائم أيضا على علاقات أدبية بين الأفراد ، ورُبُط من ضروب شتى إذا كان بعضها غريزيا فهو فى النوع الإنسانى كأكثر غرائزه يخضع لإرادته ، فهو مخير بين أن يقوم بحق الاجتماع فيؤدى لمجتمعه الواجب له عليه ، وبين أن يقصر فيه أو يهمله ، فيعرض وطائد مجتمعه للوهن ، وروابط وحدته للتفكك . وهذا هو الذى حفز حماة المجتمعات من كل ضرب على تدارك هذه الحالة ، كل فى الدائرة الخاصة به ، ليدفعوا عن وجود الجماعة شراً مستطيرا هو ارتخاء أواخىّ المجتمع ، وتداعى أركانه للانهيار بفعل أهله .

قلّ أن تصادف أمة كالأمة الإسلامية يشعر أهلها بقدر الأخلاق ، ويدركون مبلغ تأثير تدهورها فى إضعاف دولتهم ، وإضاعة عزتهم . ولقد كان هذا التقدير وذاك الإدراك يكفيان فى حملهم على التحلى بمناعة لا تضمحل ضد كل انحراف خلقى أو عدوان أدبى ؛ أو على القليل يجعلهم أقرب إلى أمهات الفضائل من سواهم من الجماعات التى لم تبلغ بواسطة الأخلاق إلى مثل ما بلغوا ، ولا أضاعت بسبب إهمالها مثل ما أضاعوا .

هنا يحار الباحثون فى تعليل هذا الموقف ، فمنهم من يعزوه إلى ضعف الإيمان فى القلوب ، ومنهم من يرجعه إلى غلبة الجهالة على النفوس ، وسوادهم الأعظم يعزوه إلى الحرية التى أطلقت للناس يأتون تحت حمايتها ما يشتهون . والواقع أن العلة فى عجز المسلمين عن معالجة أنفسهم بما لديهم من أصول الحكمة التى يشيدون بذكرها فى مساجدهم ، ويتلاومون على إهمالها فى مجالسهم ، مع تملُّئهم علما بخطورة ما هم فيه ، ترجع إلى أن العالم المتمدن كله أصبح اليوم ، بسبب الصلات الثقافية

والاقتصادية والأدبية ، أمة واحدة يتأثر مجموعها بما يتسلّط عليها من الأهواء والأوهام والانحرافات المختلفة . فطبيبنا الاجتماعي وهو يشخص الداء الذى بين يديه فى بلد مثل بلدنا ، يجب عليه أن لا يقف من تحليله عند حد حتى يصل إلى هذه العلة .

وكيف لا يكون الأمر كذلك ونحن نستمد من العالم المتمدن كل معارفنا وصنائعنا حتى آدابنا وعاداتنا وأزيائنا ، فما اندفعوا فى شىء أو أقلعوا عن شىء ، إلا اندفعنا فيه أو أقلعنا عنه . وما نشكوه من تهتك الرجال والنساء ، ومن تطرف الكافة فى الإباحة والتسامح فيما لا يجوز التسامح فيه ، قد شكا منه حكماء الغربيين فى القرن التاسع عشر ، وكتبوا فيه كتابات بلغت الغاية القصوى فى السمو ، ولكنها لم تفد فى وقف هذا الزحف الإباحى ، كما لم تفد كتاباتنا نحن الآن .

فما السر فى عجز الحكمة إلى هذا الحد فى أمم تعرف مكانتها العالية من مجموعة الثمرات الأدبية للقوة العقلية الإنسانية ، وتعرف إلى جانب هذا آثار الأخذ بها على تقدم المدنية ، وآثار إهمالها فى دهورة تلك المدنية ، بل فى إسقاط دولتها ، وثل عرشها ، وإعادة الناس إلى دور الوحشية ؟

السر فى خيبة الحكمة مع التحقق من آثارها فى العالم سلبا وإيجابا ، هو تغلب المذهب المادى على عقول الناس ، ويأسهم من البقاء بعد الموت فى عالم بعد هذا العالم . فماذا ترجى من أحياء أدركت ذواتها ، وغرس فى جبلتها حب البقاء والخلود ، ترامت إليها تعاليم تجتهد فى أن تثبت لها أن لا روح للإنسان بالمعنى الذى تقول به الديانة ، وتؤيدها فيه الفلسفة ، وأن لا وجود لعالم يُدَّعي زوراً أنه موجود فوق هذا العالم ، والواقع أن الإنسان كالحيوان يعيش الأمد الذى قُدِّر له ، ثم يدركه الهرم فلا يزال به حتى يجعله حرضا ، ثم يحمل عليه حملة صادقة فلا يتركه إلا وهو جثة هامدة .

ماذا تؤمل أن تجد فى قلب إنسان تسكنه مثل هذه الثورة التى لم يُمن الإنسان بأوجع منها على فؤاده ، ولا بأقدر منها على إحداث انقلاب خطير فى كل وجهات نظره ، وفى مبادئه وغاياته ، وفى أخلاقه وآدابه ، بل فى صميم كيانه ؟

يضرب بعض الفلاسفة مثلا بسيرة بعض كبار الملحدين ، من الاستقامة

وحسن السمت ، وجميل الشمائل ، وسلامة القلب ، ويدعون أن انتشار اليأس من الحياة الخالدة لا يجر فى العالم الإنسانى إلى شىء مما يخشاه الفلاسفة الاعتقاديون من الارتكاس إلى الوحشية .

نقول : إن وجود آحاد أو عشرات بل مآت أو ألوف من الملحدين ، على أحسن ما يرجوه الفيلسوف الخلقى من جميل السيرة ، وحسن السمت ، لا يدل على أن يأس الإنسان من البقاء بعد الموت لا يؤثر على أخلاقه وآدابه بشىء ؛ لأن هؤلاء الملحدين (الكملة) الذين يضرب بهم معارضونا المثل ، نشأوا فى جو عالمى مشبع بالعقائد ، وقد قالوا هم أنفسهم إنهم أمضوا من أعمارهم متمسكين بعقائدهم الوراثية سنين ، وإنما طرأ عليهم الإلحاد بعد ما نضجت عقولهم له ! فهؤلاء لا يمكن أن يُعتبروا نابتة للعهد الإلحادى بوجه من الوجوه .

إنى والله لأعجب من رجال نالوا حظا من الفلسفة ، وعرفوا طرفا من تطور النفسيات بتطور المبادىء العلمية ، يدفعهم تأييدهم للمذهب المادى إلى القول بأن قنوط الإنسان من الخلود لا يؤثر على نفسيته بشىء ! .

المسألة بديهية ، لا تحتاج إلى التورط فى الأصول البسيكولوجية إلى حد كبير ، فليفرِّغ الإنسان قلبه من الشواغل برهة من الوقت وليعرض على نفسه المبدأ المادى ، وهو أن ليس فى الوجود شىء أرقى من المادة ، وأن ليس فى العالم كله غير الأثير يولد المادة فتندفع للتطور تحت قيادة نواميس ثابتة مقررة ، فينشأ منها النبات والحيوان والإنسان ، فتدور عليهم الأدوار من النشوء إلى الشبيبة فالهرم ، ثم يدركهم التحلل فيزولوا ويجىء من ورائهم أفواج أخرى ثم أخرى فأخرى إلى ما لا نهاية .

إذا عرض الإنسان على نفسه هذه الآراء ، ظهر له أن الوجود لا يعدو أن يكون مهزلة ، بل قالوا إنه مهزلة ، وقالوا إنه لا يستحق أن يُعاش فيه ، وقالوا إن قتل الإنسان نفسه خير من صبره على حياة سخيفة من هذا الطراز ، فماذا ينتظر البسيكولوجى أن تكون عليه نفسيات تنشأ فى وسط هذه الآراء السلبية المشبعة باليأس والسخْر ، إذا مضى عليها مدة كافية ؟

إن هؤلاء الفلاسفة يغرهم ما يجدونه أمام أعينهم من نفسيات ملحدة عالية ، ويغيب عنهم أن هذه النفسيات تطورت تحت سلطان الديانة والفلسفة ألوفا من السنين حتى بلغت إلى ما بلغت إليه من حسن السمت ، وجمال الشمائل . فماذا يكون الحال فى نظرهم متى صمت الدين ، وانقلبت الفلسفة إلى مادية باحتة ، ومضى على ذلك وقت يكفى لأن تتطور هذه المبادئ وتستقر ، وتكتسب قوة التأثير التى تكون للمبادئ المتفق عليها عادة ؟ هل تبقى فى النفوس تلك الصفات التى تولدت وأزهرت تحت سلطان العقائد الدينية والمبادئ الروحية من هدوء القلب ، وصبره على الشدة ، وقناعته بالقليل إذا لم يتسن الكثير ، والعطف على الضعيف وإيثار الغير على النفس ؟

ثم قل لى إلى أى معنى يتحول اسم الشرف والعزة والكرامة والعرض ؟ بل ابحث ماذا تنتحل فى ذلك العهد من المعانى لكلمات العفة والأمانة والنخوة والمروءة والفضيلة ؟

يقول المعترض : كأنك بقولك هذا تزعم أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش إلا مخدوعا بعقائد من مولدات الخيال ليس لها وجود ، فإذا ما وصل إلى دور الرشد وأدرك أن كل ما كان عليه أيام صباه كان من هذيانات الطفولة ، واتجه ليعيش معيشة الرجولة ، ارتكس إلى الوحشية ، وباء بخسران مبين ؟

نقول : لا ، ليس فى المسألة خادع ولا مخدوع ، فإن للإنسان حاجات نفسية كما له حاجات جسدية كلتاهما فى درجة واحدة من الضرورة . والذى شاهدناه أن الإنسان الأول كما بحث عن غذائه الجثمانى ، بحث عن غذائه النفسانى ، ورأيناه كثيرا ما ضحى بنفسه للثانى طواعية بدون إجبار .

هنا يتدخل الفيلسوف المادى ويقول : الإنسان لم يكن مخدوعا فى تطلبه للغذاء الجسدانى ، ولكنه كان مخدوعا فى تطلبه للغذاء الروحانى .

وهذه تفرقة لو فطن لوهيها الفيلسوف المادى لما اعتمد عليها فى مثل هذا المعرض ، لأن فى طيها دعوى تنافى التثبت الفلسفى المتفق عليه . وهذه الدعوى هى أن ما عليه المذهب المادى من النفى المطلق لكل وجود روحانى هو الحق الذى ليس

وراءه مذهب ؛ والواقع أن بحوثا عظيمة جدت فى القرن الأخير لإثبات وجود العالم الروحانى على مقتضى الدستور العلمى من المشاهدة والتجربة ،وقامة المذهب المادى (جمع قيّم) يعرفون ذلك ويعترفون بأن عددا كبيرا من أمثالهم صبأ إلى المذهب الروحانى وصاروا من أقوى وأبرز أشياعه ، واعترفوا بخطئهم السابق ، ونشروا اعترافهم به فى كتب ورسائل لا تحصى . فهل يرى الفيلسوف المادى أن هذا التصدع السريع المستمر فى صرح مذهبه يفضى به إلى البقاء والخلود ؟!

* * *

هذا بحث فرعى نشأ من طبيعة الموضوع الذى كنا نعالجه فى مفتتح هذه المقالة ، فلنعد إليه ولنقل : إن كل ما أصابنا ويصيبنا من فشل فى محاولتنا إصلاح أنفسنا ، لم يكن سببه أننا موتى أو غير عابئين بالنذر ، ولكن سببه أننا جزء من الإنسانية المتمدنة ، فما يصيبها من أعراض وأمراض يصيبنا مثله ، وهى اليوم مصابة بأعراض إلحادية وإباحية سرت إليها من إلحاح التعاليم المادية عليها نحو ثلاثة قرون متوالية ، وقد أناخت هذه التعاليم بكلا كلها لدينا ، واتخذت لها سبلا إلى عقولنا وأذواقنا ، وتطورت عاداتنا وأزياؤنا على موجبها ، فتولد منه الشكل الذى نحن عليه اليوم ، فإن كنا نعجز عن علاجه فذلك لأن الفرع لا يتأثر بالعلاج ما دام أصله لا يزال على إصابته .

فهل نضع أيدينا على صدورنا ، ونلبث صامتين لا نحرك ساكنا ، حتى يتماثل مريضنا الكبير من علته ؟

لا ، لا يقول بهذا عاقل ، ولكنا نعمل كما يعمل المريض الكبير نفسه على إزالة العلة الأصلية ، وهى الفلسفة المادية ، لا بالأساليب الجدلية ، والمناوشات الكلامية ، ولكن بالطرق العملية ، والدلائل الحسية . وإذا كنا نحن هنا لا نستطيع أن نجاريه فى هذا المجال ، لضعف وسائلنا ، وقلة عنايتنا ، فلا يكن حظنا من العمل أقل من نشر بحوثه الضافية ، وأدلته الدامغة ، كما فعلنا ولا نزال نفعل فى هذه المجلة ، فلا يكاد يخلو عدد منها من نقل بحث تشكيكى فى الأصول المادية التى كانت سببا

للغرور العلمى ، أو خبر معركة بين الماديين وخصومهم يتجلى من ورائها ضعف حجة الملحدين ، وَوَهْى أصولهم .

بهذا وأشباهه تخدم الأخلاق ، بل يخدم الدين نفسه ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، ويتم إزالة الفلسفة المادية من المجال العلمى نهائيا ، وليس هذا العهد ببعيد (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، سنة ١٣٦١ هـ ، (صفحة ٤٣٣) .

الحاجات الإنسانية

وأثرها فى بناء الجماعات ، وإقامة المدنيات

يخيل لمن لا بصيرة له فى العلوم الاجتماعية أن تقليل الحاجات المادية فى الأمم يحفظ عليها ما لها ، ويكفل لها استقلالها ، ويجعلها أقل احتياجا إلى سواها ، فترى كل همه مصروفا إلى مكافحة ما لا فائدة له فى نظره من الكماليات رجاء أن ينشىء شعبا لا تتعدى مطامعه ما يقيم صلبه ، ويكسو جسمه ، لينصرف بكليته إلى الكمالات الروحانية ، والترقيات المعنوية . وهذا خطأ خطير يقع فيه أكثر النصحاء والمرشدين . وقد تسببوا خلال العصور فى إهلاك جماعات دانت لتعاليمهم فلم تلبث أن انحلت روابطها ، وفنيت فى أجساد أمم أخرى ، ومنها جماعات لم تصادف مزاحما لها فى الحياة بقيت على ما كانت عليه قرونا كثيرة فى حالة تحجر ووقوف .

هذا يحفزنا لأن نعقد فصلا فى الحاجات الإنسانية وأثرها فى بناء الجماعات وإقامة المدنيات نقتبسه من صميم العلم الاقتصادى ، نرجو أن يستهدى به من عهد إليه إرشاد جماعة من الجماعات ، سواء بإلقاء الخطب فى المجامع ، أو بالوعظ فى المساجد .

الحاجات هى العوامل المولدة لحركات الجماعات :

الحاجة الحيوية التى يشعر بها الإنسان هى العامل الوحيد المولد للحركة المعاشية فى العالم ، وهى بهذا الوصف أساس علم الاقتصاد السياسى .

كل كائن حى لأجل أن يصل إلى كماله الشخصى مضطر لأن يستعين بالعالم الخارجى ، وأن يستمد منه عناصر يحيا بها حياته المقدرة له . وهو مضطر لبذل مجهود للحصول على حاجاته ، لأن حصوله عليها يدفع عنه ألما ، والحرمان منها يوقعه فى أذى .

لحاجات الإنسان طبائع مختلفة عظيمة الخطر ، ولكل طائفة منها قوانين اقتصادية نحصر الكلام عليها فيما يلى :

(أولها) الحاجات الإنسانية غير محدودة العدد . وهذا مما يميز الإنسان عن الحيوان ، وهو الباعث على المدنية بأوسع معانى هذه الكلمة .

وقد شوهد أن حاجات النوع الإنسانى تتدرج فى نوعها وقيمتها على نسبة تقدمه فى سلم الحضارة . وحياته من هذه الناحية كحياة الطفل من نوعه . فإنه عند ميلاده لا يتطلب أكثر من الغذاء المناسب له والمهد ، ثم تنشأ فيه بنمو جسده احتياجات للأغذية المختلفة والملابس المركبة والألاعيب المروضة ، ولا تكاد تمضى عليها سنة حتى تنشأ له حاجات جديدة . كذلك الحال فى الجماعات البشرية ، فإننا اليوم وقد قطعنا أشواطا فى المدنية نجد أنفسنا فى حاجة ماسة إلى أشياء تتعلق بالصحة والنظافة والتعلم والتراسل والسياحة لم تكن معروفة لدى أسلافنا . ومما لا مشاحة فيه أن أحفادنا سيشعرون باحتياجهم لأكثر منها ، ولو أتيح لنا أن نقف على خبر كائن أرقى منا فى بعض الكواكب ، لآنسنا عنده احتياجات جمة لأمور لم نتخيلها نحن الآن تخيلا .

إذا علمت ذلك فما حكمك مذ الآن فى الأمم التى تقنع بالقليل من الحاجات ولا تمد مطامعها إلى ما يبعد عن الدائرة التى حصرت نفسها فيها ؟ هذه الأمم إذا بقيت مكتفية من الغذاء بشىء من الفاكهة والخضر واللبن ، ومن المأوى بجدار يقيها لفح الشمس ، فبشرها بالجلاء العاجل عن هذه الأرض التى لم تستطع الاستفادة منها مع ما متعت من القوى والقدَر التى تبلغ بها أرقى مراتب الوجود المادى والمعنوى .

هنا يمكن أن يقول قائل : هل ترقى الإنسان فى الاحتياج خير له أو شر عليه ؟

الجواب يحتاج لشىء من التفصيل . ذلك أن هذه الحاجات التى تنشأ للإنسان هى عوامل تحفزه للعمل ، وتضطره للتفكير فى الابتكار والاختراع ، وهذا يدفعه للترقى فى العلم ، فإذا أردنا أن نعمل على تقليل هذه الحاجات كنا عاملين على حذف هذه العوامل ، فتقل الجهود العقلية ، وتبطؤ حركة الحياة الاجتماعية ، ويهبط مستوى الثروة العامة .

ومما يجب أن يعلم فى هذا الموطن أيضا أن الحاجات الاقتصادية المحضة ليست مجردة من نتائج أدبية عالية ، وذلك أن كل حاجة منها هى بمثابة رابطة جديدة تزيد

انضمام الناس بعضهم إلى بعض ، لأن نيلها لا يتأتى إلا باشتراك مجموعهم فى إيجادها . ومن هنا ينمو فى البشرية الشعور بالتساعد والترافد . فإن الرجل القليل الحاجات لا يحتاج لغيره ، ولكن يكتفى بنفسه ، وهو ما لا يجب أن يكون بين النوع الإنسانى الذى علق ترقى أفراده على التعاون الاجتماعى .

(**ثانيها**) الحاجات الإنسانية محدودة فى مقاديرها . هذا من الأصول الخطيرة لعلم الاقتصاد السياسى التى تبتنى عليها النظرية الجديدة على قيمة الأشياء . ومؤداها أن لكل حاجة يشعر بها الإنسان مقدارا خاصا لا تتجاوزه الرغبة . مثال ذلك أن الإنسان يحتاج للمواد الغذائية ، ولكن احتياجه إليها يقف منها عند حد لا تتجاوزه ، خلافا لحاجاته الصناعية أى الاجتماعية ، فلا تكاد تجد لها حدا تقف عنده ، فإنك لا تستطيع أن تتخيل مقدار المال الذى يشبع نهمة الرجل المتمدن .

(**ثالثها**) أن الحاجات الإنسانية متعارضة ، ومعنى ذلك أن الحاجة من الحاجات لا تحصل إلا بملاشاة حاجة أخرى أو امتصاصها . وهذا قانون اقتصادى خطير يبتنى عليه إمكان إصلاح الأمة بواسطته . وذلك بإنشاء احتياجات عالية للأمة لتبيد احتياجاتها السافلة . وقد شوهد أنه يمكن الاستعاضة عن عادة مادية بعادة عقلية ، فيمكن إحلال التردد على النوادى الأدبية محل التردد على الملاهى العمومية . والمدار فى الاستفادة من هذه الأصول على الحكومات الرشيدة ، والمعلمين الهداة .

(**رابعها**) الحاجات الإنسانية متآلفة . هذا الناموس يظهر بادئ بدء أنه مناف للتقدم ، وليس هو كذلك . فالناس من ناحية العمل أليسوا متزاحمين ومتآلفين فى وقت معا ؟ فالتخالف يوجد بين الحاجات التى تطلب لغرض واحد ، لا بين الحاجات التى تطلب لأغراض شتى . فحاجة الإنسان للتغذى من نوع من الأغذية تتعادى وحاجته لنوع آخر منها ، ولكنها تأتلف مع حاجته للخوان والكرسى والفوطة والسكين إلخ .

(**خامسها**) الحاجات الإنسانية تميل لأن تصير عادات راسخة ، أو كما يقال طبيعة ثانية ، وهذا له قيمة كبيرة بالنسبة لأجورالعملة . ذلك أن الإنسان متى ارتفع إلى مستوى من العادات صعب عليه أن ينحدر عنه فجأة . فلقد مضى زمن كان

العامل الفقير لا يلبس الأبيض ، ولا يضع فى رجليه حذاءين ، ولا يتعاطى القهوة ولا التبغ ، ولا يأكل اللحم ولا خبز القمح ، ولكنه أصبح أسير هذه الحاجات الآن بحيث لو صار غير قادر على توفيتها فجأة هلك لا محالة .

ولو أضفنا إلى هذا أن العادة متى مر عليها فى الأمة أجيال متعاقبة ، رسخت فى الأعقاب بالوراثة ، وشعرت الحواس بضرورتها شعورا كبيرا ، من هنا تعلم خطر تلك السلطة الاستبدادية التى تكتسبها الحاجة ، وإن ظهرت فى أول أمرها هينة لا تذكر .

(**سادسها**) أن بين الحاجات التى تطورت إلى عادة راسخة فى الأمة ، وبين العادات التى تنشأ حديثا منازعة قوية وحربا طاحنة ، نتيجتها تلاشى عادات قديمة وقيام عادات جديدة على أنقاضها . وهذه العادات الجديدة قد تكون أرفع من القديمة أو أحط منها .

هذا الناموس الطبيعى يمكن الاستفادة منه فى ترقية الأمم بإنشاء حاجات جديدة لها ذات أغراض شريفة ، وتقويتها بحيث تصبح فيها عادة أو طبيعة ثانية ، ومتى تم ذلك فى عدة خصال عالية القيمة ، حفزت الأمة إلى باحات الشرف والكرامة بدوافع ذاتية لا أثر للتصنع فيها ، وكان حظ الجماعة من ورائها عظيما للغاية .

من هنا يرى القراء العلاقة الوثيقة الموجودة بين الحاجات الاقتصادية وبين الشئون الاجتماعية ، فالرجل الذى ينتدب لترقية نفسية أمته ، لا يجوز له أن يقوم بهذه المهمة إلا إذا ألم بجميع هذه الأصول المقررة لئلا تكون تعاليمه ضارة بدل أن تكون نافعة . وكثير من المصلحين يفشلون لإغفالهم هذه الحقائق العلمية .

الذى نلاحظه على أكثر الذين ينتدبون لإصلاح الجماعات ، سعيهم المتواصل لتقليل حاجات أفرادها ، وتبسيط معيشتهم ، توهما منهم أن ذلك يحفظ عليهم صحتهم وأموالهم ، ويحصر همتهم فى وجهة واحدة وهى الترقى ماديا وأدبيا . فلو قدرنا لهؤلاء المصلحين نجاحا ، لرأينا أنه قد ابتنى عليه فساد اجتماعى كبير ، تظهر آثاره فى تدهور الصناعات ، وانحطاط الفنون ، والنتيجة الطبيعية لهذا ، قلة الأعمال وانتشار البطالة واشتداد الفاقة على الطبقة الأخيرة من الأمة ، ومتى جاعت هذه انصرفت إلى التلصص والسلب ، وارتكاب الجنايات ، واللّجأ إلى دعاة المذاهب الانقلابية .

من عنا يدرك الناس حكمة الإسلام فى تحليله متع الحياة ما دامت فى حدود الاعتدال ، وبعيدة عن المآثم والعدوان . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [1] . وفى الحديث « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .

وقد آنسنا اعتراضا من بعض الجماعات على هذه الرخصة ، زاعمة أن مهمة الدين الحث على الزهادة والاخشيشان ، وتكريه الناس فى متع الحياة ولذاتها ، فكيف يبيحها الإسلام إلى حد أن يُنزل فيها قرآنا . وإنى لأظن أن القراء قد فقهوا الآن ، بعد ذكرنا لمكان الحاجات من شئون الاجتماع ، أن هذا التنويه وراءه من الحكمة ما لا يستطيع أن ينكره إلا متعنت . فلو كان الإسلام سام أهله الاخشيشان فى المعيشة ، والقناعة من المصنوعات بما يسدالحاجة منها ، وزهّدهم فى الدنيا حتى كرهوا كل متعها ولذاتها ، لما قامت لهم جماعة ، ولا انتظمت لهم حياة ، ولا ازدهر لهم علم وتلألأت لهم مدنية . ولكنهم كانوا يَجْلون عن الأرض بعد جيل أو جيلين من قيامهم ، غير تاركين وراءهم إلا ما تتركه كل جماعة لم تنتفع بوجودها ، ولم تستفد من مواهبها .

من أجلّ ما نلفت إليه نظر القارئ – ونحن بصدد هذه المعجزة العلمية للكتاب – أن الله سبحانه وتعالى قد علم ما سيقال فى ترخيصه فى نعيم الحياة وزينتها من الاعتراضات التى مثارها قصر النظر ، فذيل الآية بما يشعر بأن هذا الأمر سوف يدركه الذين يعلمون الحقائق ، ويذيعونها بين الناس ، مضيفين به إلى معجزات القرآن معجزة جديدة ، فقال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [*] .

* * *

---

(١) سورة الأعراف : ٣٢ .

(*) مجلة الأزهر : المجلد التاسع ، الجزء الخامس ، جمادى الأولى سنة ١٣٥٧ هـ ، (صفحة ٣٥١)

نظرات فى المذاهب المتطرفة

الشيوعية وسوء آثارها فى الهيئات الاجتماعية

– ١ –

بعد وصول الإنسانية من المستوى العقلى إلى درجة تسمح لها بالتفكير فى وسائل تحسين حالتها الاجتماعية ، عُنى أفراد من أهل البصر منها بتخيل نظم ظنوا أن الجماعات لو قامت عليها ، وأخذت بأصولها ، تتأدى إلى حالة أرفع مما هى عليها فى حياتها الراهنة .

ولكن حياة الشعوب الاجتماعية تقوم على سنة طبيعية ثابتة من التطور التدريجى ، فلا يستطاع نقلها من حال إلى حال بنظام يُبتكر أو ببرنامج يُتخيل . ومن هذا القبيل كانت جمهورية أفلاطون ، وسياسة أرسطو ، والمدينة الفاضلة للفارابى ، وكل ما حدث فى القرون المتأخرة من المذاهب الاشتراكية والشيوعية والفوضوية . فمن أراد أن يعرف ما يفعله إطلاق العنان للخيال فى هذا المجال ، فلينظر فى الأصول التى تقوم عليها هذه المذاهب . فقد أتى كثير منها بأمور يأنف الضمير البشرى أن يعيرها التفاتا ، كرأى بعض الفرق الاشتراكية إبادة جميع الضعفاء وأصحاب العاهات حتى لا يبقى إلا الأقوياء على مكابدة الأعمال ، كى لا يكون المرضى والضعفاء عالة على المجتمع ؛ وكنُصح بعضها أن يُحذف الزواج ويجعل جميع النساء لجميع الرجال ، وما يولد من هذه المخالطات تستولى عليه الحكومة ، وتربيه على نفقتها ، ثم تقذف به إلى المجتمع ليؤلف جيلا جديدا ، وهلم جرا ؛ وكتحتيم بعضها وجوب حذف الحكومة والدواوين وترك الناس لأنفسهم ينظمون شئونهم عرفيا ، زاعمين أن النواميس الطبيعية فى تدبيرها العلاقات بين الناس ، خير من النظم والقوانين التى تضعها الحكومات . قيل كل هذا وكتب ؛ ولكن الأمم جرت على سجيتها ، مكتنفة بالعوامل المحيطة بها ، ولم ترفع بهذه الخيالات رأسا !

الأمر الذى تقوم عليه فتنة غلاة الاشتراكيين هو دعواهم أن الفاقة المنتشرة بين الدهماء منشؤها سوء توزيع الثروة الاجتماعية ، وأنهم قد هُدوا تحت ضوء العلوم الاقتصادية إلى نظم لو اتُّبعت لعاش الناس جميعا فى بحبوحة الرغد والرفاهية . وأشد هذه المذاهب تمدحا وتزيدا الشيوعية ، وقد وقعت فى حبائلها جماعات فازدادت تغلغلا فى العُدم والجاهلية .

ونحن إن اختصصناها بالكلام فى هذا البحث فليس ذلك باعتبار أنها شكل حكومى لأمة بعينها ، ولكن باعتبار أنها مذهب أصبحت له دعوة ودعاة يروِّجونه ما وجدوا آذانا تصغى إليهم .

الأصول التى تقوم عليها الشيوعية :

المذهب الشيوعى يقوم على أصول ثلاثة رئيسية :

(**أولها**) محو الملكية الفردية ، والحقوق الوراثية ، وجعل أرض الأمة وكل ما عليها ملكا لجميع أفرادها على السواء .

(**ثانيها**) حذف رءوس الأموال الفردية ، وجعل الحكومة قيّمة عليها .

(**ثالثها**) استئصال شأفة الدين من المجتمع ، باعتبار أنه ألد أعداء الشيوعية ، لتسلطه العظيم على عقول العامة ، وبثه فيها مبادئ تناقض إيجاد الفردوس الأرضى فى زعمهم .

ونحن نناقش هذا المذهب الحساب فى كل هذه الأصول ، لنثبت للناس أنه لا يخالف العلم فحسب ، ولكنه يخالف الأوضاع الطبيعية أيضا ، ويحاول هدم جميع البواعث التى تعمل على حفظ الإنسانية وترقيتها ، سواء أكانت مادية أم أدبية .

أما أول هذه الأصول وهو محو المِلكية الفردية ، فمناقض للوضع الطبيعى ، فإن أول ما كان عليه الناس أيام همجيتهم الأولى كان عدم المِلكية ، لانحصار العناية فى أمر واحد هو الحصول على الغذاء ، فكان الأفراد يهيمون على وجوههم فى القفار ليصطادوا بعض الحيوانات ، أو يجوسون خلال الغابات لاستخراج بعض جذور الأشجار . فلما هُدوا إلى استغلال الأرض ، كان كل منهم يزرع ما حول بيته ، والأرض واسعة والناس قليلون .

فلما ارتقى الاجتماع ، وازدادت معرفة الإنسان بالزراعة ، وتميزت الأسر ، وبدأت تتحدد الحقوق ، وُجدت المِلكية ؛ فالملكية ترقٍّ عن حالة الشيوعية التى سبقتها ، وكما وُجدت الملكية وُجد الزواج ، ووُجدت الحقوق والواجبات ، ووُجدت وشائج الاجتماع ومقوماته وحوافظه ، فتركب بعد سذاجته الأولى ، ومن تَركبه نشأت قوة تماسكه ، ومتانة ترابطه ، وشدة مناعته ، وابتنى على هذا التركب كل ما للإنسانية من حظ فى البقاء والاستمرار والترق إلى أبعد الغايات . وبمجرد النظر إلى حالة الجماعات يهجم بك على الفرق بين ما تنتجه حالة التركب الاجتماعى ، وما تنتجه حالة البساطة الفطرية . وإنك لتعجب أن ترى جماعات ساذجة التركب لا تزال باقية على ما كانت عليه منذ ألوف السنين ، على حين أن التى ساعدتها الأحوال المحيطة بها على التركب قد بلغت شأوا بعيداً من المدنية . فالملكية ترق عن الحالة الشيوعية ، فإن عادت أمة إليها زايلها جميع ما ابتنى عليها من وشائج الاجتماع وروابطه ومناعاته ، فأصبح رهن ثورة تهب فيه تحلل عناصره ، أو شدة تصادفه تفكك أوصاله . لذلك يضطر القائمون عليه أن يمسكوه فى دائرة الاستقرار الاجتماعى بالقهر والإرهاب ، ويكون هو فى أثناء ذلك سريع التقلب يتربص أن يجد فرصة للتفكك لينتهزها .

وقادة مثل هذه الجماعات الشيوعية إنما يتوخون بمحو الملكية والوراثة ، أن يمنعوا أن يتناول بعض الأفراد من الثروة العامة فوق ما يكفيهم فيدخروه ويحجبوا غيرهم عن الانتفاع به . وما دروا أنهم بهذه الوسيلة التى لن يكون لها أثر يذكر فى تحسين الحالة الاقتصادية للمجموع ، يقتلون فى نفوس الآحاد روح التنافس المشروع ، فيصبح الكافة سواسية فى الفاقة والعُدْم ، ويحرم المجتمع من المشروعات العظيمة التى يتوق إليها ذوو الكفايات العالية طلبا للكسب .

ولا يعترض علينا بأن وجود الحكومة قيِّمة على الثروة العامة ، يكفل حصول تلك المشروعات بواسطة لجان تؤلف لذلك ، فإننا نرد هذا الاعتراض بقولنا : إن فى قيام الحكومة مقام الأفراد والشركات خنقا لعاطفة الإقدام فى نفوس الآحاد ، وإحالة للمجتمع إلى حالة القِصَر الذى ارتقى عنه أمثالها من الجماعات ، فيصبحون فى حاجة ماسة إلى حكم الإرهاب ، وهذا الحكم يقتضى بث العيون والأرصاد ،

فيضحى بعض الأمة رقباء مأجورين على البعض الآخر ، فإذا مر على الأمة فى هذه الحالة ردح من الزمن أصبح تماسكها الاجتماعى صناعيا بعد أن كان طبيعيا ، وصارت عرضة للتفكك عقب أية هزيمة حربية أو كارثة اجتماعية .

وهم الشيوعية فى تحسين حالة الفقراء بمصادرة أموال الأغنياء :

يستهوى الشيوعيون الفقراء بأنهم سيجعلونهم فى رغد من العيش بحذف طبقة الأغنياء ، ومصادرة أموالهم ؛ وهو وهم كبير لا يطوف إلا برءوس الذين لاحظ لهم من العلم الاقتصادى .

كتب العلامة الاجتماعى الروسى (نوفيكو) فى كتاب له يعالج فيه مسألة الفقر :

« لقد انتشر فى العالم رأى كاد يعم الهيئة الاجتماعية ، وهو أن الفقر ما أنشب أظفاره فى الدهماء إلا بسبب سوء توزيع الثروة على الناس . ويقول أشياع هذا المذهب : إنه متى أخذت الثروة من أيدى المحتكرين لها ، وقسمت على الناس تقسيما عادلا ، ذهب الفقر ، وحل الكفاف ، وأصبح النوع الإنسانى فى أرغد عيش أبد الآبدين .

« فما أجدرنا بأن يهنىء بعضنا بعضا بهذا الحل لو كان حقيقيا ...!

« ولكن الحال وا أسفا ليست على ما يصفون ، فإن الدهماء ليسوا بفقراء لأن بضعة رجال من أصحاب الملايين قد احتكروا الثروة ، ولكنهم فقراء لأن مقدار المواد الغذائية التى تنتجها الأرض لا تكفيهم . ولما كانت هذه الأزمة الغذائية ناشئة من البيئة ، فيمكن أن يقال إن الفقر ضارب بجرانه فى العالم ، لأن النوع البشرى لم يعدّ الأرض للإنتاج إعدادا يتفق ومصلحته الحقيقية .

« الفقر لا يُدفع بواسطة تقسيم الثروة بين الناس لسببين بسيطين :

« أولهما أن المال الذى يراد تقسيمه غير كاف لجميع حاجات الناس ، وقد تقرر ذلك بواسطة الإحصاءات . ذلك أنه لو صودرت الأرباح الفردية التى تزيد عن ١٠٠٠٠ فرنك وقسمت كلها على الناس الذين يقل دخلهم عن هذا القدر ،

وجد أنه لا يخص كل فرد أكثر من ١٢ فى المائة من دخله الحالى . وبما أن الناس لا يصلون إلى الرغد المرجو إلا إذا كان لكل منهم عشرة أضعاف دخله الحالى ، أدركنا أن مسألة الفقر لا تندفع بتقسيم ثروة الأغنياء على الفقراء .... فإن العامل الذى يكسب الآن فرنكين يوميا ويشكو مر الشكوى من الفاقة ، لن تتغير حاله إذا أعطى الاثنى عشر فى المائة التى تخصه من مصادرة أموال الأغنياء ، إذ أن أجره لن يزيد أكثر من ربع فرنك يوميا ، فماذا عسى أن تحسن هذه العلاوة الضئيلة من حاله ؟

« أما السبب البسيط الثانى فهو ناشىء من طبيعة الثروة ذاتها . ذلك أنه إذا كان دخل المستر بيرمور مورجان الأمريكى ٨٣ مليونا من الفرنكات فى السنة ، فإن صودر هذا الدخل وقسم على إخوانه الأمريكيين ، نال الواحد منهم أقل من فرنك ، وماذا عسى أن يعمل هذا القدر الضئيل من تحسين حال الفقير الأمريكى ؟

« ولكن المستر بيرمون مورجان لن يكتسب فى السنة التالية ٨٣ مليونا أخرى لأن الأمة صادرت كسبه الشخصى ، فيكتفى بكسب بضعة آلاف لحاجته الشخصية ، وما يصدق على المستر بيرمون يصدق على جميع الأغنياء ، فإن أفادت مصادرة أموالهم مرة واحدة فلن تتكرر هذه الإفادة ، فمن يسد خلة الفقراء وحاجاتهم تجدد فى كل حين ؟ » .

ثم عمد الأستاذ الروسى إلى بيان العلاج العلمى فقال :

« ثبت لنا من الفصل السابق أن حالة النوع البشرى سيئة جدا ، وأننا فقراء لأن متحصلات الأرض السنوية لا تنتج المقدار الكافى من الغذاء والملبس ، فهل هذا لأن الكرة الأرضية تعجز عن موافاتنا بما هو ضرورى لنا ؟ إن كان الجواب إيجابيا وجب علينا أن نرضى بما قسم لنا ، وأن نعتبر الفقر كما نعتبر الموت أمرا لا محيص منه . ولكن من حسن حظ العاملين أن هذا الافتراض خطأ ، فإن فى قدرة الأرض أن تعطينا ليس ما يوازى ١٠٠٠٠ فرنك سنويا لكل منا فحسب ، ولكن فى قدرتها أن تعطينا عشرة أضعافه ، فإن ينابيع الثروة فيها – كما قال الجغرافى المشهور (اليزيه ركلوز) – لاحد لها على الإطلاق » . انتهى .

نقول : إذا كان هذا هو الرأى العلمى فلا يكون لحذف طبقة الأغنياء من نتيجة سوى قتل عواطف التنافس فى الصدور ، وشل ملكات الإقدام فى نفوس أهل النشاط والقوة الفياضة ، وحرمان مجموع الأمة من جهودهم العظيمة فى إقامة المشروعات النافعة ، والحكم على الكافة بحالة من العُدْم تصل بالأمة إلى مكان سحيق ، وتجعلها تتربص المخلص منه عند كل بادرة من فتنة فتأتى بشر مستطير .

أما وقد رأيت أن الشيوعية لا تستند إلى أساس علمى ، من الناحية الاقتصادية ، وأنها تفكك أواخى النظام الاجتماعى ، وتحلل من ربطه ، وتذهب بحوافظه ، فإننا نرجو أن نثبت لك خطأها فى مناوأة الدين واعتباره سببا فى إثارة العداوات بين الأمم (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الحادى عشر ، سنة ١٣٥٩ هـ . (صفحة ٣٩) .

– ٢ –

نظرنا فى المقال السابق فى الناحية الاقتصادية من الشيوعية ، وهى الناحية التى يحاولون أن يفتنوا الفقراء من قِبَلها ؛ وقد رأيت أن سيادة هذا النظام الاجتماعى يزيدهم فقرا على فقرهم ، وإذا تمادى بهم حَلَّ وحدتهم ، وأتى على جميع حوافظهم الاجتماعية . واليوم ننظر فى هذا المذهب من ناحية مناهضته للدين ، وهى أخص ما تعنى به هذه المجلة :

عرّف الدينَ موجد الشيوعية (كارل ماركس) الاسرائيلى الألمانى فى بعض كتبه فقال : « الدين عبارة عن تنهدات الجماعات المظلومة » . يريد بذلك أن يقول : لو ارتفع الظلم عن هذه الجماعات لما وُجِد الدين .

ويقول الذين يدعون إلى هذا المذهب : « فى كل مجتمع قائم على أساس الطبقات لابد للدين من أن يولد تحت تأثير النير الاقتصادى ، ويكون إحدى قوى الضمير الاجتماعى . أما عندنا فإن الشروط الاجتماعية التى كانت تنشأ عنها الأفكار والعقائد الدينية قد اضمحلت وأصبح الدين كائناً ميتاً لا تأثير له فى الاقتصاد وفى النظام الاجتماعى » .

ونحن نبادر إلى دحض هذه الآراء قبل الانتقال إلى غيرها حتى لا يلتبس الأمر على القارئين :

أما قول مؤسس الشيوعية : إن الدين هو تنهدات الجماعات المظلومة ، فهى عبارة شعرية ليس فيها عبقة من علمى النفس والاجتماع ، فقد ثبت أنه يستوى فى عاطفة التدين المظلومون وغير المظلومين ، بل ثبت أن غير المظلومين من كبراء الأمم وأثريائها وسراتها ، أكثر تدينا من رعاعها وغوغائها ؛ وقد تقرر أن منهم من تنازلوا عن عروشهم وخرجوا عن أموالهم تورعا وتزهدا ؛ وفى الأرض اليوم جماعات غير مظلومة تعيش فى ظلال الديمقراطية الوارفة الظلال ، أشد تمسكا بدينها من الأمم التى تعتبر فى عرف الشيوعيين مظلومة .

وأما قول أشياع الشيوعية من أن كل مجتمع قائم على أساس الطبقات يتولد فيه الدين تحت تأثير النير الاقتصادى ، فغير صحيح ؛ فقد ثبت علميا أن الدين تولّد فى الجماعات الأولية الساذجة ، قبل أن يُعرف نظام الطبقات فيها ، بل قبل أن يكون لها جماعة بالمعنى المعروف اليوم . أعنى بهذا أيام كان كل إنسان يعمل لنفسه ولا يسأل عن غيره ، ويجهل النظم الاجتماعية كل الجهل . فإذا كان الشيوعيون يلاشون كل النظم المعروفة فلا يؤملنّ من وراء ذلك أن يسقطوا سلطان الدين ، لأنه لا يستمد هذا السلطان من جوع الجماعات ، ولا من وقوعهم تحت براثن القادة الظالمين ، ولكنه يستمده من أشرف عواطف النفس ، وأكرم غرائز العقل . وقد عرف بالمشاهدة أن الإنسان إذا كانت قواه مستوعَبة فى طلب القوت ، ومحاولاته وقفا على فتق الحيل للوصول إليه ، ضعف سلطان الدين عليه ، ولم يجد وقتا للنظر فى نفسه ومصيرها ، وحياته وينبوعها ، ولا للفكر فى آدابه ونظامها ، وسيرته وقوامها ، وكثيرا ما أداه شظف العيش إلى الكفر . هذه حقائق يمكن الاهتداء إليها بالمشاهدة ، فإنك حيث تصادف الفاقة والعُدْم تجد خمود الشعور ، وهمود العواطف ؛ وحيث تؤانس اليسار والخفض ، تلفى التوق للسمو الأدبى ، والحنين لاختراق حجب الغيب لتنور الأسرار العلوية . وهل الدين فى حقيقته غير الانتهاء إلى المثل العليا فى الأدب النفسى والمعرفة ؟ وأين هما من الجائع المكدود ، والمعدم اللاصق بالتراب ؟

فإن تخيلت كائنا ميتا تسميه الدين ، فهو عند الجماعات المنكودة الحظ ، الواقعة تحت كلا كل الظلم ، لا عند الجماعات التى نالت حظها من الرغد ، وفرغت من هموم الكد ، ووجدت عقولها وقتا للنظر والتأمل ، واستعدت نفوسها للترقى والتكمل .

ويقول أنصار الشيوعية :

« إن بقاء المعتقدات الدينية يقوّى بواسطة السلطة الإلهية والدينية جميع النزعات الرجعية فى أفكار الناس ، ويستبقى العادات القديمة ، ويعزز الميول العدوانية نحو النساء ، ويخلق شريعة العبودية والتعصب ، ويوطد أصول الرأسمالية » .

نقول : من حسن الحظ أن الذين يقومون بهذه الفلسفة هم فى أوربا لا فى مجاهل أفريقا ، ولا فى سهوب الأقيانوسية ؛ وليس فى العالم مظهر أروع ، ولا مشهد

أكمل ، من الأمثال التى تضربها شعوب أوربا فى التخلص من النزعات الرجعية ، والوراثات التقليدية ؛ وفى تحرير النساء ومنحهن حقوقهن الطبيعية ؛ وفى تحطيم أغلال العبودية ، وفى تلطيف سلطان العصبية ، وتعديل الأصول الرأسمالية ، لتوافق المصالح الاقتصادية ، ولا تتحيف حقوق الضعفاء فى الهيئة الاجتماعية .

لا أظن أن عهدا من عهود البشرية تجلت فيه روح الإنشاء والتجديد فى كل مجال من مجالات النشاط العلمى والاقتصادى والاجتماعى ، مثل تجليها فى الغرب فى القرنين الأخيرين :

فقد تطورت العلاقات بين الحكومات والشعوب ، وبلغت أرقى ما يمكن أن تبلغه من الثقة بين حاكم ومحكوم فى هذه الحياة الأرضية .

وتهذبت الصلات بين أصحاب الأموال والعمال ، حتى اعتبر العمل ورأس المال عاملين متساويين فى الحقوق ، فلم يعد العامل مستعبدا لصاحب المصنع ، ولا عالة عليه ، ولكن شريكا له فى الإنتاج . لذلك اعترفت له الحكومات بالنقابات التى تضمن حقوقه الطبيعية ، وتهيمن على مصالحه الاقتصادية ، وسمحت له بالدفاع عن تلك الحقوق والمصالح بكل ما تسمح به لسواه فى حدود النظام .

واندفعت تلك الأمم فى ميدان الترقيات المادية والروحية طليقة حرة ، زارية بالرجعية والرجعيين ، والتقليد والمقلدين ، حتى كادت تقطع الصلة بين القديم والحديث .

وبالغت فى تحرير النساء حتى اتهمت بمحاباتهن ، وبث روح التمرد فى قلوبهن ؛ وليس بعد هذه الدرجة من مزيد إلا إذا أريد قلب الأوضاع الطبيعية بجعل الرجال تحت قيادة النساء ، وليس هذا من الإصلاح فى شئ .

فلا أدرى بعد هذا كله معنى لتبجح الشيوعية بمبادئها الجديدة ، ولم تبلغ الجماعات التى أخذت بها بعض ما بلغته الأمم التى نذكرها ، وكان المعقول أن تعطى العالم مثالا فى تفوقها ، وفى سرعة تطورها ؛ فأى سبْق تدعيه عليها ، وأى تخلف عنها تعيرها به ، وهى لا تحفظ وجودها فى عقر ديارها إلا بسيف القهر ، تقطع به وَتِين كل من تحدثه نفسه برفع نيرها عن عاتقه ؛ وتلك الأمم تعيش فى بحبوحة

الحرية ، لكل منها الحق أن تنتقد حكومتها ، وأن تسقطها وتقيم سواها متى تعدت إرادتها ، لا تعرف حكم الإرهاب ولا يعرفها ، سلطانها الإجماعى فوق سلطان آحادها ، رضيت بهذا الحظ الموفور من كرامتها ، واتجهت لبلوغ غايات المثل العليا بالعلم والعمل على سجيتها .

لعل الذى أطال من لسان الشيوعية ضد الدين إلى هذا الحد ، أن عامة الأمم وجهلتها لا يزالون يدينون بالخرافات العتيقة ، ويحافظون على ضلالات الأولين لا يريدون عنها حولا ، ولكن أصحاب البصر من تلك الأمم يرون ذلك ويدأبون على إصلاحه بوسائل تلائم الطبيعة البشرية ، من طريق ترقية مداركهم ، ورفع مستوى عقليتهم ، كل ذلك مع عدم العدوان على العاطفة الدينية التى اعترفت الفلسفة أنها من لوازم الفطرة البشرية ، وأنها لارتكازها على أرفع مميزات النفس لا يمكن ملاشاتها إلا بإسقاط الإنسان إلى حضيض الحيوانية ، وإلهائه عنها بالمطالب الجسدانية ، وهو جهد محكوم عليه بالضياع ، لأن الفطرة الإنسانية تعود فتتنبه للنظر فى ذاتها وعلاقاتها بالوجود ، فتستيقظ العاطفة الدينية من سباتها ، وتبحث عن مقوماتها من العقائد والتقاليد . فإذا أصر الشيوعيون على مقاومة هذه الميزة الفطرية فى النفس البشرية بالقوة ، أدّاهم ذلك إلى ارتكاب ضروب من العسف تترفع أية حكومة متمدنة عنه .

ولكن لم هذا العداء كله للدين ؟

لو كان كل أمة ذات دين ترزح تحت كلا كله ، ولا تنتعش من كبوتها حتى تتخلص منه ، كان للشيوعيين عذر فى العمل على ملاشاته فى جماعاتهم ، ولكن المشاهد أن الدين لم يمنع ارتقاء الأمم إلى أرفع درجات المدنية فى خلال العهود الإنسانية كلها ، بل شوهد أن منها من لم ينهض بعد جمود طال عليها العهد فيه إلا على يد دين ، كالأمة العربية ، فقد نفث فيها الإسلام روحا عالية ، فأسست أعظم دولة عرفها تاريخ البشر ، وبلغت من المدنية إلى أوج لا يزال مضرب الأمثال إلى اليوم ؛ وهذه الأمم المعاصرة لم تمنعها أديانها ، ولا أوهام عامتها ، من بلوغ الغايات البعيدة من العلم والفلسفة والمدنية . ذلك لأن هذه الأمم الحرة الرشيدة بدل أن تقيد حرية الضمائر ، وتنشىء لحكومتها هما كبيرا من هذه الناحية ، يدفعها إلى ضروب من التعسف ، قطعت ما بين الحكومة والكنيسة من الاتصال ، فاقتصر سلطان العقائد

على الحيز الشخصى ، واتسع للمجتمع بجملته مجال التطور والارتقاء غير مقيد بقيد ، فلم يقف فى توثباته عند حد .

فالمذهب الشيوعى لم يكفه أن تتولى حكومته توزيع الأرزاق على الأفراد ، وتقييد حريتهم فى الاستثمار والادخار ، فخول نفسه فوق ذلك الحق فى تقييد عقولهم ، وحصرها فى دائرة يحدها لهم . وهذه سيطرة لم ترضها الإنسانية من قادة الدين أنفسهم ، فبذلت فى سبيل التخلص منها أرواح أبنائها ، مع أنهم كانوا يريدون أن يمسكوها فى دائرة العقائد الدينية التى تقدسها ولا ترى لها حياة بدونها ، فهل تقبلها من قادة الشيوعية وهم يرمون إلى ملاشاتها ، والتعفية على آثارها ؟

إن الطبيعة البشرية قد أبت السيطرة كما رأيت فيما تهوى ، فهل يطوف برأس متخيل أنها تقبلها فيما لا تهوى ؟

فهذا التورط الشنيع الذى تتكلفه الشيوعية ، وتحتفظ به فى سَيْل عرم من دماء البشر ، فى سبيل اجتثاث جرثومة الدين من قلوبهم ، لا يعقل أن يدوم ولو حققت لهم حلم الفردوس الأرضى ، فليس الإنسان بالكائن الذى إذا امتلأ بطنه بالطعام اكتفى بذلك ولم يعد يسأل عن علاقته بالوجود ، ولا عن المثل الأعلى للحياة ، ولا عن مصيره بعد الموت ، ولا عن غذائه الروحانى الذى يحس بحاجته الماسة إليه . فالشيوعية تريد الإنسان على أن يكون حيوانا لا تبعد همته عن محيط كَرِشه ، وقد خلق إنسانا لا تقطعه الدنيا عن البحث فى حقيقة نفسه ، وعلة وجوده ، وعلاقته بمبدعه . وهل الدين غير هذه الميول الفطرية فيه ؟ فإذا كان من المحال تغيير الفطرة ، فمن المحال كذلك هدم الدين (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الحادى عشر ، سنة ١٣٥٩ هـ . (صفحة ٩٨) .

نظرة فى البهائية

ظهر فى نحو منتصف القرن التاسع ببلاد الفرس مذهب جديد فى الدين دعا إليه الميرزا على محمد هنالك ملقبا نفسه بالباب ، يريد الباب الموصل إلى الحقيقة ، وسمى مذهبه بالبابية . ولما انتهى الأمر فيه إلى خليفته الملقب ببهاء الله نسخ اسمه الأول وسمى مذهبه بالبهائية . وإنا لناظرون فى أصول هذا المذهب نظرة نقد وتمحيص ، لما نراه من نشاط الدعوة إليه ، إحقاقا للحق وإزهاقا للباطل ، فنقول :

للبهائية عقيدة فى الله على طريقة الذين يقولون بأنه مجموع الكائنات ، كما ورد فى كتابهم (البيان) مترجما عن الفرنسية من قوله : « الحق يا مخلوقاتى أنكِ أنا » .

وعندهم أن الله تعالى أرسل رسله بالحقائق الكلية على طريقة الرمز لقصور عقول الناس عن إدراكها ، مدخرا بيانها وكشف الأسرار عنها إلى (بهاء الله) مظهره الأكمل فى آخر الزمان .

والرسل عندهم مظاهر لله نفسه ، يتجلى بهم على الناس لهداية خلقه ، فالسابقون على بهاء الله إنما بعثوا لينبهوا الطبيعة الإنسانية النائمة ، فلما تم لها هذا التنبه ، واستعدت لقبول الحقيقة سافرة ، ظهر الله أولاً بمظهر (الباب) الملقب بحضرة العلى ، ثم تم ظهوره وإشراقه أخيرا فى (بهاء الله) الذى كان منفيا فى عكاء ، فهو فى اعتقادهم المظهر الإلهى الأكمل ، تجلى على خلقه ليوحى إليهم الحقائق الخالدة الى توصلهم إلى حظيرته القدسية العليا . قال داعيتهم الشيخ أبو الفضل الجرفادقانى فى كتابه (الدرر البهية) فى هذا الموضوع عن الأنبياء الأولين :

« وإنما بعثوا لسوق الخلق إلى النقطة المقصودة ، واكتفوا منهم بالإيمان الإجمالى حتى يبلغ الكتاب أجله ، وينتهى سير الأفئدة إلى رتبة البلوغ ، فيظهر (روح الله الموعود) يكشف لهم الحقائق المكنونة فى اليوم المشهود » يريد بروح الله الموعود خليفة الباب المسمى (بهاء الله) .

وهم بعد أن قرروا هذه الأصول عمدوا إلى نصوص الكتب السماوية ، وأخذوا يؤولونها تأويلات غريبة وبعيدة ، أملاها عليهم تعمقهم فى الخيال ، ليصلوا من ذلك إلى ما يؤيدون به أهواءهم ومزاعمهم الزائفة ، وضلالاتهم السخيفة .

من التناقض الغريب أن يكون أساس الديانة التى تدعى كشف غوامض الأديان ، من الغموض والإبهام بحيث تستعصى على الأفهام ، ولا يقبلها العقل فى أى زمان ، فإن القول بأن الله هو جميع الكائنات ، وأنه جل وعز قد يظهر فى بعض الأفراد ، ليهدى الناس إلى سبيل الرشاد ، يرد عليه من النقد الداحض ما لا قبل لأحد على دفعه بالوسائل الكلامية . فإذا كان المذهب الذى يدعى بأنه كشف المشكلات ، وحل المعميات ، يجعل أساسه أغمض مسأله فى تاريخ المعقولات الإنسانية ، كان ذلك خروجا منه على أصله ، وعدوانا صارخا منه على أساسه .

وإذا نظرنا من ناحية فلسفية ، فى تاريخ المسائل الدينية ، رأينا أن عاملين خطيرين قد فرقا بين الأديان ، وجعلا أهلها شيعا يضلل بعضهم بعضا (أولهما) ما تجرأ عليه قادتها من التهافت على تصوير الخالق بصورة ذهنية . و(ثانيهما) اعتمادهم على تأويل ما لم يحيطوا بعلمه ، ولم يكلفوا البحث فيه من الشئون العلوية .

فبالعامل الأول اختلف أهل الملل فى تحديد ذات الخالق ، فأصبحوا بين معدد ومجسم ، ومشبه ومعطل ، وجميعهم لا يصدرون عن علم مقرر ، ولا أصل محقق ، ولكن عن الخيال المحض . وقد تأدى أكثرهم إلى تأليه أنبيائهم وقدِّيسيهم ، فلما جاء الإسلام حسم مادة هذا العامل المفرق ، فقرر أن الإنسان مهما حلق فى جو الخيال والتصوير ، وأبعد فى مجال النظر والتفكير ، فلن يصل إلى إدراك ذات الخالق ، فأمر متبعيه بأن يقتنعوا بمحض الاعتقاد بوجوده مع تنزيهه الكامل عن كل ما يجول فى خيال المشبهين ، وهو ما تدل عليه بداهة العقل . أما أى جهد يبذل فيما وراء ذلك ، ففضلا عن أنه لا يأتى إلا بخيال لا حقيقة له ، يكون أثره المباشر اختلاف النِّحل إلى مذاهب لاعداد لها ، فلا تعود تجمعهم جامعة الدين الحق ، الموافق للفطرة البشرية ، والمناسب لدرجة قواها المعنوية ، فقد قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [١] ، وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [٢] ، وقال تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ ﴾ [٣] .

---

(١) سورة طه : ١١٠ .

(٢) سورة الشورى : ١١ .

(٣) سورة الأنعام : ١٠٣ .

وإذا كان الإنسان لم يستطع أن يدرك إلى اليوم حقيقة المادة التى بين يديه ، ولا حقيقة نفسه التى بين جنبيه ، ولا تركيب الوجود الذى يراه بعينيه ، فمن الفضول أن يتطاول إلى تصوير ذات الله بأى صورة تخطر بباله .

وأما العامل الثانى الذى مزق وحدة الأمم وجعلها شيعا ، فهو صرف نصوص الكتب السماوية عن ظواهرها إلى ما يوافق أهواء البهائيين ، ويؤيد مزاعمهم التى يتشيعون لها .

جاء فى الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام : « إنى ذاهب إلى أبى وأبيكم ليبعث لكم الفارقليط الذى ينبئكم بالتأويل » وقوله : « إن الفارقليط الذى يرسله أبى باسمى » فذهب المسيحيون إلى أن المراد بالفارقليط روح القدس ، ولكن البهائية التى أولعت بصرف النصوص عن ظاهرها إلى ما يؤيد أهواءهم قالوا إن المراد بالفارقليط بهاء الله . (انظر كتاب الدرر البهية) .

ومن هذا الشطط ما ذهبوا إليه فى تأويل يوم الحسرة ، ويوم التلاق ، ويوم القيامة ، والساعة وأمثالها ، مما ورد فى القرآن الكريم ، فقد أولوا كل ذلك بيوم نزول روح القدس ، وقيام مظهر أمر الله وهو البهاء فى زعمهم . وليس يخفى على عاقل أنه إذا سوغ البهائيون لأنفسهم مثل هذا التأويل الزائف ، فإنه يجوز لكل طائفة أن تتخذ ما تشاء من التأويلات التى لا يرضاها عقل ليؤيدوا بها أهواءهم ، ما دام الأمر جاريا على قاعدة الترجيح بلا مرجح من أى ضرب كان .

ومن أغرب ما رأيناه من ضروب التأويل ما ذكره الشيخ الجرفادقانى فى كتابه (الدرر البهية) فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِى ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ، يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ [1] ، فقال : « إن فيها تعيين محل نزول الموعود ، وتصريحا بأن نداء الرب تعالى يرتفع من الأرض المقدسة أقرب الأراضى إلى الأقطار العربية ، وهى الجزء الغربى من البلاد السورية » . يريد أن فى هذه الآية إشارة إلى عكاء حيث كان يقيم بهاء الله ، وأنه هو المنادى المذكور فيها ، وبداهة العقل تشهد بأن هذه الآية وردت فى يوم القيامة ، كما هو ظاهر لا يحتاج إلى تأويل .

---

(١) سورة ق : ٤١-٤٢ .

يتضح للقارئ مما مر أن الديانة البهائية قد تأسست على العاملين اللذين فرقا الأديان وجعلا أهلها شيعا ، وهما الخوض فى تناول ذات الله بالخيال ، وإطلاق العنان للتأويل بدون ضابط من العقل ، ولا ترجيح من العلم ، ولا مسوغ من اللغة .

طموح البهائية إلى أن تكون دينا عاما للبشر :

إن طموح البهائية إلى أن تكون دينا عاما يدخل فيه الناس على اختلاف جنسياتهم ونحلهم هو مما يقضى بالعجب ، لأنها ليست بدين سماوى ، وليس فيها من الأصول والمبادئ ما يلفت العقول إليها بعد أن بالغت فى عرض نفسها على الأمم . فأين هى من الإسلام الذى بنى أمما قوية ومدنيات فاضلة فى خلال عصور متعاقبة ، ولا يزال على مثل حيويته الأولى حتى ليتوقع فلاسفة كثيرون ومنهم (برناردشو) الفيلسوف الانجليزى المشهور ، على أن مبادئ الإسلام يوشك أن تعم العالم أجمع . فهذه الحيوية القوية الدائمة فى الديانة الإسلامية ، وصلاحيتها لأن تكون دينا عاما للناس كافة ، إنما حصلتا لها بسبب قيامها على حقائق إلهية خالدة :

(**أولاها**) موافقتها للفطرة التى فطر الله الناس عليها .

(**ثانيتها**) اعتمادها على العقل والعلم .

فبموافقتها للفطرة الإنسانية ارتكنت على جملة الغرائز النفسية ، وينبوع قواها المعنوية . ولا يخفى أن هذه الفطرة واحدة فى جميع أفراد النوع البشرى ، وما ترمى إليه من أغراض الوجود لا يتعدد إلا بعارض من التربية الفاسدة ، أو الوراثات الضالة ، ولكن الفطرة خلقت سليمة ، فلا تلبث حتى تستقيم على جادتها ، وتخلع كل ما صبغت به قهرا من الصبغ الوقتية ، فمصيرها محتوم ومتعين ، وهو الوحدة العامة ، فلا مناص من أن الدين الذى يقوم على الفطرة الإلهية هو الذى سيكون له السيادة العامة حتما .

وباعتماد الديانة الإسلامية على العقل الكامل والعلم الصحيح ، قد ضمنت لنفسها العاقبة التى لا مفر للعالم منها ، وهى الإجماع البشرى على أنها الدين الحق الذى لا معدل عنه .

فأنت ترى أن الإسلام قد استجمع جميع العوامل التى تضمن له التعميم والخلود ، وترد إليه الخلائق محفوزة بغرائزها الفطرية ، وبقوى الوجود التى تتولى الإنسانية .

فأين البهائية من هذا الموقف العلمى الحق ، وهى تقوم على أصلين ، أحدهما عتيق غامض ، قال به أفراد من محبى السبْح فى الخيالات فى كل زمان ومكان ، و لم تصادف مذاهبهم إلا إعراضا ونفورا ، وهو تصوير ذات الله بصور المخلوقين . تعالى الله عما يقوله المبطلون علوا كبيرا ، وثانيهما وهو صرف الألفاظ عن ظواهرها مجال فسيح للظنون والأوهام والخبط ، قامت عليه فرق قبلها وجلت عن الأرض و لم تخلف أثرا .

ليس العالم فى حاجة إلى البهائية :

إن من يستقرى أدوار التطورات العقلية ، والنظم الاجتماعية ، والديانات السماوية يجد أن كل تجديد فى هذه المجالات نشأ عن حاجة ماسة إليه من الشعوب والأمم ، وأن كل نجاح يصيبه دين من الأديان أو نظام من النظم يكون يكون مناسبا للقدر الذى يحمله إلى الناس من الوفاء بتلك الحاجات ، فقد نشأت الفلسفات والمذاهب متعاقبة ، فكان كل متأخر منها يكمل نقصا فى سابقه ، وجرت النظم الاجتماعية على هذا السمت نفسه ، فكان منها سلسلة متتالية الحلقات تسد كلُّ تالية منها خلة فى سابقتها .

وعلى هذا التدرج الطبيعى المطرد تتابعت الديانات على الإنسانية ، فكانت كل واحدة منها تحمل للعالم نظاما جديدا دعت الحاجة إليه ، واقتضته الضرورة ، ناسخة ما بطلت الحاجة إليه ، أو ما كانت ضرورته محلية ، وتزيد على ذلك بيان ما أخطأ البشر فى فهمه من الوحى السابق عليها ، أو تصحيح ما تعمدوه من تحريفه .

فمن يتأمل فى الأديان السماوية الثلاثة التى محص العلم تاريخها ، وهى اليهودية والنصرانية والإسلامية ، يجد هذه التجديدات المتعاقبة ماثلة فيها مثولا محسوسا . فموسى عليه السلام قضى على الوثنية فى أمته ، وجاء بشريعة هادمة لها ، وكافح الضلالات التى كان يقول بها قومه كفاحا شديدا ، وبيّن أخطاءهم فيها بيانا صريحا .

وعيسى عليه السلام أرسل لتعديل ما اعوج من أمر بنى إسرائيل ، وتصحيح ما تحرف من أصولهم ، مقررا أصولا جديدة دعت إليها ضرورة الاجتماع على عهده . ومحمد ﷺ خاتم المرسلين قضى على الوثنية التى كانت سائدة فى بيئته ، وتصدى لليهودية والنصرانية ، فرد أصولهما إلى حقائقها ، وقوّم نظر الآخذين بهما ، ونسخ ما بطلت الحاجة إليه منهما ، ودعا العالم كله إلى وحدة الدين ، ووحدة الوجهة والغاية ، مؤسسا دعوته هذه على أصل لا يمكن أن يختلف فيه عاقلان ، وهو : أن الله واحد ، ودينه لجميع خلقه واحد . فإن آنس ناقد أن الأديان متخالفة ، فإنما حدث ذلك من فعل قادتها ، والقائمين بشرحها وتأويلها ، فطالب كل آخذ بها ، بالرجوع إلى أصلها ، وأصلها هو الإسلام الذى أوحى إلى كل الرسل السابقين ، ثم إلى خاتمهم محمد على فترة منهم . وشفع هذا البيان الحاسم بنظام اجتماعى محكم ، أقامه على الفطرة والعقل والعلم والأعلام الكونية . وأودع ذلك كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فهل العالم بعد هذا البيان فى حاجة إلى البهائية ؟ ما هى الأصول التى تسمح لها أن تطمح إلى قيادة العالم كله ، وأن تقر بها السلام العام فى الأرض ؟

هى ما تحلم به من أنها تفسر غوامض المسائل الدينية ، وتوفق بين نصوصها الكتابية من طريق صرفها عن ظواهرها ، زاعمة أنها ترمى بذلك إلى ربط الأمم برابطة أخوية مجردة عن الخلافات المذهبية . وقد رأيت أثر هذا الأصل فى إفساد كيان الأديان وصرفها عن حقائقها الأولية .

هل آتت البهائية العالم أصولا جديدة :

تدعى البهائية أنها آتت العالم بجديد من الأصول لم يدر فى خلد المصلحين قبلها ، كاتحاد الأديان ، وترك التعصبات ، واتحاد الأجناس ، ومساواة المرأة بالرجل ، والسلام العام ، متذرعين بذلك إلى القول بأن القرآن ليس ختام الوحى السماوى ، وأن النبى ﷺ وإن كان آخر المرسلين إلا أنه ليس المظهر الأكمل لله تعالى ، وهى المنزلة التى حُفظت فى زعمهم لبهاء الله وحده ، وأن الإسلام ليس بالدين العام الأخير ، فهذا الوصف لا ينصرف فى وهمهم إلا على البهائية دون سواها .

كل هذا ليس بحق ، وليس عليه مسحة من علم ، ولا عبقة من عدل .

فأما ما سموه باتحاد الأديان فقد سبق إليه الإسلام وأسسه على أقوى الأصول ، وحاطه بأحكم الدلائل ، فقرر أن أصل الأديان كلها واحد ، وأن الخلافات التى بينها ما حدثت إلا بسبب ما أدخله قادتها عليها من الأضاليل والأوهام ، فقد قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا ، وَٱلَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا ٱلْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ * فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ (أى لا محاجة ولا خصومة) ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * قُلْ آمَنَّا بِٱللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ (٣) .

فالإسلام يفرض على أهله القول بوحدة الدين فرضا ، ويأمرهم بالاعتقاد بجميع الرسل من غير تفريق بينهم ، جاعلا القول بهذه الوحدة أساسا للدين الحق ، لا يقبل إيمان يقوم على أساس غيره ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ

---

(١) سورة الشورى : ١٣–١٥ .

(٢) سورة آل عمران : ٨٣–٨٤ .

(٣) سورة الأنعام : ١٥٩ .

وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ حَقًّا ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (١) .

فوحدة الدين كما ترى هى الأساس الذى يقوم عليه الإسلام ، والإيمان بجميع الرسل والكتب السماوية شرط أولى فيه مع فارق كبير بينه وبين البهائية ، وهو أنه مع تأسسه على وحدة الدين ، يبين الأسباب التى ولدت من هذه الوحدة تعددا ، وهى ما دسّه قادة الدين فيه من ضلالاتهم وخزعبلاتهم ، ثم يكر عليها بالنقض والتجريح ، على طريقة التمحيص العلمى الصحيح ، لا كما تفعل البهائية من تكلف تأويل كل هذه الضلالات التى ثبت علميا أنها من مولدات الأوهام فى عصور الطفولة البشرية .

أما ترك التعصبات ، فإن كان المراد منه التعصبات الجاهلية التى تحمل على اضطهاد المخالفين فى الدين ، فهذا قد سبق إلى تقريره الإسلام ، وعمل به أهله ، مما أصبح مضرب الأمثال ، فقال تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (٢) .

ولكن ليس من التسامح فى شىء أن تقول للناس وهم يختلفون فى النظر ، ويتفاوتون فى الفهم ، ويتباينون فى التمحيص : إنكم كلكم على الحق ، وإن ما تتخالفون فيه له عندى وجوه من التأويل ، فاثبتوا على ما أنتم عليه منها ، فإنه يؤديكم جميعا إلى غاية واحدة ؛ ولكن الإصلاح كل الإصلاح أن تبين الحق عند أى فريق كان ، وتؤيده ، وأن تنقد الباطل وتدحضه وتحذر منه ، وأن تبتعد فيما أنت بسبيله عن تأويل الوساوس لتعيرها مظهرا من الحق ، فإنها بذلك تصبح أفتك لأهلها ، وأضل لهم ، مما كانت عليه مجردة من الزخارف الكلامية .

هذا ما نفهمه ، وما فهمه الناس قديما ، وما يفهمه أهل البصر حديثا ، وليس

---

(١) سورة النساء : ١٥٠-١٥١ .

(٢) سورة الممتحنة : ٨ .

وراءه مذهب ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَالُ ﴾ (١) .

أما اتحاد الأجناس فإن الإسلام سبق العالم كافة إلى الدعوة إليه ، وأيده بالدلائل العلمية التى لا تقبل الدحض ، فقال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٢) . وقال ﷺ : « إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح ، كلكم من آدم وآدم من تراب » . وقد جرى العمل فى العالم الإسلامى على هذا الأصل منذ صدره الأول إلى اليوم ، فالبهائية قد تأخرت فيه عن الإسلام نحو ثلاثة عشر قرنا .

أما مساواة المرأة بالرجل ، فإن كانت فى الحقوق الطبيعية والمدنية والشرعية والعلمية ، فإن الإسلام قد بلغ من كل ذلك المدى الذى ليس بعده مطمح ، فاعتبر المرأة إنسانا حرا لها أن تتصرف فى ممتلكاتها وأموالها بدون توقف تنفيذ إرادتها على إرادة زوجها ، وهو ما لم تصل إليه المرأة الغربية بعد ، وأن تعامل أمام القضاء بما يعامَل به الرجل على قدم المساواة ، وأن تطلب من العلم ما تطمح همتها إليه دون حجر ولا تحديد ، وأن تحضر الصلوات فى المساجد ، وأن تشهد الأمور العامة للمسلمين ، وأن تبدى رأيها فيها ، ، وأن تعلّم الناس إن بلغت مرتبة التعليم ، وأن تفتى فى المعاضل . وزادت الشريعة الإسلامية فى العناية بها ، ففرضت على أبيها ثم على زوجها أن يكفياها الكد لنيل العيش ، فإن لم يكن لها أب ولا زوج وجب على أقاربها القيام بذلك ، فإن تجردت من كل قرابة وجب على بيت المال أن يسد عنها هذه الخلة .

نعم إن الإسلام جعل نصيبها من الميراث النصف مما للذكور ، ولكن لم يكن منه ذلك احتقارا لشأنها ، بل لأنه لم يكلفها السعى لتحصيل قوتها .

فإذا أريد بالمساواة أن يُلقَى حبلها على غاربها ، وأن تتبرج تبرج الجاهلية ، طائفة الشوارع ، وغاشية الأسواق لفتنة الرجال ، فإن الإسلام لا يسمح لها بذلك

---

(١) سورة يونس : ٣٢ .

(٢) سورة الحجرات : ١٣ .

ولا يعده من الإكبار لها ، بل إنه قد حرم ذلك على الرجال أيضا . وأنت ترى أن أوروبا تجنى اليوم الشر المستطير الناجم من هذه الإباحة ، وتعمل جاهدة على تلافى مضارها .

بقيت مسألة السلام العام بين الأمم ، وفيها نقول :

لا يجوز أن يتحدث متحدث عن السلام العام إلا بعد أن يدقق البحث فى الحوائل التى تحول دونه ، ليعرف ما هو منها متأصل فى طبائع البشر ، وما هو عارض من عوارض طبيعة العمران ، وما هو ناشئ من تأثير التربية ، وما هو صادر من التقاليد الوراثية للجماعات ، وما هو مبنى على حاجات اقتصادية قاهرة إلخ إلخ ، ليعالج ما يقبل العلاج منها ، ويترك ما لا يقبله إلى التطورات المقبلة . هذا إذا أراد الداعى إلى السلام العام أن لا تكون دعوته كلمة جوفاء تجوب الجواء ولا تحدث أثرا ، كما حصل فى كل زمان ومكان .

وفى رأينا أنه لا يجوز الكلام فى السلام العام قبل أن يتوطد السلام الخاص لكل أمة بين آحادها ، فإننا نرى حروبا ومعارك تشب نيرانها بين طبقات الأمة الواحدة فيسفك بعضها دماء بعض تحت اسم ثورات أهلية ، أو انقلابات اجتماعية ، أو اعتصابات اقتصادية . بل نرى ما هو أخص من ذلك من العدوانات الفردية ، فيقتتل الآحاد لأقل الأمور شأنا ، أو لمجرد النهب والسلب ، وإشباعا للشهوات البهيمية ، وتضطر الحكومات إزاء هذه الحالات أن تتخذ جنودا مسلحين للضرب على أيدى المعتدين .

فإذا كانت الحرب تشب بين آحاد ذوى قومية واحدة ، ودين واحد ، رغما عن النظم التى تتذرع بها الحكومة لقيادتهم ، ورغماً عن المواعظ التى تلقى عليهم ، والآداب التى لُقنوها فى طفولتهم ، فهل يطمع طامع أن يوجِد سلاما عاما بين أمم من قوميات متخالفة ، وقوى متباينة ، وهى تحت تأثير عوامل وبواعث من كل ضرب ؟

فإذا كانت البهائية تكتفى من التحكك بمبدأ السلام العام ، بمجرد الدعوة إليه ، فلها ما أرادت ، ولكنها تكون منها على حد ما سبقها وما تلاها من الطوائف والجمعيات الكثيرة .

نظر الإسلام على عادته فى كل شأن خطير إلى هذه المسألة من أخفى نواحيها ، وأتى بالقول الفصل فيها .

فقرر أولاً الأصل الطبيعى الذى تقوم عليه الجماعات فى وحداتها ، وفى مجموعها ، وهو الأصل الذى يكفل بقاءها ، ويضمن إستمرارها ، وينفى العوامل المفسدة عن كيانها ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ (١) .

نعم : لفسدت الأرض ، ألا ترى أن الله يدفع بالحكومة عدوان العادين على نظمها المقررة ، وعلى الآحاد الوادعين منها ؟ ولولا ذلك لحلت الفوضى ، وتغلب أقوياؤها على ضعفائها وسلبوهم ما بأيديهم ، فيفسد كيانها ، وتنحل ربطها ، وتجلو عن سطح الأرض .

ولولا أن الأمم قد أُلهمت أن تستعد لرد المغيرين عليها ، ودفع الطامعين فيها ، لانحلت عراها ، وتفرق آحادها ، ولم يبق لها وجود بين الأمم .

فهل كان يراد من الإسلام أن يخالف فى ذلك السنن الاجتماعية ليُقضى عليه وليدا فى مهده ، قبل أن يؤدى للعالم الخدم المنتظرة منه ؟

ألا تعجب أن البهائية نفسها لجأت فى آخر عهدها ببلادها إلى التحاكم إلى السيف ، فابتنى أشياعها حصنا لهم فى مازندران وأصْلوا جيوش الحكومة نارا حامية ، ثم اعتراهم الوهن فأخذتهم الأسنة من كل مكان ، حتى لم تبق لهم دعوة علنية فى عقر بلادهم .

فإذا كان الذين يفخرون بأنهم يَدعون إلى السلام العام اضطروا إلى الْلجْأ إلى الحرب ، أليس هذا دليلا محسوسا على أن هذه الوسيلة لا تزال من حاجيات الحياة الاجتماعية ، وأن الضرورة قد تدفع إليها فلا يكون بد منها ، وقد شرعت فى الإسلام للدفاع عن الحوزة وحماية الدعوة : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة البقرة : ٢٥١ .

(٢) سورة الحج : ٣٩ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [١] .

خاتمة :

يتبين مما مر أن البهائية لا تصلح أن تكون دينا قائما بنفسه ، ولا إصلاحا فى دين سابق عليها ، بله أن تكون دينا عاما للبشر كافة .

فأما وجه عدم صلاحيتها لأن تكون دينا قائما بنفسه ، فقد سبق بيانه .

وأما وجه عدم صلاحيتها أن تكون إصلاحا فى دين سابق عليها كالبوذية فى البرهمية ، وكالبروتستانتية فى المسيحية ، فلأنها لم تتصد لدين واحد لتقويم نظر أهله فيه ، وتعديل عوجهم فى فهمه ، ولكنها تناولت الأديان جملة محاولة التوحيد بينها ، على ما فى غالبها من التحريفات الظاهرة ، والآراء الباطلة .

ولكن الإسلام بعد أن أسس بنيانه على الأصول الخالدة التى تذعن إليها الإنسانية ، قرر أن الله سبحانه وتعالى أوحى دين الفطرة هذا إلى رسله فى خلال العصور ، ولكن قادته من بعدهم أخرجوه عن صراطه ، وحرفوا أصوله على ما تصوره لهم أوهامهم . لهذا السبب اختلفت الأديان كل الاختلاف ، فأعاد الله وحى هذا الدين إلى خاتم رسله محمد ﷺ ، ليرد إليه الغالين والمقصرين ، وأمره بأن يبلغ ذلك إلى الأمم كافة ، ففعل .

فهذه الدعوة التى يذعن لها العقل ويؤيدها العلم والفلسفة والتاريخ من كل وجه تصلح أن تعمم بين البشر ، وهى مادة الإسلام ، وصبغته الإلهية التى واجه بها العالم كله .

فإذا كانت الفطرة الإنسانية قد ألهمت أن لابد لها من دين تسكن إليه ، فلا يمكن أن يكون ذلك الدين إلا موافقا لتلك الفطرة ، ولا يجوز أن يكون مخالفا للعقل الذى جعله الله مميزا بين الحق والباطل ، ولا مناقضا للعلم الذى كتب له أن يعم الناس كافة . وقد نقد العقل والعلم كل ما ورد عن الأمم فى دور طفولتها من التقاليد

---

(١) سورة الأنفال : ٦١ .

والموروثات الضالة ، واعتبرها وساوس لا يصح أن تبقى فى عهد الرشد الذى بلغته الإنسانية ، فألقيا بها بعيدا عن مجال النظر . فإذا كان قد بقى فى الناس من يأخذون بتلك الوساوس ، فلن يطول عهدهم فى هذه الطفولة ، ولابد من أن يأتى عليهم حين من الدهر يخضعون فيه تحت تأثير التربية القويمة والثقافة العلمية لمقررات العلم فيجدوا الإسلام عنده .

نحن نعلم أن الذى حدا البهائية إلى سلوك طريقة التأويل إنما هو تألف عامة الشعوب لتسارع إلى الدخول فيها محفوزة بتقاليدها وموروثاتها ، وكان الأولى بها أن تتألف العقل والعلم ، فإنهما دائبان على القضاء على تلك البقايا الطفلية من الأوهام الرثة ، وقد لا يمضى قرن أو قرنان حتى لا يبقى لهذه الأوهام أثر فى عقلية الجماعات الإنسانية . فإلى أية حال يؤول أمر البهائية يومئذ ؟ لاشك فى أنها تؤول إلى التلاشى الذى لا قيام لها بعده .

فالدين العام كما ترى هو الذى يكون بطبيعته وجوهره مشايعا لأدوار رق العقل السليم ، ومنتهيا معها إلى حيث تنتهى من درجات الكمال المنتظر من إدراك الحق مجردا من كل صبغة بشرية ، أو نزغة وهمية ، يوم لا تبقى إلا صبغة الله وحده ، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ﴾ [1] ؟ وهذا الوصف ينطبق على الإسلام وحده كما رأيت ، سواء أكان من ناحية طريقته الإصلاحية فى تطهير النفوس ، وإحياء القلوب ، أم من ناحية أسلوبه فى مسايرة العلم والفلسفة إلى غاياتهما .

فالمآل للإسلام حتما مقضيا ، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك فقال : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ ، وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [2] .

وقد اعتقد هذا المصير كثير من الأجانب عن الإسلام ، فقال المؤرخ الإنجليزى الكبير بوسورث سميث فى كتابه (محمد والديانة المحمدية) : « إنه سيأتى يوم تعترف

---

(١) سورة البقرة : ١٣٨ .

(٢) سورة آل عمران : ٨٣ .

فيه أدق فلسفة ، وأخلص مسيحية بأن محمدا رسول الله حقا » .

يستخلص مما مر كله أن البشرية ليست فى حاجة إلى دين جديد بعد الإسلام ، فإنه استكمل جميع شرائط الدين العام ، وقام على نفس الدرب الذى تسلكه العقول للوصول إلى الحقائق الخالدة . وقد أعلن كتابه أن آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس ستكشف للناس بالدلائل القاطعة أنه الحق ، فيجمعون على الأخذ به ، والانضواء تحت علمه ، فقال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [١] [*] .

* * *

(١) سورة فصلت : ٥٣ .

(*) مجلة الأزهر : المجلد الخامس ، الجزء الثانى ، سنة ١٣٥٣ هـ . (صفحة ١١١) .

القاديانية فى الهند

القاديانية من النحل الهندية ، تقول بنبوة رجل من مدينة قاديان اسمه غلام أحمد ، ادعى أن الله كان يوحى إليه بكل الطرق التى كان يوحى بها إلى أنبيائه ، وأنه مسيح الأمة الإسلامية كما كان عيسى مسيح الأمة الموسوية ، وأن رسالته عامة للناس كافة .

ولد غلام أحمد سنة (١٢٥٢ هـ) فتعلم العربية وتلقى النحو والمنطق والفلسفة وقرأ القرآن واطلع على العلوم الدينية . ثم تقلد وظيفة فى إدارة نائب الملك فى بلاده مدة أربع سنين ، ثم استقال ولحق بأبيه .

وفى سنة (١٨٧٦) زعم غلام أحمد أنه ينزل عليه الوحى ، فأنكر عليه علماء بلده هذه الدعوى وشددوا عليه النكير ، فرحل إلى لودهيانه وأذاع بيانا ادعى فيه أنه المسيح المنتظر ، فأثار سخط العلماء ، وأخذوا يتعقبون مزاعمه بالرد .

ثم شخص إلى لاهور ودهلى ناشرا مذهبه .

ولما عاد إلى بلدته بنى بها مسجدا خاصا بشيعته ، ومدرسة لتعليم أبنائهم ومدرسة أخرى لتخريج الدعاة إلى مذهبه . وأسس جريدة سماها (الأديان) لنشر دعوته كان يكتب بعض فصولها بقلمه . ولما كان بلاهور فى سنة (١٣٢٦ هـ) أدركته الوفاة بها ، فانتخب أتباعه لخلافته حكيم نور الدين ، ولما توفى سنة (١٩١٤) اختير للرياسة بشير الدين محمود بن غلام أحمد نفسه ، وهو القائم بأمر هذه النحلة إلى اليوم .

أخذ بالقاديانية فى بعض بلاد الهند جماعة عرفوا بولوعهم الشديد لنشر مذهبهم ، فلم يوفقوا فى محاولاتهم ، لأن علماء الهند وقفوا لهم بالمرصاد ، فأبطلوا ما يدلون به إلى الناس بالحجج الدامغة ، فلم يقع فى حبائلهم غير من لا يعتد بهم ، ووقفت القاديانية عند حد لا تتعداه ، وقد مضى على تأسيسها نحو ستين سنة .

وقد تبين بعض رجالهم أن القاديانية ما دامت تصر على القول بنبوة غلام أحمد فلا تجد لها مساغا إلى عقول الناس ، وينتهى أمرها بالتلاشى لا محالة ، فرأوا أن يحذفوا من تعاليمهم أمر هذه النبوة ، وأن يقتصروا على القول بأن غلام أحمد كان مصلحا لا نبيا ، فانقسمت القاديانية إلى طائفتين : فطائفة قاديان بقوا على ما كانوا عليه من إثبات النبوة لغلام أحمد ، وطائفة لاهور رفضوا التسليم بهذه النبوة ، فكان عملهم هذا دليلا محسوسا على فساد مذهبهم ، فإن القاديانية إذا رفع منها القول بنبوة غلام أحمد لم يبق هناك معنى لأن ينتسب إليها منتسب وهو يرفض القول بالأصل الأول فيها ، ففى ذلك تكذيب ضمنى لمؤسسها ، فإنه دعا إلى الإيمان برسالته فى كل كتاب نشره ، وماذا يكون جواب المدافع عن هذه الطائفة إذا قال لهم قائل : أى ضرب من المؤمنين أنتم ! يقول صاحبكم إنه نبى ورسالته عامة ، فتقولون أنتم : لا ، إنه كان مصلحا فحسب ولم يك نبيا ؟

وإذا كانت هذه الطائفة تتظاهر بالقول بأن زعيمها كان مصلحا فحسب هربا من مصادمة العقول ، وإعوازا من الدليل المقنع ، وكانت مع هذا تبطن العقيدة بنبوته ، فلاشك أن ذلك يعتبر من أقوى الأدلة على وهن أساسها ، وهو اعتراف ضمنى بأن القاديانية على ما دعا إليه مؤسسها لا تصلح أن يصارَح بها الناس إلا بعد هدم أساسها ، وإيتائهم بها فى صورة غير صورتها .

ولما كان غلام أحمد يدعى أنه رسول الله وأن رسالته عامة ، فلابد لنا من ذكر مقتضيات الرسالات الخاصة والرسالة العامة ومميزاتهما ليعرف الناس وجوه الضلال فى أمثال هذه المزاعم .

مقتضيات الرسالات الخاصة والرسالة العامة ومميزاتهما :

جرت سنة الله تعالى أن يرسل إلى الناس رسلا لهدايتهم إلى طريق الحق ، وإرشادهم إلى أصول الحياة الفاضلة ، فصحبت رسالة كل واحد منهم انقلابات اجتماعية خطيرة ، وحوادث تطورية كبيرة ، تجاوبت بأصداء حركاتها أرجاء الأرض . ولست أصعد بالقارئ إلى العهود البعيدة للتاريخ فأكتفى بما يعرفه الناس جميعا منها ، وبما أصبح من المقررات التاريخية التى لا يختلف فيها اثنان ، فأقول :

أرسل الله موسى عليه السلام لإنقاذ بنى إسرائيل من أسر فراعنة مصر ، فقد كانوا استضعفوهم إلى حد أن أرهقوهم فى الأعمال الشاقة ، غير مبالين بما ينالهم من عنت وهلاك ، ثم زادوهم عسفا فشرعوا يقتلون ذكورهم ويستبقون إناثهم ، فنالهم من جراء ذلك بلاء عظيم . فكان خلاص بنى إسرائيل فاتحة لحياتهم حياة دولية ، فاستعمروا الأرض المقدسة وأسسوا لهم فيها ملكا ومدنية كان لهما شأن كبير . وهذه كلها حوادث وانقلابات تقتضى إرسال رسول من أولى العزم ، ليستطيع بما أوتيه من الآيات ، وما أُيِّد به من الوحى أن يحدث حدثا اجتماعيا خطيرا ما كان ليستطيعه مصلح أو مليك .

وأرسل الله عيسى عليه السلام إلى بنى إسرائيل ليدلهم على ما بدلوه من دينهم ، وما حرفوه من أصوله ، فكان مجيئه فاتحة عهد جديد ، فقد نهض أتباعه ينشرون أصول دينه فى الجماهير ، غير آبهين بما نالهم من اضطهاد وتشريد ، وعذاب شديد ، فاهتدى على أيديهم رجال كانوا نواة لانقلاب خطير فى الدولة الرومانية إذا انتقلت من وثنيتها الأولى إلى المسيحية .

وأرسل الله محمدا ﷺ برسالة عامة إلى العالم كافة ، فى عهد كانت فيه الأمم فى حالة من العبودية للأقوياء ، والطاعة العمياء للأوصياء ، والتدهور المخجل فى الأخلاق والآداب ، بحيث كانوا فى حاجة إلى نور ساطع من السماء يمزق ما تلبد على القلوب من كِسَف الظلام ، وما أسدل على العقول من حجب الأوهام .

فكانت الحاجة ماسة إلى نزول وحى يرفع الخلاف بين الشعوب ، ويحل كثيرا من القيود التى فرضتها تلك الخلافات على بعضها حيال البعض الآخر ، وينبهها إلى أن أديانها كلها أصلها واحد ، وإنما اختلفت فيما بينها بما دسه قادتها إليها مما ليس منها ، وأن الرجوع إلى ذلك الأصل لابد منه لتخليص الدين مما يشوبه من أهواء البشر ، ولأن مصلحة الأمم تقتضى وحدة الوجهة ووحدة الغاية .

فكان ما أراده الله ، وكان من أمر النبى ﷺ وأمر الإسلام ما كان مما يعلمه الخاص والعام ، ولا تزال دعوة القرآن تدوى فى أرجاء الأرض يسمعها الناس فى كل مكان فيلبيها عشرات الألوف منهم فى كل سنة ، حتى قال برناردشو الفيلسوف

الانجليزى المشهور : إنه لن يمضى قرنان حتى يكون الإسلام قد عم أوروبا من شرقها إلى غربها . وإذا كان هذا مصير أوروبا وهى فى طليعة الأمم علما ومدنية ، فماذا يكون مصير القارات الأربع الباقية ، وهل يحتاج الإسلام فيها إلى جهاد قرنين وهو يسرى فيها بسرعة تفوق كل تقدير ؟

فهذه رسالة عامة ، وتلك مميزاتها وآثارها ، فأين منها ما يدعيه غلام أحمد لنفسه من المزاعم الباطلة ؟ وقد مضت على دعوته ستون سنة فلم يلبها إلا أفراد من السذج ، وأمثال هؤلاء كثيرون فى كل زمان ومكان ، فما ادعى النبوة أحد إلا اتبعه من هؤلاء نفر لبثوا معه حتى مات ، ثم تفرقوا أو بقوا على ضلالتهم ، ثم أورثوها ذريتهم جيلا فجيلا ، وهذا هو علة وجود جميع الأديان الباطلة فى الأرض إلى اليوم .

نزاع القاديانية فى ختام النبوة :

لقد تجشم غلام أحمد جهدا جهيدا لكى يثبت أنه نبى ، فاصطدم بالنص القرآنى الدال على أن النبى ﷺ خاتم النبيين وأنه لا نبى بعده ، وأتى فى هذا الباب بما لا يعقل من ضروب التأويل والتحريف . فزعم أن ما جاء فى القرآن الكريم عن النبى ﷺ من أنه خاتم المرسلين ليس معناه أنه آخرهم ، ولكن معناه أنه حليتهم ، فعنده أن كلمة (خاتم) ليست واردة فى الكتاب الكريم بمعنى آخر القوم ولكن بمعنى حلية الأصبع المعروفة ، فيكون فى الكلام مجاز . يقول هذا ويغفل عن أن هذا التعبير ساقط يتنزه القرآن عن مثله . ولو قال قائل لأحد الناس يمدحه : أنت خاتم قومك ، مكان أنت حليتهم ، لعد كلامهم ساقطا بل غير مفهوم على الإطلاق ، والكلام الإلهى يتنزه عن مثل هذا السقط .

هذا إلى ما ثبت من السنة المتواترة من أنه لا نبى بعد محمد ﷺ وقام شاهد العيان على صحة ذلك ، فلم يرسل الله فى هذه الأربعة العشر قرنا الماضية رسولا إلى قوم من الأقوام ، بَلْهَ رسولا عاما للبشر كافة .

إن غلام أحمد حصر كل جهوده فى إثبات رسالته وإحاطة نفسه بالنعوت والألقاب الفخمة ، معتقدا أن هذا كاف لإدراكه الغرض الذى رمى إليه فى بيئة كبيئته ،

فإن الجاذب الوحيد للدهماء التى تسارع إلى قبول أية دعوة هى هذه الألقاب الفخمة والنعوت المبالغ فيها التى ينتحلها الداعى لنفسه ، فكلما دخل فى روع الأتباع أن صاحبهم متناه فى السمو ، وأنه مكين فى الملأ الأعلى ، بالغ أتباعه فى التحمس له ، وزادوه سموا ومكانة حتى يبلغوا به درجة الألوهية ، غير فاحصين عما جاء به : أهو غث أم ثمين .

هذا شأن الدهماء قديما وحديثا ، وأمامنا فرق ومذاهب لا تعد ولا تحصى لو نقدتها لوجدت أكثرها يعتزى إلى أصل غير أصيل ، أو قائما على أوهام اكتسبت بطول الزمن سلطانا على الجماهير . فالقاديانية تبقى ما بقيت عقلية الآخذين بها فى الحد الذى هى فيه ، فإن تجاوزته إلى التبصر والاهتداء بالمنطق والحجة والبرهان ، تركت هذا المذهب وراءها كحلم من أحلام طفولتها ، وألقت به إلى عالم الأساطير (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الخامس ، الجزء العاشر ، سنة ١٣٥٣ هـ . (صفحة ٦٦٤) .

فهرس الكتاب

الرقم	الموضوع	المصدر
١٧١	قضية الأخلاق والإنسانية	مجلة الأزهر المجلد الثالث عشر ص ٣٨٦ سنة ١٣٦١هـ
١٧٥	أثر العبادة فى حياة المسلمين الاجتماعية	« « المجلد الخامس ص ٢٣١ سنة ١٣٥٣هـ
١٨١	رمضان شهر الصيام	« « المجلد العاشر ص ٦٩٠ سنة ١٣٥٨هـ
١٨٩	حكمة الصيام فى الإسلام	« « المجلد الثالث عشر ص ٥٦١ سنة ١٣٦١هـ
١٩٣	الصيام فى نظر العلم	« « المجلد التاسع ص ٥٧٠ سنة ١٣٥٧هـ
١٩٧	وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالحَجِّ	« « المجلد السادس ص ٧١٥ سنة ١٣٥٤هـ
٢٠٣	القصص فى القرآن	« « المجلد التاسع عشر ص ٨ سنة ١٣٦٧هـ

ب – القسم الثانى – الدين

الرقم	الموضوع	المصدر
٢٠٩	حاجة الناس إلى الدين	« « المجلد الثالث عشر ص ١٣١ سنة ١٣٦١هـ
٢١٥	منطق الدين (١)	« « المجلد العاشر ص ١٤٦ سنة ١٣٥٨هـ
٢٢٣	منطق الدين (٢)	« « المجلد العاشر ص ٢١٠ سنة ١٣٥٨هـ
٢٣١	منطق الدين (٣)	« « المجلد العاشر ص ٢٩١ سنة ١٣٥٨هـ
٢٤٥	كيف نحافظ على الدين	« « المجلد الثالث عشر ص ١٢ سنة ١٣٦١هـ
٢٥٥	الدفاع عن الدين فى هذا العصر	« « المجلد الثالث عشر ص ٢٤٦ سنة ١٣٦١هـ
٢٦١	أكبر أسباب الخلاف بين أصحاب الأديان	« « المجلد التاسع ص ٤٧٠ سنة ١٣٥٧هـ
٢٦٧	الشبهات العلمية على الأديان	« « المجلد التاسع ص ٥٠٥ سنة ١٣٥٧هـ
٢٧٥	الإيمان بما فوق الطبيعة	« « المجلد التاسع عشر ص ٣٨٥ سنة ١٣٦٧هـ
٢٨٣	وحدة الأمم ووحدة الأديان	« « المجلد الحادى والعشرون ص ٢٩٢ سنة ١٣٦٩هـ
٢٨٧	العالم يجب أن تتعارف شعوبه	« « المجلد الثامن عشر ص ٦٠٥ سنة ١٣٦٦هـ
٢٩١	الدفاع عن الأخلاق الصالحة	« « المجلد الثالث عشر ص ٤٣٣ سنة ١٣٦١هـ
٢٩٧	الحاجات الإنسانية	« « المجلد التاسع ص ٣٥١ سنة ١٣٥٧هـ

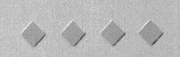
* * *

تم بحمد الله

رقم الإيداع : ٩٤٥٨ / ٢٠٠٠

I.S.B.N: 977 - 01 - 6710 - X





هـذا هـو العـام السابـع من عمـر «مكتبـة الأسـرة» ..
ومنذ سنوات طـوال لم يلتف النـاس حـول مشـروع ثقافى
كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقـافى الضخـم حتى
أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام.
واستجبنـا لهـذا المطلب الجماهيـرى العـزيـز إيمـانًا منـا
بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها: فى
إعـادة صيـاغة وتشكيـل وجـدان الأمـة واستعـادة دورهـا
الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبـة الأسـرة» .. أن تعيـد الـروح إلى
الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافـة فى زمـن الإبهـارات
التكنـولوجيـة المعاصـرة.. وهـا نحـن نحتفـل ببـدء العـام
السابـع من عُمـر هـذه المكتبـة التى أصـدرت (١٧٠٠)
عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليـون نسخة» تحتضنهـا الأسـرة
المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتـراثًا لايبلى من أجـل
حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطـن
ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك



٣٠٠
قرش

